الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية.
قسم التاريخ .

رقم التسجيل .....
الرقم التسلسلي .....

التطور التاريخي المدينة بالمغرب الأوسط

من النصف الثاني من القرن الأول الهجري إلى القرن الخامس الهجري

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ وحضارة المغرب الأوسط

من إعداد الطالب :
الطاهر الطويل .

تحت إشراف الدكتور :
محمد فرقاني .

أعضاء لجنة المناقشة	الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	عبد العزيز فيلالي	أستاذ محاضر	جامعة منتوري قسنطينة
المشرف	محمد فرقاني	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
العضو	بحاز ابراهيم	أستاذ محاضر	جامعة منتوري قسنطينة
العضو	علاوة عمارة	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

السنة الجامعية

1428 1429هـ / 2007 2008م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إهداء و تشكر

إلى الوالد الكريم.

المدرسة الأولى، والقدوة في العمل والجد .

الى الوالدة الكريمة، أطال الله عمرهما ...

إلى براءة أسماء وأسامة ... !

أهدي عملي .

و أقدم كل الشكر و التقدير و الاعتراف بالجميل للأستاذ المشرف محمد فرقاني .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحـــسان إلى يوم الدين .

يعتبر التاريخ دون إنجازات عمرانية تاريخا ناقصا ولا شك. إذ يشكل العمران أحد الشواهد المادية والعينية التي تتضمن ما تركه السلف من منشآت عمرانية تتعلق بالمدن التي استقر فيها، هذه المـــدن الـــتي تشكل نتاجا لتطور المجتمع الذي لا يمكن فصله عن السياق التاريخي الذي تشكلت فيه المدن وتطـــورت ؛ ولا بد من الوقوف عند مصطلح التطور كمفهوم لا يعني النمو. ففي معجم العلوم الاجتماعية جاء مفهوم التطور أنه : تغير موجه في الأشياء المادية أو المثالية وله صيغتان : ارتقـــائي Evolutionary تـــدريجي ، وثوري Revolutionary سريع وقد يكون تقدميا أو رجعيا. وهو بالتالي نمو تدريجي بطـــيء وكمـــي، ويقابله الثورة كتحول سريع ونوعي .

والمدينة وتطورها التاريخي كغيرها من المواضيع التي لا ينفرد علما خاصا بذاته لدراسته ، بل هـــي موضوع متعدد المداخل المعرفية ، فالمدينة نجدها موضوع دراسات جغرافية ، واجتماعيـــة ، واقتـــصادية، وسياسية، وأثرية، وغيرها كثير. أما التطور التاريخي للمدن فهو يشكل محصلة كل هذه الدراسات، لذلك فكثيرا ما نجد تداخلا بين مختلف هذه العلوم وتكاملا فيما بينها لدراسة المدينة.

فالدراسة التاريخية تستلزم حتما الاستفادة من هذه التخصصات لتفيدنا بأبرز خصائص المدن حتى نتمكن من معرفة المراحل التي عرفتها مدينة معينة والتغيرات التي شهدتها في مختلف مراحل تطورها .

من هذا المنطلق اخترنا دراسة المدينة بالمغرب الأوسط من حيث الظروف التي أحاطت بتأسيسها ، وأسباب ازدهار نشاطها ، ثم تطور هذه المدن والدور الذي لعبته والوقوف على أسباب تراجع المدن واندثار بعضها ، محاولين إيجاد تفسير لذلك من خلال الاستعانة بمختلف المصادر التاريخية الموجودة ، والتي سمحت لنا بجمع المادة التاريخية لنكون صورة عن فترة حاسمة لبلاد المغرب الأوسط ، ورغم قلة هذه المصادر فإننا نحـــاول إيجاد تصور ولو محدود على الخارطة العمرانية لبلاد المغرب الأوسط ، والذي شكلت فيه المدن كغيره من بلاد العالم الإسلامي الأخرى محور التحول الحضاري الكبير الذي حدث بعد استقرار المسلمين الفاتحين به ، وهو ما يسمح لنا بمعرفة ما أضافه المسلمون للمدن التي تم فتحها ، وكيف استطاع هؤلاء تكييف هـــذه المدن وفق ما تتطلبه الأحكام الإسلامية . بدءا بالحفاظ على ما وجدوه من مدن وانتهاء بتخطيط المرافـــق الجديدة الخاصة بالمدن الإسلامية والمتعلقة بمركزية المسجد الجامع ودار الإمارة وغيرها من المرافق الأخرى .

وفي هذا الجانب نحاول الإجابة على العديد من التساؤلات التي كانت محل الكثير من الدراســـات ، الـــتي تطرقت لهذا الموضوع .

أما اختيارنا للفترة الزمنية المحددة : من النصف الثاني للقرن الأول الهجري إلى القـــرن الخـــامس ، فمرده إلى بداية تحول طابع عمران المنطقة من النمط الروماني إلى النمط الإسلامي ، إذ نستطيع أن نلمـــس بعد القرن الثاني للهجرة خاصة نمو وتطور العمران والمدن والذي سيبلغ أوجه خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ببلاد المغرب الأوسط .

فخلال تلك الفترة استكمل المغرب الأوسط تشكله التام وأصبح جزءا هاما مـــن بـــلاد العـــالم الإسلامي ، ليس من باب الولاء السياسي فقط ، بل إن الجانب الحضاري كان أهم هذه الـــتغيرات الـــتي حصلت في تلك المرحلة . وقد حاولت التعرف على أوضاع المغرب الأوسط من خلال دراستي للمدينة ، لأقف على ما كان عليه هذا الجزء من العالم الإسلامي من حيوية ونشاط تخص جانب العمران خاصة .

وما شد انتباهي في هذا الجانب ، هو غياب هذا الجزء من الدراسات التي نجدها تتطرق لأوضاع المغـــربين الأقصى والأدنى دون ذكر هذا الفضاء الواسع ، في حين أن جغرافيا المغرب الأوسط تبدو عكس الواقـــع الذي هي عليه ، إذ تتميز بغنى العمران وكثرة المدن المنتشرة في أنحائه .

رغم هذا فالموضوع تتخلله الكثير من الصعوبات أهمها مشكلة انعدام الإحـــصائيات والمعطيـــات الحقيقية أو التقريبية لعدد سكان مدينة معينة أو عاصمة ، ما يدفعنا إلى اللجـــوء للاســـتعانة بأوصـــاف الجغرافيين والرحالة أو غيرها من المصادر الدفينة والتي تمدنا بمعطيات عامة وبصورة شاملة تخص حياة الناس ، وهذا من خلال ذكرهم لمرافق المدينة مثل أحياء المدينة ، وعدد أبوابها وسعتها وأسواقها وعدد مساجدها ودورها التجاري ولعل ذلك يقربنا أكثر للمستوى الذي تكون عليه تلك المدن في غياب النصوص المكتوبة ، حتى أن المدن التي ذكرت في المصادر المتنوعة هي تلك التي كانت لها علاقة بالأحداث السياسية البـــارزة للدول و الكيانات السياسية المختلفة ، أو تلك التي كانت تشكل نقاط عبور رئيسية لتجارة أو أنها أسواق هامة . أما غير هذه فالإشارة إليها عادة ما تكون بصورة عرضية لا أكثر، وهذا ما يزيد من صعوبة البحث في مثل هذه المدن ، ومعرفة مراحل تطورها بدقة ، ويكون الأمر أكثر صعوبة كلما اقتربنا من فترة عمليات الفتح الإسلامي لهذه البلاد ، حيث تندر المصادر الخاصة ببلاد المغرب الأوسط كمجال جغرافي بأكملـــه ، وليس فقط المدن .

لذلك فإن معرفة عملية التحول التي حصلت في أثناء تلك الفترة المبكرة ، وكيف جرت عمليـــة الانتقال من نمط العمران البيزنطي إلى مرحلة ظهور المدن الإسلامية ، وكيف استطاع القادة المـــسلمون ، ومن قبلهم الفاتحون التعامل مع العمران الموجود وتكييفه مع طبيعة الشريعة والأحكام الإسلامية ، وهو ما يسمح لنا بمعرفة الكيفية التي نظمت بها هذه المدن من حيث تخطيط مساجدها وأسواقها ، وكيف كان

نشاط المحتسبين فيها ، إذ لا يمكن بأي شكل من الأشكال ومهما قلت المصادر المعاصـــرة للموضـــوع أن نخضع البحث إلى قوانين نظرية جاهزة أو إلى نظريات ودراسات حديثة على مناطق لا تمت للمنطقة بصلة.

حاولت في هذه الدراسة أن أكون محافظا وموفقا بين المكان والزمان ؛ من خلال تتبع الأحـــداث التاريخية التي جرت ببلاد المغرب الأوسط وعلاقة ذلك بالمدن ، سواء التي أعيـــد بناؤهـــا ، أو المحدثـــة . وحاولت ترتيب الموضوع بما يوافق الأحداث التاريخية ، فالقارئ يجد نفسه أمام الكثير مـــن الأحـــداث التاريخية التي شهدتها المنطقة طيلة الفترة التي أعقبت انتهاء عمليات الفتح الإسلامي وإلى غاية القرن الخامس الهجري ، وفي خلال تلك الأحداث يجد أن المدن كانت محورا رئيسا لهذه الأحداث ؛ ومن خلالها حاولت إعطاء تصور معين عن هذه الفترة المختارة للدراسة .

وإذا كان بتر المراحل التاريخية يدخلنا في متاهة الانتقائية ، فإن تبريري لذلك يكون بمحاولتي إعادة قراءة هذه الفترة الزمنية ، التي أرى أنها تميزت بمجموعة من الأنواع من المدن تختلف عن بعضها الـــبعض ، ويستحق كل نوع من هذه المدن دراسة قائمة بذاتها .

ومن أهم التساؤلات التي شكلت محور دراستي هذه ، تلك التي أثيرت من قبل الدارســـين والـــتي تمحورت حول أعمال الفاتحين المسلمين لبلاد المغرب فيما يتعلق بالمدن التي تم فتحها ، فهل دمر هؤلاء تلك المدن وبنوا فوقها مدنا أخرى إسلامية ؟ أم أنهم واصلوا البناء على المدن التي وجدوها مخربة في السابق ؟ أم أنهم تجنبوا البناء فوق تلك المدن وبنوا بجوارها وبالقرب منها مدنا أخرى إسلامية جديدة ؟

وهل وجدت مدينة إسلامية ببلاد المغرب الأوسط ، يمكننا الحديث عنها ودراستها ، بعد النصف الثاني من القرن الأول للهجرة ؟ وما هي الإضافات التي زادها الفاتحون كمرافق جديدة للمدن ببلاد المغرب الأوسط ؟ وكيف انعكست تشريعات النظم الإسلامية على المدن ؟ وما هي مظاهرها ؟.

هل كانت المدن التي أسسها المسلمين مجرد مكان للتجمع السكاني ؟ أم أنها كانت تمثل وجـــودا سياســـيا واجتماعيا واقتصاديا ، وبالتالي وجود حضاري إسلامي بالمنطقة ؟

وهل كانت هذه المدن ظرفية ارتبطت بظهور دولة تطمح لبسط وإثبات سيطرتها على مكان مـــا ؟ أم أن هناك استمرارية تاريخية لعملية التمدن ، من خلال استمرارية بناء المدن وتطورها ، بغض النظر عن طبيعـــة هذه الدول ؟ .

ثم ما مدى تأثير الانقسامات السياسية ، وثورات الخوارج على الخصوص ببلاد المغرب الأوســـط على حالة المدن ؟ وكيف كانت أوضاع هذه المدن على تخوم هذه الدول ، خاصة تلك التي كانت محـــل أطماع مختلف الكيانات السياسية والتي ستتأثر حتما سلبا وإيجابا بهذه الصراعات .

والخارج ، و هو ما نجده في كل من مرسى الخرز، ثم يليه مدينة تنس . وكانت شبكة المدن امتدت علـــى طول الساحل توزعت بين أنماط مختلفة من أشكال العمران ؛ فمنها الأربطة ومنها المراسي، ثم المدن .

وبالنسبة لمدن الصحراء فقد اخترنا مدينة ورقلة نموذجا لرابطة ومحطة تجارية بصحراء المغرب الأوسط.

وضمنت الخاتمة مجموعة خلاصات واستنتاجات شكلت محصلة ما توصلت إليه من خلال هـــذه الدراسة، و التي يمكن أن تكون موضوع لدراسات أخرى أعمق وأشمل ، وهذا في سبيل الارتقاء بالموضوع إلى حد معقول من الطرح العلمي وليكون ميدانا مفتوحا أمام باحثين آخرين ، وكذلك لإبراز مقاربـــات تاريخية حول المدينة ببلاد المغرب الأوسط .

مشكلة الموضوع الأساسية تتمثل في غياب أو انعدام المصادر في الكثير من الجوانب التي تـــستحق الاستشهاد بها من أبرز المشكلات التي تعيق البحث التاريخي ، وفي موضوع كهذا حيث ينبغي الابتعاد عن الوصف والتخمين وطرح حقائق ونصوص مكتوبة لتحليلها وقراءتها بصورة علمية دقيقـــة . وفي غيـــاب المصادر يصبح الموضوع صعب التناول وصعوبته تكمن في الانسياق وراء قوالب جاهزة ، لدراسة مدن لا تمت للمنطقة بصلة . فالعديد من الدراسات تطرقت لموضوع المدينة والمدن . غير أن ما ينطبق على مـــدن مثل الرومانية أو مدن الأندلس أو بغداد ودمشق ، لا ينطبق حتما على مدن المغرب الأوسط .

وقد استعنا بمجموعة من المصادر والمراجع التي أتيحت لنا ، ومن خلالها تتبعنا التطـــور التـــاريخي لنماذج من العديد من مدن المغرب الأوسط ، وإذ اقتصرنا على ذكر البعض منها فقط فإن المجال يبقـــى واسعا للتطرق لباقي المدن إذ أن عمران المغرب الأوسط لا يمكن لدراسة واحدة من الإلمام به ، فضلا عـــن تعدد أنواع هذه المدن وتغير أوضاعها من مرحلة لأخرى .

وأود أن أشير إلى أن هذا العمل لم يكن ليرى النور لو لم يحظ بالمتابعة الجادة من طرف المـــشرف الدكتور محمد فرقاني، والذي وجهني ونصحني وكان قدوة للإخلاص والجد وأتعب نفسه كثيرا في قـــراءة وتقويم الاعوجاج الذي رافق مراحل كتابة هذه الدراسة ، فجزاه الله عنا كل خير، وإليه يعزى كل ما في الموضوع من جد ، وإليّ يعود كل ما فيه من نقص ، والذي أتمنى أن يكمل مستقبلا . كما أشـــكر كـــل الأساتذة الذين لم يدخروا جهدا و لم يبخلوا علينا بنقاشاتهم المتكررة حول البحث في تاريخ المغرب الأوسط وأخص بالذكر الدكتور علاوة عمارة الذي أرشدني للعديد من المراجع حول الموضوع .

عرض عام للمصادر :

اعتمدت في بحثي هذا على جملة من المصادر و المراجع المتنوعة، يمكن حصرها فيما يلي :

أولا: المصنفات الجغرافية :

شكلت هذه المصادر حجر الزاوية في دراستنا هذه ، وهذا لغناها بالمعلومات الدفينة الـــتي وردت بصورة غير منظمة ، لكننا نستطيع أن نستخلص منها الكثير من المعلومات الهامة ، وقد حاولنا الاعتمـــاد أكثر على المصادر المعاصرة للفترة المدروسة ، خاصة تلك التي زارت بلاد المغرب ، حتى نكون دقيقين في المعلومات التي نستقيها من هذه المصادر، ولا نخضع موضوعنا لمسألة الإسقاطات أو إخضاعها لأوصـــاف تتعلق بفترات أخرى . ومن أهم هذه المصادر نذكر :

اليعقوبي ، ت284هـــ /897م:

أول مصدر جغرافي لبلاد المغرب الأوسط ، ومصنفه الموسوم"البلدان" يعطينا معلومات قيمة عـــن الكثير من المدن العلوية التي أحدثت بشمالي بلاد المغرب الأوسط لا نجد لها ذكر عند باقي المصادر الأخرى ، كما استفدنا منه في التعرف على المدن التي لجأ إليها هؤلاء العلويين ، وقيمة اليعقوبي تكمن أنه زار بلاد المغرب أواخر القرن الثالث الهجري (في حدود 276هـــ/889م) لذلك فهو مصدر مهم في دراستنا هذه، ويكون قد عاصر بعض الأحداث التي يكون قد عايشها عن قرب، لذلك نعتبر أن كتابه شهادة حية عـــن المدن التي ذكرها دون سواه من الجغرافيين الآخرين رغم أنه لم يخصص كثيرا من مؤلفه لـــبلاد المغـــرب الأوسط .

ابن حوقل ، ت367هـــ/977م :

يعتبر مكملا لعمل الأصطخري ، وهو معاصره الأصغر سنا . بدأ تجواله من بغداد في رمضان سنة 311هـــ/ماي 943 م، متخذا التجارة مهنة له ، وقد شمل تجواله بلاد المغرب والأنـــدلس ، ويحتمـــل أن يكون ذو ميول شيعية، أما عن المادة التي جمعها حول مدن المغرب الأوسط فيقدم لنا وصفا دقيقا عن الكثير من خصائصها في ذلك العهد ، وما يلفت في مصنفه "صورة الأرض"هو اهتمامه البالغ بذكر وتحديد أهم الطرق والمسالك التي تربط بين مختلف المدن الرئيسية ، ولا تخفى علينا الأهمية الكبيرة لابن حوقل الذي مر على مدن المغرب الأوسط ، فيكون لذلك شاهد عيان على المدن التي وصفها .

المقدسي ، ت 377هـ/987م :

يعتبر آخر الممثلين للمدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب، ومصنفه"أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، مصدر هام لدراسة المدن الكبرى للمغرب الأوسط ، يشير إلى كثرة المدن والقرى والثغور والحصون بالمنطقة التي وضع لها قسما بالمسافات التي تفصل بين أهم مدنه، كما استفدنا منه في تحديد بعض المصطلحات والمفاهيم الخاصة بموضوعنا والمتعلقة بتحديده لمفهوم المصر والإقليم، والناحية، والكورة والتي لها أهميتها وقيمتها في بحثنا هذا .

البكري ، ت 487هـ/1094م :

كتابه الموسوم "المسالك والممالك"، من أغنى المصادر الجغرافية التي اهتمت بمدن المغرب الأوسط ، اعتمد كثيرا في كتابه على معلومات محمد بن يوسف الوراق في كتابه المفقود ، وعلى ملاحظات التجار والمسافرين للمنطقة . وهو أهم مصدر اعتمدته في هذه الدراسة لما احتوى عليه من وصف دقيق للمدن ، دون إغفال تاريخها وخصائصها المتعلقة بالظروف الاجتماعية والاقتصادية .

الإدريسي ، من علماء القرن السادس الهجري :

التعامل مع هذا المصدر أخذناه بانتقاء وحذر شديدين لكي لا نقع في تناقض بين وصفه للمدن والأوضاع التي كانت تتميز بها قبل عصره ، مع ما يقرره حول هذه الأوضاع في الفترة التي عاش فيها . بالإضافة إلى كونه جغرافيا ، فهو متعدد المعارف والمهارات ، كالصيدلة والطب والنباتات وأديبا شاعرا، مصنفه الوسوم "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" أشار إلى انه فرغ من تأليفه سنة ثمان وأربعين وخمسمائة للهجرة/ جانفي1154م. وقد ألف كتابه تلبية لرغبة "رجار الثاني" ملك صقلية وقد ضمن كتابه وصفا للقلاع والحصون والمدن التي يكون قد مر بها أو التي وصفت له .

الاستبصار في عجائب الأمصار :

مؤلفه مجهول، والراجح أنه من كتابة مؤلفين مجهولين؛ هما واضع الكتاب والكاتب (الناسخ) ، ويكون الكاتب حيا في القرن السادس الهجري ، معاصرا للدولة الموحدية .

اهتم مؤلف الكتاب بسرد أغلب مدن المغرب الأوسط ، معتمدا على من سبقه من الجغرافيين خاصة البكري، وما يلاحظ عنه أنه يتعرض كثيرا لتاريخ المدن ويفرق بين المدن الأزلية والقديمة والمدن المحدثة ، ووصفه يدل على أنه ربما زار المنطقة . حيث يذكر لنا المدن التي لا زالت بها الآثار باقية .

ثانيا :

كتب التاريخ

تعتبر المصادر التاريخية المغربية عماد هذه الدراسة ، ومن أهم هذه المصادر نذكر :

الرقيق القيرواني ، ت بعد 425هـ/1033م:

من أهم المصادر المبكرة ومعلوماته تغطي تاريخ ولاية إفريقية بدءا من مرحلة فتوح عقبة بن نافع ، حتى ولاية أبو العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ، نقل عنه ابن عذارى وابـــن خلـــدون ، ويفيـــدنا صاحب كتاب "تاريخ إفريقية والمغرب" في الأحداث التي تلت مرحلة الفتح الإسلامي حتى عهد الدولـــة الأغلبية ، ومن خلاله نستطيع معرفة الكثير عن أوضاع مدن المغرب الأوسط في هذه الفتـــرة المبكـــرة ، كمدينة تهودة، باغاي، وميلة، وتيهرت، والتي ورد ذكرها بصورة عرضية في سياق الروايـــات التاريخيـــة الواردة في الكتاب .

ابن عذارى المراكشي، ت آخر القرن السابع الهجري :

من مصادر تاريخ المغرب ، عاش في فترة متأخرة عن المرحلة المدروسة ، وينقل لنا الكـــثير مـــن الروايات المعاصرة للأحداث منذ الفتوحات الإسلامية ، وقد أفادنا الجزء الأول من كتابه "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب" فيما يتعلق بالمدن المحدثة التي نقل لنا روايات تأسيسها مثل تيهرت ، والمدن الـــتي أسسها الأندلسيون كتنس ووهران .

ابن خلدون ت 808هـ/1405م:

في كتابه حول تاريخ البربر وأجيالهم وما كان لهم من الدول ، ورغم طغيان طـــابع الأحـــداث السياسية والحروب فإن هذا المصنف لا يمكن الاستغناء عنه لدراسة مدن المغرب الأوسط ، وقد أفادنا كثيرا في معرفة الظروف العامة التي أحاطت بالكثير من الأحداث التي لها علاقة بالمدن ، كروايات تخطيط البعض منها ، أوتجييش الجيوش منها ، أوحصارها ، ومعرفة توزيع وانتشار القبائل التي كثيرا ما كانت لتحركاتها علاقة وطيدة بأوضاع المدن .

ثالثا :

المصادر الإباضية : ابن الصغير المالكي (كان حيا في القرن الثالث هجري)، يعتبر من أهـــم وأقدم المصادر التي تعطينا معلومات وافية عن المراحل الأولى التي شهدتها مدينة تيهرت وكيف تطـــورت المدينة منذ مراحلها الأولى إلى أن أصبحت كثيرة الأحياء التي يقطنها بالإضافة إلى السكان المحليين الكثير من

البصريين والبغداديين. في مصنفه الموسوم"أخبار الأئمة الرستميين" يتطرق إلى الحياة العامة بالمدينة وأهـــم التغيرات التي شهدها وبعض الأحداث التي تكون قد أثرت فيها. وابن الصغير يرافقنا منذ نـــشأة الدولـــة الرستمية وطيلة فترة ازدهار الدولة ، وقيمته تكمن في كونه من سكان تيهرت، ومعاصرا للدولة الرستمية. ومعلوماته نجدها في أغلب المصادر الإباضية الأخرى التي اعتمدت عليه ونقلـــت عنـــه مثـــل الـــبرادي والشماخي.

أبي زكرياء يحي بن أبي بكر ت 471هـــ/1078م:

صاحب "كتاب سير الأئمة وأخبارهم" نجد فيه تاريخ للمذهب الإباضي وللأئمة الرستميين ، و لم يتوقف عند سقوط مدينة تيهرت ، بل يستمر في سرد أحداث ظهور (الحجاني) عبد الله الـــداعي ، وفيـــه نعرف أوضاع الكثير من مدن المغرب الأوسط خاصة مدينة ورقلة التي عاش فيها ، ينقل كثيرا عـــن ابـــن الصغير والبكري .

الشماخي ت 928 هـــ/1521م :

مؤرخ وفقيه صاحب كتاب "السير"، ضمنه سير أعلام الإباضية البارزين ، وفيه الكثير من الروايات التاريخية ، كما يعطينا مادة كثيرة أيضا حول المدن والواحات والقرى المنتشرة بالصحراء واستفدنا منه فيما يتعلق بمدن كتيهرت ، وورقلة .

رابعا :

بالنسبة المصادر الشيعية فإن **رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان ت 363هـــ/973م** ، نجد في ثنايا هذا الكتاب الكثير من المعلومات الخاصة بالكثير من المدن التي تم افتتاحها من طرف عبد الله الشيعي؛ بدءا من مدينة ميلة ثم سطيف وطبنة وبلزمة وغيرها ببلاد المغرب الأوسط ، ما يهمنا أن الكاتب ورغـــم كونه شيعيا فإنه لم يغفل الكيفية التي تم بها اقتحام هذه المدن وكيف حوصرت ونهبت أو هدمت أسوارها ، ومن خلال ذلك يمكننا معرفة مرافق هذه المدن وحجمها .

استفادتنا من مصادر **الطبقات والتراجم** قليلة لأن أغلبها تتعلق بتراجم علماء القيروان ، ورغـــم ذلك مكنتنا من معرفة الرعيل الأول من الفاتحين لبلاد المغرب ، ونسبهم ، كما مكنتنا من معرفة القبائـــل التي استقرت في مدن المغرب الأوسط بعد انتهاء عمليات الفتح الإسلامي ، وأهم هذه المصنفات نجد :

أبو العرب : ولد بين 250 /260هـ – ت 333هـ / 944م .

من خلال كتابه "طبقات علماء إفريقية وتونس"، استطعنا التعرف أكثر على المدن الـــتي فتحهـــا المسلمون في القرن الأول الهجري ، فمن خلال تراجم هؤلاء الفاتحين استفدنا من معرفة أوضاع طبنـــة ، قمودة ، بجانة ، وباقي المدن التي كانت تستخدم كحصون رومانية . ونجد هذه المعلومات تتكرر عند كل من نقل عن أبي العرب حتى ولو لم يذكروا المصادر التي استقوا منها معلومـــاتهم ، كالمـــالكي في كتابـــه :"رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبـــارهم وفـــضائلهم وأوصافهم"، وعند الدباغ في كتابه : "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان"، وتستمر حتى عند ابن فرحون في كتابه : "الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب"، والذي تضمن تراجم لأعيان المذهب المالكي المشارقة والمغاربة من الإمام مالك إلى القرن الثامن .

ورغم أن استفادتنا من هذه المصادر قليلة لكنها في الكثير من الجوانب تدعم الروايات التاريخية و أوصاف الجغرافيين في أوصافهم للكثير من المدن ، من خلال تراجمهم لرجال المذهب المالكي .

خامسا :

الدراسات :

كثيرة ومتعددة وقد شملت الكثير من مدن المغرب الأوسط ، وما يلفت الانتباه في هذا الجانب هو طغيان الدراسات الفرنسية حول كل مدن المغرب الأوسط لفترة الوجود الروماني والبيزنطي إذ نكاد لا نجد مدينة إلا وحولها أكثر من دراسة واحدة تشمل على الخصوص موقعها وخصائصها ومنتجاتها وتطورهـــا السياسي.

أما الفترة التي اخترتها للدراسة فهي قليلة مقارنة مع الفترة السابقة . ومن النادر العثور على مثـــل تلك الدراسات ، ومن أهم هذه الدراسات تلك التي نشرت في المجلة الإفريقية ، كما نشير إلى العديد من المواضيع المتفرقة نشرت في مجلة الأصالة تناولت جوانب مختلفة حول مدن محددة ، أغلبها تلك التي شهدت أحداثا سياسية هامة أو كانت عواصم لدول ، وقد أصدرت العديد من الأعداد الخاصة بمـــدن بعينـــها، تطرقت إلى مدن تيهرت، عنابة، بجاية، الأوراس ، وتلمسان .

أما الدراسات الشاملة حول المدن والتي استفدنا منها بوصفها دراسات مرجعية لموضوع المدينة ؛ فنجد كتاب "المدينة الإسلامية" لعثمان محمد عبد الستار تناول فيه نظرة الإسلام للعمران ثم نشأة المدينـــة الإسلامية بيثرب التي اعتبرت المرجع الأساس لكافة المدن الإسلامية ، إذ على ضوئها تحددت معالم المدن

الإسلامية في تخطيط الأحياء والشوارع ومواضع المرافق المختلفة ، فضلا عن جانب الحياة في هذه المـــدن المبنية على الإخاء وحسن الجوار.

كما تناول مصطفى شاكر موضوع المدينة في دراسة وافية في كتابه "المدن في الإسلام حتى العصر العثماني"، وفيه تناول النظرة العربية الإسلامية للمدن انطلاقا من مصدر الحـــضارة الإســـلامية القـــرآن والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الحكماء والجغرافيين وغيرهم ، ثم تعرض إلى سرد عام لأهم المـــدن في كامل بلاد العالم الإسلامي، ومثله تناول عبد الجبار ناجي الموضوع في "دراسات في تاريخ المدن العربيـــة الإسلامية"، حيث تعرض لمسألة المدن وحداثة هذه الدراسات في البلاد العربية الشيء الذي انعكس علـــى محاولة الكثيرين إسقاط نموذج المدن الرومانية على المدن العربية الإسلامية .

بالنسبة للدراسات المحلية الجزائرية الخاصة بمدن المغرب الأوسط ، فهي نادرة جـــدا وتتمثـــل في الدراسات والحفريات التي قام بها رشيد بورويبة ، والـــتي شملـــت العمـــران الـــديني (L'Art Religieux Musulman En Algerie) والعسكري (L'Architecture Militaire De L'Algerie Médiévale) بهـــذه البلاد ، بالإضافة إلى دراسته حول تاريخ الدولة الحمادية وحضارتها .

بالنسبة للدراسات الأجنبية اســـتفدت كـــثيرا مـــن كتـــاب كـــوميزا (Paul – louis cambuzat) (lévolution des cites du telle en efrikia du 7e au 11e siècle) ، الكتاب تناول المدن بمنطقـــة التـــل بإفريقية بين القرنين السابع والحادي عشر ميلادي (القرنين 01هـــ و05هـــ) والكتاب دراسة هامة تمـــيط اللثام عن المدن بالقسم الشرقي من المغرب الأوسط الذي كان تابعا للسلطة الأغلبية طيلة الفترة المدروسة ، وقد تناول كوميزا بالبحث خصائص المدن ومواقعها ومرافقها وبعض من تاريخها .

أما لوتورنو (Roger Le Tourneou) فقد تنـــاول في كتابـــه (Les Villes Musulman De L'Afrique Du Nord) المدن الإسلامية بمنطقة شمال إفريقيا من حيث تركيبتها ومرافقها ، وهـــي مـــن الدراسات التي تعطي للمدينة بالمغرب شخصيتها الخاصة بها ، وهذا ما نجده أيضا عند جورج مارســـي (Georges marcais) الذي يعتبر أهم باحث وأثري اهتم بتاريخ وآثار المغرب الأوســـط مـــن خـــلال الحفريات التي قام بها في العديد من المدن .

سادسا :

أما **الحفريات والاكتشافات** فتعتبر عملا مكملا وضروريا للباحث في تـــاريخ المـــدن بـــالمغرب الأوسط ، وقد أجريت الكثير منها بمختلف مدن المغرب الأوسط لاستكشاف آثارها ، ووضع تصاميم

لمختلف مرافق هذه المدن من أسوار وقصور وبناءات وصهاريج المياه وغيرها من المرافق الأخرى والتي كثيرا ما وجدت مطابقة لأوصاف الجغرافيين . وأهم هذه الحفريات نجد تلك التي جرت بمدن

- حفريات بمنطقة تيهرت أجراها كل من جورج مارسيه ولامار عام 1941 ، ووضعوا تصميم للمدينـــة كما عثروا على بقايا نقود .

- حفريات بالقلعة قام بها دوبايلي (Général L .de Beylié.) عام 1908 . ثم قام قولفان بدراسة عن المغرب الأوسط في العهد الزيري ، وأشار إلى هذه الحفريات وبناء عليها وضعت العديد من التصاميم شملت أسوار المدينة والأبواب والمئذنة والصهاريج وغيرها .

- حفريات الفرد بل(Alfred Bel) بتلمسان بين عامي 1910 ،1911، حيث عثر على أسس مسجد المدينة الذي بناه إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنـــهم ، وقـــام جورج مارسي مارسيه بتحديد سور المدينة و أبوابها .

- بلانشي (Blanchet) قام باستكشاف لموقع طبنة ووضع تصميما للمدينة بناءا على ما عثـــر عليـــه بالموقع .

- حفريات بأشير قام بها كل من جورج مارسي عام 1922 ، فبناء على ما قام به رودي Rodet مـــن تقسيم لمواضع المدينة في بداية القرن ، عثر مارسي على مسجد المدينة بهذه المواضع ، وبعد 1954 وضـــع قولفان M. L. Golvin تصميم لقصر زيري بن مناد بمدينة يشير .

لعل ندرة المصادر المتعلقة بالموضوع تحد من مجال دراستنا وأفقها، لكن على قلة هذه المصادر فهي تسمح لنا بتكوين صورة ولو محدودة عن المدينة بالمغرب الأوسط قبل القرن الخامس الهجري ، من خـــلال محاولتنا الاعتماد على المنهج التاريخي، واستقراء النصوص التاريخية، وتحليلها ونقدها والأهم من ذلك هـــو مقارنة هذه النصوص بين مختلف المراحل التاريخية للوقوف على مستوى تطور أو مدى تراجع مدينة معينة ، والعوامل التي تقف وراء ذلك .

الفصل الأول

المغرب الأوسط والمدينة الإسلامية .

- المجال والمفهوم
  - عند الجغرافيين
  - عند المؤرخين.

- المدينة الإسلامية
  - مفاهيم ودلالات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : المغرب الأوسط ، المجال والمفهوم :

مع بداية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، بدأت تبرز الكثير من المتغيرات الهامة ولعل أهمها يتمثل في تلك المتعلقة بالجانب الجغرافي والخاصة بحدود ومجال هذا المغرب . والدارس لتاريخ المغرب الأوسط يجد في القرون التالية للفتح الإسلامي صعوبة في ضبط حدوده ، والمشكلة تكون أكثر تعقيدا لأنها مرتبطة بالمجال الذي تسيطر عليه الدولة من جهة ، ومن جهة ثانية فإن الحدود خاضعة أيضا لطبيعة المجتمع القبلي الكثير الحركة ، والذي يؤثر بشكل كبير في تغيير المجال الذي تسيطر عليه هذه الدول ، والتي كثيرا ما لجأت إلى ترك حاميات لها بالمدن الهامة لتعطي صورة عن سيادتها على هذه المناطق ، فتكون هذه المدن مجالا لممارسة هذه السيادة ، وفي نفس الوقت مكانا لإعلان الولاء لدولة معينة .

لقد بدأت ملامح المغرب الإسلامي في الظهور مع انتهاء معارك الفتوحات الإسلامية ، وبداية مرحلة جديدة من التفاعل مع الأحداث التي كانت تجري بالمشرق – المركز – التي صاحبت مشاكل الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، ومحاولة أطراف المركز الانفصال والاستقلال . إذا ما اعتبرنا أن العالم الإسلامي لا يزال يشكل وحدة سياسية واحدة ، وقد كانت التطورات المحلية التي تجري ببلاد المغرب حتمت على بعض الولاة التفكير في الاستقلال عن المشرق سياسيا ، وقد ظهر ذلك خاصة أثناء فترة ولاية عبد الرحمن بن حبيب 127هـ 138هـ / 745م 755 م[1]، الذي استولى على ولاية إفريقية ورغم الثورات العديدة التي هددت استقراره إلا أنه شق عصا الطاعة في وجه أبي جعفر المنصور(95-هـ 714/158-755م)، فبعدما كتب يدعوه إلى الطاعة، رد عليه عبد الرحمن بكتاب جاء فيه : «إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها، فلا تسألني ما ليس قبلي...»[2]، ثم تلى هذا الكتاب خلع الولاء لبني العباس. وكان ذلك إيذانا ببداية مرحلة التشكل لبلاد المغرب على المستوى السياسي . والتي مرت على العديد من

---

[1] هو : عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري : اعتبرت أسرة عقبة بن نافع التي استقرت ببلاد المغرب نفسها مغاربة لطول المدة التي استقروا فيها في هذه البلاد ، وقد استطاعوا الوصول للحكم ، وحكموا الكثير من الأقاليم ، وسرعان ما دب الشقاق بينهم وقد قتل عبد الرحمن بن حبيب من طرف أخيه الياس عام 138 هـ . انظر: ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج01 ، تحقيق ج . س . كولان و إ . ليفي بروفنصال ، دار الثقافة بيروت ، 1980 ، ص 60 . لسان الدين بن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق ، أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1964 ، ص 06 . 07 .

[2] أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الرقيق : تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق ، عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1990 ، ص 96 ؛ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج 24 ، تحقيق ، حسين نصار ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، 1983 ، ص 66 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج01 ، ص 62 .

المراحل والفترات، كثيرا ما كانت الحروب والنزاعات على السلطة ميزتها الرئيسة ، وفي هذه الأثناء لابد أن نلتفت إلى أمر هام وأساسي في هذه التحولات المصيرية تتمثل في الأدوار التي كانت تقوم بها المدن في تحديد معالم المغرب الإسلامي ، ورسم حدود الإمارات المنشأة ، وحتى الدول ، والتي على ضوئها حدد الجغرافيون هذه البلاد .

يذكر اليعقوبي عن مدينة أربة أنها «آخر مدن الزاب مما يلي المغرب في آخر عمل بني الأغلب... »[1]، فهذا يعني أن المجال الذي امتد إليه سلطان الأغالبة لم يتجاوز منطقة الزاب . وإلى الغرب من هذا الإقليم ، نجد بلاد كتامة التي كانت شبه مستقلة عن السلطة الأغلبية، إلا بما كانت تدفعه للحامية المتمركزة بمدينة بلزمة، حيث كان الكتاميون يدفعون العشور والصدقات للجند المتمركزين بالمدينة[2] ، غير أن هذا لا يعني أنهم كانوا تابعين للسلطة الأغلبية .

وبالقرب من إقليم كتامة انتشرت الكثير من الإمارات التي كانت مستقلة في الكثير من مدن المغرب الأوسط ، وشملت مدن : الخضراء ، وسوق إبراهيم ، والعلويين ، وتلمسان ، ومتيجة ، وسوق حمزة وغيرها ، هذه الإمارات التي كانت عبارة عن ثمرة نجاح تحالفات بين القبائل ودعاة المذاهب المختلفة ببلاد المغرب الأوسط .

ونشير إلى أنه من الصعوبة بمكان الفصل في هذه المسألة خاصة في القرون التي تلت مرحلة الفتح الإسلامي لهذه البلاد . إذ أن التحديد الجغرافي كان في أغلبه مرتبطا بأقصى ما كانت تسيطر عليه السلطة السياسية، أو حدود الولاء القبلي لهذه السلطات. وهذا ما نراه تجاوزا لعوامل أخرى رئيسة أبرزها السكان، غير الخاضعين أو الخارجين عن مجال سيطرة الدولة .

لهذه العوامل نجد أنفسنا أمام ظاهرة التغير الشديد الخاصة بالمجال وحدود الدول ، بل إننا في الكثير من المراحل التاريخية نجد أنفسنا أمام وحدة جغرافية واحدة لبلاد المغرب . فالتركيبة القبلية لمجتمع المغرب الإسلامي ، والمرحلة التي نستطيع أن نقول أنها انتقالية من مرحلة الحكم البيزنطي إلى مرحلة التفاعل مع العالم الإسلامي الحديث النشأة ، تميزت باضطراب شديد في توزيع القبائل غير المستقرة ، والسريعة الحركة والانتشار يضاف إليها عوامل المجاعات ومعارك الفتوحات الإسلامية ببلاد المغرب ، هذه العوامل وغيرها كثيرا ما تجعل من الحدود الجغرافية لمنطقة المغرب الإسلامي مجالا جغرافيا واحدا.

---

[1] اليعقوبي : أحمد بن أبي يعقوب بن واضح . البلدان ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 2002 ، ص 191 .

[2] النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 131.

ونستعرض فيما يلي أهم آراء ومقولات الجغرافيين العرب في تقسيمهم لبلاد المغرب عامة و تحديدهم للمغرب الأوسط بصفة خاصة :

تحديد الجغرافيين لبلاد المغرب :

1 . الأصطخري :

وصف العالم الإسلامي وقسمه إلى عشرين إقليما ، كمناطق جغرافية واسعة أو كولايات rigions[1] . أما بالنسبة لبلاد المغرب فقد قسمه إلى قسمين ، شرقي وغربي: « فأما الشرقي فهو برقة وافريقية و تاهرت وطنجة والسوس وزويلة وما في أضعاف هذه الأقاليم . وأما الغربي فهو الأندلس »[2].

2 . ابن حوقل :

بالنسبة لبلاد المغرب فإن ابن حوقل يعتبر من أوثق المصادر الخاصة بالمنطقة لأنه يعتبر شاهد عيان، وصف البلاد وطاف بأرجائها ذهابا وإيابا ، إلا أنه لم يعطينا تحديدا دقيقا لبلاد المغرب الذي قسمه إلى قسم شرقي يمتد من برقة إلى نواحي إفريقية[3] . وقسم غربي يمتد من إفريقية إلى البحر المحيط ، وهذا القسم « بلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه والولاة والسلاطين والملوك والحكام والفقهاء وكل ذلك في جملة صاحب المغرب وحوزته وقبضته أوفي يد خليفته »[4]. وبهذا يكون تقسيم ابن حوقل محكوما بالمعطى السياسي الخاضع لسيطرة صاحب المغرب أكثر من المعطى الاجتماعي الخاضع لتوزيع السكان وانتشار القبائل .

3 . المقدسي :

يجعل المغرب مع بلاد الأندلس كبلد واحد ، ويقول :« قد جعلنا المغرب مع الأندلس كهيطل ، وخراسان غير أنا لم ندخل الأندلس ونُكورُها »[5]، وهذا ما يعني أنه قد كور بلاد المغرب أي أنه جعلها

---

[1] اغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، القسم الأول ، ترجمة ، صلاح الدين عثمان هاشم ، لجنة التأليف والترجمة والنشر جامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1963 ، ص 199 .

[2] ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري : المسالك والممالك ، تح ، محمد جابر عبد العال الحسيني ، د ط ، دار القلم القاهرة ، 1961 ، ص 33 .

[3] أبو القاسم بن حوقل النصيبي : صورة الأرض ، دار صادر بيروت ، 1938 ، ص 83.

[4] ابن حوقل : نفسه ، ص 83 84 .

[5] شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، دار الكتب العلمية بيروت ، 2003 ، ص 179 .

مجموعة كور ومناطق ، أما هذه المناطق التي ينقسم إليها بلاد المغرب ، فيقول عنها :«... أول كورة[1] من قبل مصر برقة ثم إفريقية ، ثم تاهرت ، ثم سجلماسة ، ثم فاس ، ثم السوس الأقصى ، ثم جزيرة إصقلية تقابل إفريقية ، والأندلس وراء البحر على ارض الروم... »[2].

ويبرر المقدسي تقسيمه هذا ويقول أن المشرق مثله مثل المغرب أيضا ، والسبب في ذلك أن : « كل واحد منهما جانبان فكما أن المشرق خراسان وهيطل[3] يفصل بينهما جيحون[4] ، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم... »[5]. وفي نفس السياق يشير المقدسي إلى كثرة المدن والقرى و الثغور والحصون ببلاد المغرب . وهو ما يعني أن المنطقة كانت وصفت في إطارها الحدودي للدولة الإسلامية ويظهر التأثير السياسي في هذا التقسيم من خلال ضم المقدسي لجزيرة صقلية وبلاد الأندلس لبلاد المغرب . وبالنسبة لحدود إفريقية فإنه يحددها عن طريق المجال الذي تمتد إليه المسيلة حيث يقول « ...ومسيلة حد أفريقية »[6].

4 . أبو عبيد البكري :

من أهم الجغرافيين الذين حددوا المناطق بدقة، وقد قسم بلاد المغرب إلى: إفريقية ، وبلاد المغرب، أما عن المغرب الأوسط فيذكر قاعدته المتمثلة في مدينة تلمسان إذ يقول :«...هذه المدينة تلمسان قاعدة

---

[1] الكورة : يعرفها الجوهري أنها المدينة والصقع ، والجمع كور . أما ابن سيده فيقول : الكورة من البلاد المخلاف وهي القرية من قرى اليمن . ابن منظور . لسان العرب ، المجلد 05 ، دار الجيل ، بيروت ، 1988، ص 312. الفيروز أبادي . القاموس المحيط ، ضبط وتوثيق ، محمد البقاعي ، دار الفكر بيروت ، 2005 ، ص 426 . ويقول بروفنصال أن الكورة هي : أكبر من الإقليم و المنطقة . ليفي بروفنصال : تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية 711م / 1031م : النظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية ، ترجمة علي عبد الرؤوف البمي و أخرين ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2002 ، ص 54 57 .

[2] المقدسي : المصدر السابق ، ص 179 .

[3] هيطل : هواسم لبلد ما وراء النهر . وتطلق على الجماعة القليلة التي يغزا بهم . وهم الأقوام الهياطلة ، وهي بلاد سمرقند وبخارى و غيرهما . الفيروز أبادي : المصدر السابق ، ص 966 .

[4] جيحون : نهر يقع ببلاد بخارى وسمرقند . و مخرجه من بلاد وخان في حدود بذخشان و تتجمع إليه الكثير من المصبات الأخرى لتشكل نهر عظيم . و تقع على ضفافه الكثير من المدن . الإدريسي أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج 01 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1989 ، ص 460 480 481 .

[5] المقدسي : المصدر نفسه . ص 189 .

[6] المقدسي : نفسه . ص 197 .

المغرب الأوسط لها الأسواق، ومساجد...»[1]. غير أنه عند تحديده لإفريقية فهو يضعها في مجال يمتد طولا من « برقة شرقا إلى مدينة طنجة غربا... وعرضها من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان...»[2]. أما المغرب الأقصى فيحدده بالمناطق الممتدة غرب مدينة فاس، وهي المدينة التي يقول عنها أنها « دار مملكة بني إدريس بن عبد الله...»[3]، والتي كانت نقطة اتصال هامة ببلاد الأندلس .

وتظهر التأثيرات السياسية في هذا التقسيم الخاضع لمجال امتداد السلطة السياسية ، مرورا بمحاور المدن الرئيسية الثلاثة وهي القيروان، وتلمسان، وفاس ، كما يدل على عدم وجود تصور جغرافي واضح في ذهن المؤلف بإدخاله لبرقة في حد إفريقية الممتدة إلى غاية طنجة ، وهي إقليم منفصل عن إفريقية معروف عند المؤرخين وكثير من الجغرافيين منهم المقدسي المشار إليه سابقا .

5 . الشريف الإدريسي :

تتضح معالم المغرب الأوسط عند الإدريسي، ويحدد المغارب الثلاثة ، ومثل باقي الجغرافيين، لم يخل تحديده من تأثير سياسي واضح ، وهذا بإخضاع تقسيمه إلى مركزية المدن التي كانت مركز السلطة السياسية ، بالنسبة لإفريقية والمغرب الأقصى ، ففي حالة المغرب الأوسط يقول أن « مدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة الغرب الأوسط »[4]. أما مجال المغرب الأوسط غربا فيحدده بمدينة تلمسان التي يصفها أنها « قفل بلاد المغرب وهي على رصيف للداخل والخارج منها لا بد منها والاجتياز بها على كل حالة...»[5]. أما عن بلاد إفريقية فقد ذكر أن «المهدية قاعدة بلاد إفريقية وقطب مملكتها »[6]. فيما يحدد المغرب الأقصى بمركزها فاس حيث يصف المدينة بأنها « قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى...»[7] .

6 . ياقوت الحموي :

ينقل عن البكري تقسيماته ، لكنه يتخذ من بجاية حدا فاصلا بين إفريقية والمغرب ، أما حدود إفريقية فهي تمتد «...من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية. وقيل إلى مليانة فتكون

---

[1] أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري : المسالك والممالك ، ج 02 ، تح ، جمال طلبة ، دار الكتب العلمية بيروت ، 2003 ، ص 259 ؛ وينقل ابن عذارى المراكشي نفس هذا التقسيم عن البكري ويقول : مدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط ، وهي دار مملكة زناتة . ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 65 .

[2] البكري : المصدر نفسه ، ص 193 .

[3] البكري : نفسه ، ص 302 .

[4] الإدريسي : المصدر السابق ، مج 01 ، ص 260 .

[5] المصدر نفسه ، المجلد 01 ، ص 250 .

[6] المصدر نفسه ، ص 283 .

[7] المصدر نفسه ، ص 246 .

مسافة طولها نحو شهرين ونصف...»[1]. ويضيف ياقوت الحموي عن بلاد المغرب الأقصى «حدهم من مدينة مليانة وهي آخر حدود إفريقية إلى آخر جبال السوس التي وراءها البحر المحيط وتدخل فيه جزيرة الأندلس...»[2].

يظهر من خلال هذه التحديدات التي اعتمدها الجغرافيون ، أنه لم يضبطوا بصورة واضحة معالم وحدود المغرب الأوسط والذي أخذ فترة للتشكل والتكوين وهذا لتأثير عاملين أساسين هما :

1 - العامل السياسي الذي أثر في تشكيل حدود السيادة التي تستطيع الدولة ممارستها في إقليم معين . وقد يزيد أو ينقص هذا المجال تبعا لقوة الدولة . ويكون هذا العامل قد أخذ بنصيب وافر عند بعض الجغرافيين[3] الذين ظلوا يخلطون بين لفظي المغرب وإفريقية ولا يميزون بينهما . وكانت أهم هذه العناصر التي عرفتها المنطقة : هي تدخلات القوى الإسلامية الكبرى ، وعلى رأسها التدخل الأندلسي والعبيدي[4] .

بالإضافة إلى أن بلاد المغرب ومنذ القرن الثالث مثلما يرى محمد الطالبي « فسيفساء شاسعة محيرة، يكاد تشعبه وعدم استقراره وتشابكه يتحدى الإدراك »[5].

2 - عامل يتعلق ببنية مجتمع المغرب الأوسط القبلي، ونوع العلاقة بين الدولة والقبيلة حيث تبرز مقدرة الدولة أو السلطة السياسية على تغيير تركيبة المجتمع، وظهور وحدة اجتماعية تتجاوز القبيلة فقد«أدى الاختلاط والولاء والالتجاء والتزاوج والاحتماء إلى ضعف العصبية الدموية ووحدة النسب والأصل»[6]، ومن خلال هذه التغييرات لا يمكن تجاوز هذه المعطيات الاجتماعية في التحديد الجغرافي والتي تكون قد أهملت من طرف الجغرافيين العرب .

تقسيم المؤرخين :

1 – ابن عذارى المراكشي .

بعد أن يحدد فضاء بلاد المغرب الممتد « من ضفة النيل بالإسكندرية ، التي تلي بلاد المغرب، إلى آخر بلاد

---

[1] ياقوت شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد 01 ، دار الفكر بيروت ، 1995 ، ص 228 .

[2] المصدر نفسه ، المجلد 05 ، ص 161 .

[3] حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص 2 . 3 .

[4] هاشم العلوي القاسمي : مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، منتصف القرن العاشر الميلادي ، ج 01 ، مطبعة فضالة المغرب ، 1995 ، ص 57 .

[5] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية. التاريخ السياسي 184 296 هـ/ 800 909 م ، ترجمة ، المنجي الصيادي ، دار الغرب الإسلامي لبنان ، 1985 ، ص 384 .

[6] محمد نجيب بوطالب : سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2002 ، ص 20 .

المغرب ؛ وحده مدينة سلا». ويقسمه إلى مجموعة أقسام :

- فقسم من الإسكندرية إلى اطرابلس ؛ وهو أكبرها ، وأقلها عمارة .
- وقسم من اطرابلس وهي بلاد الجريد ، ويقال أيضا بلاد الزاب الأعلى .
- يلي هذه البلاد بلاد الزاب الأسفل ؛ وحدها الى مدينة تيهرت .
- بلاد المغرب ؛ وهي بلاد طنجة ؛ وحدها مدينة سلا ، وهي آخر المغرب[1].

ويكون هذا التقسيم خاضعا لشروط سياسية أملتها حدود الكيانات السياسية وحدود سيادتها مثلما أشرنا إليه سابقا. ونفس هذه التأثيرات نجدها في تقسيم آخر، يعتمد على أن بلاد المغرب أشبه بالجزيرة « دخل فيها مصر والقيروان والمغرب الأوسط والزاب والسوس الأقصى »[2] .

- تحديد ابن خلدون :

نظرته أكثر شمولية لبلاد المغرب ، وأكثر دقة وتفصيلا لبلاد المغرب الأوسط ؛ فالمغرب الإسلامي يعرفه بقوله : « اعلم أن لفظ المغرب في أصل وضعه اسم إضافي يدل على مكان من الأمكنة بإضافته إلى جهة المشرق ، ومشرق بالإضافة إلى جهة المغرب »[3]، و بالتالي يكون المغرب جزء من العالم الإسلامي، المكون من المشرق والمغرب، ويكون هذا التقسيم بالتالي متقدما على باقي التصنيفات الأخرى، حيث أن عصر ابن خلدون انتهت فيه مرحلة تشكل واندماج بلاد المغرب في مجال جغرافي جديد، هو العالم الإسلامي .

بالنسبة لبلاد المغرب الأوسط يعتمد ابن خلدون الأسس القبلية في التقسيم حيث يكون المغرب الأوسط « في الأغلب ديار زناتة كان لمغراوة وبني يفرن...» وينتهي هذا الجزء إلى « بني عبد الواد وتوجين من بني مادين وقاعدته لهذا العهد تلمسان، وهي دار ملكه...»[4]. وواضح من خلال هذا التقسيم لبلاد المغرب الأوسط، أن ابن خلدون وقع تحت تأثير عنصر السكان المكون للمنطقة ، ومن جهة أخرى بروز العامل السياسي الذي تشكله مدينة تلمسان التي اعتبرها قاعدة للمنطقة .

أما عن مصطلح الغرب الإسلامي ، فهو مصطلح حديث في الدراسات الغربية الحديثة ، اعتمده الباحثون المحدثون ، وهو"الغرب الإسلامي" L'occident Musulman ، ويعنون به الجناح الغربي من

---

[1] المصدر السابق ، ج 01 ، ص 05 .

[2] مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، تحقيق ، محمد يعلى ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، ص 245 .

[3] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : ديوان العبر والمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاورهم من ذوي السلطان الأكبر ، ج 06 ، دار الفكر بيروت ، 2000 ، ص 128 .

[4] المصدر نفسه . ج 06 ، ص 134 .

العالم الإسلامي[1]. غير أن هذا حدود هذا الغرب استمرت في المد والجزر تبعا لمؤثرات سياسية واجتماعيـــة وغيرهما.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

[1] هاشم العلوي القاسمي : المرجع السابق ، ج 01 ، ص 59 .

ثانيا : المدينة بالمغرب الأوسط :

المفاهيم والنشأة :

شهدت بلاد المغرب الإسلامي بداية من النصف الثاني من القرن الأول الهجري مرحلة جديدة من تاريخها ، أدت مع مرور الزمن إلى تشكل مجموعة من النتائج كان أبرزها يتمثل في استقرار الفاتحين المسلمين في هذه البلاد . هؤلاء الذين شكلوا نواة الفتوحات الحقيقية، وساهمت في نشر الدين الإسلامي الذي أحدث تغييرا جذريا في المجتمع المغربي .

وإذا كانت المصادر التاريخية في معظمها لا تذكر إلا الزحف العسكري ومعارك الفتوحات في بلاد المغرب ، ولا شك فإن هناك تحولات كثيرة كانت تتم دون أن تذكرها هذه المصادر التي أغفلت جوانب هامة ورئيسة بتأثيرها ، لعل أبرزها المدن والتي نحن بصدد دراستها لفهم المكان الذي كانت منه تتم هذه التغييرات والتحولات المتعددة .

فالطلائع الأولى التي كانت قد مهدت الطريق لبداية استقرار البعوث العسكرية ، والقبائل التي بدأت تمتلك الأرض وتتخذ من بلاد المغرب الأوسط مستقرا لها ، كانت قد اتخذت من الحصون والقلاع وغيرها كأماكن لاستقرارهم ، ثم بدأت مرحلة جديدة من تمصير البلاد وإصباغها بطابع الحضارة الجديد. سواء تعلق الأمر ببناء مدن جديدة ، أو تكييف المدن القديمة بما يتوافق مع قيم الدين الإسلامي. وقبل الحديث عن هذه المدن ، يجدر بنا الأمر الوقوف على مدلول الكلمة ومعناها اللغوي .

المفاهيم العربية للمدينة :

التعريف اللغوي :

يرى ابن منظور أن مصدر المدينة : من مدن بالمكان : أقام به... ومنه المدينة...

وفلان مدن المدائن: كما يقال مصر الأمصار. والمدينة : الحصن يبنى في أصطمة الأرض مشتق من ذلك . وكل أرض يبنى بها حصن في أصطمتها فهي مدينة... والجمع مدائن ومدن[1].

وطبقا لهذا التعريف فإن الأصول القديمة للمعاجم العربية لا تطابق تصور المدينة الحديث مثلما يؤكده هشام جعيط الذي يرى أن المفهوم العربي للمدينة « ربما تعني حصنا أو بصورة أدق المدينة – الحصن، وكذلك فهي مدينة بها حصن أو بناءات محصنة »[2]. غير أن هذا المفهوم هو الآخر يكون قد جانب الصواب، ذلك أنه استند في تعريفه للمدينة بناء على الكوفة، وهذا لا ينطبق على باقي المدن الأخرى .

---

[1] ابن منظور : لسان العرب ، المجلد 05 ، ص 455 .

[2] هشام جعيط : نشأة المدينة العربية الإسلامية – الكوفة – ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، 2005 ، ص 201 .

وللوقوف على المعنى الشامل للمدينة يجب الوقوف عند المفاهيم التي استخدمها العرب والتي كانت تشير إلى المدينة لكنها جاءت بصيغ تختلف من : مصر، ووطن ، ومدينة ، وبلد ، وحصن ، وحاضرة ، ومدرة ، وهي كلها مفاهيم تشير نفس التحديد[1]، استخدمت من طرف اللغويون والفقهاء والمؤرخون والجغرافيون ، وغيرهم ، نسوقها في الأسطر التالية كي نقف على المفهوم الشامل الذي يزخر به الفكر العربي مشرقا ومغربا حول العمران عامة ، والمدن بصفة خاصة .

من هنا ارتبطت المدن بالعمارة ، هذه الأخيرة التي يعرفها الراغب الأصفهاني: «أنها نقيض الخراب، يقال عمر أرضه يعمرها. قال : وعمارة المسجد الحرام . يقال : عمرته فعمر فهو معمور.قال : «وعمروها أكثر مما عمروها»،و«البيت المعمور. واعتمرته الأرض واستعمرته، إذا فوضت إليه العمارة »[2].

وتاريخ ظهور وتشكل المدينة يعود إلى بداية بروز«الاحتياجات العملية التي كانت تجمع في مواسم معينة بين لفيف منم الأسرات والقبائل للسكن في موطن مشترك ، وفي عدد من المخيمات المتقاربة»[3]. ومع ازدياد الاحتياجات المختلفة للإنسان التي فرضت عليه الاستقرار والتعاون ، بدأت ترتسم الفروقات الواضحة بين القرى والمدن .

هذه الأخيرة التي تجمعت العديد من العوامل والظروف أدت إلى ظهورها ، ولذلك يرى أرنولد توينبي Arnold Toynbee في كتابه : cities on the move بأنه « من النادر أن يجد المرء مدينة في أي وقت ومكان هي مدينة تجارية فقط أو مدينة سياسية فقط، أو مدينة عسكرية فقط أو مدينة دينية فقط»[4].

بالنسبة للمفاهيم العربية الإسلامية للمدينة فإن ارتباطها بالتعمير والبناء يعود للعلاقة الوطيدة التي تربط بجوهر الدين الإسلامي الذي يعتبر جوهره ، مثلما يرى شاكر مصطفى انه : «دين مدني مرتبط بالحضر، وبالمدن والعمران وبالحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المتطورة ، وبالتنظيم المستقر للناس ، وبالاجتماع الأوسع المتعاون...»[5]. ويكون للمدينة الإسلامية من خلال ذلك شخصيتها الخاصة ، وهويتها

---

[1] عبد الجبار ناجي : دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع ، بيروت ، 2001 ، ص 59 .

[2] أبو القاسم الحسين بن محمد ، الراغب الأصفهاني : المفردات في شرح غريب القرآن ، تح ، محمد خليل عيتاني ، دار المعرفة لبنان ، 1998 ص 350 .

[3] لويس ممفورد : المدينة على مر العصور أصلها وتطورها ومستقبلها ، إشراف ومراجعة ، إبراهيم نصحي ، ج 01 ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1964 ، ص 14 .

[4] عبد الجبار ناجي : المرجع نفسه ، ص 14 .

[5] المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، مكتبة الأسد ، دمشق ، 1997 ، ج 01 ، ص 23 .

التي تعرف بها دون غيرها من المدن الغير الإسلامية ، والمرتبطة بمكوناتها التي تشكل مقوماتها الروحيـــة أو المعنوية ، وهي لبها ومضمونها وهي التي تصنع شكلها وتعطيها رموزها ولغتها وتغمرها بمعانيها وتـــضبط وظائفها ومنهج حياتها[1] .

وإذا كانت مدن المغرب الأوسط تميزت بخاصيتها المحلية والتي تميزها عن مدن المشرق ، وأن دراسة علمية وتاريخية موضوعية لا تسمح بإسقاط ما كانت عليه مدن المشرق على مدن المغرب ، لكن في نفس الوقت لا يمكن أن نتجاهل أن الفتح الإسلامي بتأثيراته التي عملت على إدخال المغرب الأوســـط بـــشبكة علاقات جديدة ، وأصبح يشكل القسم الهام من الجزء الغربي من العالم الإسلامي .

ويرى أغلب الدارسين المحدثين[2] للمدينة الإسلامية أن المدينة الإسلامية لما كانت مرتبطة ارتباطـــا كاملا بالإسلام كمنهج وطريقة في الحياة فإن أي دراسة علمية سليمة لها لا بد من أن تضع في اعتبارها أن الإسلام ونظمه وأحكامه هي المحور الأساسي الأول الذي تدور حوله المدينة بأســـرها بكـــل تفاصـــيلها وجزئياتها. بجوانبها المختلفة اجتماعية كانت أو اقتصادية أو سياسية. وأيضا في شكلها المـــادي للمدينـــة الإسلامية. لذلك يكون الرجوع للمصدر الأول ضرورة لفهم السياق التاريخي الذي حكم المدينة الإسلامية ، والتغييرات التي أحدثتها في المجال الذي امتدت إليه الفتوحات الإسلامية .

لقد جاء القرآن الكريم بإشارات كثيرة حول المدينة ، وذكرت في أربعة عـــشر آيـــة ، وفيهـــا توجيهات عامة هي بمثابة الأصول المعتمدة في عملية العمران والإسكان[3] فقد وردت في الآية 109 مـــن سورة التوبة مثلا ، إشارة إلى أن التقوى هو بمثابة المنطلق الأساس للعملية التعميرية برمتها ؛ قال تعالى :﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِـــي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة : 109]

ويقول تعالى:﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَـــذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعرا ف: 123] ، تشير هذه الآية إلى مستقر الناس ومكان إقامتهم بالمدينة .

ويقول تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامـــاً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: 19] في هذه الآية تكون المدينة مركز

---

[1] إبراهيم بن يوسف : إشكالية العمران والمشروع الإسلامي ، الجزائر ، 1992 ، ص 64 .

[2] المدينة الإسلامية . سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1988 ، ص 07 .

[3] العربي بوعياد : قضايا العمران والإسكان في الشريعة الإسلامية ، مجلة التسامح ، العدد الثامن ، السنة الثانية ، خريف 2004 ، ص 57 .

لتجمع الناس وفيها السوق والنشاط الاقتصادي الذي يتم بالنقد ، ويقول تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ [النحل : 80] وهي دعوة للناس للتفكر في اتخاذ البيوت للسكن والاستقرار، وتعمير الأرض، كما توجد الكثير من الآيات الأخرى التي تشير إلى أغراض ونشاطات أخرى للمدينة[1].

أما القرى فقد وردت في القرآن وارتبطت بأحداث خاصة بحياة الناس ، يقول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود : 100] ، وتكون هذه القرى أقل مستوى من المدينة، ويقول جل شأنه في آية أخرى : ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : 101]

بالنسبة لأحاديث الرسول ﷺ في هذا الشأن ، فإن المدينة نالت قسطا وفيرا من أحاديث الرسول الذي يجعل المدينة ذات معنى أكبر من مكان لتجمع الناس ويتجاوزه إلى المسألة الأخلاقية بالمدينة ؛ وإذا اعتبرت المدينة المنورة مرجعا لكافة المدن الإسلامية فقد جعلها الرسول الكريم ﷺ أرض محرمة ؛ فقد ورد في صحيح مسلم، أن رسول الله ﷺ قال:"إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثلي ما دعا به إبراهيم لأهل مكة"[2]، والقاعدة في هذا الجانب تتمثل في الحديث الشريف المشهور"لا ضرر ولا ضرار"[3]. وقال أبو داود عنه بأنه أحد خمسة أحاديث يدور عليها الفقه[4]، ويرى جميل عبد القادر اكبر أن هذا الحديث : « يعني عموما بالنسبة للمهتمين بمسائل العمران أن للفرد أن يتصرف كما أراد إذا لم يضر بالآخرين. وقد استخدم الفقهاء

---

[1] عبد الجبار ناجي : المرجع السابق ، ص 63 .

[2] الحديث برواية مسلم عن قتيبة بن سعيد عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عمر بن يحي المازني عن عباد ابن تميم عن عمه عبد الله بن زيد بن عاصم . صحيح مسلم بشرح محي الدين أبي زكريا بن شرف النووي . تقريظ وتعريف وهبة الزحيلي ، ج 09 ، ط 01 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2001 . ج 09 ، الحديث رقم 1360 ، ص 490 491 .

[3] أخرجه مالك في الموطأ . ص529. وهو حديث صحيح ثابت عن رسول الله ﷺ من الموطأ وغيره . ابن الرامي . محمد بن إبراهيم اللخمي : الإعلان بأحكام البناء ، تح عبد الرحمن بن صالح الأطرم ، مركز الدراسات والإعلام، دار اشبيليا الرياض ، 1995 ، ج 01 ، ص 199 .

[4] قال أبو داود (الفقه يدور على خمسة أحاديث : الحلال بين و الحرام بين . وقوله صلى الله عليه سلم : لا ضرر ولا ضرار. و قوله : إنما الأعمال بالنيات . وقوله : إنما الدين النصيحة . وقوله : ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم .) أنظر يحي بن آدم القرشي (ت 203 هـ) . كتاب الخراج ، مستخرج من كتاب : في التراث الاقتصادي الإسلامي . تقديم الفضل شلق ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1990 ، ص 493 494 495 .

والقضاة والحكام هذا الأصل للحكم على تصرفات الفرق التي تصيغ البيئة »[1]. وفي هذا الجانب يندرج الإحسان بين السكان المتجاورين في السكن بالمدينة فقد ورد مسلم حديثا عن رسول الله ﷺ قال :« لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره...»[2].

لقد كانت البداية الأولى لظهور المدينة الإسلامية ، تعود إلى يثرب ، والتي حولت إلى مدينة بمفهوم حضاري واضح انسحب على تسميتها فأصبحت تسمى المدينة ؛ فبعد الهجرة حدث تغيير واضح سعى إلى تحقيقه الرسول الكريم ﷺ ، أساسه الدعوة على الإسلام. ذلك أن الدين الذي بدأت في ضوء قيمه وتعاليمه عملية تهيئة المجتمع الإسلامي الجديد لحياة حضارية تلازمت تماما مع اهتمامه بالكيان المادي للمدينة فأدى ذلك تدريجيا إلى تكامل المراكز الحضارية الإسلامية... ومن مستوى أنضج اتجه الرسول ﷺ إلى إبدال العصبية القبلية بعصبية الموطن والأرض[3] .

لذلك فإن فلسفة العمران الإسلامية تتجاوز النظر للمدن ككيان مادي مشكل من مرافق و أحياء تخدم سكانها ، بقدر ما ترتبط هذه الفلسفة ببناء الإنسان في حد ذاته ، الإنسان الفرد الذي تكون سلوكياته محددة في إطار مجتمع تحكمه تعاليم كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن ثمة فإن بناء المدن يكون عملا مكملا لبناء الفرد داخل مجتمع المدينة .

وفي إطار القيم الإسلامية العميقة ، نجد أبو نصر الفارابي (ت 339هـ)[4] يتصور فكرة "المدينة الفاضلة"؛ وإن يكن فيه ما يشير إلى تأثره بفكر أفلاطون من جهة ، ومن جهة ثانية فقد يكون الفارابي واقعا تحت هيمنة نظام القيم الذي كرسه المتكلمون وحدهم ، بل لقد وقع أيضا تحت تأثير نظام القيم الكسروي الذي كرسته الآداب السلطانية[5]. وما يهمنا هو أنه يمثل اتجاها يعبر فيه عن فكر فلسفي إسلامي ، ويجعل "المدينة "بمثابة الاجتماعات الإنسانية الكاملة ، والتي يقسمها إلى ثلاثة مستويات :

---

[1] جميل عبد القادر اكبر : عمارة الأرض في الإسلام مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية . مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت لبنان : 1998 ، ص 200 .

[2] الحديث برواية مسلم عن يحي بن يحي عن مالك عن ابن شهاب عن الأعرج عن أبي هريرة : صحيح مسلم ، ج 10 ، الحديث رقم 1609 ، ص 222 .

[3] محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق. ص 45 .

[4] هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي ، نسبة إلى فاراب بتركستان . ولد حوالي 260هـ ، سكنت بغداد ثم سافر إلى حران وانتقل بعدها إلى الشام في 330 هـ ، وزار مصر ، مات بدمشق 339 هـ .

[5] محمد عابد الجابري : العقل الأخلاقي العربي ، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية ، دار النشر المغربية – الدار البيضاء – المغرب ، 2001 ، ص 363 .

عظمى ، ووسطى، وصغرى :« فالعظمى : اجتماعات الجماعة كلها في المعمورة ، والوسطى اجتماع أمة في جزء من المعمورة ، والصغرى اجتماع أهل مدينة في جزء من مسكن أمة ، ويضيف أن المدينة غير الكاملة هي: اجتماع أهل القرية ، واجتماع أهل المحلة ، ثم اجتماع في سكة ، ثم اجتماع في منزل . وأصغرها المنزلة والمحلة والقرية هما جميعا لأهل المدينة »[1].

ويرى محمد عابد الجابري أن المدينة التي يتكلم عنها الفارابي هي تلك التي تحدث فقط عندما « تكون على مثال نظام الكون وترتيبه»[2]، فهي ليست مدينة إلهية بل هي مدينة كونية .

أما ابن أبي الربيع ، فيربط مفهومه للمدن بمهامها التي تخدم العدل بين الناس وتحقق الأهداف التالية:

أحدها : أن يستوطنها أهلها طلبا للدعة والسكون .

والثاني : حفظ الأموال فيها من الاستهلاك .

والثالث : صيانة الحريم والخدم من الانتهاك .

والرابع : التماس ما تدعو إليه الحاجة من متاع وغيره .

والخامس : لا يتعرض للكسب وطلب المادة [3] .

نفس هذا الاتجاه الفلسفي نجده عند إخوان الصفا الذين يرون أن المدينة مكان يتجسد فيه روح التعاون بين أفراد الأمة ، من خلال تشبيههم المدينة بالمنزل الواحد ، فأمام الحاجات الكثيرة للإنسان : «...لا يمكن الإنسان الواحد أن يبلغها كلها ، لأن العمر قصير، والصنائع كثيرة ، فمن أجل هذا اجتمع في كل مدينة أو قرية أناس كثيرون لمعاونة بعضهم بعضا . وقد أوجبت الحكمة الإلهية والعناية الربانية بأن يشتغل جماعة منهم بإحكام الصنائع ، وجماعة في التجارات ، وجماعة بإحكام البنيان...»[4]. ويذهب القزويني في تحليله لعملية نشأة المدن ، أنها عملية تحصل لظروف بيئية وأمنية وحيوية للبيئة التي يعيش فيها الإنسان : «...ثم عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا في صحراء لتأذوا بالحر والبرد والمطر والريح ، ولو تستروا بالخيام والخرقاهات لم يأمنوا مكر اللصوص والعدو، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب، كما ترى في القرى التي لا سورها ، لم يأمنوا صولة ذي البأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق ،

---

[1] المدينة الفاضلة ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 1987 ، ص110 .

[2] المرجع السابق . ص 357 .

[3] سلوك المالك في تدبير الممالك . تح ، عارف احمد عبد الغني ، دار كتان ، دمشق : 1996 . ص 106 . ينقل عنه الماوردي هذه الشروط ؛ أنظر : الماوردي ، أبي الحسن علي بن محمد : تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، تح مهي هلال السرحان ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 1981 ، ص 161 162 .

[4] رسائل إخوان الصفا وخلان الوفاء : دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 ، مج 01 ، ص 99 100.

والفصيل، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار...»[1] .

ولارتباط نشأة المدن بالبناء كحرفة ، وبالبنائين كطبقة حرفية يرى أبو الفضل الدمشقي وهو من علماء القرن السادس الهجري ، أن حرفة البناء من الحرف الواجب توفرها في المجتمع ، الذي يجب عليه أيضا القيام بتأسيس المدن : «...ولأن الصناعات مضمونة بعضها كالبناء يحتاج النجار، والنجار يحتاج إلى الحداد وصناع الحديد يحتاجون إلى صناعة أصحاب المعادن . وتلك الصناعات تحتاج إلى البناء ، فاحتاج الناس لهذه العلة إلى اتخاذ المدن والاجتماع فيها ليعين بعضهم بعض لما لزمتهم الحاجة إلى بعضهم بعضا»[2].

من هنا تتجلى لنا وبوضوح أكثر ، الفلسفة العمرانية الإسلامية والتي ستكون أحد واجبات السلطان المتمثلة في تكثير العمارة وبناء المدن والأمصار، وهو ما نراه وجه من أوجه العلاقة بين العمران والسلطان ، الذي وضع له الماوردي ثمانية واجبات ليكمل عمران المدينة ، وهي :

1- أن يسوق إليها الماء إذا بعد ، في أنهار أو حياض .

2- تخطيط طرقه وشوارعه .

3- بناء جامع للصلوات في وسط المدينة ليقرب جميع الناس .

4- أن يضع لها أسواق في أماكن مختلفة .

5 - أن يسكن القبائل في أحياء خاصة بها .

6 - إذا أراد الملك أن يسكن المدينة عليه السكن في أفسح أطرافها و يحيط حاشيته وأجناده به.

7- أن يحيط المدينة بسور .

8 - أن يسكِن بالمدينة أهل الحرف والعلوم[3] .

وينقل ابن الأزرق كلام ابن حزم الأندلسي في هذا الجانب ، ويقول : « ...يأخذ السلطان الناس بالتجارة وكثرة الغراس ويقطعهم الإقطاعات في الأرض الموات ، ويجعل لكل أحد ملك ما عمر، ويعينه على ذلك فيه ، لترخص الأسعار ويعيش الناس والحيوان ، ويعظم الأجر ، ويكثر الأغنياء وما يجب فيه الزكاة...، ثم يواصل التأكيد على أن الدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دونها متعذر »[4] .

---

[1] القزويني زكريا بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، دون دتح ، ولا ط ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ، 1979 ، ص 07 . 08

[2] الإشارة إلى محاسن التجارة ، تحقيق ، البشرى الشوربجي ، مطبعة الغد ، الإسكندرية ، مصر ، 1977، ص 21 .

[3] الماوردي : تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، ص 163 164 .

[4] بدائع السلك في طبائع الملك . تح محمد بن عبد الكريم ، الدار العربية للكتاب ليبيا – تونس ، ج 1 ، ص 223 .

إن نظرة سريعة لهذه الآراء التي تمثلها مختلف اتجاهات الفكر الإسلامي لتدلنا ولا شك على أن المدينة الإسلامية تميزت بارتباطها بمضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية وأمنية وعلمية حضارية ، وهذا مرده أساسا إلى أن الدين الجديد قد جاء بثورة شاملة ، فرفض العصبية القبلية وما تنطوي عليه من مفاهيم ، وأتى بفكرة الأمة بدل القبيلة وحدة سياسية ، فحث الرسول ﷺ أتباعه من الصحابة على الهجرة للمدينة (المدينة المنورة)[1] لدوافع مختلفة ، فالإسلام أكد على الهجرة إلى المدينة أو إلى دور الهجرة الجديدة ، وتوجيه أتباعه للحياة المدنية ، وكان لهذا التوجيه أثره في العدد الضخم من المدن التي أنشأها المسلمون في مشارق بلادهم ومغاربها[2] .

فالمدينة إذا تشكل الفضاء الأمثل لكل حركة بشرية ، و يكون من الضروري عدم إغفال المتغيرات القيمية والحضارية لدراسة المدينة بالمغرب الأوسط ، من خلال امتداد حركة الفتح لهذه البلاد والتي صاحبتها حركة بناء واندفاع عمراني التي لم تستثنيها هي الأخرى .

مفهوم ابن خلدون للمدينة :

ابن خلدون يعتبر أهم وأبرز من اهتم بالعمران ، وقيمته أنه استلهم فلسفته التاريخية من الوقائع التي عايشها واطلع عليها ، وخصص قسما خاصا بالمدينة والعمران قسمها على مجموعة من الأبواب والفصول ، ذكر فيها أنواع العمران وأحكام البناء وشروط اختطاط المدن ، وأدوار المدن وخصائصها ، وتأثير الطبيعة عليها وغيرها من العوامل الأخرى .

تعامل ابن خلدون مع العمارة كظاهرة لصيقة بالمجتمع ، وأحد أهم الخصائص التي تتميز بالمجتمعات البشرية في أطوار تقدمها وانحصارها . وتعبر عن درجة رقيها وتطور علومها ، وفي المحصلة تؤول هذه الفكرة التصنيفية لاعتماد الفعاليات الاقتصادية أساس لتشكل وتبلور العمارة ، وهذا ما يؤكد المحتوى العلمي لمجمل الفكر الخلدوني[3] . يقسم ابن خلدون العمران إلى قسمين :

أولا :

العمران البدوي : وهم الذين يشتغلون بالرعي وخدمة الأرض «...وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة

---

[1] ستصبح المدينة المنورة نموذجا يُسقط و ينطبق على كافة المدن الإسلامية ، سواء في التخطيط و آداب الطريق ، والمرافق من مسجد وأحكامه الخاصة ، وأسواق وآدابها ، وإحياء وعدل بين الناس وحسن الجوار ، وكل ما له علاقة بالنظم الوظيفية الخاصة بالمدينة .

[2] عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، دار الطليعة بيروت ، 1982 ، ص 12 13 .

[3] آزاد محمد علي ، وآخرون : الفكر الاجتماعي الخلدوني ، المنهج و المفاهيم و الأزمة المعرفية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2004 ، ص 179 .

العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك »[1].

ولذلك فسكان البوادي تفرض عليهم معيشتهم عدم الاستقرار في مكان واحد ، بل الحركة المستمرة تبعا للشروط الموضوعية التي تتبع نمط العيش أو الإنتاج ، لهذا فإن اتخاذ المدن ليس بالضرورة لهؤلاء السكان . ولكنهم هم الذين يشكلون أصل المدن « فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليها لأن أول مطالب الإنسان الضروري ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا . فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ». ثم يعطينا ابن خلدون حجته في ذلك « أنا إذا فتشنا أهل مصر من الأمصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو الذين بناحية ذلك المصر، وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحضر ».

ثانيا :

العمران الحضري : يكون هذا النوع ناتج عن تطور النمط الأول من العمران ومن مظاهره بناء البيوت والمدن لحاجتهم للاستقرار: «...فيتخذون القصور والمنازل ويجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهؤلاء هم الحضر. ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان »[2] .

وعن سكان المغرب البربر فيقول أنهم « يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والشجر ومن الشعر والوبر ، ويظعن أهل العز منهم والغلبة لانتجاع المراعي ، فيما قرب من الرحلة...»[3]

انطلاقا من هذا التقسيم للعمران وأنماط العيش الذي لا يمكن فصله عنه ؛ نجد ابن خلدون يجعل من المدينة ظاهرة اجتماعية مرتبطة بنمط العيش للسكان ، كما وتعبر عن حالة المجتمع الذي يتطور من الريف إلى المدينة ليستقر فيها ويصبح جزءا منها ؛ ولعل هذا يؤدي إلى تراجع بل انتفاء العصبية القبلية وتراجعها يكون لصالح الشعور بالانتماء للمدينة .

إن أغلب المفكرين يتفقون حول علمية النظرة الخلدونية في هذا المجال والذي يشكل أحد اكتشافاته المبكرة ، قبل ظهور النظريات الحديثة الأروبية بعدة قرون . فالعمران حسبه « يشكل طبيعة تلازم حياة الإنسان في مجتمعه، ولا يستطيع أن ينفك عنها، ولكل حالة من أحوال العمران ضرورات لا يقوم بدونهما ، لأن العمران في البدء قائم على أساس السكن في حلة أو مصر حيث يتوفر فيه أسباب

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : المقدمة ، دار الجيل بيروت ، ص 132 133 .

[2] ابن خلدون : نفسه ، ص 133 .

[3] ابن خلدون : العبر ، ج 06 ، ص 116 .

العمران ، وذلك من أجل تأمين المعاش ...»[1]. ليس هذا فحسب بل أن الاستقرار بالمدن يتجاوز تأمين المعاش إلى اعتباره نمطا من أنماط حياة الحضر بصفة عامة .

فالفهم الخلدوني للعمارة قد تجاوز الطرح الاجتماعي إلى الدراسة الفيزيائية ، وهو يجعل من العمران ضرورة بشرية ، فيما يجعل العمارة أكثر من ضرورة لأنها أساس هذا العمران . فأي اجتماع أو تعاون للبشر لا بد له من أن يتحدد ويتموضع في مكان محدد بجغرافيته ؛ أي لا بد لقالب أو وعاء ينظم هذا الترابط والتواصل البشري والذي يتجسد عمليا في أشكال السكن والعمارة[2] .

من هنا يمكن معرفة الفلسفة المكانية لابن خلدون التي تشكل العمارة جوهرها ويضيف آزاد محمد علي وفقا للنظرة الخلدونية دائما ، أن التطور الذي يحصل في جانب الحرف وازدياد التعاون بين الناس يؤدي حتما إلى « تشكل العمارة المنظمة ، تلك المشيدة من المواد المتينة والثمينة ، فالعمارة المدنية هي في المحصلة من ثمرات الترف الناتج من المهن التجارية والصناعية »[3] .

خصص ابن خلدون اثنين وعشرين فصلا في المقدمة ، لدراسة العمران وأحوال المدن والأمصار؛ وفي هذه الفصول يدرس ابن خلدون المدن من مختلف أوجهها ، بداية من التخطيط واختيار الموقع وشروط صحته ، ونمو المدن وتطورها ، ويرفع ابن خلدون البناء إلى مصاف الصنائع الهامة في حياة المجتمع ويقول أنها : « أول صنائع العمران الحضري وأقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للكن والمأوى للأبدان في المدن ذلك أن الإنسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب أحواله لا بد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها...»[4]. ثم يضع شروطا عديدة يجب توافرها عند من يشتغل بهذه الصنعة ومنها : « أشياء من الهندسة مثل تسوية الحيطان بالوزن وإجراء المياه يأخذ الارتفاع و أمثال ذلك فيحتاج إلى البصر بشيء من مسائله وكذلك في جر الأثقال بالهندام فإن الأجرام العظيمة إذا شيدت بالحجارة الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها إلى مكانها من الحائط...»[5] .

لذلك اعتبرت المقدمة كتاب عمران بغض النظر أنواعه ، فجميع النشاطات تكلم عنها فبدأ بالعمران البدوي والعصبيات والخلال المؤهلة للملك ، ثم تكلم في الدول والملك والخلافة ومبادئ قيامها

---

[1] العمران في مقدمة ابن خلدون ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق ، 1985 ، ص 402 .

[2] آزاد محمد علي : المرجع السابق ، ص 174 .

[3] المرجع نفسه . ص 178 .

[4] ابن خلدون : المقدمة ، ص 450 451 .

[5] نفسه ، ص 454 .

وأسسها ، ثم البلدان والأمصار والمعاش والعلوم ، فهو أخر الكلام عن ذلك لأنه في تصوره يرى أن هـذه الأخيرة لا تتطور إلا برعاية دولة وهي غاية الملك بعد نزوله الأمصار .

أما عن أصل تشكل المدن فيعود حسب ابن خلدون إلى السلطان : « اعلم أن المدن قرار يتخـذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتؤثر الدعة والسكون وتتوجـه إلى اتخـاذ المنـازل للقرار... »[1].

ويبرر ابن الأزرق أسبقية الدول على المدن كمبرر لإنفراد الدول ببناء المدن في أمرين :

أحدهما : أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة ، التي يدعو إليه الترف والدعة . وذلـك متأخر عن البداوة .

الثاني : أن المدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظام وبناء كثير، فتحتاج إلى اجتماع الأيـدي وكثـرة التعاون. وليست من الضروريات التي تعم بها البلوى ، حتى يكون النزوع إليها شرطيا و اضطراريا ، بـل لابد من الإكراه على ذلك ، وسوق الناس إليه مضطرين بعصا الملك ، أو مرغبين في الأجر الذي لا يفي به لكثرته إلا الملك ، فإذن لا بد من تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك[2].

من هنا كانت الدولة هي المشرفة والمسؤولة على البناء والتنظيم ، لأنها هي التي لها الحق في القهر والمنع « ولهذا كانت الدولة هي السوق الأعظم للعالم ومنه مادة العمران ؛ فهي المؤلفـة بـل والقـاهرة للطوائف والجماعات والأفراد، وهي المهيمنة على الاقتصاد المتصرفة في الأموال والمتاع، وأحيانا كثيرة دون قيود ولا حدود »[3] .

شروط اختطاط المدن :

لم يستثن الفقهاء المسلمون الاهتمام بالدور الذي يلعبه حسن اختيار المكان في ديمومـة المدينـة وقابليتها للاستمرارية إذا ما كانت في مواقع تجمع العديد من الشروط، يجملها ابن أبي الربيع في ستة شروط كما يلي:

أحدهما : سعة المياه المستعذبة .

الثاني : إمكان الميرة[4] المستمدة .

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ص 384 .

[2] ابن الأزرق : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 762 .

[3] محمد عابد الجابري : التراث والحداثة ، المركز الثقافي العربي بيروت ، 1991 ، ص 220 .

[4] الميرة : هي جلب الطعام ، أو شراء الطعام .الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، ص 431 .

الثالث : اعتدال المكان وجودة الهواء .

الرابع : القرب من المراعي والاحتطاب .

الخامس : تحصين المنازل من الأعداء و الذعار[1] .

السادس : أن يحيط بها سواد[2] يعين أهلها [3].

أما ابن خلدون فإن أكثر ما يعرف به في مسألة العمران والمدن واختطاطها ، هو وضعه مجموعة من الشروط التي يجب توفرها فيها ، ونلخصها فيما يلي :

أولا :

الحماية من المضار : يصنف ابن خلدون هذا الجانب إلى قسمين ، وهو نفس ما نقله عنه ابن الأزرق أيضا:

أحدهما : أرضية (طبيعية) ، ويقول ابن خلدون في هذا الجانب « يراعى لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها »[4] . ويكون لهذا هدف دفاعي للسكان من خارج عمران المدينة الداخلي ، وتتعلق بالجند الذي يراقب ويدافع خاصة قبائل الرحل[5] .

الثاني : سماوية ، تتعلق بصحة بيئتها : يذكر ابن خلدون ما يشترط في هذا الجانب « طيب الهواء للسلامة من الأمراض فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا أو مجاورا للمياه الفاسدة أو مناقع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة ...»[6] .

---

[1] الذعار : يمكن أن تكون الكلمة زعار ، جمع زعر ، والزعر: الرجل الذي فيه زعارة ، والزعارة – بتشديد الراء– شراسة الخلق . ولها عدة معاني ، فالزعار هم أصحاب السوابق والزعارات الذين يذعرون الناس ويخوفوهم ، ورجل زيعر قليل المال أو سيئ الخلق . الفيروزأبادي : المصدر السابق ، ص 360 .

[2] السواد : هو الأراضي الزراعية والقرى المأهولة . ويقال سواد الناس أي عامتهم وسواد البلدة أي قراها ، الفيروزابادي : نفسه ، ص 263 . وقد تكون الكلمة محرفة وتكون بدل ذلك : سور .

[3] بدائع السلك في طبائع الملك ، ج 01 ص 106 . الشروط نفسها ينقلها الماوردي في كتابه : تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، ص 162 163 .

[4] المقدمة . ص 384 . ابن الأزرق ج 02 ص 764 .

[5] Giovanna Calasso, *Les Remparts Et La Loi, Les Talismans Et Les Saints. La Protection De la Ville Dans Les Sources Musulmanes Médiévales*, Bulletin d'études orientales tome xv année 1992 damas, 1993, p. 84.

[6] ابن خلدون : المصدر السابق ، ص 384 385 . ابن الأزرق : المصدر السابق ، ج 2 ص 765 .

ثانيا :

جلب المنافع : ومما يراعى فيها من أمور فيرتبها كما يلي :

أحدها : الماء كأن يكون البلد على نهر أو بإزائه عيون عذبة ، لأن وجوده كذلك يسهل الحاجة إليه ، وهي ضرورية .

الثاني : طيب مرعى السائمة وقربه ، إذ لابد لكل ذي قرار من دواجن الحيوان ، للنتاج والضرع و الركوب ، ومتى كان المرعى الضروري لها كذلك ، كان أوفق من معاناة المشقة في بعده .

الثالث : قرب المزارع الطيبة لأن الزرع هو القوت ، وكونها كذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله .

الرابع : الشجر للحطب والخشب ، فالحطب لعموم البلوى به في وقود النيران والخشب للمباني ، وكثير مما يستعمل فيه ضروريا أو كماليا .

الخامس : وليس بمثابة ما قبله قربه من البحر ، لتسهيل الحاجة القصية من البلاد النائية . ولا خفاء أن هذه الأمور تتفاوت بحسب الحاجة وما تدعوه إليه ضرورة الساكن[1] .

ولا شك أن المدن الإسلامية تتشابه كثيرا في التركيب ، ولكن أيضا تظهر نوعيات مختلفة وغنية تنتج من مؤثرات الموقع المحلي فهناك عدة عوامل بعضها طبيعي وبعضها بشري تؤثر على أشكال المدن . وأن هذه العوامل تختلف من منطقة لأخرى. فالقرارات البشرية على موقع وتصميم المباني، ومع هذه الاختلافات يكون من الصعب جدا إعطاء قاعدة عامة لسجية المدينة الإسلامية[2].

لا تقتصر النظرة الخلدونية على دراسة المدينة من مظاهرها الخارجية فقط . بل إنه يفرق بين المستويات المختلفة للناس الذين يبنون ويسكنون في هذه المدن ، على اختلاف مستوياتهم المعيشية « فمنهم من يتخذ القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه...، ويهيئ مع ذلك الأسراب والمطامير للاختزان لأقواته والإسطبلات لربط مقرباته إذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالأمراء ومن في معناهم . ومنهم من يبني الدويرة والبيوت لنفسه وسكنه وولده لا يبتغي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر...»[3] .

إن بناء البيوت اعتبر في نظر الفقهاء المسلمين من الضرورات التي لا يستغنى عليها. ويقول الجويني ت (478هـ) في هذا الشأن : «فأما المساكن ، فإني أرى مسكن الرجل من أظهر ما تمس إليه حاجته ، والكن

---

[1] ابن خلدون : نفسه ، ص 385 386 . ابن الأزرق : نفسه ، ج 2 ص 766 .

[2] محمد شوقي إبراهيم مكي : المدخل إلى تخطيط المدن ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1986 ص 110 .

[3] ابن خلدون : المصدر السابق ، ص 451 .

الذي يأويه وعيلته [كذا] وذريته ، مما لا غناء به عنه »[1]. ومن خلال تكاثر و ازدياد عدد هذه البيوت والمنازل تكون المدينة هي المحصلة التي تستغل المكان لتخطيط الشوارع و بناء المرافق وفق مصالح سكان المدن .

من أهم المصنفات التي تطرقت إلى ذلك نذكر: "كتاب الحيطان : أحكام الطرق والسطوح و الأبواب ومسيل المياه والحيطان في الفقه الإسلامي "، لصاحبه الشيخ المرجي الثقفي (من علماء القرن الرابع الهجري أو الذي بعده) وفي هذا المصنف جمع المؤلف مسائل دعوى الحيطان والطرق ومسيل المياه طبقا لمذهب الفقه الحنفي[2]، وفيه تطرق إلى مسائل استحقاق الحائط بالجذوع[3] وقضايا تخص مسيل الماء والطريق[4]، وهي أحكام لها دلالتها في تعريفنا على الأقل بالطابع العمراني الموجود من جهة ، ومن جهة أخرى تعطينا ردا واضحا على ادعاءات المستشرقين الذين لهم أحكام غير علمية على العمران العربي الإسلامي .

ابن الرامي وأحكام صنعته :

إذا ما اعتبر المرجي الثقفي مصدر مشرقي ، فإن المصدر الهام الآخر والذي لا غنى عنه في دراسة المدينة ببلاد المغرب في العصر الوسيط ، يتمثل في المصنف الموسوم "الإعلان بأحكام البنيان" لإبن الرامي البناء (ت 734هـ) وهو من أدق المصادر وأكثرها تفصيلا. وإذا كان هذا المصدر متأخرا (ق 08 هـ) فإن المصادر التي اعتمدها في مصنفه تسمح له بأن يكون من المصنفات الشاملة . زمانا ومكانا .

يقول ابن الرامي عن طبيعة مصادر كتابه :« ...فإن هذا كتاب جمعت فيه مسائل الأبنية في الجدار ونفي الضرر والغروس، والأرحية، من أمهات الدواوين، وكتب المتأخرين، ونوازل القضاة ، ومسائل المفتين ، فيه من المدونة[5]، وفيه من الواضحة[1]، وفيه من العتبية[2]، ومن كتاب عبد الله بن عبد الحكم[3]، ومن

---

[1] أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني (ت478 هـ) : الغياثي . غياث الأمم في التياث الظلم ، تح ، خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، 1997 ، ص 222 .

[2] المرجي الثقي : كتاب الحيطان أحكام الطرق والسطوح والأبواب ومسيل المياه والحيطان ، تح محمد خير رمضان يوسف ، دار الفكر المعاصر بيروت ، 1994 ، ص 07 .

[3] المصدر نفسه ، ص 27 29 .

[4] المصدر نفسه ، ص 143 145 .

[5] المدونة : رواها الإمام سحنون التنوخي (160هـ / 240هـ) وأصلها من سماع أسد بن الفرات المتوفى سنة 213هـ عن ابن القاسم وهما من أصحاب مالك فأخذها سحنون ورتبها ومات قبل أن يكملها . حول المدونة وحياة سحنون بن سعيد أنظر: الدباغ . أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت696هـ) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تح عبد المجيد خيالي، دار الكتب العلمية بيروت، 2005 -

كتاب ابن سحنون[4]، ومن كتاب ابن عبدوس[5]، ومن النوادر[6]، ومن التبصرة[7] وفيه مما انتخبه الموثقون في وثائقهم...»[8].

وتبرز قيمة هذا المصنف من أن صاحبه في حد ذاته اشتغل بالبناء إذ يقول :«ليعلم من قرأ كتابي هذا أني بناء أجير، فيعذرني إن وجد فيه خطأ في اللفظ أو الترتيب...»[9]. وقد أشار إلى أن هذه الصنعة (البناء) تحتاج هي الأخرى لمشرفين عليها ، يطلق عليهم اسم :"أمين البنائين" وهذا من خلال ورود نازلة

-مج الأول ، ج 02 ص 43 . ابن فرحون . إبراهيم بن نور الدين : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تح مأمون بن محيي الدين الجنان ، دار الكتب العلمية بيروت ، 1996 ص 263 268 . محمد بن محمد بن مخلوف : شجرة النور الزكية ، دار الفكر ، ج 1 ص 69 70 .

[1] الواضحة : كتاب لعبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون ، أصله من طليطلة ، ولاه عبد الرحمن بن الحكم فتوى قرطبة ، وكان حافظا لفقه مذهب مالك ، ألف مجموعة كتب منها الواضحة في السنن والفقه ، والجامع ، وفضائل الصحابة ، وغريب الحديث ، وتفسير الموطأ، وغيرها كثير، وقد اختلف في سنة وفاته . ويورد ابن فرحون تاريخ وفاته أنه قيل سنة ثمان وثلاثين ، وقيل : سنة تسع و ثلاثين ، ومائتين . ابن فرحون : المصدر السابق ، ص 252 256 . ابن مخلوف : المرجع السابق ، ج 01 ص 74 75 .

[2] العتبية : كتاب لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي الأندلسي (ت 255هـ) تسمى بالمستخرجة لأن العتبي استخرج من الأسمعة المسموعة من مالك وأصحابه ، واعتمدها بعض المالكية مثل ابن رشد . ابن الرامي : المصدر السابق . ج 01 ، ص 91 ، وهامش رقم 07 ، ص 120 .

[3] عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث (155هـ /214هـ) : ولد بمصر، وهو مولى عميرة ، امرأة من موالي عثمان بن عفان ، ويقال أنه مولى رافع مولى عثمان ، فقيه مالكي ، كانت أسرته بمصر أسرة جاه ، وكان صديقا للشافعي ونزل عنده لما قدم مصر ، له مجموعة كتب عن المذهب المالكي ، والراجح أن ابن الرامي قد استفاد من كتابه "القضاء في البنيان" . ابن فرحون : الصدر السابق ، ص 217 218 .

[4] ابن سحنون : هو محمد بن عبد السلام بن سعيد التنوخي (ت 256 هـ) : سمع من أبيه سحنون ، وكان إماما في الفقه على مذهب أهل المدينة ، وكان يناظر أباه ، من كتبه المسند في الحديث ، وله كتاب مشهور هو الجامع جمع فيه فنون العلم والفقه تفوق الستين وكتب أخرى كثيرة . الدباغ : معالم الإيمان ، مج الأول ج 02 ص 65 72 . ابن فرحون : المصدر السابق ، ص 333 334 .

[5] ابن عبدوس : هو محمد بن إبراهيم بن عبدوس بن بشير (202هـ/ 260 هـ)، أصله من العجم ، وهو من موالي قريش ، من كبار أصحاب سحنون ، ألف كتابا سماه المجموعة على مذهب مالك وأصحابه لكنه مات ولم يكمله . ابن فرحون : المصدر نفسه ، ص 335 336 .

[6] النوادر : هو كتاب النوادر والزيادات لعبد الله أبو محمد بن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ) أخذ الفقه المالكي عن فقهاء بلده القيروان ، وسمع من شيوخها ، ثم رحل لبلاد المشرق وحج ، وكتابه مشهور يقول ابن فرحون أنه أزيد من مائة جزء ، وكتاب مختصر المدونة ، وكتاب تهذيب العتبية ، وأخرى كثيرة . ابن فرحون : المصدر نفسه ، ص 222 223 .

[7] التبصرة : كتاب لأبو الحسن بن محمد الربعي المعروف باللخمي (ت 478هـ) فقيه مالكي ، من الذين تفقه عندهم ابن محرز ، وأخذ عنه أبو عبد الله المازري وأبو الفضل النحوي وغيرهم . له تعليق كبير على المدونة سماه : التبصرة . ابن فرحون : المصدر نفسه ، ص 298 . ابن مخلوف : المرجع السابق ، ج 01 ص 117 .

[8] ابن الرامي : المصدر السابق . ج 1 ص 119 121 .

[9] ابن الرامي : نفسه . ج 1 ص 122 .

لسحنون عن متخاصمين على حائط بينهما ، يقول ابن الرامي : « سأل حبيب[1] سحنونا عن حائط عليه سترة تنازع فيها رجلان وهي بين داريهما ، وكل واحد منهما يدعيه ويدعى السترة ، فتوجه إليه أمينان من البنائين ، فنظراه وذكرا أن عقد الحائط الأسفل من الجانبين إلى واحد منهما...»[2].

وقد وضع ابن الرامي قواعد للعمران وأسس لبناء مرافق المدن التي يجب أن لا تكون مضرة بسكانها مثل دخان الحمامات والأفران ، فيذكر أن « الدخان ينقسم على قسمين، منه ما يمنع ومنه ما لا يمنع ، فالذي يمنع : دخان الحمامات والأفران وما قاربه ، والذي لا يمنع منه : دخان التنور والمطابخ وما قاربه مما لا بد منه ولايستغنى عنه طبخ المعايش وغيرها مما يستدام أمرها »[3] أما أضرار الروائح الناتجة عن دبغ الجلود فتمنع ويجبر على إزالتها من المدن[4]، ونفس الشيء بالنسبة لمواضع الكمادين[5] والأرحية « فمنه ما يضر بالجدران بالهز، ومنه ما يضر بالساكن من كثرة الضرب...»[6] لذلك وجب بناءها خارج المدينة لكي لا تضر بالجيران .

ولا يمكننا التوسع أكثر فيما يخص المرافق الداخلية للمدينة لأن ذلك مجال آخر من الدراسة ، وما يهمنا في هذا الجانب هو التشريعات التي وضعها الفقهاء المسلمين في مجال البناء الذي أخضع إلى قوانين مستخرجة من عقيدتهم ، و لم تترك على النمط القديم السائد بالمنطقة . و يأخذنا ابن الرامي إلى مجال دقيق فيما يخص نظام المدينة في مؤلفه وهو غني وشامل لكل ما له علاقة ببناء المدينة والشوارع والأزقة وبناء الدور وحق الجار ونظم المياه والقنوات والمجاري والطرق وغيرها كثير .

---

[1] حبيب بن نصر بن سهل التميمي (201هـ/287 هـ) : من أصحاب سحنون ، وهو من أبناء الجند القادمين من إفريقية ، وهو فقيه ، سمع من سحنون ، وقد أدخل ابن سحنون سؤالاته لسحنون في كتابه ، وله كتاب في مسائل سحنون سماه الأقضية . ابن فرحون : المصدر نفسه ، ص 175 176 .

[2] ابن الرامي : المصدر السابق . ج 1 ص 141 142 .

[3] ابن الرامي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 204 .

[4] ابن الرامي : نفسه ، ص 210 .

[5] الكماد : القصار الذي يدق الثوب ويحوره . ابن منظور : المصدر السابق ، ج 05 ص 104. الفيروز أبادي : المصدر السابق ، ص 285.

[6] ابن الرامي : المصدر نفسه ، ص 212 .

الفرسطائي وفقه العمارة الإسلامية :

الفرسطائي صاحب كتاب "القسمة وأصول الأراضين"[1]، لا يقل أهمية عن المصادر الأخرى ، ويتطرق هو الآخر إلى أدق مسائل العمران والمدن والقرى ، غير أن اهتمامه الأكثر كان بالدرجة الأولى بالقصور ، وبذلك فهو يمثل أحد أهم المصادر الغنية فيما يخص المدينة الإسلامية ، ويعطينا صورة عن المجتمع في المدينة والأحكام الواجب العمل والتقيد بها من منظور إسلامي خالص .

يتطرق الفرسطائي إلى كل ما له علاقة بالمدينة بدءا من اختيار الأرض وتحديدها ثم بناء الحيطان ، وأحكام سقوط الحيطان ، وإنشاء الطريق ، وأحكام إنشاء السوق، والمسجد، ومساحة الشارع، وحقوق الجار، إلى غير ذلك من مسائل بناء وتخطيط المدن.

أما ما يتعلق ببناء المساكن ومنه تأسيس المدن فيقول : «...إذا أراد قوم أن يحدثوا منزلا عامة كانوا أو خواص فإنهم يحدثونه في أرضهم أو في ارض من أذن لهم أو في أرض لم تكن لأحد، كما اتفقوا على حدثه وعمارته فيما يعمر كل واحد منهم ، ويجوز لهم الاتفاق على عمارته بالسوية ، وعلى ما لهم فيه قل أو كثر، ويجعلون له طرقه ومجازاته ومنافعه على ما اتفقوا عليه من سعة طرقه وذلك باتفاقهم كلهم العام منهم والخاص أو ما رأى لهم أهل النظر منهم أومن غيرهم مما اتفقوا عليه من البنيان والأحداث . فإن بنوا أو عمروا أو أحدثوا فلا يصيب من أراد منهم نقص ذلك ولا نزوعه سواء في ذلك عامتهم وخاصتهم أوغيرهم من الناس...»[2].

وبما أن الكثير من المدن الإسلامية بنيت على مدن قديمة ، أو بالقرب منها ، ففي هذه الحالات يحدد حكمها بقوله :« قلت : فقوم اشتركوا في أرض وفيها آثار الأولين من البنيان أو غيره فاقتسموها ليبنوا فيها قصرا إن كان يبني كل واحد منهم بكل ما وجد في سهمه من الحجارة مبنيا أو غير مبني منجورا كان أو غير منجور. قال : كل ما كان من ذلك غير معمول فلا بأس أن يبني به، وما كان معمولا فلا يبني به إلا باتفاق أصحابه أو بإذنهم سواء من ذلك ما كان على وجه الأرض أوما كان مدفونا...

...وأما ما وجد من الأعمدة رخاما كانت أو غير رخام فهو مشترك فيما بينهم جميعا. وكذلك من وجد في سهمه من جميع ما ذكرنا فهو له يفعل فيه ما أراد »[3] .

---

[1] أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر : القسمة وأصول الأراضين ، كتاب في فقه العمارة الإسلامية ، تح محمد صالح ناصر والشيخ بكير بن محمد الشيخ بلحاج ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، 1993 .

[2] الفرسطائي : نفسه ، ص 97 .

[3] نفسه ، ص 190 .

لقد وجد المسلمون الفاتحون لبلاد المغرب الأوسط المدن التي كان أغلبها يسيطر عليها البيزنطيون ، وقد تركها هؤلاء الفاتحين تسير سيرا طبيعيا ، و لم يحدثوا أي تغيير جذري إلا بما يتوافق والتعاليم الجديدة للدين الإسلامي ؛ فقد كانت تجمع عشرات آلاف المسلمين في مكان واحد يتطلب بناء نمط جديد من دور العبادة القادرة على استيعاب سكان المدينة كلهم في وقت واحد في المدن القديمة التي لم يقطنها سوى عدد محدود من المسلمين ، كانت الأبنية المحلية التقليدية تفي بحاجاتهم[1] .

وفي الكثير من المدن التي ستبنى في هذه البلاد تحكمت فيها الأعراف المحلية الخاصة بكل منطقة ؛ فقد ذكر الفرسطائي في مسألة الاتفاق بين جماعة المسلمين على المواد التي تستخدم في عمليات البناء ، والتي يرى أنها تكون حسب ما جرت عليه عادة الناس في كل منطقة . نفس الشيء بالنسبة للبناء إذا أريد تجديده : «...وإن اتفق قوم أن يبنوا قصرا فاختلفوا فيما يبنون به، فإنه إن كان ذلك القصر قبل ذلك فليبنوه بما بني به أول مرة ، فإن كان بالجبس فبالجبس ، وإن كان بالطين فبالطين . أو بغيره فبغيره على هذا الحال . وإن لم يعرفوا ما بني به أول مرة ، فلينظر في ذلك أهل النظر منهم ويؤخذون على ذلك ويتآخذون عليه . وأما إن كانوا إنما أرادوا أن يحدثوا بنيانه ، فعلى قدر ما اتفقوا عليه من ذلك . وإن لم يتفقوا على شيء فليبنوه بما بني به أهل ذلك البلد أو ما رأى أهل الصلاح. ويرجع ذلك إلى أهل النظر كله في طول البنيان وقصره وسعة أساسه أو جنس ما يبنون به وكذلك سعة الباب وضيقه إنما يعملون له مقدار ما يدخل جميع ما يحتاجون دخوله فيه ، وإن اختلفوا في الباب الذي يجعلونه لقصرهم ، فإنه إن كان له باب قبل ذلك فليجعلوا له مثل ذلك الباب...»[2].

أما ابن الرامي وردا على حالة الجدار يكون بين داري الرجلين يدعيه كل واحد منهما لنفسه ، فقال :"يحكم في ذلك بما جرى من عادة المالك أن يفعله في ملكه ، لأن العرف والعادة أصل يرجع إليه في التنازع إذا لم يكن ثم أصل يرجع إليه ، لقول الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ [الأعراف : 199][3] على أن الأفراد الذين يريدون بناء البيوت داخل المدينة ، فيكون ذلك في الإطار الذي تسمح به قيم الشريعة الإسلامية ، خاصة في عدم إيذاء الجار، وعدم البناء في أرض الغير ، يقول الفرسطائي: «...وأما أرض الرجل التي لم يشترك فيها مع أحد فإنه يبني فيها كيف يشاء ولا يحذر في ذلك إلا ما يضر بجاره من

[1] بولشاكوف ومجموعة من المستشرقين : المدينة العربية في القرون الوسطى ، (المثاقفة بين العروبة والإسلام) ، ترجمة حسان إسحاق ، دار الحصاد للنشر و التوزيع ، دمشق ، 2000 ص 129 .

[2] الفرسطائي : المصدر السابق ، ص 188 .

[3] ابن الرامي : المصدر السابق ، ج 1 ص 124 125 .

الظل أو العلو على دار جاره أو ما أشبه ذلك من المجازات وما لا يستغنون عنه من الطريق لمن يدخلها ومن يخرج منها ومن يأوي إليها ، والمقاعد التي يضربها جاره »[1]. أما فيما يتعلق بالمحافظة على المرافق العامة للمدينة الإسلامية والتي تكون في أحياء خاصة ووفقا لمصلحة الناس ، فإنه يمنع اتخاذ البيوت لغير الغرض الذي أنشأت من أجلها ، وهذا تجنبا لحدوث اضطراب في الحياة الاجتماعية أو ما من شانه أن يضر بسكان المدينة ، وهذا ما يؤكد عليه بقوله «...وأما أن يجعلها فندقا للمسافرين، أو يجعلها حوانيت ،أورحى، أوحماما ، أومعصرة ، فإنهم يمنعونه من ذلك ، وكذلك كل ما يكون فيه مجمع الناس في تلك الدار فإنه يمنعونه منه ، وكذلك هو إن أراد أن يتخذ مكان يجلس فيه قدام داره ، أو مكان يرقد فيه في السكة فإنهم يمنعونه. وأما وضع كل ما يحتاجون إليه في تلك السكة ؛ مثل الحجارة ، والتراب ، والطين ، والغلال في وقت حاجتهم إلى ذلك ، إذا أراد أن يبني فيها شيئا فلا يمنعونه من ذلك...».

ويجعل الفرسطائي للمدينة حريما خاصا بها « وحريم المدينة خمس مائة ذراع و منهم من يقول مائتان ومنهم من يقول أربعون ، ومنهم من يقول ليس لها حريم ويشرح الفرسطائي مميزات هذا الحريم وآدابه :"وهذا الحريم إنما يمنع منه أصحاب المدينة من أراد أن يحدث مدينة أخرى بجانب مدينتهم. وكذلك أصحاب القصر إنما يمنعون من أراد أن يحدث قصرا آخر بجانب قصرهم . وأما غير هذا من العمارة مما لم يضر بأصحاب المدينة، وأصحاب القصر فلا يمنعون منه. ويمنعون من أراد إحداث المضرة بجانب المدينة والقصر سواء الخاص أو العام »[2].

إن المدينة الإسلامية في أدق تفاصيلها وخصائصها ، نجدها تتجلى خاصة في منع التعاليم الدينية كل ما يضر بحياة الناس أو يسبب الأذى للغير، وكل ما يتعارض مع القيم الإسلامية . على أن هذه القيم الجديدة لم تسمح بالمبالغة في العمارة والبناء ، واكتفت بما هو ضروري لحياة الناس ، وفي هذا الإطار فإن الجويني يقول أنه :« يتعين الاكتفاء بمقدار الحاجة وتحرم ما يتعلق بالترفه والتنعم »[3].

لعل هذه الأسباب هي التي جعلت القرون الأولى التي تلت مراحل الفتوح الإسلامية تتميز بالبساطة والابتعاد عن التعقيد . وقد أدى ذلك إلى قلة العمران في هذه المرحلة وبساطته خاصة في مرحلة حكم الخلفاء الراشدين ، ويبرر ابن خلدون ذلك (سبب قلة العمران في دولة الخلافة) بسبب « ما كانوا عليه

[1] الفرسطائي : المصدر السابق ، ص 195 .

[2] الفرسطائي : المصدرنفسه ، ص 448 .

[3] الجويني ، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله : غياث الأمم في التيّاث الظُلَم (الغياثي) ، تح عبد العظيم الديب ، مكتبة إمام الحرمين ، 1981 ، ص 223 .

من غضاضة الإسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفها »[1]. كما أن تعاليم الدين الإسلامي تبتعد عن الغلو في البناء ، وتقضي بضرورة أن « يتعين الاكتفاء بمقدار الحاجة ويحرم ما يتعلق بالترفه والتنعم »[2]. وبديهي أن تتميز هذه المرحلة بقلة المدن المنشأة في البلاد المفتوحة من جهة ، ومن جهة أخرى فإن نظام المدينة واجهته صعوبات منها مسألة إدماج الرحل[3]، والذين كانوا يشكلون دعامة وجوهر نظام مجتمع الفاتحين . « فكان لكل قبيلة حيها الخاص بها في المدينة ، بالقيروان ، بالكوفة ، البصرة والفسطاط ، وأيضا مثل القيروان ، لكل حي مسجده »[4]. هذا الأخير الذي يعتبر من التكوينات المعمارية الأساسية للمدن الإسلامية ، ويمثل محورا رئيسيا من محاور تخطيطها ، واقتضت وظائفه الدينية والتعليمية والسياسية أن يكون موضعه وسط المدينة ليكون قريبا من كل موضع فيها، ومن حوله خطت الخطط التي توجهت شوارعها الرئيسية إلى المسجد الجامع الذي يتوسطها[5].

مفهوم الجغرافيين للمدينة :

لا تكتمل صورة المدن الإسلامية إلا إذا عرفنا مقولات الجغرافيين ، ومختلف مفاهيمهم فيما يتعلق بموضوع المدينة والمدن . إذ يعتبر الكثيرين أن ما كتبه العرب من الكتب الجغرافية هي كتبا في جغرافية المدن بقدر ما هي الجغرافيا الإقليمية ، وأن ذلك يعود لاهتمامهم بالجوانب الحضارية ، ومراكز السلطة السياسية ، ومحاور الجباية ، ونقاط الدفاع والحرب ، ومنابر الدين ، والتجمع السكاني ، ومحطات القوافل ، وكل ذلك يتجمع في المدن[6]، ونستفيد من الجغرافيين كثيرا في تحديد وضبط المصطلحات الخاصة بالمدن والتي تدل على شمولية المفهوم كما قلنا عند هؤلاء . كما تدلنا على مستوى المدينة وحجمها .

يقدم لنا المقدسي ثلاثة مفاهيم تتعلق بمسألة العمران والمدن ، تتعلق بتعريفه للأمصار ، والمدن ، والأقاليم والنواحي ؛ في البداية نجده يقسم العمران إلى عدة أصناف تراتبية حسب درجتها ، ويقول : « اعلم أنا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات كالحجاب والمدن كالجند والقرى كالرجالة"، ثم يضيف ويرد على

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ، ص 225.

[2] الجويني : المصدر السابق ، ص 223 .

[3] هشام جعيط : نشأة المدينة الإسلامية ، ص 203 .

[4] Georges marcais, *La conception des villes dans l'islam* .revue d'alger numéro 10, tome 2, .alger, 1945, p.526 .

[5] عثمان عبد الستار : المدينة الإسلامية ، ص 15 .

[6] مصطفى شاكر : المدن في الإسلام ، ج 01 ص 47 .

اختلاف رأي الفقهاء في تعريفهم للمدن ويقول : « فقالت الفقهاء : المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود ويحلُه أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه »[1].

أما مفهومه هو للمدينة فيقول : « وأما نحن فجعلنا المصر كل بلد حلّه السلطان الأعظم وجمعت إليه الدواوين وقلدت منه الأعمال وأضيف إليه مدن الإقليم »[2] ويعطي أمثلة بدمشق ، والقيروان وشيراز. ثم يقول أن هذه الأمصار قد تكون لها نواح وأقاليم فيها مدن تابعة لها ، مثل تبعية الزاب لإفريقية . أما هذه الأقاليم فلها مكوناتها « ولا بد لكل إقليم من كور ثم لكل كورة من قصبة ثم لكل قصبة من مدن »[3].

أما مفهومه للنواحي فهو يعطينا مثال عن مجموعة نواحي قرطبة التي سأل عنها ؛ فقال : « قلت : هل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا. قلت : فإشبيلية وبجانة وذكرت عدة من البلدان ؟ قال : هذه نواح لها أقاليم كما تقول القيروان ، وتاهرت ، وسجلماسة »[4] .

من خلال هذه التعريفات نفهم أن المقدسي يحصر المدينة في المكان الذي يجمع بين وجود السلطان ، والمنبر ، وإقامة الحدود ، وهي إشارة إلى ضرورة توفر سلطة الدولة بدواوينها و تنظيماتها ليتسنى لها الإشراف على شؤون الناس بالمدن ، فالمدينة إذن اعتبرت في مفهومه أحد مظاهر السلطة ووجودها .

إن مفهوم المقدسي لا يناقض ما جاء به الفقهاء حول تعريفهم للمدن ، والتي ارتبطت بإقامة أركان الدين ؛ خاصة شروط إقامة صلاة الجمعة، والمتمثل في المسجد الجامع « فكل أسبوع يتجمع الناس المسلمين من أجل هذا الواجب الضروري ، والذي لا يؤدى خارج المقر الدائم... وهنا يكون تدخل الإسلام بتعاليمه التربوية ، فيما يخص صلاة الجمعة . السلطة المركزية ممثلة في شخص قائد الجند، أو الحاكم، يؤسس في كل مدينة مهمة، منشأة هامة : مسجد جامع ، والذي يحضره الأمير وتقام فيه صلاة الجمعة ويأخذ مكان مركزي في عمران المدينة »[5].

ونجد أن كل الباحثين يتفقون على أن المسجد الجامع هو أساس التنظيم لعمران المدينة ومن حوله يخطط لبقية الأنشطة ، ولذلك فقد احتل موضع المركز الرئيسي في المدينة ، وبعد ذلك يتم تخطيط مواضع

---

[1] المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص 44 .

[2] المصدر نفسه ، ص 46 .

[3] المقدسي : ص 46 47 . عبد الجبار ناجي : دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ، ص 71 72 .

[4] المصدر نفسه ، ص 189 .

[5] Georges marcais . OP. Cit, p. 525 - 526 .

الأسواق والأحياء السكنية وبقية النشاطات الأخرى[1]، فهو يمثل القلب النابض لهذا الجسد ، فهو بيت الله ، ولكن يجتمع فيه البشر للصلاة والتشاور والدرس والتعليم أيضا ، ومنه تنبثق المدرسة ، والسوق والتقية والخان... وبيت الحكم، وبيت المال ، تلبي احتياجات الناس الروحية والجسدية من المهد إلى اللحد، ومن هنا جاء اهتمام المسلمين بهندسة المسجد وزخرفته وتقسيم الحيز فيه والحيز المنبثق منه ، تقسيما يفي بأغراضهم الروحية والجسدية[2] .

إن تركيب وتنظيم مدن العصور الوسطى يتضح بتمركز المدينة حول المسجد الجامع ، وقصر الحاكم ، وبيت مال المسلمين ، فيما تتفرع الشوارع الرئيسية من المركز نحو الأجزاء الأخرى وبوابات البلد كل هذا كان انعكاسا للملائمة الإدارية والوظيفية[3].

ومن هنا كانت تعريفات الفقهاء المسلمين للمدن مرتبطة أساسا بالمسجد وأدواره المختلفة ؛ فعند الماوردي أن صلاة الجمعة : « لا يجوز إقامتها إلا في وطن مجتمع المنازل يسكنه من تنعقد بهم الجمعة ، لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفا إلا ظعن الحاجة، سواء كان مصرا أو قرية . وقال أبوحنيفة : تختص الجمعة بالأمصار ، ولا يجوز إقامتها في القرى ، واعتبر المصر بأن يكون فيه سلطان يقيم الحدود ، وقاض ينفذ الأحكام »[4].

الحسبة وأبعادها بالمدن :

يقرر ابن خلدون يقرر بأن تنظيم أمور الناس داخل هذا الحيز الذي تشكله المدينة يكون تحت إشراف الحكام ، وتكون سلطتهم بسبب « أن الناس في المدن يتشاحون حتى في الفضاء والهواء الأعلى والأسفل ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من ذلك إلا ما

---

[1] صبري فارس الهيتي : المدينة الإسلامية وخصائصها . بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول ، المجلد 05 ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، 1984 ، ص 62 .

[2] وجدان علي نايف : سلسلة التعريف بالفن الإسلامي . الجمعية الملكية للفنون الجميلة ، دار البشير للنشر و التوزيع . عمان الأردن ، ص 13 .

[3] محمد شوقي إبراهيم مكي : المدخل إلى تخطيط المدن ، ص 112 .

[4] الماوردي . أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تحقيق ، سمير مصطفى رباب ، بيروت لبنان ، 2001 ، ص 122 .

كان له فيه حق ، ويختلفون أيضا في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية و الفضلات المسربة في القنوات... »[1].

إن ابن خلدون يشير في هذا الجانب إلى مسألة الحسبة بالمدن والتي كانت أحد أهم دعائم تنظيم المجتمع داخل المدينة ، وكانت في نفس الوقت دلالة على إسلامية مدن المغرب الأوسط .

وإذا كانت المصنفات الجغرافية وكتب الرحالة تصف المدينة من حيث معالمها ، وحجمها ، فإن كتب الحسبة تأخذنا إلى الحياة العامة داخل هذه المدينة من خلال معرفة مهام المحتسب ودوره في المدن .

إن الواقع التاريخي يثبت أن المدينة الإسلامية تمتعت بنظم مختلفة كان أهم مؤشراتها الحسبة ، والتي ارتبطت أكثر بالجانب الاقتصادي وخاصة في الأسواق ، ويحدد السقطي شخصية المحتسب الذي يعين من : « ثقات أهل الأسواق ووجوه أرباب الصنائع من تعرف ثقته ، وينفع المسلمين نصحه ومعرفته...»[2]، ويضيف السقطي ارتباط المحتسب بالسوق أكثر في حالات مراقبة التجار « أن يختبر موازينهم حتى تكون على النوع الأحق وتكون صنوجهم دون حلق مطبوع عليها ولا مغشاة بجلد ولا تكون من الحجارة الرخوة كالسبخ وبعض الجندل الأبيض فإن ذلك من الخفة بحيث يخيل الناظر صنجة الرطل أنها صنجة الرطلين »[3].

وعمل المحتسب لا يرتبط بأمر واحد ، فهو يراقب دائما مثل معلم المدرسة ويحفظ الأمن بالشوارع بمراقبة مقرات وبيوت يمكن أن تهدد الأمن ويراقب التجارة ، والأسعار الحقيقية[4] ، ولعل أول ما يشير إلى تفرد المدينة الإسلامية بمميزاتها الخاصة بها هي ما يتعلق بنشاط المحتسب في أحكام البناء ، وحق الطريق ، والشارع ، وعدم إطالة الحائط على الجار، بل إننا نجد من الفقهاء المسلمين من اهتم بمسألة المدن كظاهرة قائمة بذاتها ، وألف في مختلف المجالات الخاصة بأمور البناء وغيره .

وفي نفس الوقت فالصفات المشتركة للمدن الإسلامية يمكن استخراجها من كتابات الحسبة ، على اعتبار أن هذه الكتابات هي كتابات تاريخية صدرت في الزمن الذي درست فيه معالم المجتمع الإسلامي وصارت مدنه ذات أكثرية سكانية إسلامية ، كما صارت مدنه ذات طابع إسلامي[5]. وعلى ضوء هذه الكتابات نستطيع استكمال صورة مدن المغرب الأوسط ، غير أن المرحلة التي اخترناها للدراسة تعتبر

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ، ص 453 .

[2] السقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد الملقي الأندلسي : في آداب الحسبة ، تح ، ج س كولان و ليفي بروفنصال ، ص 09 .

[3] السقطي : المصدر نفسه ، ص 18 .

[4] Georges marcais, OP. Cit, p. 531 .

[5] الفضل شلق : الأمة والدولة جدليات الجماعة والسلطة في المجال العربي الإسلامي ، دار المنتخب العربي ، لبنان ، 1993، ص 170.

مبكرة جدا لظهور مثل هذه المصنفات ، والموجود منها لا ينتمي للمنطقة فنكون غير منصفين إذا أسقطنا ظروف المشرق أو الأندلس على مدن المغرب الأوسط ، إلا أننا نفهم طبيعة هذه المدن من خلال الإشارات التي وردت في الكتابات المبكرة في هذا الخصوص ، حيث يحدد عبد الرؤوف القرطبي[1] مهام المحتسب في النظر في الصناعات وفي العطارين والكتانين والحناطين والخبازين والفرانين واللبانين والجزارين والطباخين والعديد من المهن التي لا يمكن تركها دون مراقبة من طرف المحتسب الذي تبقى مهامه الرئيسة الحفاظ على نظافة مرافق المدينة الإسلامية ومنع التدليس والغش والضرر الذي يلحق الناس .

المستشرقون والمدينة الإسلامية :

نال التراث العربي الإسلامي اهتمام الباحثين والعلماء الأجانب ، وشكلت المدينة أحد عناصر هذا التراث الذي تناوله المستشرقون الأروبيون بالدراسة ؛ فجاءت دراساتهم على تعددها واختلاف منطلقاتها وأهدافها ، مختلفة أيضا في مواضيعها ، فدرست من خلال تركيبتها الاجتماعية ومكوناتها ، كما درست من خلال المؤسسات المتوفرة فيها، غير أن اللافت في هذا الخصوص هو إخضاع العديد من هؤلاء الدارسين المدينة الإسلامية لأحكام المدن الرومانية والأغريقية ، واعتبار أن العمارة الرومانية مقياسا للمدن الإسلامية .

ترد كلمة villa في القاموس الفرنسي لاروس la rousse بمعنى : دارة . فيلا (بيت ريفي أنيق). أما كلمة village فتعني : قرية أو ضيعة أو أهل قرية. أما كلمة ville فمعناها : مدينة أو سكان مدينة[2].

يعرف لويس ممفورد المدينة أنها « منذ نشأتها الأولى وفي مراحلها التالية بأنها بناء أعد إعدادا خاصا لحفظ ونقل أدوات المدنية على نحو مركز إلى حد يهيئ أقصى قدر من وجوه التسيير في أقل حيز مستطاع »[3]، فتكون المدينة تعبيرا عن حاجة اجتماعية ، أكثر مما هي تجمع للسكان فقط . غير أننا نجد من يعرف المدينة من زاوية القطاعات الإنتاجية ، مثل بيرجل bergel الذي يعرفها « بأنها مكان إقامة للسكان الذين يعملون في غير النشاطات الزراعية »[4]. غير أن هذا المفهوم نراه قاصرا وغير وافٍ لأننا نجد المدينة كمفهوم تتجاوز ذلك إلى كونها نظام اجتماعي متكامل .

---

[1] ابن عبد الرؤوف ، احمد بن عبد الله القرطبي : آداب الحسبة و المحتسب ، تح فاطمة الإدريسي ، دار ابن حزم بيروت ، 2005 ص 65 وما بعدها .

[2] . Larousse. Paris. 1998 . أنظر أيضا حول المصطلح : سهيل إدريس : المنهل ، ط 30 ، دار الآداب ، بيروت : 2002 .

[3] المرجع السابق ، ص 53 .

[4] سعيد ناصف : المدينة الإسلامية، دراسة في نشأة التحضر ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، 1999 ، ص 46 .

يوجد تحديد آخر يستند إلى الأدوار السياسية والعسكرية التي تؤديها المدن ، ويقتضي هذا التقسيم أن تكون المدينة متوفرة على Castle أو البرج Burg أو Bourough ويقضي هذا الرأي بأن شاغلي هذه المراكز المحصنة كانوا يستغلونها في حالات الحروب أو الخوف من أي هجوم خارجي ؛ فالمدينة عبارة عن قلاع اتخذت كأماكن للتحصن في الحالات الاضطرارية ، لذلك فإن هذه النظرية العسكرية Military Thioryترى أن بناء القلاع والأسوار وحفر الخنادق زيادة في التحصين ودفع مخاطر الأعداء[1] . وهذا المفخوم يجعل الحروب والنزاعات بين المدن أصل بينها وليس مرتبط بمصالح أخرى .

أما في البلاد التي افتتحها المسلمين في العالم آنئذ ، فإن م. يانسن ينفي أن يكون الإسلام قد أثر في معمار هذه المدن بما في ذلك الصلاة وأماكن العبادة للمسلمين باستثناء التوجه للقبلة وتحريم التماثيل ، ويضيف أن المدينة الإسلامية لم توجد في أي عصر، وما حدث يصب في ثلاثة أنواع من المدن التي ظهرت بعد انتشار الإسلام وهي :

- مدن استطاعت أن تحتفظ إلى حد كبير بصورتها المعمارية كدمشق .
- مدن أخرى تغير شكلها المعماري كثيرا بعد اندماجها في الإسلام .
- ومدن أخرى أنشئت مثل بغداد[2] .

جورج مارسي Georges Marcais أخ وليم مارسي، يعتبر أهم عالم وأثري اهتم بآثار وعمارة المغرب الأوسط[3] ، اعتمد على تقسيم المدن إلى نوعين :

- النوع الأول :

مدن طبيعية (عشوائية) (La ville spontanée') : نمت طبيعيا بين مجموع السكان ، وبعد مرور مدة من الزمن ، اتخذوا مقرات لهم للدفاع عن أنفسهم أمام الأخطار الأجنبية .

- النوع الثاني :

مدن محدثة : (La ville crée) : وهو عمل الإنسان الذي يختار المكان ويخطط حدود المدينة لهدف استخدامها لنفسه[4] .

---

[1] عبد الجبار ناجي : المرجع السابق ، ص 15 .

[2] م . يانسن : تخطيط المدن في المشرق بغداد مدينة السلام نموذجا ، ترجمة ، خليل الشيخ ، مجلة التسامح ، العدد الرابع ، السنة 2004 ، ص 238 239 .

[3] يحي مراد : معجم أسماء المستشرقين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2004 ، ص 650 651 .

[4] Georges marcais . OP. Cit, p.517.

نفس هذا التقسيم نجده عند جرونوبوم Von Grunebaum الذي يقسم المدن الإسلامية إلى مجموعتين : « مجموعة المدن التلقائية أوالعفوية أوالعشوائية (Spontaneous)، ومجموعة المدن المبدعة (Created) أو المخططة »[1].

ويعود تطور هذه المدن إلى بداية تزايد السكان في مكان معين يحتم إيجاد نظم و تنظيمات لتسهيل العيش فيه، وهذا يتطلب وجود حرفيين اتخذوا تحصينات لحماية أنفسهم وتجاراتهم من خطر الغزوات والهجمات ، وبمرور الزمن تتزايد أهمية ذلك الموضوع بزيادة حجم التبادل التجاري فيتحول إلى مدينة ، وهذا يعتبر من أقدم تفسير نشأة المدن عند الغرب[2].

ويرى جورج مارسي أن الإسلام انتشر في العالم القديم العامر بالسكان ، وبالحياة العمرانية التي كانت موجودة منذ آلاف السنين ، واستقر في مدن غنية بتاريخها ؛ مثل مكة ، دمشق ، قرطبة ، قسنطينة ، هذه المدن التي لم تؤسس من طرف المسلمين ، إنما استطاع هؤلاء أن يضفوا عليها طابع الإسلام[3] .

أما ببلاد المغرب فيرى جورج مارسي أن السكان البربر الذين سكنوا الجبال (القبائل – الأوراس – الريف – الأطلس المغربي) تكون هذه المناطق قد عرفت نوعا من الحكم المحلي " Self-government" وهو مجلس للرجال يجتمعون في مكان أو في دار الجماعة تحت رئاسة رئيس القبيلة وأمنائه ، لمناقشة والنظر في الشؤون التي تخص القرية فبقيت هذه النظم سائدة كموروث قديم لم يندثر في هذه المناطق ، عكس المدن التي تقع في السهول التي فتحها العرب المسلمون[4] .

إن هذا ما يعني أن المنطقة حسب هذا المفهوم تكون قد عرفت أكثر من نمط عمراني واحد ويكون ذلك بتأثير جغرافي للجبال على الحياة الاجتماعية ، ومنه على العمران والمدن .

جان لوي ميشون يعرف المدينة الإسلامية على أن مثلها مثل المدينة الرومانية القديمة ، إن هي إلا جماعة كبيرة من أفراد يمتثلون لقوانينها . ثم هي بعد ذلك مدينة تظم المسلمين جميعا ، أي كل من يتخذ الإسلام دينا وتتوافق مع مفهوم الأمة كما يعرفها كل مسلم ويشعر بالانتماء إليها ، وبأنه مواطن فيها سواء كان منفردا أم في جماعة مقيما كان أم مرتحلا ، من أهل الحضر أم من أهل البادية[5]؛ ويضيف ميشون تفسير ذلك

---

[1] عمارة الأرض في الإسلام ، ص 176 .

[2] عبد الجبار ناجي : المرجع السابق ، ص 16 .

[3] Ibid, p.517

[4] Georges marcais, OP. Cit, p. 522 523.

[5] جان لوي ميشون: المؤسسات الدينية ، سلسلة مقالات حول المدينة الإسلامية ، إشراف ر . ب . سرجنت ، ترجمة أحمد محمد تعلب ، اليونسكو ، 1983 ، ص 13.

من أن الطابع التوحيدي المميز للإسلام يسعى في الواقع إلى توجيه حياة الأفراد والمجتمعات إلى عبادة الله الواحد الأحد و ألا يترك أي مجال من مجالات النشاط البشري المعروفة خارج حكم شريعة الله عز وجل[1] .

ويرى روجي لوتورنو(Roger Le Tourneau)[2] أن أهم ما يميز المدن الإسلامية وخصوصا ببلاد المغرب هو أن تشكلها يكون بتوسط المسجد الجامع والسوق المركزية أمام بعضهما ، وكلما كبرت المدينة ازداد المسجد والسوق بنفس حجم المدينة الجديدة ، أما العنصر الثالث المهم للمدينة فهو دار الإمارة أو بيت الحاكم ، و التي تكون عادة قريبة من المسجد و السوق (مثل الحماديين وفي الأندلس في قرطبة)[3].

أما هندسة الأسوار فتكون محاطة بأبراج دائرية ومربعة وبها أبواب صلبة ومتينة ، لكن كثيرا ما يؤدي زيادة النمو السكاني إلى تجاوز أسوار المدينة ، أما الأبواب فتكون لها أسماء ذات دلالة ، وتخطيط الأحياء يرجع إلى أهمية المدينة وحسب الموقع ، فيما تكون الأحياء الصناعية عند نقاط وجود الماء[4].

ونعتبر أن دراسة لوتورنو وافية ومنصفة إلى حد ما لأنها دراسة موضوعية لمدن وفقا للشروط والظروف التاريخية التي ظهرت فيها ، من تشكيلات قبلية ، ونظم سياسية ، وعقائدية ، و لم تكن عمل تنظيري فقط .

فيما نجد مفهوما آخر يعتمد على أن المدينة هي ذلك المكان الذي تتوافر خصائص وقوانين وضعها ماكس فيبر[5] والتي أصبحت مرجعا للعلماء في هذا الميدان ، يسقطونها على جميع المدن ومن هذه القواعد :

1 – أن يكون في المكان حصن أو سور .

2 – أن تتوافر فيه سوق أو أسواق .

3 – أن توجد فيه محكمة أو قضاء و تشريع يتمتع بقانون مستقل .

4 – وجود نقابة أو أي شكل من التعاون النقابي .

5 – أن يتمتع ذلك المكان بحكم ذاتي مركزي يستند إلى مبدأ الانتخاب[6].

---

[1] جان لوي ميشون : نفسه . ص 14 .

[2] يحي مراد : معجم أسماء المستشرقين ، ص 624 625 .

[3] Roger Le Tourneou, *Les Villes Musulman De L'Afrique Du Nord*, La Maison Des Livres , Alger , 1975 . p. 11 -12 .

[4] Ibid, p. 14 -15

[5] وضع ماكس فيبر أسس وشروط قيام المدن في كتابه :the city . new york . 1955 وإذ تعذر علينا الحصول على نسخة الكتاب فإننا نورد هذه الشروط كما جاءت في مختلف المراجع .

[6] عبد الجبار ناجي : المرجع السابق ، ص 19 . وجاءت هذه الشروط نفسها في مرجع آخر ، وهي :

- الحصون القلاعية
- الأسواق
- محكمة خاصة و قانون خاص مستقل نسبيا
- قدر من الترابط و المشاركة

وانطلاقا من هذه المعايير والمقاييس يرى ماكس فيبر أن : « مجتمع المدينة أو المجتمع الحضري بمعناه الكامل لم يتحقق إلا في الغرب، وأن وجوده في بعض أجزاء من سوريا ولبنان والعراق ليس سوى استثناء»[1].

يضيف ليوبولد تورس بالباس الذي قام بدراسة عن المدن الإسلامية الاسبانية أن « المدن الإسلامية في الشرق والغرب على السواء ، كانت تنقصها لائحة قانونية إدارية ومبان إدارية ؛ لم تكن تشكل المدن كيانا سياسيا، بل كانت منظمة على هيئة معسكرات تسمح للعامة من المواطنين أن يؤدوا واجباتهم الدينية ويتمسكوا بمثلهم العليا الاجتماعية »[2].

وإذا كانت هذه التعريفات المختلفة والعديدة تركز على جانب من الجوانب التي لها دورها في ظهور المدينة في التاريخ ، فإننا نعتقد أن هذه المفاهيم لها علاقة مباشرة بالمدينة الغربية و بالأخص المدينة الأروبية . وبالتالي يكون من الخطأ إسقاط هذه المفاهيم والتعريفات على المدينة الإسلامية، والتي لها أحكامها الخاصة.

إنه حكم ينم بوضوح عن الجهل بالأحكام الخاصة بالمدينة الإسلامية من جهة ، ومن جهة ثانية تعميم الطابع الغربي للمدن الخاص بقوانين المدن الرومانية على باقي مدن الحضارات الأخرى ، فالتعريفات السابقة لا يمكننا بأية حال اعتمادها كمقاييس عامة لمفهوم المدن ، وهذا بسبب بسيط يتمثل في كونها ذات قاعدة اقتصرت على القيم والقواعد الرومانية فقط ، و لم تكن شاملة لباقي مكونات الحضارات الأخرى .

يقول مصطفى شاكر: « ليست مدينة الرومان أو الإغريق أو المدينة الغربية بالمثل الأعلى الذي يجب أن يكون القياس عليه أو النموذج الذي يمكن أن يجمع الصفات العالمية الكاملة . فلكل مجموعة من المدن ، في رقعة معينة ملامحها »[3]، فكما أن المدينة الرومانية كان لها أسسها وخصائصها ، فلا يمكن تعميمها على المدينة الإسلامية التي كان لها هي الأخرى أحكام خاصة بها ؛ إن هذا الإسقاط جعل بعض

- - حكومة ذاتية و إدارة مستقلة نسبيا عن طريق الانتخاب من بين السكان .

أنظر : سعيد ناصف : المدينة الإسلامية ، ص 46 . 47 .

[1] سعيد ناصف : نفسه ، ص 46 .

[2] ليوبولد تورس بالباس : المدن الاسبانية الإسلامية ، ترجمة ، إليو دورو دي لابنيا ، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية ، الرياض ، 2003 ، ص 109 .

[3] المدن في الإسلام حتى العصر العثماني ، ص 14 .

المستشرقين المهتمين بالمدن والعمارة الإسلامية من أمثال كريسويل creswell[1] أن المدن الإسلامية تتميز بأزقة فوضوية متيهة ومجازات صماء (متداخلة) مع خيام وأكواخ بينها أراض ضائعة ، فيما نجد المستشرق لامنس (Lammens) الأب البلجيكي المولد وعاش ببيروت واهتم بتاريخ الشرق وحضارته[2] ينتقد المدن الإسلامية الأولى ويقول : « إن العبارات المختلفة التي استخدمها المؤرخون العرب كالحيرة والفسطاط والقيروان تقترح صورة غير منظمة لمدينة نامية »، هذه الآراء مؤشر لاقتناع الباحثين من أن المدينة لن تكون ناجحة إلا إذا خططتها سلطة مركزية[3].

هذه المفاهيم هي ما جعلت رد بعض الدارسين العرب يوصف الدراسات الإستشراقية للعمارة الإسلامية أنها تتميز بوصف العرب قوما لا يعرفون البناء فهم يعيشون في بيوت من الشعر ، يرتحلون وراء الكلأ من أجل رعي إبلهم وتجارا يكسبون رزقهم من تجارة محدودة إلى الشمال أو إلى الجنوب؛ و أن أخطر هذه الآراء ما زعمه كريسويل صاحب نظرية اشتقاق تخطيط المسجد وعناصره من الكنيسة المسيحية[4].

وفي نفس الاتجاه يقول جميل عبد القادر أكبر من أن هذه الانتقادات ما هي إلا انعكاس مباشر لمقارنة هؤلاء الباحثين للمدن الإسلامية بالمدن الإغريقية والرومانية . وذلك لأن السلطات المركزية هي التي خططت المدن الإغريقية والرومانية ، فقد اعتبرت هذه المدن مدنا مثالية أو منظمة أو مرتبة لاستقامة شوارعها وتحاذي مبانيها[5]،

ولكي نعرفها فلا بد لنا من معرفة فلسفة هذه الحضارة ، وهذا الدين الذي لم يفرط في الجانب العمراني . بل إنه يلح على تعمير الأرض و جعل العمل عبادة لله ، وهذا ما جعل الفقهاء المسلمين يعتنون بنظم المدينة الإسلامية وأحكامها الخاصة بها .

ونحن بدورنا نتساءل ؟ هل عرف هؤلاء المستشرقون آراء ابن خلدون ، والفرسطائي، وابن الرامي ، والأهم من ذلك كتب الحسبة التي تضع قوانين خاصة بنظام المدينة ، والذي يلح الكثير من المستشرقين على نفيه ، مثلما أشرنا إلى البعض منها ؛ حتى أننا نجد مثلا ليوبولد بالباس يقول : « إن الشريعة الإسلامية بكل أحكامها المرتبطة بالدين لم تنص على شيء خاص بتنظيم المباني ولا بموقعها أو خصائصها ولا

---

[1] أنظر هامش رقم 26 ، من كتاب : جميل عبد القادر اكبر: عمارة الأرض في الإسلام ، ص 473 . أما كتاب كريسويل فهو : Creswell , K . A . Early Muslim Architecture 2 nd . New York 1979.

[2] يحي مراد : معجم أسماء المستشرقين ، ص 610 613 .

[3] جميل عبد القادر اكبر : المرجع نفسه ، ص 177 .

[4] فتيحة عبد الفتاح النبراوي : الإستشراق ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، 2006 ، ص 167 168 .

[5] المرجع السابق ، ص 177 .

بالتخطيط أو بعرض الشوارع والمباني المحيطة بها ، وعند غياب المؤسسات البلدية ، فإن كل ما يتعلق بمسائل المدينة وبمبانيها حكم فيه بفعل التقاليد »[1] .

إنه رأي يدل دلالة واضحة على أن بعض مواقف المستشرقين فيها نوع من المبالغة في الحكم على المدن الإسلامية، والتي ينبغي علينا إخضاعها إلى خصائصها وبيئتها التي ظهرت فيها. فالمدينة الإسلامية في العصر الوسيط لم يكن لها مكان شبيه بميدان الكنيسة أو فناء دار البلدية في المدن الأروبية في نفس الحقبة . فقد كان مكان الاجتماعات الدينية هو المسجد الكبير، ويحتوي دائما على ساحة فسيحة تحفها الأعمدة[2].

بهذا فالمدينة الإسلامية حسب المفهوم الإسلامي، هي : « بناء اجتماعي يتكون من مجموعات من الأفراد تتفاعل مع بعضها... كما أنها مقر لإقامة الحكام والخلفاء ومركز لإدارة الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية ، وبخاصة إذا كانت عاصمة مركزية »[3].

في الأخير نقول أننا سقنا مختلف المفاهيم لنشير إلى خطأ الوقوع في مشكلة التبريرات على أن المدينة الإسلامية منظمة ومرتبة بالصورة التي هي عليها المدينة الرومانية أو غيرها من مدن الحضارات الأخرى ، دون الأخذ بعين الاعتبار عمق الحضارة العربية الإسلامية ، ولا خصوصياتها المحلية . والتي عرفناها من خلال محاولتنا استعراض مختلف مفاهيم الفقهاء والجغرافيين واللغويين العرب . ويكفي أن نعرف أيضا مكونات ومرافق هذه المدن حتى نعرف مدى الفروق التي يمكن إيجادها بين النمطين العمرانيين ، الروماني والعربي الإسلامي ، هذه المرافق التي صيغت بطرقة تحفظ النظام ، وتسهل حياة الناس فقد كانت مكملة لبعضها البعض و لها ميزتها الخاصة ، فيذكر القزويني أهمها : «...وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات ومراكض الخيول ومعاطن الإبل ، ومرابض الغنم ، وتركوا بقية مساكنها لدور السكان . فأكثر ما بناها الملوك العظماء على هذه الهيئة ، فترى أهلها موصوفين بالأمزجة الصحيحة والصور الحسنة والأخلاق الطيبة ، وأصحاب الآراء الصالحة والعقول الوافرة »[4].

وفي بلاد المغرب خضعت المدينة لشروط طبيعية ؛ تفسر لنا ظاهرة توزيع المدن بدون تساو بين مختلف المناطق ، وهو بدون شك ذو تأثير كبير على مصير الإنسان ورخائه ونموه الاجتماعي وتطوره الحضاري عبر القرون . ذلك التطور الذي يرتكز على المدن ومراكز العمران[5].

---

[1] المدن الإسبانية الإسلامية ، ص 109 .

[2] نيكيتا أليسيف : التخطيط المادي المؤسسات الدينية ، سلسلة مقالات حول المدينة الإسلامية ، إشراف ر . ب . سرجنت ، ص 105 .

[3] سعيد ناصف : المرجع السابق ، ص 49 .

[4] القزويني : المصدر السابق ، ص 08 .

[5] إسماعيل العربي : المدن المغربية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 11.

إن معرفة هذه الشروط والخصائص التي خضعت لها هذه المدن هي التي جعلت بعض المستشرقين ينصفون المدينة الإسلامية . وفي هذا الإطار نشير إلى تناول موريس لومبار عندما تحدث عن التمدن الإسلامي وأشاد بالنتائج التمدنية الإسلامية التي جلبها الإسلام معتبرا إياها من أعظم التطورات التمدنية ، وأن التمدن الإسلامي يعد أكثر بعدا وتأثيرا من التمدن الروماني ، ويضاهي إلى حد كبير التطور التمدني الهليني والأروبي الوسيط[1] ، وفي دراسته حول المدينة الإسلامية وتطورها التاريخي ، يقول مصطفى شاكر أن المولعين بالإحصاء بإمكانهم إحصاء ما يزيد عن مائة وثلاثين مؤلفا للمدن كتبت فيما بين القرنين الثالث والسابع في مدن المشرق وحده[2]. وفي بلاد المغرب الأوسط و إن قلت هذه المؤلفات ، إلا أن حركة بناء وإحياء المدن لم تنقطع طيلة هذه الفترة ، ولهذا فإن دراسة المدينة الإسلامية لا يمكن بأية حال من الأحوال فصلها عن سياقها التاريخي أو مكوناتها الخاصة بها ، ولعل أهم هذه الخصائص هي الشريعة الربانية التي تنظم حياة البشر في إطار أقرب ما تكون بحياة المدينة الفاضلة .

[1] عبد الجبار ناجي : دراسات في تاريخ المدن ، ص 31 .

[2] مصطفى شاكر : المرجع السابق ، ج 01 ص 39 .

الفصل الثاني

المدن بعد الفتح الإسلامي بالمغرب الأوسط

أولا : المدينة الحصن

ثانيا : المدينة والحكم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : المدينة – الحصن:

1 – المدن بالمغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي:

تميزت الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب الأوسط بمجموعة من الظروف التي لم تساعد السكان المحليين على سهولة التعامل مع كل وافد جديد . غير أن عمليات الفتح الإسلامي اختلفت عن المراحل السابقة إذ تميزت العملية بالبطء لكنها عملية سرعان ما تطبع المنطقة وبصورة نهائية بطابع العقيدة والحضارة الجديدة ، كما تميزت الفترة التي تمت فيها عملية الفتح بظروف اقتصادية متردية ، كانت لها امتدادات طالت خمسة قرون ، ثلاثة قبل الفتح الإسلامي واثنين بعده . بدأت الأزمة أثناء الحكم الروماني ، ثم الوندالي ، واستمرت تحت البيزنطيين الذين أهملوا ترميم المدن وتحصينها[1].

ولعل هذا ما جعل المصادر التاريخية على قلتها تخبرنا بنوع العمران السائد في هذه الفترة و المتكون أساسا من مدن – حصون[2]. فقد سبقت المنطقة أن شهدت مرحلة من السيطرة الأجنبية التي تركزت بالمدن على الخصوص ، وقد كان هذا الإطار يذكر ابن عذارى أن : « البربر حين دخلوا المغرب ، وجدوا الإفرنج قد سبقوهم إليه ؛ فأخلوهم حتى اصطلحوا، على أن يسكن البربر الجبال، وتسكن الإفرنج الأوطئة. فبنوا المدائن بها »[3]، فيما يرى ابن خلدون أن البربر « سكنوا القفار عصورا في الخيام وانتجاع الأمصار من الإسكندرية إلى البحر، وإلى طنجة والسوس حتى جاء الإسلام »[4].

من هنا كان الاهتمام البيزنطي المتزايد بالحصون ، وتراجع ظاهرة التمدين بصورة ملحوظة ، وكانت المدن– الحصون الموجودة أثناء فترة الفتح الإسلامي مملوكة في معظمها من طرف الغزاة الأجانب والذين يحددهم ابن خلدون بصورة أدق في الفرنجة « وما يسمع في كتب الفتح من ذكر الروم في فتح إفريقية فمن باب التغليب ، لأن العرب يومئذ لم يكونوا يعرفون الفرنج ، وما قاتلوا في الشام إلا الروم، فظنوا أنهم هم الغالبون على أمم النصرانية..."، ويحدد سيطرة هؤلاء على مدن إفريقية وبلاد المغرب" وكذا الأمة الذين كانوا بإفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها ، إنما كانوا من الفرنجة »[5].

استمرت المدن الرومانية القديمة في التدهور، وتناقص سكانها في ظل الحصون القوية التي شكلت قلاعهم . وبدأت عهد جديد في تاريخ التمدين الذي أعطى للمدينة مفهوم الحصن العسكري واختفى إلى

---

[1] عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2000 ، ص 43 .

[2] البلاذري : أحمد بن يحي بن جابر . البلدان وفتوحها وأحكامها ، تح ، سهيل زكار ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، 1992 ، ص 273 .

[3] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج 01 ، ص 20 .

[4] ديوان العبر ، ج 6 ، ص ، 123 .

[5] نفسه ، ج 6 ، ص 140 .

حد كبير النظام المدني[1]، وقد يعود السبب إلى أن هذه المدن الرومانية التي أخذت وقتا لتتطور إلى مدن إسلامية ببلاد المغرب وأصبحت مهجورة وعبارة عن مدن ميتة وهياكل فقط، لأن هذه المدن الرومانية لم تعمر بل بالعكس ظهرت بالقرب منها مدن إسلامية ، ونتساءل عن السبب في عدم إعمارها[2] ؟

مع الفتوحات الإسلامية تبدأ مرحلة جديدة من مراحل بناء المغرب الإسلامي والذي سيستغرق وقتا طويلا بعض الشيء مقارنة مع بعض الأقطار الأخرى ، وهذا راجع لأسباب لها علاقة بما يجري بالمشرق من خلافات سياسية. وقد كان على الفاتحين بالموازاة مع نجاح عمليات الفتح أن يفكروا في تأسيس الأمصار لاستقرار الجند ، وفي مرحلة تالية فكروا في تخطيط هذه الأمصار وتسييرها توسيعها تبعا لتوافد الهجرات من بلاد المشرق للبلاد المفتوحة .

ومع مرور الوقت أخذ المنزل مكان الخيمة ، والقائد وضع مقر الحاكم . آخذا بعين الاعتبار أولوية قوى القادة الجدد... ومع مرور الوقت كذلك احتاجت هذه المدن لقوى عسكرية آنية ، وإلى نظرة سياسية[3] ، إذ لم يكن من اهتمام الفاتحين العرب العمل على تخريب المدن ببلاد المغرب الأوسط ، بقدر ما سعوا للقضاء على التحصينات البيزنطية التي كانت تعتبر نقاط تحصن هؤلاء للوقوف في وجه الفاتحين . وإن كان من الصعب التفريق بين المدن والحصون في الفترة المبكرة للفتوحات الإسلامية ، وغلبة الطابع العسكري على العمران البيزنطي في بلاد المغرب الأوسط ، خاصة على التخوم المحاذية للجبال والبوادي والصحاري . إذ أن الأدوار كانت متشابهة بين الحصون والمدن مثلما توضحه كريستين جنتار في الجدول المقارن التالي ، والذي يبرز العوامل المشتركة بين الحصون والمدن ، والفروق بين هذين النمطين من العمران[4].

---

[1] هاشم العلوي القاسمي : مجتمع المغرب الأقصى ، ج 01 ص 337 .

[2] Roger Le Tourneou ,Op , Cit , p. 10 .

[3] Georges Marcais, Op ,Cit , p. 518- 519 .

[4] Christine mazzoli-guintard, *villes d al-andalus léspagne et le Portugal à l époque musulmane. (8e –15e siècle)*, Presses universitaires de rennes. 1996. p. 26.

الحصن	المشترك بينهما	المدينة
1 - مكـــان لمجموعة فرسان في حالـــــة استعداد.	1 - الحدود . 2- مركز الحدود. 3 - منشآت دفاعية.	1 - فضاء الأمير . 2 - مكان حـضور السلطة السياسية [1].

من خلال المصادر التاريخية يتضح وأن الفاتحين الأوائل لم يكونوا متحمسين للاستقرار في بلاد إفريقية بصورة نهائية ، ففي إطار توسعات الفتوحات الإسلامية في القرون الأولى ببلاد المغرب ، بدأت مرحلة تأسيس المدن ، ومعه تبدأ الأحكام الإسلامية الخاصة بتنظيم المدن تاريخيا في التطبيق ، والذي استمدت أحكامها من القرآن الكريم، وفي التطبيقات التي تمت بالمدينة المنورة من طرف الرسول ﷺ والرعيل الأول من الصحابة[2] .

فمن الفاتحين لبلاد المغرب نجد عبد الله بن سعد بن أبي سرح[3] « طلب منه رؤساء أهل إفريقية أن يأخذ منهم مالا على أن يخرج من بلادهم ، فقبل منهم ذلك ورجع إلى مصر، و لم يول عليهم أحدا ، و لم يتخذ بها قيروانا »[4]، و لم يفكر هذا الفاتح في الاستمرار في السير غربا لظروف لا يتسع المجال لشرحها

---

[1] الجدول مأخوذ من دراسة : Christine mazzoli-guintard, Ibid, p. 26 .

[2] Giovanna Calasso, Op .Cit. p. 94 .

[3] عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ، كان يكتب الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أخو عثمان بن عفان من الرضاعة، تولى ولاية مصر بعد عزل عمرو بن العاص عنها عام خمسة وعشرين ، وخرج إلى افريقية في جيش أكثرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم . وفي حملته هذه قتل جرجير بموقع سبيطلة ، واستقر بإفريقية سنة وشهرين ، اختلف في مكان وفاته فقيل بإفريقية والرملة وعسقلان كما اختلف في عام وفاته (قيل سنة36 هـ) أنظر : ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 09 10 .

– أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني : طبقات علماء افريقية وتونس ، تح علي الشابي ونعيم حسن اليافي ، الدار التونسية للنشر ، تونس – المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر ، 1985، ص65 وما بعدها .

– أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، تح بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي ، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر ، لبنان ، 1983 ، ج 01 ، ص 66 ؛ أبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تح ، عبد المجيد خيالي ، دار الكتب العلمية لبنان، 2005 ، ج 01 ، ص 64 إلى 73 .

[4] ابن عبد الحكم ، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري : فتوح مصر وأخبارها ، تح ، محمد الحجيري ، دار الفكر لبنان ، 1996، ص 312 . 313 . 314 . 315 . البلاذري : المصدر السابق ، ص 264 . ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ص 11 12 ؛ ابن خلدون : ديوان العبر، ج 04 ، ص 236 .

هنا[1]، وما يهمنا أن هذه الحملة التي دامت خمسة عشر شهرا كانت كثيرة الأحداث وافرة الغنيمة[2]. في حين أن معاوية بن حديج[3] تنتقل معه مرحلة الفتح إلى مستوى أكثر من التفكير في تأسيس معسكر للفاتحين. فحسب رواية ابن عبد الحكم أنه : «...افتتح قصورا وغنم غنائم عظيمة واتخذ قيروانا عند القرن ، فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر...»[4].

عقبة بن نافع بن عبد الله بن قيس الفهري[5] الذي ولاه معاوية على إفريقية ، لم يعجب بالقيروان الذي كان معاوية بن حديج بناه قبله ، « فركب والناس معه حتى أتى موضع القيروان اليوم »[6]. و يعود إليه الفضل في تأسيس مدينة القيروان التي ستصبح عاصمة سياسية لبلاد المغرب ، ثم نقل إليه الناس من معسكر القرن ، وزاد من مجال البلاد المفتوحة نحو الجنوب والغرب .

بالنسبة للفتوحات غربا فإن بسر بن أبي أرطأة[7]، وصل إلى قلعة تعرف بقلعة بسر، وهي بالقرب من مدينة تدعى مجانة . والتي تعطينا نموذجا من المدن – الحصون ، والتي ستصبح من أهم المدن الإسلامية ببلاد المغرب الأوسط .

---

[1] حول هذه الظروف أنظر : حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص 98 وما بعدها.

[2] حسين مؤنس : نفسه ، ص 106 .

[3] أبو نعيم معاوية بن حديج الخولاني ، وقيل التجيبي والكندي والسكوني ، أرسله معاوية بن أبي سفيان لاستكمال فتح افريقية سنة 34 هـ، وأصبح في عام 48 هـ عامل معاوية على مصر وإفريقية ، واختط مدينة عند القرن قبل تأسيس القيروان ، وذكر أبو العرب أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث غزوات : فأما الأولى فسنة أربع و ثلاثين في خلافة عثمان ، قال : وكانت تلك الغزاة لا يعرفها كثير من الناس ، وأما الثانية فسنة أربعين ، وأما الثالثة فسنة خمسين . وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنظر: أبو العرب : المصدر السابق ، ص 71. 76 . المالكي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 92 93 . ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ص 18 .

[4] ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، 327 .

[5] عقبة بن نافع الفهري : ولد في عهد الرسول صلى الله عليه و سلم ، واختلف في صحبته شهد فتح مصر ، وأصبح أميرا على افريقية بعد معاوية بن حديج ، عزله معاوية ورده ابنه الوليد ، تعتبر القيروان من أهم إنجازاته . وقتل في نهودة . أبو العرب : المصدر نفسه ، ص 80 . المالكي : المصدر نفسه ، ج 1 ص 97 . 98 . ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 19 .

[6] ابن عبد الحكم : المصدر نفسه ، ص 332

[7] أبو عبد الرحمن بسر بن أبي أرطأة : صحب النبي صلى الله عليه وسلم ، شهد فتح مصر واختط بها ، كما دخل إفريقية وشهد فتحها مع عبد الله بن سعد ، وأقام معه بها ، ويذكر انه تعرض إلى وسواس في آخر عمره بعد قتل عثمان رضي الله تعالى عنه حزنا عليه ، توفي بالشام . أنظر : المالكي: رياض النفوس ، ج 01 ، ص 85 . – أبو زيد عبد الرحمن الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، ج 01 ، ص 154 . 153

1- مجانة (قلعة بسر)[1] :

المصادر التاريخية القديمة وعلى رأسها ابن عبد الحكم والبلاذري لا تحدد لنا بالضبط مكان وزمان وصول بسر بن أبي أرطأة لقلعة بسر ، فرواية ابن عبد الحكم تقول أن موسى بن نصير هو من « وجه بسر بن أرطأة إلى قلعة من مدينة القيروان على ثلاثة أيام فافتتحها وسبي الذرية وغنم الأموال . قال : فسميت قلعة بسر، فهي لا تعرف إلا به إلى اليوم »[2].

أما البلاذري فيرى أن عقبة بن نافع هو من أمر بسر بن أبي أرطأة بالمسير إلى نواحي غرب القيروان ، ويروي: «...قالوا : ووجه عقبة بسر بن أبي أرطأة إلى قلعة من القيروان فافتتحها وقتل وسبي ، وهي اليوم تعرف بقلعة بسر، وهي بالقرب من مدينة تدعى مجانة عند معدن الفضة »[3].

ثم يضيف البلاذري روايته وينسب افتتاح القلعة إلى موسى بن نصير[4] ويقول : « وقد سمعت من يذكر أن موسى بن نصير وجه بسرا – وبسر ابن اثنتين وثمانين سنة – إلى هذه القلعة فافتتحها »[5].

مجانة حسب المصادر الجغرافية وكتب الرحالة ، فإنها غنية بالمعادن خاصة الحديد والفضة كما تشتهر بالمطاحن بمنطقة المغرب وكانت محطة هامة في الطريق من القيروان إلى بلاد المغرب الأوسط .

وهي على بعد أربعة مراحل من القيروان ، شرقا .

وعلى مسافة أكثر من يوم من مسكيانة ، غربا .

كما تبعد مسافة خمسة أيام عن تيجيس .

أما عن تبسة فتبعد مسافة يوم[6] .

---

[1] تسمى قلعة بسر نسبة إلى فاتحها بسر بن أبي أرطأة .

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص 345 . ويقول ابن الرقيق : أن بسر بن أرطأة أمره موسى بن نصير أن يمضي إلى صاحب قلعة مجانة ."فلما أناخ عليهم عظم عليهم أمر القتال ، ونظر الروم من العرب صبرا لم ير مثله قط . فملأهم ذلك رعبا . فألقوا بأيديهم إلى الطاعة ، فدخلها فقتل المقاتلة وسبي الذرية وغنم منها أموالا كثيرة ، فكانت تسمى باسمه قلعة بشر لا تعرف إلا به . لأنه هو الذي افتتحها . تاريخ إفريقية والمغرب ، ص 40.

[3] البلاذري : المصدر السابق ، ص 265 . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج 5 ، ص 56 .

[4] موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن وائل : يرجع نسبه إلى لخم ، وقيل إلى بكر بن وائل ، تولى خراج البصرة من طرف عبد الملك بن مروان ، ثم تولى ولاية إفريقية عام 79 هـ، وهو صاحب فتح الأندلس ، اختلف في سنة وفاته ، فقيل في سنة سبع أو تسع وتسعين هجرية . ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ص ، 39 40 . أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، تح ، روحية عبد الرحمن السويفي ، دارالكتب العلمية لبنان ، 1997 ، ص 399 . ابن قتيبة الدينوري . أبي محمد عبد الله بن مسلم : الإمامة والسياسة ، تحقيق ، خليل المنصور، دار الكتب العلمية لبنان ، 2001 ، ص 227.

[5] البلاذري : المصدرالسابق ، ص 265 . يرجح حسين مؤنس أن القلعة افتتحت زمن عقبة بن نافع ، وهذا بالنظر إلى أن بسر بن أبي أرطأة كان معه في غزوته الأولى لبلاد المغرب . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص 135 136 .

[6] Paul – louis cambuzat, *l évolution des cites du telle en efrikia du 7e au 11e siècle* , office des publication universitaires, Alger, 1986,Tome 2, p.138 .

من خلال هذه الأبعاد نرى أن المدينة أقرب ما تكون إلى مدينة تبسة ، لذلك فالراجح أن موقعها يكون بجبل الونزة حسب ما يرى كومبيزا (Paul- louis cambuzat) وهذا بناءا على تقديرات جورج مارسي وليفي بروفنصال اللذان يحتملان أن قلعة مجانة تكون بموقع هنشير جيلوست (Djilaoust) أو بهنشير الحديد[1]. فالأول يقع شمال – غرب تبسة ، أما الآخر فيكون في الطريق نحو سبيبة[2] .

يصف ابن حوقل مجانة أنها : « ذات سورمن طابية... وهي كثيرة الزعفران والزرع وبها معادن حديد ، وفضة ومنها الحجارة المجلوبة للمطاحن بجميع المغرب ولهم واد غزير الماء يزرعون عليه وأسواق صالحة »[3].

أما البكري فيرى أن القلعة تابعة لمدينة مجانة ويقول أنها : «...تعرف بمجانة المعادن ولها قلعة مبنية بالحجر فيها ثلاثمائة وستون جبا..."، وينسب هذه القلعة إلى الفاتح بسر بن أرطأة : "...وهذه القلعة تعرف بقلعة بسر بن أرطأة افتتحها عنوة ، بعثه إليها موسى بن نصير ، وبعث خمس غنيمتها إليه »[4].

إن هذه القلعة المحاذية لمجانة لتؤكد لنا أمرا أساسيا يتعلق بالمدن – الحصون التي كانت عماد عمران البيزنطيين ببلاد المغرب، وكيف حافظ العرب الفاتحين عليه وواصلوا البناء بجوار العمران البيزنطي في المراحل المبكرة لفتوحاتهم لهذه البلاد .

فالمدينة كانت « قديمة أزلية »[5]. وهذا ما يعطينا إجابة على عملية الفتح ، التي واصلت البناء وطورت وكيفت وأعادت تشكيل العمران ولم تدمر. فمجانة كانت مفترق طرق هام[6] ، وسيستمر دورها كما كان بل أكثر خاصة في العهد الزيري .

وفي هذا الخصوص فإن أحد الباحثين يؤكد على أن الفتوحات لم تؤد إلى تدمير المدن القديمة أو هياكلها إذ ظلت أساسا مقصورة على المحاربين والجيوش النظامية . وحقيقي أيضا أن الفاتحين لم يلقوا أية مقاومة تذكر من الأهالي الذين كانوا يرزحون تحت نير البيزنطيين بل إن سرعة الفتح في حد ذاتها ، كانت مشجعا لإحداث نوع من التطور لم يهدم ، برغم عمق جذوره ، النظام القديم ، بل يسر إعادة تشكيله

---

[1] هنشير الحديد يقع بالقرب من منطقة الونزة . وهو منجم غني بالحديد استغله الزيريون . الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية ، تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10إلى القرن 12م ، ترجمة ، حميد الساحلي ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، 1992 ، ج 02 ص 254 .

[2] Op . cit , p . 139 .

[3] صورة الأرض ، ص 84 . ياقوت الحموي : المصدر السابق ، مج 5 ، ص 56 .

[4] المصدر السابق ، ج 2 ، ص 329 .

[5] كاتب مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب ، نشر وتعليق ، سعد زغلول عبد الحميد ، بغداد ، ص 161 .

[6] روجي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 02 ، ص 84 .

ومواءمته بوضعه في أنساق جديدة تبلغ من القوة والاتساع قدرا يمكنها من فرض معاييرها من غير طمس للخصائص الذاتية الإقليمية منها والمحلية[1] .

تكون هذه المقولة أكثر صحة وثباتا إذا عرفنا أهم أعمال الفاتحين الآخرين وكيف تعاملوا مع المدن – الحصون البيزنطية .

بعد أن عزل عقبة بن نافع عام 55هـ، تولى أبو المهاجر دينار ولاية إفريقية[2]، وبلغ إلى تلمسان غربا ، « بعد أن خرج بجيوشه نحو المغرب ، ففتح كل ما مر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان »[3]، ويخبرنا ابن عبد الحكم أنه كره أن ينزل في الموضع الذي اختطه عقبة بن نافع ، ومضى حتى خلفه بميلين فابتنى ونزل[4].

كانت فتوحات أبي المهاجر هامة في المغرب الأوسط إذ استطاع أن يكسب إلى جانب المسلمين قبيلة أوربة[5] وزعيمها كسيلة ، التي كانت تنتشر بنواحي تلمسان والمغرب الأقصى[6] . ويكون بذلك أول قائد من الفاتحين حمل الإسلام إلى هذه النواحي وبشربه في ربوعها وكسب له أنصارا من أهلها ، ولا نزاع في أن إسلام كسيلة كان حادثا عظيما له معناه وأثره البعيد[7] .« وانتهى المهاجر إلى عيون أبي المهاجر وافتتح ميلة، وكان إقامته في هذه الغزاة نحوا من سنتين »[8]، وأقام بميلة مسجدا . غير أن العرب الفاتحين وبسبب قلة معرفتهم بالمنطقة وسكانها ، فإنهم تريثوا في مسألة الاستقرار ببلاد المغرب الأوسط والتي ستأخذ وقتا ليس بالكثير. فالعرب في أيام الراشدين كانوا جنودا محاربين تحت السلاح . فقد كان محظورا عليهم

---

[1] جان لوي ميشون : المؤسسات الدينية . سلسلة مقالات حول المدينة الإسلامية ، ص 16 .

[2] أبو المهاجر دينار عينه حاكم مصر مسلمة بن مخلد واليا على إفريقية عام 55هـ ، غير أنه لم يتصرف بحكمة مع عقبة بن نافع الفهري وضيق عليه ، وبعد عودة عقبة لولاية إفريقية استشهدا معا بتهودة . أبو إسحاق الرفيق : المصدر السابق ، ص 08 . أبو العرب : المصدر السابق ، ص 57 .

[3] المالكي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 33 .

[4] ابن عبد الحكم : المصر السابق ، ص 334 .

[5] أوربة : كانت من أكبر القبائل شوكة في فترة الفتوحات الإسلامية . وهي من البربر البرانس ، من ولد أورب بن برنس حسب ابن خلدون ، أميرها كسيلة تولى رئاسة كل البربر البرانس ، أسلم في عهد الفاتح أبي المهاجر دينار الذي أحسن إليه ، لكنه ارتد بعد عودة عقبة بن نافع الذي أسره ، وتطورت الأحداث إلى أن قتله بتهودة مع أصحابه . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 192 193 .

[6] لم يورد ابن خلدون المناطق التي كانت تنتشر فيها هذه القبيلة . وهم ينتشرون بين الأوراس بالمغرب الأوسط و الريف بالمغرب الأقصى ، كما استقروا بأوليلي وهي مدينة بالمغرب الأقصى ، ويقول دبوز أن مواطنهم بين تيهرت ووهران وفي غرب فاس ومدينة أوليلي . بوزياني الدراجي : القبائل الامازيغية ، أدوارها – مواطنها – أعيانها ، درا الكتاب العربي ، الجزائر ، 2000 ص 16

[7] حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص 175.

[8] خليفة بن خياط العصفري : تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق ، سهيل زكار ، دار الفكر لبنان ، 1993 ، ص 171 .

سكن المدن القديمة كالمدائن في العراق والإسكندرية في مصر. وأمر ولاتهم بأن ينزلوا العرب بمواضع نائية عن المدن والقرى لكي لا يصبحوا أقلية بين السكان الأصليين وقد يتعرضون إلى عدائهم .[1]

2- مدينة ميلة :

مدينة قديمة اسمها (milev) كان موقعها إستراتيجي وهام ؛ تقع على الطريق بين سيرتا (قسنطينة) وسطيف في بلاد جبلية ، وكانت تراقب المناطق الشمالية. لأنها مكان دفاعي بالتل البيزنطي[2].

وقد فضل العرب استعمال اسمها القديم ميلة ، وهو تحريف للاسم الروماني "ميلاف" أو تعريب له وهي ميزة تميز بها العرب المسلمون بحيث كانوا يستعملون الأسماء القديمة للمدن الرومانية أو البيزنطية التي يحولونها إلى مدن إسلامية مع تحريف بسيط حتى يسهل عليهم نطقها[3].

اليعقوبي ذكر المدينة ، وحدد موقعها القريب من البحر: « سواحل البحر تقرب من هذه المدينة ، كما يذكر أن لها الكثير من المراسي»[4] . فقد يكون للمدينة أدوار عديدة يجعل شبكة علاقاتها تمتد إلى السواحل حيث تنتشر الموانئ ، وقد يكون لذلك امتداد تاريخي إلى العهد البيزنطي .

هذه الأوصاف تتطابق مع ما كان للمدينة من حجم ومجال تسيطر عليه، وسيكون لها دورا كبيرا تتحمله ابتداء من أواخر القرن الثالث إلى جانب كل من سطيف وبلزمة، في الوقوف في وجه التوسع الفاطمي في أيامه الأولى .

يصف صاحب كتاب الاستبصار المدينة أنها : « مدينة أزلية فيها بعض آثار للأول تدل على أنها كانت مدينة كبيرة. ويضيف "وفي وسط المدينة عين حرارة عذبة من بناء الأوائل لها سرب كبير يدخل فيه فلا يوجد له آخر ، ولا يعلم من أين يأتي ذلك الماء . ويقال إنه مجلوب من جبل بالقرب منها يسمى تامروت[5] وتعرف هذه العين بعين أبي السباع... »[6]، ويكون أبو المهاجر دينار قد أسس في هذه المدينة مرفقين أساسين من مرافق المدينة التي ستصبح ذات طابع إسلامي، ويتمثل ذلك في دار الإمارة ومسجدا

---

[1] صبري فارس الهيتي : المدينة الإسلامية وخصائصها ، بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول . ص 60 .

[2] Paul – louis cambuzat,Op ,Cit, Tome, 02, p. 166- 167

[3] عبد العزيز فيلالي ، بحاز إبراهيم : مدينة ميلة في العصر الوسيط ، دراسة سياسية ثقافية وإدارية عمرانية ، دار البلاد للاتصال والخدمات ، قسنطينة ، ص 10.

[4] البلدان ، ص 190 .

[5] عند البكري هو جبل بني ياروت . البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 245 .

[6] مجهول : الاستبصار ، ص 166.

للمسلمين، أطلق عليه اسم مسجد سيدي غانم بناه على أنقاض كنيسة رومانية[1].

لعل هذا الموقع هو ما يجعل من هذه المدينة أن تكون عاصمة لإقليم كتامة ، حتى ولو أن دورهـــا سيتراجع في العهد الأغلبي لصالح مدن أخرى سيكون لها الدور الكبير في التأثير في مركز الحكم.

ثم إن أبا المهاجر اختلف عن سابقيه من الفاتحين ، فهو لم يفكر في التقدم في عمليات الفتح ثم العودة إلى قواعده الخلفية ، بل إنه أول من أقام بها حين غزاها وأقام بها الشتاء والصيف، واتخذها منزلا[2].

بعد عودة عقبة ثانية إلى إفريقية عام 62هـــ، واصل عمليات الفتح خاصة وأن البربر حديثي العهد بالإسلام، وقد نشأت الردة في البرابرة فزحف إليهم ، وجعل مقدمته زهير بن قيس البلوي[3] وفرمنه الـــروم والفرنجة فقاتلهم ، وفتح حصونهم مثل لميس وباغاية ، وفتح أذنة قاعدة الزاب بعد أن قاتله ملوكها مـــن البربر فهزمهم[4] ، هذه الحصون التي استخدمت في تلك الأثناء كملاجئ للروم البيزنطيين الذين فـــشلوا في التصدي أمام النجاحات التي كان يحققها الفاتحون ، لذلك شكلت قلاعا دفاعية لهم .

3- باغاي :

تعتبر من المدن الرومانية التي اتخذت كمدينة- حصنا، لجأ إليها الروم عندما وصلها عقبة بن نافع في حملته ببلاد المغرب الأوسط ، واجتمعوا بها ، « فنزل بجمعه عليهم ، وحاصرهم ... ودخل على الروم حصنهم. فكره أن يقيم عليهم . وكان قد حصر صاحب قلعة باغاية »[5] .

لقد كانت باغاية حسب الروايات التاريخية حصنا رومانيا ، وهي محصنة بسورين اثنين . إذ كانت قبيل الفتح الإسلامي ضمن الخط الدفاعي الكبير الذي أقامه البيزنطيين بالإضافة لتحصينات تمقاد ، وقاساس[6] .

---

[1] عبد العزيز فيلالي ، نجاز إبراهيم : المرجع السابق ، ص 14.

[2] حسب رواية ابن عبد الحكم :"عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة واحمد بن عمرو ، عن ابن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب يغزون أفريقية ثم يقفلون منها إلى الفسطاط ، وأول من أقام بها حين غزاها أبو المهاجر مولى الأنصار". فلا نجد إشارة أو ذكر إلى أن هذا الفاتح استقر بمدينة ميلة بل نفهم من النص أنه استقر بإفريقية ، حيث بنى عاصمته دكرور، ولم يستقر بالقيروان التي بناها عقبة بن نافع . ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص 334 .

[3] هو أبو شداد زهير بن قيس البلوي ، ولاه عبد الملك بن مروان على افريقية بعد استشهاد عقبة بن نافع ، وكان صاحبا له ، وبعد أن قضى على كسيلة ، خرج من افريقية عائدا للمشرق لأنه كان زاهدا في الحكم ، لكنه استشهد في طريقه ببرقة . المالكي : المصدر السابق ، ج 01 ص 93 94 . ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 31 32 33 .

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 04 ، ص 327.

[5] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 24 . ابن أبي دينار . محمد بن أبي القاسم العربي القيرواني : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، دار المسيرة لبنان ، مؤسسة سعيدان تونس ، 1993 ، ص 42 - الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، ص 10.

[6] cambuzat, Op ,cit,Tome 2 , p. 41- 42 .

لم تنل هذه المدينة – الحصن حضها من الوصف عند اليعقوبي الذي جعلها « مدينة قديمة تتبع إقليم الزاب »[1]. أما البكري فيصفها أنها : « مدينة جليلة أولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح على مقربة منها جبل أوراس»[2]. ولعل موقعها هذا ساعدها في السابق أن تراقب السكان المحليين في هذه الجبال.

كانت هذه المدينة – الحصن ، محاطة بأسوار خاصة وأنها أنشأت لغرض دفاعي بالأساس ، حيث أن تحصينات المدينة كلها شيدت في العهد البيزنطي ، لأن موقعها استراتيجي[3]، السور كان مبنيا من الحجر ويصفه البكري أنه : « حصن صخر قديم ، حوله ربض[4] كبير من ثلاث نواح ، وليس فيما يلي الناحية الغربية ربض إنما يتصل بها بساتين ونهر، وفي أرباضها فنادقها وحماماتها وأسواقها...»[5]. لقد جمعت باغاية من خلال هذا الوصف بين المدينة والريف وهذا من خلال توزع مرافقها بين المدينة والأرباض المحيطة بها . أما الشريف الإدريسي فيقول أن باغاية كان لها سوران : « مدينة كبيرة عليها سوران من حجر وربض عليه سور وكانت الأسواق فيه...»[6].ونفس هذه الأوصاف نجدها عند بقية الجغرافيين مثل صاحب كتاب الاستبصار الذي يضيف : « أنها مدينة عظيمة جليلة ، فيها لآثار للأول...»[7] .

أما أسواق المدينة فكانت بالمدينة ثم أخرجت إلى خارج المدينة : «...وهي كبيرة عليها سور أزلي من حجارة ولها ربض عليه سور والأسواق فيه . وكانت الأسواق قديما في المدينة فنقلت ، ولها ماء جار من واد يأتيهم من القبلة ، ومنه شربهم مع آبار لهم عذبة و لهم من البساتين الكثير مرحلة وهو بلد بربري البادية...»[8].

فهل كان هذا النقل ناتج عن نمو واتساع حدث في مجال المدينة ، فضاقت المدينة مما تطلب تحويل ونقل الأسواق إلى خارج السور حيث توجد أرباضها ؟ ويشير ارنست مارسي إلى أن المدينة تتربع على مساحة

---

[1] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 190 .

[2] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 227 .

[3] Ernest Mercie, Episodes *De La Conquête De L'Afrique Par Les Arabes*. Recueil Des Notices et mémoires de la société archéologique historique & géographique du département de Constantine. 1e volume de la troisième série année 1926 .Constantine . 1927. p. 266 .

[4] الربض : هو ما حول المدينة ، وقيل هو الفضاء حول المدينة . قال بعضهم : الربض و الربض بالضم وسط الشيء ، والربض بالتحريك ، نواحيه . وجمعها أرباض ، والربض حريم المسجد . ابن منظور : لسان العرب ، مج 02 ، ص 1107 .

[5] البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 227 .

[6] نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج 01 ، ص . 276 .

[7] مجهول : الاستبصار ، ص 163.

[8] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 84 .

تشغل حوالي ستة (06) هكتارات[1] .

هذه الأوصاف التي يجمع عليها الرحالة والجغرافيون العرب تتفق مع ما كان للمدينة من دور دفاعي وحربي بالدرجة الأولى ، وهذا ما جعل المدينة تهتم بالتحصين الذي شمل أيضا ربضها ، و لعل السبب في ذلك فيما قاله الإدريسي أن أهل الأوراس « مسلطون على من جاورهم »[2]، ويرى ستيفان كزال (Stéphane Gsell) أن المدينة كانت تراقب خروج المسافرين الذين يقطعون واد العرب بجبل أوراس ، كما أنها نقطة عبور هامة بين الصحراء والتل[3].

وبالنسبة لموقعها ، فهي تربط بين القيروان والزاب ، عبر تبسة وباغاية و« على مرحلة من مسكيانة في الشرق، وفي الغرب طريق إجباري اتجاه الشمال – الغربي عبر قاساس وبلزمة عن طريق مدراسن »[4]، ثم إلى نقاوس وطبنة .

و« طريق آخر يتبع الطريق الروماني القديم المتجه نحو دوفانة (مرحلة) ودار ملول »[5].

وبالتالي فهي حلقة وصل بين مدن هامة ، يرتبها المقدسي بمسافاتها :

«من مجانة إلى تبسة ، أوإلى باغاي ، أودوفانة ، أوعين العصافير، أودارملول ، أوطبنة ، أومقرة ، أوالمسيلة مرحلة وبين كل واحدة والأخرى على الترتيب مرحلة »[6] .

ولأهميتها نذكر الطرق والمسالك المؤدية إليها والمسافات التي تربط باغاية بالمدن المجاورة لها :

فبين باغاية وبجاية ثمانية أيام[7].

ومن مدينة باغاي إلى قسنطينة ثلاث مراحل .

ومن باغاي إلى طبنة الزاب أربع مراحل .

ومن باغاي إلى مدينة قسطيلية أربع مراحل[8].

---

[1] op. cit. . p.265.

[2] الإدريسي : المصدر السابق ، مج 01 ، ص 277 .

[3] cambuzat , Op, Cit, Tome2, p.38.

[4] مدراسن أو مادغوس : قمر يقع إلى الغرب من باغاية ، بني بآجر ، وهو مدرج النواحي ، وإلى الشرق منه تقع بحيرة ، ويقع في الطريق بين باغاية وبلزمة . البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 227 .

[5] البكري : نفسه ، ص 227 . 228 ؛ ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 .

[6] المقدسي : المصدر السابق ، ص197 .

[7] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1، ص 260 .

[8] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 1 ص 277 .

لقد تفادى عقبة بن نافع المكوث بباغاية التي كانت ملجأ الروم ، وواصل حملته تجاه حصن لميس (لمباز – lambaesis) نجد في تلك المدينة – المعسكر الروماني (الذي وقع بناؤه في عهد هادريانوس في أوائل القرن الثاني طوله 200م . ثم بعد ذلك قبل سنة 146م بنى الجنود معسكرا آخر أوسع من الأول (420م على 500 م) وهو المستعمل الآن كسجن.)[1] وكذلك لم يستقر عقبة بهذه المدينة التي كانت « في ذلك الوقت من أعظم مدائن الروم . فلجأ إليها من كان حولها منهم . وخرجوا إليه في عدة وقوة فقاتلوهم قتالا شديدا »[2] .

بعد عام 74 هـ يتعرض حصن باغاية للتخريب في أثناء استيلاء الكاهنة على الأوراس، وهذا ظنا منها أن القادم الجديد حسان بن النعمان الغساني[3] إنما قصده الاستيلاء على المدن والحصون . فبعدما هزمت العرب وتراجعهم إلى برقة، « قالت للبربر: إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة ، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي . فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييأس منها العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر»[4] .

إن هذه الرواية التاريخية التي ذكرها المؤرخون تشير ربما إلى عدم اهتمام القبائل البربرية بالمدن و الأمصار، ولعل هذا يعود بالدرجة الأولى إلى العوامل التاريخية التي أثرت في بداوة البربر لسيطرة الأجانب على الحواضر من جهة ، ومن جهة أخرى لانشغال البربر بالرعي خاصة بمنطقة الأوراس الذين كثيرا ما يتنقلون ما بين التل و الصحراء .

وكان الرعاة ينضمون إلى بعضهم البعض للاشتراك في استغلال المراعي، والمستقرون من الفلاحين يشيدون القرى والقلاع و الأبراج لحفظ أموالهم المشتركة ولمقاومة هجومات أعدائهم الألداء وهم الرحل من أهل البادية . ولصد غاراتهم ودفع ضررهم. وسكان هذه القرى يكونون شبه جمهوريات صغيرة

---

[1] أحمد صفر : مدنية المغرب العربي في التاريخ ، دار النشر بوسلامة ، تونس ، 1959 ، ج 01 ، ص 342 .

[2] الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص 11 ؛ للإشارة أن الرقيق أخطأ في تسمية لمباز وذكره بلفظ المسن .

[3] هو: حسان بن النعمان بن عدي بن بكر بن مغيث بن عمرو بن مريقيا بن عامر بن الأزد : وهو الفاتح الذي جهز أكبر جيش (أربعين ألف حسب الروايات) لاستكمال فتح بلاد المغرب عام 74 هـ / 693م ، واستطاع أن يهزم صاحب قرطاجنة عام 76هـ/695م ، ثم كانت له معارك مع الكاهنة ، انهزم فيها بنواحي مسكيانة في معركة نيبي ، وتراجع ليعود بعد خمس سنوات ويهزم الكاهنة ، في عام 86هـ ، ثم عزله والي مصر عبد العزيز بن مروان . فشكا أمره للخليفة عبد الملك ، و لم يلبث إلا قليلا حتى توفي بين 85 هـ أو 86هـ. ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 01 ص 34 وما بعدها ؛ حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص 235 و ما بعدها .

[4] الرقيق القيرواني : المصدر نفسه ، ص 24 30 31 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج1 ص 36 ؛ .ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 04 ، ص 238 239 ؛ النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 36 37 ؛ ابن عبد الحليم : كتاب الأنساب ، تحقيق محمد يعلى ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الاسبانية للتعاون الدولي ، ص 93 .

خاضعة إلى حكم الجماعة وعلى رأسها الكبراء والمشائخ[1].

ومن هنا فالسؤال الذي يطرح نفسه (وقد تطرق له محمد بن عميرة[2]) هو: ما هو المجال الذي أمكن للكاهنة أن تخربه ، وإذا كانت هذه المملكة قد خربت فعلا ، فهل طالت أعمالها كل هذا العمران من مدن وحواضر وغيرها ؟

نجد هشام جعيط يرد على ذلك من أن « هذا التأكيد على تخريب الكاهنة مبالغ فيه من كافة النواحي ، لأنه يجعل السلب يمتد على كامل بلاد المغرب في حين أنه لا يمكن أن يتجاوز بلاد مزاق وأن الخراب النسبي في هذه المنطقة لا يمكن إسناده إلى عمل الكاهنة وحده"، ويعلل هشام جعيط ذلك" أن أشباه الرحل الذين اتبعوا الكاهنة قد استفادوا من انتصاراتهم على العرب ومن غياب أية سلطة في سهول الوسط والجنوب لينهمكوا في النهب كما شاءوا. وهو ما أقلق سكان المدن والأرياف المستقرين وأثارهم... فالمملكة البربرية رأت وضعيتها تتدهور بعداء السكان المستقرين لها ، و بردات الفعل المتعددة التي أثرت في صفوفها...»[3].

هذه الأوصاف الهامة والموقع الوسط الذي تمتعت به المدينة ، هو الذي سيجعل الولاة الأغالبة فيما بعد يلجأون إلى تحويل باغاية إلى مركز إداري للإشراف على المنطقة . وهذا بعد أن تعرض حصنها للتهدم من طرف الكاهنة[4]، والتي كانت تعتقد خطأ أن الفاتحين يرغبون في الغنائم وليس نشر الرسالة الإسلامية التي كلفوا بها لكافة البشرية .

4- تيجيس[5] :

تقع هذه المدينة على الطريق القديم الذي يربط بين تبسة وقسنطينة ، وأصبح هذا الطريق يستخدم بين القيروان والزاب[6]، فهي تبعد عن المسيلة مسافة خمس مراحل ، وعن مدينة بونة بثلاث مراحل[7]، بعد الفتح الإسلامي المدينة تفقد أهميتها ، مقارنة مع ما كانت عليها في السابق ، فقد كانت باغاي في العهد

---

[1] أحمد صفر : مدنية المغرب ، ج 01 ، ص 65 .

[2] دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985 ، ص 39 ؛ نشير في نفس الإطار أن سياسة الأرض المخروقة معروفة في القديم . وقد تكون المنطقة قد تعرضت لها .

[3] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، القرن الأول والثاني هـ/ السابع والثامن م ، دار الطليعة بيروت ، 2004 ، ص 32 .

[4] النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 36 .

[5] تقع اليوم هذه المدينة بعين البرج

[6] Cambusat, Op , Cit, Tome 2, p. 220 .

[7] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ص 292 .

الأغلبي المدينة التي تشرف على المنطقة كلها ، وكانت « تيجس من عمل باغاية حولها قوم من بربر عجم يقال لها : نفزة...» [1].

المدينة تصبح تحت سيطرة الفاطميين، و لم تتعرض إلى هدم مثلما جرى لباقي المدن الأخرى ، فقد حاصرها الشيعة فاستسلمت الحامية الأغلبية الموجودة بالمدينة والمكونة من خمسمائة فارس[2]، ودخل الشيعة للمدينة التي أصبحت تابعة لهم . ويصفها ابن حوقل أنها ذات «سور وربض قد استدار من قبلتها إلى بحريها وسوق صالح وماء جار من عين...»[3]، وسور المدينة قديم مبني من الصخر حسبما يذكر البكري الذي يضيف أن المدينة « بها أسواق وجامع وحمام »[4]. يستمر دور المدينة إلى غاية الدولة الحمادية ، وتصبح مع باغاي أحد الأطراف الشرقية المتاخمة للزيريين .

5- أذنة : قاعدة الزاب :

بعد فتح باغاية وحصن لمباز، أشرف عقبة بن نافع على إقليم الزاب وبالضبط عاصمة الإقليم أذنة. هذه المدينة التي كانت قاعدة الزاب في تلك الأثناء ترد في المصادر التاريخية والجغرافية بأسماء مختلفة وعديدة، ولعلها تشير كلها إلى نفس المدينة ؛ فنجدها بإسم أربة، وأدنة، وأزبة[5]. وإذا كان الاختلاف في التسمية واضح بين هؤلاء[6]، فإن أغلب هذه المصادر تتفق على دور ومكانة هذه المدينة في منطقة الزاب[7] .

---

[1] اليعقوبي : البلدان ، ص 190 .

[2] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة تحقيق ، وداد القاضي ، دار الثقافة لبنان ، 1970 ، ص 168 169 .

[3] صورة الأرض ، ص 87 .

[4] المسالك و الممالك ، مج 2 ، ص 244 .

[5] يذكرها اليعقوبي بلفظ : أربة . المصدر نفسه ، ص 191 ؛ أما البكري وابن خلدون وابن عذاري والرقيق القيرواني والنويري ج 24 . فجميعهم يذكرون المدينة بلفظ أذنة .

[6] يورد ابن حماد الصنهاجي ، أن مدينة باتنة هي نفسها أذنة ، ويقول: "وكانت بين أبي يزيد وإسماعيل وقعة بفحص باتنة (أذنة) و(باتنة) هذه مدينة عظيمة خربت بينها و بين المسيلة اثنا عشر ميلا..." . أنظر: أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم . تح، جلول احمد البدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 41 ؛ غير أن كومبيزا يحدد موقع مدينة أذنة أنها تبعد 12 ميلا عن مدينة المسيلة . cambuzat, Op, Cit, Tome 2, p. 21 . ؛ ونجد من يضع موقع المدينة بنواحي وهران ، وأنها المقصودة من النصوص التاريخية . إلا أننا نستبعد هذا . ونرجح أن المدينة التي حددها كومبيزا هي التي وصلها عقبة . ولا يمكن أن يكون للتحديد الذي ذكره ابن حماد الصنهاجي علاقة بمدينة باتنة التي تكون حديثة النشأة .

[7] الزاب : زاب اسم ملك من ملوك الفرس القديمة حفر هذه الأنهار بالعراق فسميت به وربما قيل لكل واحد منها الزابي (خفيفة الباء) والزاب أيضا كورة كبيرة ونهر جرار بالمغرب في بلاد البربر . ياقوت الحموي : المشترك وضعا والمفترق صقعا ، د تح ، د ط ، و لا س ط ، دار الكتاب اللبناني ، ص 229 230 .

فقد كان الزاب في العهد البيزنطي حزام دفاعي يوقف القبائل النوميدية من تهديد الوجود البيزنطي في الشمال ، وقد حصنه سولومون (solomon) في النصف الأول من القرن السادس الميلادي . وأصبح ضمن خط الليمس[1]. فالجهود الجبارة التي بذلها جستنيان (527 – 565) في سبيل تحقيق سياسته (التوسعية) في هذا الميدان الخارجي قد استنفذت موارد الدولة وتركت خزنتها خاوية . بل إنه أخذ يتعسف في فرض الضرائب على الولايات عندما تضطره الظروف للقيام بحرب ، فقد أفقرت تلك السياسة الناس وأهكت قواهم ، حتى أننا نلاحظ أنه في أخريات عهد جستنيان تبدأ الكوارث بالنزول على بعض مناطق الإمبراطورية . فتحدث القحط والمجاعة ، وينتشر الوباء ، ويعم اليأس والضيق ، فقد كانت إيطاليا وإفريقية في حالة يرثى لها من الفقر[2]، وهذا رغم أن منطقة نوميديا ، أي غربي تونس وشرقي الجزائر، كانت تتمتع أيضا بمناطق خصبة وكميات كافية من مصادر المياه[3].

إن تراجع الروم إلى حصونهم وتفاديهم المجابهة مع جيش الفاتحين سيسمح للمسلمين السيطرة على إقليم الزاب والذي سيتحول إلى محور رئيس بالمغرب الأوسط ، فهو سهل منبسط يتلاشى شيئا فشيئا في الجنوب حتى يندرج في الصحراء ، وتحده من الشمال المنحدرات الجنوبية لجبال أطلس الصحراوية . ولكن أسباب الاتصال بينه وبين منخفض الحضنة هضاب قسنطينة ميسرة بفضل الفرجة التي تقوم بين تلال الزاب وتلال أوراس[4].

أما التطور التاريخي لهذا الإقليم الذي لم يصمد كثيرا أمام مغريات الفتح الجديد فيذكر اليعقوبي ، أنه «بلد[5]واسع »[6]، والإقليم تخلى كليا عن اسم نوميديا الذي حل محله لفظ الزاب . فهذه التسمية الأخيرة

---

[1] Cambuzat, Op, Cit, Tome 2, p. 22

– خط الليمس : Le Limes هو حزام دفاعي أنشأه الرومان ببلاد المغرب لصد ثورات وهجمات السكان المحليين عليهم ، المرحلة الأولى جرت في القرن الأول قبل الميلاد ، والثانية خلال القرن الثاني ميلادي ، عرضه يتراوح ما بين 50 كلم إلى 100 كلم . وفي هذا الحزام العسكري توجد حصون وجسور ومراكز للحراسة ، ومخازن للتموين . لذلك فيظهر أنه أكبر من الخط الدفاعي ، فهو جهاز معقد هدفه السيطرة الكاملة على بلاد المغرب كلها ، حيث مر في توسعه على مجموعة من المراحل والفترات . أنظر : محمد الصغير غانم : مقالات حول تراث منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية . منشورات جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الاوراس ، باتنة ، ص 56 وما بعدها .

[2] جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية ، 284 – 1453 . دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1998 ، ص 83 .

[3] عبد الواحد ذنون طه : دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي ، دار المدار الإسلامي ، 2004 ، ص 19 .

[4] دائرة المعارف الإسلامية : أحمد الشناوي ، إبراهيم زكي خورشيد ، عبد الحميد يونس ، دار المعرفة ، بيروت ، المجلد 10 ص 318 .

[5] البلدة والبلد : كل موضع أو قطعة مستحيزة عامرة أو غير عامرة . والجمع بلاد وبلدان . والبلدان : اسم يقع على الكور . قال بعضهم البلد جنس المكان كالعراق والشام . والبلدة الجزء المخصص منه : كالبصرة ودمشق . ابن منظور : لسان العرب ، المجلد 01 ص 254 .

[6] البلدان . ص 190 .

ذات الجذور البابلية أوالفارسية المعربة استخدمت لتعني نهر الزاب في وادي الرافدين ، ثم استعملت في أرض المغرب لتدل على وادي أوراس الأعلى وما جاوره ، ويشير إذا بصفة أساسية لنوميديا الجنوبية، ثم استخدم ليعني كامل المقاطعة القديمة[1].

ولعل تاريخ هذا الإقليم سيجعل منه مركز رئيس تشكل في المرحلة التي تلي الفتح مباشرة وكان من أول عهد الفتوحات ثغرا عسكريا مهما : « فهنا قتل عقبة ، وهنا قامت المقاومة البربرية مع الكاهنة ، والوعي بالذات والمقدرة على المبادرة التاريخية كان موجودا من زمن الرومان ، وهنا تكونت الممالك البربرية في عهد الرومان ثم الفندال والبيزنطيين . لكن الممالك زالت ودخل أبناء الزاب في دوامة الفتوحات مع العرب »[2]. كما ستلعب الجغرافيا أيضا دورا كبيرا في صنع إقليم له من الخصائص ما تمكنه من مزاحمة القيروان، ويشرف على سفوح جبال الأوراس. التي ستتخذ ملجأ للمعارضين للسلطة ابتداء من القرن الثاني للهجرة.

اليعقوبي يذكر المدينة كحد أخير للزاب ، غير أن الفترة الزمنية التي ربما يتحدث فيها اليعقوبي عن المدينة تتعلق بفترة الأغالبة لأنه يقول عن مدينة طبنة : « أنها يتزلها الولاة »[3]. وهذا قبل أن ينتقل مركز إقليم الزاب من أذنة إلى طبنة .

المدينة كانت « قاعدة الزاب ». كما يذكر ابن خلدون[4]، وهي المحطة التالية لمسيرة عقبة بن نافع بعد حصن لمباز ؛ « فرحل إلى بلاد الزاب فسأل عن أعظم مدائنهم قدرا فقالوا مدينة يقال لها أذنة . ومنها الملك وهي مجمع ملوك الزاب وكان حولها ثلاثمائة قرية وستون قرية. وكلها عامرة ولما بلغهم أمره لجأوا إلى حصنهم . وهرب بعضهم إلى الجبال والوعر... فانهزم القوم وقتل فيها أكثر فرسان الروم ، فذهب عزهم من الزاب وذلوا إلى آخر الدهر فكره أن يقيم عليها »[5].

مدينة أذنة ترد عند البكري بصيغة البلد إذ يقول في شأنها : « وبلد أذنة بلد كثير الأنهار والعيون العذبة ، وهناك عين الكتان : عين عذبة في مفازة عليها أربع نخلات بينها وبين المسيلة مرحلة ، وبشرقيها وادى

---

[1] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، ص 54 .

[2] هشام جعيط : نفسه ، ص 111.

[3] اليعقوبي : المصدر نفسه ، ص 190 191 .

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 4 ، ص 237 .

[5] الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص 11. 12 ؛ النويري : المصدر السابق ، الجزء 24 ، ص 27 ؛ محمد بن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح ، إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984 ، ص 20 .

مقرة، عليه سبع قرى منها قرية يكسم...»[1]. فتكون أذنة بهذا المفهوم أكثر حجما من المدينة ، ولعل هذا ما يدعم تبعية باقي القرى العامرة الموجودة حول أذنة لهذه المدينة .

تشير المصادر التاريخية المغربية مثل الرقيق القيرواني، وابن عذارى المراكشي ، وابن خلدون ، إلى غنى الزاب بالعمران ويحصي الرقيق ثلاثمائة وستون قرية بهذا الإقليم ، الذي تشكل أذنة قاعدته[2] ، ويشتمل هذا الإقليم على الكثير من الحواضر والمدن والتي ستتحول من مهامها الدفاعية كحصون متقدمة بيزنطية تحول دون توغل القبائل البربرية نحو المناطق التي يسيطر عليها البيزنطيون الذين أكثروا من بناءها ، وستستقطب الهجرات العربية المرافقة لعمليات الفتح الإسلامي خاصة مع مطلع القرن الثاني الهجري . وتتحول إلى مدن إسلامية دون أن تزول هذه المدن أو تزول ويتحول الزاب إلى قاعدة رئيسية للسلطة الأغلبية .

غير أن ما تجدر الإشارة إليه هو انتهاء دور القاعدة أذنة مع بداية القرن الثاني للهجرة وتحول الدور إلى طبنة. ثم إلى المسيلة . والسبب قد يعود إلى أن ظهور مدينة جديدة عادة ما يصاحبه تراجع أو اختفاء دور مدينة أخرى . وتنتهي مدينة أذنة على يد مؤسس مدينة المسيلة علي بن حمدون[3] المعروف بابن الأندلسي ، والذي خربها سنة أربع و عشرين وثلاثمائة – 324هـ-[4] .

فهل أن مدينة أذنة لم تكن من الحصانة و المناعة ما يجعلها عرضة لهذا التخريب ؟ أم أن المذهب الإسماعيلي كان له دوره في القضاء على المدن المعارضة له بمنطقة المغرب الأوسط ؟ خاصة وأن الفاطميين قد أسسوا مدينة المسيلة غير بعيد عن مدينة أذنة ، فأدى ذلك إلى تحول مركز الزاب للمدينة الجديدة .

ومهما يكن فإن مدينة أذنة قد سبق وأن تعرضت إلى غارات من طرف القبائل المجاورة للمدينة و على رأسها قبيلة هوارة[5] ، هذه الإغارة التي قد تكون قد رسخت بأذهان سكان أذنة وجعلتهم يطلقون

---

[1] المسالك و الممالك ، ص 328 .

[2] روحي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 02 ، ص 87 88 89 .

[3] علي بن حمدون : هو علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي . يعرف بابن الأندلسي . اتصل بعبيد الله وأبي القاسم بالمشرق قبل ظهور شان الدعوة الفاطمية ، وكان ملازما لعبد الله الشيعي ، وبعد أن ظهرت الدعوة الشيعية ونجحت الدولة الفاطمية ببلاد المغرب استعمل علي بن حمدون على المسيلة عام 315هـ، وترك أبناؤه بدار أبي القاسم وهما جعفر ويحي ، لكنه انقلب فيما بعد ضد الفواطم ، ومال لأمويي قرطبة . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 04 ، ص 107 وما بعدها .

[4] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ص 328 ؛ الحميري : المصدر نفسه ، ص 20 .

[5] هوارة : قبيلة بربرية برنسية من أوريغة ، ومن هوار بن أوريغ مليلة وبنو كهلان . ويستبعد ابن خلدون إرجاع نسبهم إلى عرب اليمن . والقبيلة هنا بطون كثيرة هي الأخرى . استقروا بنواحي طرابلس وما يليها من برقة ومنهم من رحل إلى لمطة ، ومنهم من أجاز إلى بلاد الأندلس مع طارق واستقر هناك، ومنهم من استقر بتيهرت، وبجبل اوراس ومرماجنة . ابن حزم . أبو محمد علي بن احمد بن سعيد: جمهرة-

على نهر مجاور لها نسبة لهذه الإغارة ، فقد ذكر البكري أن نهر النساء سمي كذلك « لأن هوارة أغـــاروا على نساء أدنة وذهبوا بهن فأدركهم أهل أدنة فاستنقذوا النساء هناك. والغنيمة وقتلوا جماعة من هوارة»[1].

ويمكننا أن نقول أن وفرة العمران وغناه بهذه المنطقة قد يعود بالدرجة الأولى إلى الظروف المحليـــة المحيطة بهذا الإقليم والخاصة بالنشاط الزراعي الحيوي لتوفر المياه والأراضي الخصبة فالزاب الشرقي[2] يروى من مجاري أوراس ووادي الأبيض ووادي العرب الذي يروى بعد أن يغادر الجبال وواحات زريبة الـــواد وبادس ،كما يروى في السهل واحات سيدي عقبة وسريانة[3]وأوماش[4]. ويضم الزاب الظهراوي بفـــضل الينابيع التي تنتشر على طول سفوح التلال أخصب الواحات ، وهي: بوشقرون[5] وليشانة[6] وفرفارة[7] ثم طولقة[8] بصفة خاصة التي تعتبر قصبة هذا الجزء من الزيبان . ومن واحات الزاب القبلي ، أولاد جـــلال[1] وأورلال[2] والدوسن[3].

-أنساب العرب ، د تح ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2001 ، ص 500 ؛ ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 118 182 وما بعدها .

[1] البكري : المصدر السابق ، ج02 ص 328 .

[2] تطلق تسمية الزيبان أو واحات الزيبان على كل الواحات الواقعة شرقي بسكرة وغربيها . وقد كتب عنها ديلاتر الذي قام برحلة لاستكشاف آثار المنطقة في عام 1886 ، A-L. Delattre, *Excursion Dans Le Zab Occidental* . Société Archéologique Du Département De Constantine . 4e Volume De La 3e Série , 1888 . وعن تاريخ هذه المنطقة في الفترة الرومانية أنظر ما كتبه محمد الصغير غانم عنها في : مقالات حول تراث منطقة بسكرة و التخوم الاوراسية : الآثار الزراعة والتاريخ الفترة الرومانية .

[3] سريانة : تشكل أحد الواحات القريبة من بسكرة .

[4] أوماش : قريبة من واحة مليلي .

[5] بوشقرون : تعتبر من واحات بسكرة ، وهي الأخرى مثل باقي الواحات وجدت فيها آثار تعود للعهد الروماني وكانت آخر واحة من رحلة ديلاتر للمنطقة عام 1886. A-L. Delattre,Ibid,.P. 278.

[6] ليشانة : توجد بها آثار لتحصينات عسكرية رومانية ، منها برج للحراسة ، وآبار تستعمل للشرب والسقاية . و يعتبرها كوميزا عند حديثه عند مدينة طولقة أنها ثالث المدن الثلاثة التي تشكل مدينة طولقة . محمد الصغير غانم . المرجع السابق . ص 29 . A-L. Delattre, Ibid ,P. 277 .

[7] فرفارة : واحة بمنطقة الزيبان تقع بالقرب من واحة طولقة وواحة ليشانة .

[8] طولقة : مدينة رومانية ، تطورت في العهد الإسلامي يذكر البكري أنها ثلاث مدن ، كلها عليها أسوار طوب وخنادق وحولها أنهار. إحداهما يسكنها المولدون ، والثانية يسكنها اليمن ، والثالثة يسكنها قيس . تقع الى الشمال من بنطيوس ، على بعد 31 كلم من واحة ليشانة . ويقول كوميزا أن ليشانة تشكل أحد مدن طولقة الثلاثة بالإضافة إلى مدينة البرج . البكري : المصدر السابق ، ج02 ص 25. Rachid Bourouiba , *L'Architecture* - A-L. Delattre, Op, Cit, P. 276 . cambuzat, Op ,Cit, P. 213 . أحمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984 ، ص 222 . *Militaire De L'Algérie Médiévale*, office des publcation universitaires , Alger,1983. p. 05 .

على أن البكري يجعل بعض هذه المدن الحصون تابعة لبسكرة « ومن مدنها (أي بسكرة) مدينة جمونة[4]، ومدينة طولقة ، ومدينة مليلي[5]، ومدينة بنطيوس[6]. »[7] وهذا يعود إلى التأثيرات التي أحدثها الفـــاتحين في تغيير الطابع العمراني لمنطقة الزاب ، الذي أضافوا على ما وجدوه من أثر قديم دون أن يرد في النـــصوص التاريخية ما يشير إلى تخريب هؤلاء لهذا العمران .

6- بادس – قهودة واستشهاد عقبة بن نافع :

بادس[8] من المدن التي شكلت نوعا من الحصون ، هي « على مدينة بسكرة على مرحلة »[1]، وعلى مدينة قهوذا بمرحلة كذلك ، ويصف البكري هذه المدينة « أن بها حصنان ، وفيها أسواق ومزارع جليلـــة يزرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة عندهم »[2] .

---

[1] أولاد جلال : تبعد عن بسكرة مسافة 84 كلم ، وعن الدوسن مسافة شمالا مسافة 22 كلم وعلى بعد 08 كلم منها تقع واحة سيدي خالد .. A-L. Delattre, Ibid , P. 273 - أحمد توفيق المدني : المرجع نفسه ، ص 195 .

[2] أورلال : مدينة رومانية قديمة ، وهي واحة تبعد عن واحة مليلي مسافة 4 كلم . .A-L. Delattre, Op,Cit, 263 . . cambuzat.Op , Cit ,Tome 2, P. 51 .

[3] الدوسن : من أهم المدن الرومانية بالمنطقة ، وغنية بالآثار التي تعود لتلك الفترة ، عاينها وكتب عنها ديلاتر في رحلته للمنطقة عام 1886 ، A-L. Delattre, Ibid , P. 274 -276 - عن هذه المنطقة أيضا أنظر : دائرة المعارف الإسلامية . المجلد ، 10، ص 319 .

[4] جمونة : هي مدينة جمورة ، واحة قديمة تعود للعهد الروماني حيث عثر بها على بقايا لأسس المنازل وحجارات معاصر الزيت ، محمد الصغير غانم : المرجع السابق ، ص 20 . البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 230 .

[5] مدينة مليلي : عبارة عن واحة ، وهي مدينة قديمة كانت تسمى (Gemellae) تقع بالقرب من واحات أورلال ، و إلى الجنوب الشرقي من الدوسن ، تبعد عن مدينة بسكرة 28 كلم . وتعتبر آخر نقطة امتداد خطوط الليمس الرومانية توغلا في الجنوب . أنظر : Delattre . Ibid , P. 262 - محمد الصغير غانم : المرجع نفسه ، ص 31 32 .

[6] بنطيوس : واحة عثر فيها على عدة قبور حجرية و بقايا سور حجري . أصبحت في القرن الخامس الهجري مثل مدينة طولقة ؛ تتكون من ثلاث مدن تقرب بعضها البعض ، لكل واحدة منها جامع اثنان لقوم من السنة والثالث لقوم من الخوارج الاباضية ، ويسكن في أحد هذه المدن قوم من الفرس ، وأخرى قوم من المولدون ، والثالثة يسكنها البربر. و يقول كوميزا أن هذه الواحات هي التي أصبحت تعرف بواحات أورلال ، و هذه المدن هي : أورلال ، بنطيوس ،وقصر جربانية . والتي تقع إلى الجنوب الغربي من بسكرة على الطريق إلى طولقة ، على غر جدي . البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 254 . cambuzat, Op ,Cit, Tome 2,. P. 51- 52 . Rachid Bourouiba , *L'Architecture Militaire De L'Algérie Médiévale*. p. 04 . محمد الصغير غانم : المرجع السابق ص 33 .

[7] البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 230 .

[8] ترد عند البكري باسم : باديس . المصدر السابق ، ج02 ، ص 256 ؛ وعند ابن حوقل وصاحب كتاب الاستبصار بلفظ : بادس . صورة الأرض ، ص 88 ؛ مجهول : الاستبصار ، ص 175 .

نفس هذه الأوصاف نجدها عند الكاتب المراكشي المجهول فيصف مدينة بادس أنها :« مدينة كبيرة ، لها حصنان وأرباض واسعة وبسائط كثيرة ومزارع جليلة..."ويضيف أنها "مدينة قديمة فيها آثار للأولين »[3]. وستبقى هذه المدينة محافظة على حصانتها ودورها إلى غاية عهد الشريف الإدريسي في القرن السادس الهجري ، والذي يجعل هذه المدينة حصن « وهو في أسفل طرف جبل أوراس... وهو حسن عامر بأهله...»[4]، كما يذكر ياقوت الحموي على أن اسم هذا البلد أنه « اسم لموضعين بالمغرب... بادس فاس و بادس الزاب...»[5].

تشكل بادس مع مدينة تهوذا أعظم مدائن المغرب[6]، وكان عقبة بن نافع في طريق عودته من حملته الثانية عام 63هـ إلى القيروان قادما من المغرب الأقصى، أراد المرور عليهما ، وعندما وصل قرب طبنة أمر جنده بالمسير إلى القيروان وبقي هو مع القليل منهم (خمسة آلاف) ، ولما علم الروم بافتراق عساكر عقبة ، بدأ التفكير في القضاء عليه، « فزحفوا إليه، فكسر عقبة وأصحابه أجفان سيوفهم وقاتلوا حتى قتلوا جميعا»[7].

كانت نهاية عقبة بن نافع عندما أراد المرور على تهوذا و باديس ليعرف ظروف المدينتين و حاجتهما للسلاح والعدة إلا أن المدينتين قابلتا عقبة « بغلق الأبواب ، وسبه وشتمه ، ورموه بالنبل والحجارة ، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل »[8].

وعلى يوم من بسكرة تقع تهوذا . وتعرف بمدينة السحر، و« هي مدينة آهلة كثيرة الثمار والنخل والزرع ، وتهوذا مدينة أولية ، بنيانها بالحجر ، ولها أموال كثيرة ، وحولها ربض قد خندق على جميعه و إستدار بالمدينة »[9]. وكانت المدينة الثانية التي قصدها عقبة بن نافع قبيل استشهاده بالإضافة إلى بادس

---

[1] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 88 .

[2] البكري : المصدر السابق ، ص 257 ؛ Rachid bourouiba, *L'architecture militaire de l'Algérie médiévale*. P. 03 .

[3] مجهول : الاستبصار ، ص 175.

[4] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 264 .

[5] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، المجلد 1، ص 317 .

[6] ابن عبد الحليم : كتاب الأنساب ، ص 89 .

[7] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج01 ، ص 28 29 ؛ ابن خلدون : ديوان العبر ، ج04 ، ص 238 ؛ النويري : نهاية الإرب ، الجزء 24 ، ص 29 ؛ البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 256 .

[8] النويري : المصدر نفسه ، ج 24 ، ص 24 .

[9] البكري : المصدر نفسه . ج02 ، ص 255 .

والسبب في عدم اتجاهه رأسا إلى القيروان في طريق عودته من المغرب الأقصى . ولعل رغبة عقبة في المرور على المدينتين أنه « رأى فيهما قوة كبيرة من النصارى والبربر »[1]. لكن سكان مدينة تهوذا كان لهم نظام دفاعي جيد ، فحسب البكري :« إن كانت بينهم وبين من يجاورهم حرب ، أرسلوا ماء النهر في الخندق المحيط بمدينتهم فشربوا منه وامتنعوا من عدوهم به »[2].

والمدينة المحاطة بالخندق كانت من الوسائل والطرق التي تتيح لها الصمود في وجه أي قوة من خارج المدينة . إذ يقرر ابن خلدون أن من الشروط التي تراعى في ذلك :« أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل وإما بإستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها »[3] .

ومهما يكن فالمدينتين كانتا أحد أكبر المدن المحصنة ببلاد المغرب أثناء فترة الفتح الإسلامي ، لارتباط دورهما بتحصينات خط الليمس جنوب الأوراس ، وستصبحان مدينتين إسلاميتين ؛ تهودة ستسمى "سيدي عقبة" لارتباطها باستشهاد خيرة الجند الفاتحين في ثلثمائة من كبار الصحابة و التابعين[4]، بقيادة عقبة بن نافع .

هذا التغير في التسمية تعبر عن جوهر التغيير الذي أحدثه الإسلام ببلاد المغرب ، ويتجلى في بروز ألفاظ عربية أو تغييرات جغرافية مجلوبة من المشرق[5]. حيث كان تغيير أسماء المدن والأقاليم من المتغيرات الهامة التي نتجت عن عمليات الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط .

هذا ويمكن أن تساعدنا الدراسة التاريخية لأصل الأسماء (طوبونومي – toponomie) على الفهم السريع لتعريب أسماء المدن والمناطق[6]، وعلى هذا الأساس أصبحت المدينة تعرف بسيدي عقبة .

فكون المدينة تشتمل على عدد كبير من قبور الشهداء ؛ فيهم من الصحابة والتابعين وأبناء الصحابة ، لذلك اهتم بها الولاة وبنوا بجوارها مسجدا جامعا .

أما المقبرة التي دفن فيها هؤلاء فهي من أشرف الأماكن وأقدس البقاع ، لا في بلاد المغرب وحدها

---

[1] الحميري : المصدر السابق ، ص 142.

[2] البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 255 ؛ مجهول : الاستبصار ، ص 174 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 30 .

[3] ابن خلدون : المقدمة ، ص 384 .

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 04 ، ص 238 .

[5] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، ص 54 .

[6] هشام جعيط : نفسه . ص 160.

، وإنما في أغلب بقاع الإسلام ، وذلك للعدد الهائل من الصحابة الشهداء الذين ضمهم ، مما لا يتوفر نظيره في غيره من الأماكن الأخرى إلا قليلا[1] .

ولاحتوائها على مقبرة بهذا الحجم من عدد الشهداء ؛ فإنها ستستقطب أعدادا من العرب المستقرين ببلاد المغرب الأوسط ، وإذا كانت المصادر التاريخية لا تعطينا من المادة ما يوحي بحجم هذه المدينة ، فإن البكري يذكر أن المدينة : « حولها بساتين كثيرة من أصناف الثمار، وضروب البذور تجود بها ، وحواليها أزيد من عشرين قرية »[2]. وتكون هذه القرى قد شكلت مجالا واسعا من الريف الذي يمدها بالأقوات .

بعد وفاة عقبة بن نافع ، لم يستقر خليفته على إفريقية زهير بن قيس البلوي بهذه البلاد إذ كان زاهدا، وقال :« أخاف أن تميل بي الدنيا فأهلك ولست أرضي بملكها ورغد عيشها . وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين، رضي الله عنهم »[3].

حسب المصادر التاريخية تكون المنطقة قد عرفت مرحلة قصيرة من الرخاء مع قدوم حسان بن النعمان الغساني ، إذ تشير هذه المصادر إلى أن بلاد إفريقية كانت عامرة ، وأنها كانت : « ظلا واحدا من طرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة ، ومدائن منتظمة . حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب...»[4].

وكانت الخطة التي وضعها موسى بن نصير لفتح البلاد مغايرة لخطط سابقيه من القواد الفاتحين الذين هاجموا المدن التي بها القوة البيزنطية أو البربرية بينما غزى موسى بن نصير مناطق القبائل التي ذات قوة وعدد مثل هوارة ، زناتة[5]، صنهاجة[6]، كتامة[1]. وينقل خليفة بن خياط في أحداث سنة إحدى وثمانين :

---

[1] موسى لقبال : عقبة بن نافع أساس نظام الفهريين وتأصيل مجتمع إسلامي جديد في المغرب العربي ، دار هومة ، الجزائر، 2002 ، ص 72.

[2] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 255 .

[3] الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص 20 .

[4] ابن عبد الحليم : كتاب الأنساب ، ص 93 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1، ص 36 ؛ الرقيق القيرواني : المصدر نفسه ، ص 31 ؛ النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 37 .

[5] زناتة : يعتبرها ابن خلدون من أقدم قبائل البربر ببلاد المغرب ، ونسبهم حسب ابن حزم الذي ينقل عن نسابة البربر أن زناتة : هو شانا بن يحي بن صولات بن ورتناج بن ضرى بن سقفو بن جندواذ بن يملا بن ماذغس بن هوك بن هرسق بن كراد بن مازيغ بن هواك بن هريك بن بدا بن بديان بن كنعان بن حام بن نوح النب – صلى الله عليه وسلم – وينقل ذلك عن يوسف الوراق عن أيوب بن ابي يزيد مخلد بن كيداد .. و أما ابن خلدون فهو يثبت صحة ما يقول ابن حزم ، بعد أن يورد العديد من الروايات حول أصل هذا القبيل ، ينتشرون في كل مواطن البربر بأفريقية و المغرب بين غدامس والسوس الأقصى . وبجبل أوراس بقايا منهم .. والأكثر منهم بالمغرب الأوسط حتى أنه ينسب إليهم و يعرف بهم فيقال : وطن زناتة . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص 495 ؛ ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 07 ص 03 وما بعدها .

[6] صنهاجة : قبيلة يعدها ابن حزم برنسية ، ويقول ابن خلدون عن صنهاجة : هذا القبيل من أوفر قبائل البربر ، وهو أكثر أهل المغرب لهذا العهد وما بعده لا يكاد قطر من لأقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط ، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أمم البربر .

«أن موسى بن نصير قتل وسبي حتى انتهى إلى طبنة وصنهاجة وبلغ سبيهم عشرين ألفا »[2]. على أن طبنة القريبة من المدينتين ؛ تهودة وبادس ، سيكون لها الدور الكبير والهام مع بداية القرن الثاني للهجرة وتصبح ذات تأثير كبير في أحداث العاصمة القيروان نفسها .

مع نجاح حملة موسى بن نصير بالمنطقة تبدأ مرحلة جديدة من مراحل الاستقرار العربي الإسلامي بالمغرب الأوسط الذي بدأ ت نواته الأولى في التشكل حيث أنشأ موسى بن نصير ثلاثة أقاليم جديدة وهي:

المغرب الأوسط : عاصمته تلمسان .

المغرب الأقصى : عاصمته طنجة .

والقسم الثالث هو السوس الأقصى .

وعين موسى على كل إقليم عاملا يقيم في عاصمته وتؤازره حامية قوية مؤلفة من عرب وبربر ولكي يضمن طاعة الشعب المهزوم أخذ عددا كبيرا من المقاتلين كرهائن وجندهم في جيش المسلمين[3].

ويرى أغلب المؤرخين أن هذه المرحلة التي كانت مرتبطة بالعمليات العسكرية لتثبيت عمليات الفتح ونشرها وتوسيعها ببلاد المغرب ، فكانت البلاد تحتاج إلى وقت كافي للاستقرار والأمن لتسمح الظروف الجديدة لإرساء نظم المدينة بها .

غير أن الأمر الذي يكون له انعكاس على العمران في المنطقة يتمثل في المجاعات التي تكون المنطقة قد تعرضت لها ، فمع مجيء موسى بن نصير تخبرنا المصادر التاريخية بحدوث اضطراب وقحط: « ولما قدم

ويقول في أصل كلمة صنهاج أنها معربة لكلمة زناج أو صناك بالزاي والكاف القريبة من الجيم . إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج .

ابن حزم : المصدر نفسه ، ص 495 ؛ ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 201 . 202 ؛ الهادي روحي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 1، ص 31 32 ، هامش رقم 01 .

[1] كتامة : قبيلة بربرية برنسية ، فيما يدعي نسابة العرب حسب ابن الكلبي والطبري أنهم من قبيلة حميرالعربية، و هذا ما يراه ابن حزم باطل ، فلم يكن لحمير طريق لبلاد البربر ، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن . يجعل ابن خلدون مواطنهم بأرياف قسنطينة إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس ناحية الشرق ، إلى سيف البحر ما بين بجاية وبونة . ابن حزم : المصدر نفسه . ص 495 501 . ابن خلدون : ديوان العبر . ج 06 ص 195 .

- بوبة مجاي : مدينة قسنطينة في الفترة الإسلامية . دراسة اجتماعية واقتصادية . مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية. العدد الثامن ، 1997 . ص 56 .

[2] تاريخ خليفة بن خياط ، ص 214 216 .

[3] حسين مؤنس : فتح شمال إفريقيا ومقاومة البربر ، ضمن كتاب . تاريخ إفريقيا العام . المجلد الثالث . إشراف م . الفاسي . إ هربك . منظمة الأمم المتحدة للتربية و العلم و الثقافة ، باريس ، 1994 ، ص 273 .

المغرب وجد أكثر مدنه خالية لاختلاف أيدي البربر عليها وكانت البلاد في قحط شديد فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين ...»[1].

ويكون هذا القحط قد أثر في العمران ببلاد المغرب الأوسط ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ليس هذا فحسب ، بل إن تبعات هذه المجاعات تؤثر في انعدام الاستقرار وانتشار الفوضى في المدن لأن الموت جوعا أصبح يتهدد قبائل بأسرها لذلك أصبح الحصول على القليل من الطعام الشغل الشاغل لهؤلاء الأقوام حتى أنهم تحولوا تحت ضغط الجوع إلى مجموعات من اللصوص وقطاع الطرق يترصدون كل من يمر بمناطقهم ليستولوا على متاعه[2]، كما تؤثر هذه المجاعات أيضا في التحرك المستمر للقبائل ، والتي قلما تستقر بالمدن مما ينعكس بالسلب على الحالة العامة لمدن المغرب الأوسط ، وعلى عدد سكانها.

[1] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري : الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق ، جعفر الناصر ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1954 ، ج01 ، ص 95 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج01 ، ص 41 .

[2] عمر بن حمادي وآخرون : الديموغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي ، دار سراس للنشر ، تونس ، 1993، ص 29 .

ثانيا :

المدينة والحكم :

مدن المغرب الأوسط بعد القرن الأول الهجري :

مع أواخر القرن الأول الهجري ببلاد المغرب ، تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ هذه الربوع ؛ تتمثل في بداية مرحلة حكم الولاة والتي ستستمر حتى قيام الدول المستقلة . وقد تناوب على حكم المغرب العربي خلال هذه الفترة : 97 هـ/ 184هـ وعلى مدى الدولتين الأموية والعباسية ، وحتى قيام الأغالبة سنة 184هـ/ 800م . واحد وعشرون (21) واليا[1]. ورغم هذا لا بد أن ننتظر مدة من الزمن لتظهر تأثير الفتوحات في هذه البلاد ؛ فقد ظلت عروبة إفريقية هامشية ومبتورة من جذورها ، وفي هذا المعنى لم يكن ولن يكون لها نفس خاصية إبداع العراق بالنسبة إلى نفس الفترة[2] .

فتميزت هذه الفترة في الجانب العمراني بانتقال المدن ببلاد المغرب الأوسط من مرحلة المدينة المعسكر أو الحصن والتي كانت دعامة المدن السابقة للفتوحات الإسلامية إلى مرحلة المدينة الإسلامية ، وإذا كنا لا نملك وثائق تاريخية بل نملك افتراضات حول تطور المدن في بلاد المغرب ، يبقى الأهم هو ظهور مدن عربية خالصة كالقيروان[3] .

وفي بلاد المغرب الأوسط سنشهد مرحلة تراجع المدن الرومانية القديمة ، لتتطور مدن جديدة سيكون لها الدور الكبير في استيعاب الجند الفاتحين وأسرهم وغيرهم من المستقرين بهذه البلاد . و لم تكن التحولات هذه سريعة بل تميزت بالبطء لكنها جرت بصورة نهائية في معظم المدن والأمصار التي صبغت بصبغة إسلامية في تركيبها ومرافقها بالنسبة للمدن القديمة ، وفي عمليات التخطيط بالنسبة للمدن المحدثة . وإذا ما تتبعنا المراحل التي مرت عليها هذه المدن ، وما جرى للعمران ببلاد المغرب الأوسط من تحولات بعد القرن الثاني للهجرة فإننا نجد أن بلاد المغرب الأوسط في هذه الفترة لم تسمح له حداثة العهد بالإسلام بالتطور والتغيير السريع ، لكن مع بداية القرن الثاني للهجرة تبدأ مرحلة تأسيس المدن الإسلامية تبعا لضرورات أملتها طبيعة المرحلة . إن نظرة شمولية للتطور العمراني في المغرب الإسلامي تجعل المرء يلاحظ صعود الرسم البياني لهذا التطور ابتداء من النصف الثاني للقرن الثاني للهجرة ليبلغ أوجه خلال القرنين

[1] عبد الواحد ذنون طه وخليل إبراهيم السامرائي وناطق صالح مطلوب : تاريخ المغرب العربي ، دار الدار الإسلامي، بيروت لبنان ، 2004 ، ص 126 .

[2] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، ص 170.

[3] Roger Le Tourneou , Op,Cit, p.09- 10 .

الثالث والرابع للهجرة . مثلما يوضحه الشكل التالي :[1]

منحنى تطور العمران ببلاد المغرب في العصر الوسيط.

لقد كانت ظروف نشأة هذه المدن مرتبطة بأهداف معينة كالجهاد والفتح إذ كانت كمعسكرات حربية ، ثم تحولت إلى مراكز إدارية لإدارة الأقاليم المفتوحة[2]، ومن هنا تبدأ مرحلة التأسيس الفعلي للمدينة الإسلامية بالمغرب الأوسط ، وهذا لايعني أن هذا التأسيس قد بدأ من الصفر ؛ إذ أن عددا كبيرا من المدن استمر وجوده ، بل إنه تعزز بإضافات جديدة : مثل إعادة بناء الأسوار ، و توسيع المجال الحضري بظهور أرباض خارج الأسوار البيزنطية مخصصة لسكنى العرب والبربر، والأفارق[3]، والروم . ومن الأمثلة على ذلك ما وقع بطبنة ، وباغاي ، وقاساس ، وبلزمة والأربس وغيرها .[4]

وبعد أن استتبت الأوضاع وانتهت عمليات الفتوح بهذه البلاد ، كان والي المغرب يتمتع بصلاحيات مطلقة ، بحيث يجمع في يديه مختلف الاختصاصات والصلاحيات ، لأنه الممثل الشرعي للخليفة في الولاية ، يمتاز بثقة واسعة ، ونفوذ كبير، إذ يقوم بتسيير الإدارة المدنية والعسكرية والدينية والمالية أحيانا[5]. وكان هؤلاء الولاة يشرفون على ولاية إفريقية انطلاقا من القاعدة بالقيروان ، وقد أفردت المدن

---

[1] الحبيب الجنحاني : دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1986 ، ص 149 .150

[2] محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، ص 95 .

[3] الأفارق أوالأفارقة : أخلاط من الناس كانوا يسكنون النواحي الساحلية العامرة المحيطة بالمدائن البيزنطية و المناطق المعمرة من طرفهم في داخل بلاد المغرب . يتشكلون من خليط من المستعمرين اللاتين وبقايا الشعب القرطاجني والمزارعين البيزنطيين ونفر من البربر الداخلين في طاعة البيزنطيين . حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص 05 .

[4] محمد حسن : المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي ، جامعة تونس الأولى ، تونس ، 1999 ، ج 01 ، ص 300 .

[5] فيلالي عبد العزيز : المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، دار المعارف للطباعة والنشر ، سوسة ، تونس ، ص 22 .

المهمة بعمال آخرين ، وكان اختيارهم على الأغلب يتم من بين القادة العسكريين المعروفين . يكون تحت إمرة العمال حامية عسكرية تتحدد مهامها في ضبط الأمور والدفاع عن الولاية أو المدينة عندما تتطلب الضرورة ذلك[1].

وإذا ما تتبعنا مراحل تعمير بلاد المغرب الأوسط ، وظهور المدن الإسلامية فإن الفاتحين اعتمدوا مثلما هو الشأن في باقي مناطق المغرب على النواة الأصلية القديمة من قلاع وحصون بيزنطية ، وما نشأ حولها من أرباض محيطة بها ، مما نجم عنه ظهور مراكز حضرية متعددة النواتات . لا تمثل فيها المدينة القديمة سوى واحدة من بين المجموع[2]؛ ومع مرور الزمن عملت المدن الجديدة على إزالة الطابع العمراني القديم ، إذ عوضت المدن الجديدة بمرافقها التي تقوم على المسجد الجامع والسوق المركزية[3]. حدث ذلك بعدما حسن إسلام البربر ، و« أخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله . فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم ، واقتضاء الأئمة للصلوات في بواديهم ، وتدارس القرآن بين أحيائهم ، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم »[4].

وتتضمن المرحلة الفاصلة لبروز المدينة الإسلامية ، ظهور الخطط المتعلقة بمصالح السكان ، و لعل ما يخص المدينة يتمثل في بداية ظهور خطة الحسبة بالمدن وهو ما يعطي دلالة على إسلامية المدينة من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشارع والطريق والسوق وغير ذلك من المرافق الأخرى .

ومنذ القرن الثاني للهجرة شهدت بلاد المغرب الأوسط مرحلة الانتقال لنموذج المدينة الإسلامية في الكثير من المدن ، سواء تلك التي تتخذ مقرات رئيسية لعامل المدينة ، أو الوالي . أو باقي المدن والأمصار الثانوية الأخرى. خاصة وأن من مهمات عامل المدينة الإشراف على هذه المدن . وقد حدد ابن خلدون العلاقة بين الدولة والعمران في « أن الدولة والملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة ، وهو الشكل الحافظ لنوعه ، لوجودها، وانفكاك أحدهما عن الآخر غير ممكن على ما قرر في الحكمة . فالدولة دون العمران لا تتصور، والعمران دونهما متعذر»[5]. ومع انتشار الإسلام ببلاد المغرب وانتهاء عمليات الفتح صار ضروريا استيعاب الجماعات الإسلامية الجديدة لا بوصفها جماعات مستعربة (موالي) بل بوصفها

[1] عبد الواحد ذنون طه وآخرون : المرجع السابق ، ص 186.

[2] محمد حسن : المرجع السابق ، ج01 ، ص 300.

[3] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، ص 161.

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج6 ، ص 137.

[5] ابن الأزرق : بدائع السلك في طبائع الملك ، ج 1 ، ص 223 .

جماعات إسلامية كانت وستبقى غير عربية[1]. غير أننا نجد ببلاد المغرب الأوسط أن أغلب المدن بدأت تستقبل قبائل الفاتحين القادمة من المشرق وسرعان ما امتزج الوافدون الجدد مع السكان المحليين . وكانت تصرفات الولاة تبعث على الشك بالعاصمة دمشق ، وهو ما سينعكس بالسلب على التأخر النسبي لظهور المدن الإسلامية ببلاد المغرب الأوسط إذ أن مركز السلطة كانت تخشى من انفصال بلاد الأطراف والحدود، أو حدوث الثورات والانشقاق والتمرد. وهو ما نلمسه من خشية الوليد بن عبد الملك من انفصال موسى بن نصير« وذكروا أن الوليد بن عبد الملك بن مروان لما بلغه مسير موسى بن نصير إلى الأندلس ووصفت له . ظن أنه يريد أن يخلع ، ويقيم فيها ، ويمتنع بها ، وقيل ذلك له ، وأبطأت كتب موسى عليه لاشتغاله بما هنالك من العدو، وتوطيئه لفتح البلاد »[2].

كما شهدت بلاد المغرب الأوسط مشاكل تتعلق بانتشار العصبية القبلية بين القبائل العربية استمرت ردحا من الزمن وكان لها أثرها السيئ في نفوس البربر من جهة ، ومن جهة ثانية شغلت الفاتحين على نشر الدين الإسلامي في أوساط البربر الحديثي العهد به. هؤلاء الذين لم يسلموا هم أيضا من الاضطهاد على يد الولاة وخصوصا بعد انتهاء عهد الخليفة الأموي الورع عمر بن عبد العزيز(99-101هـ/ 718- 720م)[3]. وزادت هذه التجاوزات أكثر في عهد يزيد بن أبي مسلم عام (102هـ) والذي قتل في مصلاه ؛ لأنه كان ظلوما غشوما[4].

بالإضافة إلى هذه السياسة التي درج عليها الولاة بمنطقة المغرب الإسلامي ، والتي سيكون لها أثرها في العمران والمدن لا محالة ، فإن ظروفا أخرى لا تقل عنها أهمية تسببت هي الأخرى في تراجع المدن لعل أهمها الجوائح والمجاعات ؛ ففي عام (127هـ) حدث بلاء وطاعون ، فأقام بإفريقية سبع سنين لا يكاد يرتفع إلا وقتا في الصيف ووقتا في الشتاء[5].

لذلك شكلت بلاد المغرب مركزا رئيسيا ومنطقة استقطاب لحركات المعارضة للسلطة، ولعل في هذه المعارضة ما يوحي بأن هناك جانبا من الصراع بين المدينة والريف التي عرفها التاريخ الإسلامي الوسيط . لأن تجمع الثروات في المدن زاد الهوة عمقا بين المستوى المعيشي لسكان المدينة وسكان البادية، وقد

---

[1] الفضل شلق : الأمة والدولة ، ص 31.

[2] ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري : الإمامة والسياسة . تح طه محمد الزيني ، ج 02 ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ص 62 .

[3] فيلالي عبد العزيز : المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، ص 37 .

[4] ابن عبد الحكم : المصدر السابق ، ص 358 ؛ ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1، ص 48 .

[5] الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص 82 .

حاولت فئات الأغنياء في المناطق التي فتحها المسلمون أن تحمي مصالحها... عن طريق مناصرة وخدمة هياكله الإدارية والاقتصادية ومقاومة أحزاب المعارضة السياسية الدينية المهددة لنظام الخلافة[1].

غير أن هذه الظروف لم تثن السكان على النهوض ، وقد تزامن ذلك مع إرادة الأغالبة على تكثير البناء تماشيا مع رغبتهم في بسط سيطرتهم أكثر نحو المناطق الغربية من المغرب الأوسط . واهتم الأمراء الأغالبة خاصة أولئك الذين حكموا أواسط القرن (الثاني للهجرة) ، بالبناء والتعمير فشيدوا المساجد والرباطات والحنايا الشهيرة[2]، وعادت الزاب الأغلبية روضة غناء تعمل بها الأيدي البربرية والعربية. وكانت الحضارة الإسلامية في الزاب أثناء العصر الأغلبي من أزهى الحضارات الإسلامية[3].

لقد كان الأمراء الأغالبة مولعين بالعمارة ، مثل أبي إبراهيم أحمد بن أبي العباس (242 – 249هـ) الذي « بنى بإفريقية نحوا من عشرة آلاف حصن بالحجارة والكلس وأبواب الحديد »[4]، أما محمد بن أبي إبراهيم بن أحمد (250 – 261هـ) « فبنى حصونا ومحارس على ساحل البحر بالمغرب على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة إلى جهة المغرب»[5]، وقد كانت هذه العمارة معروفة ولازالت قائمة في عهد ابن خلدون . واستمر الأغالبة في هذه السياسة المتعلقة ببناء المحارس والحصون وترد المصادر التاريخية أنه في عهد إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرانيق (261 – 289هـ) « بنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة[6] للنذير بالعدو فيتصل إيقادها بالإسكندرية في الليلة الواحدة »[7].

ومهما كانت واقعية هذه الروايات التاريخية فإن هذا يدل على مدى الاهتمام الذي أولاه الأمراء الأغالبة بالبناء وحتى وإن كان هذا العمران ذا طابع عسكري وشيد من أجل المرابطة على الثغور والسواحل لصد هجمات النصارى ، فإن هذه الأربطة والمحارس كثيرا ما شكلت مراكز عمرانية تحولت مع مرور الوقت إلى مدن قائمة بذاتها .

---

[1] الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص 46 . 47 .

[2] عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ص 39 .

[3] رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، دار الهدى الجزائر ، ص 26 .

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 04 ، ص 256 ؛ أبي العباس أحمد القلقشندي : صبح الأعشى . ج 05 ، المطبعة الأميرية القاهرة ، 1915، ص 121 .

[5] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 4 ، ص 257 .

[6] سبتة : مدينة على ضفة البحر الرومي ، وهي مدينة كبيرة مسورة بسور صخر محكم البناء ، بناه عبد الرحمن الناصر لدين الله ، يسكنها البربر والعرب . البكري : المسالك والممالك ، ج 02 ، ص 285 286 .

[7] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 04 ص 259 .

أما بالمغرب الأوسط فإن إقليم الزاب ، كان من أهم الأقاليم التابعة للسلطة الأغلبية ، وقد لعب دورا محوريا وخطيرا ؛ فطبنة عاصمة الإقليم كانت في الكثير من المرات ينصب ولاتها أمراء بالقيروان ، وفي أحيان أخرى تتدخل وتحدث حرجا للسلطة بالقيروان ؛ والزاب هو الذي سيفرز مؤسس الدولة الأغلبية ، ذاك النمط الجديد في صياغة الإمارة المتماشي أكثر مع متطلبات العصر لأن الزاب يكتسب لقاعدة اقتصادية أمتن مما هي عليه في طرابلس ، ولأن موقعه وسط في المغرب يجعله قادرا على الإطلال على كل البلاد ، ولأن له أيضا تاريخا ممتدا في إفراز الممالك ، وأخيرا لاكتسابه بصفته ثغرا لقوة عسكرية عتيدة[1].

يذكر اليعقوبي أنها « مدينة الزاب العظمى وهي في وسط الزاب وبها يترل الولاة »[2]، ومن هذا التعريف والوصف فالزاب إقليم يشمل العديد من المدن وتكون طبنة عاصمة هذا الإقليم التي يتخذها الولاة مقرا لهم. على أن هذا الوضع سيتغير فيما بعد في القرن الرابع للهجرة.عند انتقال مركز الزاب إلى المسيلة .

وكان الخليفة هارون الرشيد يوصي على هذا الإقليم ، فيذكر الرقيق أنه عندما ولي روح بن حاتم على إفريقية (171هـ) « قال روح: فنظرت في حاجاتي وخرجت إلى إفريقية وخرج هارون يشيعني ، ثم ودعني ، ثم لحقني وصاح : يا روح! لا تترل ولا ترجع . أنت مسافر وأنا مقيم ثم سايرني وقال : عليك بالزاب واملأه خيلا ورجالا »[3].

ولأهميته فإن الخليفة هارون الرشيد قد جعل هذا الإقليم يتبع بغداد مباشرة ، فلقد تعين عليه أن يقوم بدور نشيط ضد الأدارسة ، تحتم فصله عن القيروان و إلحاقه بالخلافة مباشرة[4].

وكانت المناطق الإدارية في عهد الولاة و الأغالبة مشكلة من المراكز والتالية[5]:

الكور أو المناطق	المراكز
ميلة	ميلة
باغاية	باغاية
سطيف	سطيف
نقاوس	نقاوس

[1] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، ص 122.

[2] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص190.

[3] الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص 136.

[4] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 117 118.

[5] اليعقوبي : المصدر نفسه ، ص 190 191 ؛ هشام جعيط : المرجع نفسه ، ص 117. cambusat 1er tom p 196.

بلزمة مقرة	بلزمة مقرة

1- مدينة طبنة :

أ- المدينة بعد الفتح الإسلامي :

بعد انتهاء عمليات الفتح الإسلامي العسكرية ببلاد المغرب الأوسط ، حدثت مجموعة من التغيرات بمنطقة الزاب كان من أهمها انتقال قاعدة هذا الإقليم من أذنة إلى طبنة . ولعل أصل الكلمة أعجمية ومثلها في العربية طبنة لعبة للأعراب ، وهي خطة يخطوها مستديرة ، وجمعها طبن[1]. ويعتبرها اليعقوبي أنها « مدينة الزاب العظمى؛ ويقول أنها "هي التي يترلها الولاة...»[2].

حسب ابن عبد الحكم فإن هذه المنطقة تشكل ثغرا لإفريقية ؛ حيث يورد الرواية أن عقبة « انصرف إلى افريقية، فلما دنا من ثغرها أمر أصحابه فافترقوا عنه ، وأذن لهم حتى بقي في قلة...»[3] وهي مما افتتح موسى بن نصير فبلغ سبيها عشرين ألفا وهرب ملكهم كسيلة[4]، والمدينة حسبما يذكر البكري : إن الذي بناها أبو جعفر عمر بن حفص المهلبي المعروف بهزار مرد[5].

والمدينة شكلت خطا دفاعيا متقدما للقيروان للدفاع عنها والوقوف أمام التهديدات المحتملة من الغرب. إذ أن العباسيين لم يكن بإمكانهم التفريط في إفريقية ، و لم يكن بوسعهم على الأقل في مرحلة أولى السماح باستقلال هذه البلاد عن بغداد . خاصة في ظل ظهور تهديدات جادة من نواحي تيهرت الرستمية ، وتلمسان حيث نشأت إمارة بني يفرن[6] ، وسجلماسة حيث نشأت إمارة المدراريين[1]، ونكور أين قامت إمارة بني صالح[2]، وتامسنا مركز إمارة برغواطة[3] .

---

[1] اليعقوبي : المصدر السابق ، هامش رقم .01 ، ص 190 ؛ ياقوت الحموي : المصدر السابق ، مج 04 ، ص 21 .

[2] المصدر نفسه ، ص 190 .

[3] المصدر السابق ، ص 335 ؛ مجهول : الاستبصار ، ص 174 175 .

[4] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 228 .

[5] البكري : نفسه ، ص 228 .

[6] بني يفرن : يفرن هو أخو مغراو وأبوهما يصليتن وكان من ملوكهم أبو يزيد بن كيداد اليفرني الزناتي ، ومنهم الأمير يعلى بن محمد اليفرني ملك تيهرت والمسيلة وتلمسان قتله القائد جوهر عام 347 هـ ، ومنهم تميم بن زيري بن علي بن محمد بن صالح اليفرني ملك الكثير من البلاد وعاصمته مدينة سلا . وأصل كلمة يفرن حسب ابن خلدون هي : (يفر في لغة البربر) .و يعتبرهم من أوسع بطون زناتة ، و نسبهم هو : بنو يفرن بن يصليتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانا ، في فترة الفتح كانوا ينتشرون بأفريقية ، وجبل أوراس ، وبعدما فشا مذهب الخوارج بالمغرب الأوسط، ضرب فيه بنو يفرن هؤلاء بسهم وانتحلوه وقاتلوا عليه . ومن أهم زعمائهم : أبو قرة ، ومن بعده -

كان هذا السعي العباسي وراء الأعمال التي قام بها محمد بن الأشعث الذي أرسله الخليفة أبو جعفر المنصور عام 144هـ من أجل تهدئة أمور بلاد إفريقية بعد اشتداد ثورات الخوارج بالمنطقة يقوم بأمر إفريقية وضبطها . وولى على طبنة والزاب الأغلب بن سالم[4]، وترك له ابن الأشعث حرية مراقبة هذه الناحية ، ومتابعة ما يدور فيها ، وجعل من مدينة طبنة النقطة الدفاعية الأولى في بلاد الزاب لمواجهة الأخطار المداهمة لعاصمة الولاية[5].

في عهد عمر بن حفص الذي تولى شؤون إفريقية عام 151م، اهتم بتقوية دور طبنة أكثر من سابقيه ؛« ثم سار لبناء السور على مدينة طبنة »[6]. فقد أصبح الوالي الجديد مطالب بالاحتفاظ بمناطق النفوذ التابعة للدولة العباسية الكاملة، ويجعل من هذه المدينة سدا منيعا وحاجزا قويا في وجه الصفرية[7] والإباضية[1]، ومكانا إستراتيجيا لمراقبة تحركاتهم[2]. ويعتقد بعض الدارسين أن المدينة كان تأسيسها لغرض

-أبو يزيد صاحب الحمار . وكانت لهم دولتان بالمغرب الأقصى . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 07 ، ص 15 16 ؛ ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط . القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، ص 164 165 .

[1] إمارة بني مدرار بسجلماسة : إمارة بني واسول : دولة خارجية صفرية حكمت ما بين 140 - 296 هـ/ 757 - 909م عاصمتها سجلماسة جنوب المغرب الأقصى . أسسها عيسى بن يزيد الأسود المكناسي من موالي العرب ، والتف حوله جماعات بربرية بقيادة أبو القاسم سمكو بن واسول الملقب بمدرا . محمد سهيل طقوش : تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام ، دار النفائس ، بيروت ، 2001 ، ص 19 20 . عبد الواحد ذنون طه : دراسات في تاريخ وحضارة المغرب الإسلامي ، دار الهدى الإسلامي ، بيروت ، 2004 ، ص 59 85 .

[2] إمارة بني صالح : ظهرت هذه الإمارة عام 92 هـ، واتخذت من مدينة نكور مركزا لهم ، وظهرت في وسط من قبائل صنهاجة و غمارة ، وعرفت بميلها لنحلة الخوارج ، تزعمها صالح بن منصور . انظر: ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج01 ، ص 176 وما بعدها . البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 273 .

[3] إمارة برغواطة : : من الإمارات الأولى ببلاد المغرب ، تزعمها طريف الذي كان على مذهب الخوارج الصفرية ، قامت في عام 127 هـ / 744م ، بتامسنا بالمغرب الأقصى ، ثم تولى ابنه صالح بن طريف ، تحالف مع ميسرة المطغري ضد حكم العمال الأمويين في المغرب ، لما أبدوه من تعسف في الحكم ، وكانت ثورته في عام 122هـ / 739م . لكنه ادعى النبوة فيما بعد . استمرت هذه الإمارة ، و لم تعرف الكثير من الأمن والاستقرار إلى أن قضى عليها المرابطين بعد عام 452 هـ بقيادة أبو بكر بن عمر اللمتوني . أنظر : البكري : المسالك و الممالك ، ج02 ، ص 318 319 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 56 57 .

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ج 4 ، ص 245 .

[5] عبد العزيز فيلالي : المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، ص 88 .

[6] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 246 .

[7] فرقة من الخوارج من أصحاب زياد بن الأصفر يختلفون عن الإباضية والأزارقة والنجدات في أمور عقدية منها : أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد ، و لم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النار . أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني : الملل والنحل ، دار الفكر ، بيروت . 2002 ، ص 110 .

محاصرة مدينتي تيهرت وتلمسان فعمر بن حفص الذي حصن المدينة بسور بأمر من الخليفة، ثم جعلها مركزا لغاراته التوسعية المقبلة على المغربين الأوسط والأقصى للقضاء على دولة الرستميين بتاهرت ودولتي تلمسان وسجلماسة[3].

ب- أبعاد المدينة :

المدينة كانت من الأهمية التي جعلت البكري يقول « وليس من القيروان إلى مدينة سجلماسة مدينة أكبر منها »[4]، وهي المدينة التي ستكون من المنافذ الرئيسية والخطيرة التي كان ينفذ منها الخوارج إلى إفريقية[5]، وكانت المدينة التي تقع على (04 كلم جنوب بريكة) في موقع يتوسط الكثير من الأمصار والمدن القريبة منها :

فهي تبعد عن دار ملول و مقرة بمرحلة عن كل واحدة منهما[6].

وبمرحلتان عن كل من المسيلة و أدنة[7].

وعن بسكرة بمرحلتان[8].

أما باغاي فتبعد عنها في تقدير الإدريسي بأربع مراحل . وأما عن بجاية فتبعد عنها مسافة بست مراحل[9] .

---

[1] الإباضية : المذهب الإباضي ظهر في القرن الأول للهجرة ، إمامهم هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي الذي توفي عام 96 هـ وينسب الإباضية إلى الإمام عبد الله بن أباض التميمي وهو معاصر لعبد الملك بن مروان . وجرت العديد من المراسلات بين عبد الله بن أباض و عبد الملك ، ومذهبهم يعتبر من المذاهب المعتدلة ، أما مقولاتهم في السياسة فتقوم على أن رئاسة الدولة الإسلامية تقوم على الشورى ولا تقتصر على قريش أو العرب فقط ، وأن لا يحل الخروج على الإمام العادل ، ويجوز الخروج على الإمام الجائر ، وغيرها من الأصول الأخرى . أما أصولهم العقدية فيقولون بتنزيه الله تعالى المطلق وأن الإيمان يتكون من اعتقاد وإقرار وعمل ، و الخلود في الجنة والنار أبدي ، وأن لا منزلة بين منزلتين ، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ، وأن كفر الموحد هو كفر نعمة لا كفر شرك ...

الشهرستاني : الملل والنحل ، ص 108 109 . البارودي : مختصر تاريخ الاباضية ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، 2003، ص 24 ؛ يحي بن معمر : الإباضية دراسة في أصولهم وتاريخهم . المطبعة العربية ، غرداية ، ص 54 وما بعدها .

[2] فيلالي : المرجع نفسه ، ص 90 .

[3] محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر العصور ، دورها في سياسة وحضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984، ص 21.

[4] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 229 .

[5] بوبة مجاني : أثر العرب اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . منشورات جامعة منتوري ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، قسم التاريخ ، 2003 ، ص 175.

[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 ؛ المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص 197 .

[7] البكري : المصدر نفسه ، ص 328 ؛ الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 263 .

[8] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 88 .

[9] الإدريسي : الصدر السابق ، مج 01 ، ص 263 .

كانت المدينة محصنة للأسباب الآنفة الذكر، وكان بها قصر بعده (61.80 متر×50متر)[1]، وينقل البكري عن محمد بن يوسف : «إن قصر طبنة قديم أولي كبير جليل، مبني بالصخر الضخم ، وعليه آزاج كثيرة يتزله العمال ، وهو ملاصق لسور المدينة من جهة القبلة ، عليه باب حديد »[2]. ومن هنا فالمدينة تمثل نموذجا حيا للسياسة التي اعتمدها العرب المسلمون في تعاملهم مع المدن التي وجدوها أثناء الفتح والفترة التي أعقبته ، فقد اتخذوها مقرا لهم وبنوا فوق المرافق القديمة لهذه المدن ، مثلما حدث في هذه المدينة .

ج- أبواب المدينة وتحصيناتها :

أما أبواب المدينة فهي :

من الشرق باب خاقان مبني بالحجر عليه باب حديد وهو سري .

من الغرب باب الفتح وهو أيضا باب حديد .

من الجنوب بابان : باب قمودا ، عليه باب حديد .وهو سري أيضا . والباب الجديد .

أما من الشمال فنجد باب كتامة[3].

لقد كانت هذه التحصينات التي حظيت بها طبنة تدل لا محالة على سعي عمالها على استتباب الأمن ، كما كانت ضرورة ملحة من قبل القيروان ؛ ويذكر البكري أنها « مدينة كبيرة سورها من بناء المنصور أبي الدوانيق... وسورها مبني بالطوب وبها قصر وأرباض وداخل القصر جامع وصهريج كبير يقع فيه نهرها...»[4]، أما صاحب كتاب الاستبصار فيقول أنها: «مدينة كبيرة قديمة عليها سور من طوب ولها حصن قديم عليه سور من صخر جليل ضخم متقن البناء من عمل الأوائل . ولها أرباض واسعة»[5].

إننا نرى أن هذه التحصينات تخدم غرضين :

أحدهما داخلي :يخص المجال الداخلي للمدينة و المتعلق بتركيبة السكان الذين قطنوا المدينة ، وكانت بينهم علاقات أحيانا تكون متوترة وهذا طبقا لما تورده النصوص التاريخية وهي تتكون من « أخلاط من قريش والعرب والجند والعجم والأفارقة والروم والبربر»[6].

---

[1] Cambuzat,Op,Cit, Tome 2, p. 233

[2] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 228 .

[3] البكري : نفسه ، ص 228 .

[4] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 228 .

[5] مجهول : الاستبصار ، ص 172.

[6] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 190 .

ثم نجد عند البكري أن قاطني طبنة من العرب والعجم « بينهما الاختلاف والحرب»[1]، ولما احتط عمر بن حفص المدينة سنة إحدى وخمسين (151هـ) « أنزل ورفجومة هؤلاء بها بما كانوا شيعا له وعظم غناؤهم فيها عندما حاصره بها ابن رستم وبنويفرن»[2].

لهذا فالمدينة احتوت على عناصر مختلفة كثيرا من السكان ، هذا الاختلاف الذي سيؤثر في صعوبة الاندماج في البداية ، وهذا يتوقف على تنظيم المجال الداخلي للمدينة الإسلامية ، والذي يركز بالدرجة الأولى على مركزية المسجد الجامع الذي كان يخدم أغراضا دينية ودنيوية ، بالإضافة إلى الصيغة التي كانت عليها تنظيمات أحياء المدينة ، وشوارعها التي يكون لها دور كبير في تنظيم المدينة ، فقد يكون التنظيم العشوائي أحد أسباب هذا التداخل بين سكان طبنة .

والمدينة المنشأة الجديدة سيكون عليها استيعاب كل هذه القبائل المختلفة ، لذلك فالتغيير بطابعه المميز، يكمن في التدرب على التعايش بين قبائل كانت متباعدة الواحدة عن الأخرى منذ أقدم العصور، أكثر مما كان ترسيخا سكنيا لأناس اعتادوا من قبل التنقل الترحلي ، كما أنه يكمن في امتلاك جديد للروح الحضرية ، والخضوع لدولة فوقية موحدة[3].

أما الغرض الثاني : الذي يمكن أن يبرر هذه التحصينات فيتمثل في كون المدينة أصبحت عاصمة لإقليم الزاب، والذي شكل حدا فاصلا بين تشكيلات سياسية كانت في نزاع حول السيطرة على المنطقة. وأخذ عمر بن حفص يحصن المدينة خاصة بعدما تشكل حلف كبير ضم مختلف فرق الخوارج ونحلهم التي اندفعت من كل ناحية ، واتفقت على محاصرة عمر بن حفص في مدينة طبنة [4].

ومن أجل ذلك نالت هذه المدينة أهمية خاصة لدى الولاة والخلفاء على حد سواء. وأصبحت في نهاية القرن الثامن الميلادي بعدما حصنها الولاة العباسيون تتمتع بمكانة مرموقة[5]. وستصبح طبنة من المنشآت المعمارية الهامة التي تحمل صبغة عربية يمنية.[6] واستفادت كثيرا من سياسة الأغالبة التي اعتمدوها

---

[1] البكري : المصدر نفسه ، ص 228 .

[2] الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية و المغرب ، ص 105 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 75 76 ؛ ابن خلدون : ديوان العبر ، ج6 ، ص 136 .

[3] هشام جعيط : نشأة المدينة العربية الإسلامية ، ص 77.

[4] عبد العزيز فيلالي : المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، ص 90 .

[5] موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول من القرن 2 إلى 5 هـ (8-11م) ، ترجمة ، إسماعيل العربي ، منشورات دار الآفاق الجديدة المغرب ، 1990 ، ص 107 .

[6] بوبة مجاني : أثر العرب اليمنية ، ص 174 .

في بناء الحصون والقلاع والأربطة على كامل المجال الذي سيطروا عليه. وقد قام بلانشي[1] (Blanchet) بحفريات في منطقة طبنة وقدم لنا تصميما للمدينة يوضح ، هذا التصميم شكل تخطيط المدينة المربع ، كما يوضح أبراج السور المحيطة بالمدينة التي تحتوي على قسمين رئيسيين يتمثلان في المسجد الذي يفصله رواق من الشارع حيث نجد في القسم الجنوبي للمدينة المكان المخصص للقصر.

د- الوضع الاقتصادي لمدينة لطبنة :

إن موقع المدينة الوسط في إقليم لعب دورا هاما في تاريخ إفريقية يعود دون شك لما كانت تتمتع به إمكانيات اقتصادية وخيرات ؛ يقول عنها ابن حوقل أنها : «كبيرة البساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير... وأكثر غلاتهم السقي ويزرعون الكتان وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة ، وكانت وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم...»[2]، وتكون هذه الخيرات قد أغرت السلطة الفاطمية على السيطرة على المدينة التي تخدم مصلحهم في الحصول على الأموال ، والسيطرة على طرق التجارة بمنطقة المغرب الأوسط .

المدينة تكون قد تراجعت في عهد البكري الذي يقول أن بساتين المدينة تراجعت ويذكر أن المدينة يشقها « جداول الماء العذب ، ولها أسواق كثيرة..، ولها بساتين يسيرة ملاصقة للربض »[3]، ولا نغفل العامل الهام في هذه الفترة والمتمثل في ثورة صاحب الحمار التي كانت أغلب أراضي المغرب الأوسط مسرحا لها ، فتكون المدينة قد تعرضت لضغوط تلك الثورة خاصة وأنها انحازت للسلطة الفاطمية ، وكثيرا ما استعملها قادة الجند الفاطميين قاعدة للتعبئة العامة ، والتجمع و الاتصال[4]، فتكون المدينة قد نالت ما نالته العديد من المدن الفاطمية الهوى، وقد لا يقتصر الأمر على تراجع الدور الاقتصادي فقط. بل إن الأمر يتجاوز ذلك إلى تراجع سكان المدينة في حد ذاتها خاصة التجار والحرفيين الذين يبحثون عن المدن الآمنة المدينة تعود إلى الظهور مرة أخرى ، لكن وصف الإدريسي لها لا يكشف عن الحالة التي كانت عليها المدينة في العهد الأغلبي . ويذكر الإدريسي أن المدينة : «كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة

---

[1] M , Blanchet , *Excursion Archéologique Dans Les Hodna Et Le Sahara* , société Archéologique De Département De Constantine , 2e Volume De La 4e Série , 1899 , P. 288

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 .

[3] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 228 .

[4] موسى لقبال : طبنة في مجال العلاقة بين زناتة و الفاطميين حتى نهاية عهد المنصور الفاطميين ، حوليات جامعة الجزائر ، 1991 1992 ، ص 54.

والشعير... وبها صناعات وتجارات وأموال لأهلها متصرفة في ضروب من التجارات والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه »[1]. وما نفهمه من خلال أوصاف الجغرافيين أن المدينة تأثرت بانتقال مركز الزاب إلى مدينة المسيلة التي تأسست لخلافة طبنة في المنطقة .

هـ- تراجع دور المدينة :

إن التطور الذي بلغته المدينة والمكانة الهامة التي حظيت بها ستتراجع مع نهاية القرن الثالث للهجرة ومطلع القرن الرابع ، فهذا ابن حوقل يصف المدينة ويعبر عن التردي الذي وصلته طبنة ، بعدما كانت مدينة عظيمة كبيرة ونتيجة تركيبتها السكانية القبلية « حدث بينهم البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض وأتى على نعمهم فصاروا بعد السعة والدعة إلى الضيق والذلة والصغار و الشتات والقلة مشردين في البلاد مطرحين في كل جبل وواد وبقيتهم صالحة »[2].

قبل بروز مدينة المسيلة كقاعدة أساسية في منطقة الزاب ؟ كانت تابعة لطبنة مثلما يعبر الإدريسي عن ذلك من أن « المسيلة في أرض طبنة »[3]، وتراجع طبنة بدأ يظهر بعدما فشلت في صد الحصار الذي ضربه عليهم أبو عبد الله الشيعي ، واستسلمت أمامه تفاديا للانتقام ورغم ذلك فقد أسقطوا أبراج السور ثم تعرض سور المدينة للتهدم[4].

كما أن السيطرة الفاطمية على المدينة تكون من أحد أسباب تراجعها ، فقد تضررت طبنة كثيرا أثناء الصراع، كونها نقطة عبور للحملات الفاطمية في محاولاتها السيطرة على مدن المغرب الأوسط، أو للقضاء على الثورات التي لم تنقطع عليها[5] ، ومن خلال ما ذكره ابن حوقل فإن تراجع طبنة يكون بعد استيلاء الفاطميين عليها ، وبعد بناء المسيلة تصبح ثالث أهم مدينة بالزاب بعد أدنة ثم طبنة .

---

[1] الإدريسي : نزهة المشتاق في إختراق الآفاق ، مج 01 ص 263 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 .

[3] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 261 .

[4] القاضي النعمان : أبو حنيفة بن محمد بن حيون التميمي . رسالة افتتاح الدعوة ، تح وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1970 ، ص 160. 161.

[5] موسى لقبال : طبنة في مجال العلاقة بين زناتة والفاطميين حتى نهاية عهد المنصور الفاطميين ، ص 51 52 .

2- مدينة بلزمة[1] :

تعتبر بلزمة من المدن الرومانية القديمة ، والتي استمر دورها في العهد النوميدي في إطار الخط الدفاعي المتقدم الذي أسسه البيزنطيون بمدينة لاماسبا (Lamasba)[2]. واستمرت في العهد الإسلامي محافظة على دورها الدفاعي أيضا .

المدينة تقع على الطريق ما بين القيروان إلى الزاب مرورا على باغاية – طبنة . وتعتبر من الحصون الرومانية القديمة بمنطقة الزاب ، والتي أسست لمراقبة القبائل البربرية لمنطقة غرب الأوراس .

أ- بلزمة بعد الفتح الإسلامي :

بعد الفتح الإسلامي ، ومثل باقي مدن المنطقة تنعدم النصوص المكتوبة الخاصة بأوضاع المدينة باستثناء ما ذكر حول الحامية التي تسكنها ؛ ويقول ابن حوقل أن بلزمة : « بلد محدث للعرب وفيه بقاياهم إلى الآن»[3]، فقد سكنها الجند المسلمون من قبيلة بني تميم، ومواليهم، والذين ذكرهم اليعقوبي الذي أغفل وصف المدينة لكنه أشار إلى سكانها عند ذكره لمدن الزاب « ومدينة يقال لها بلزمه أهلها قوم من بني تميم»[4] وموالي لبني تميم وقد خالفوا على ابن الأغلب في هذا الوقت »[5]، وهذا ما لم يغفله البكري الذي أشار إلى أن المدينة هذه عبارة عن حصن ويحيط به مجموعة من القرى «بلزمة لمزاتة[6]، حصن أولي وهو في بساط من الأرض ، كثير المزارع والقرى ، وفي قراه حصون كثيرة...»[7].

---

[1] تقع بالقرب من مدينة مروانة حاليا على مسافة حوالي 05 كلم ، لكنها اندثرت وبقيت فيها آثار قديمة ، والراجح أن مدينة بلزمة توجد على أنقاض تلك الآثار ، التي لم تجري فيها أية حفريات تعود للفترة التي ندرسها ، عكس الفترة السابقة (الرومانية) حيث توجد العديد من الدراسات خاصة بنظام الري فيها .

[2] Cambusat, Op,Cit, Tome 2, p. 45 .

[3] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 93 .

[4] بني تميم : قبيلة عربية تنتمي إلى أولاد مر بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وهم : تميما ، ومحاربا ، ومازنا ، وسلمة ، وبكرا ... وأمهم جميعا الخوأب بنت كلب بن وبرة . أبو عبيد بن قاسم بن سلام : كتاب النسب ، تح مريم محمد خير الدرع ، دار الفكر ، 1989 ، ص 231 ؛ ابن الأثير عز الدين : اللباب في تهذيب الأنساب ، ج 01 ، دار صادر بيروت ، 1980، ص 222 .224 ؛ البيتي . أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البلانسي : تذكرة الألباب في أصول الأنساب . تح محمد مهدي الموسمي الخراساني ، مؤسسة المواهب بيروت ، 2001 ، ص 81 . ؛ الخازمي . أبو بكر محمد بن أبي عثمان الهمذاني : عجالة المبتدئ و فضالة المنتهي في النسب ، تح عبد الله كنون ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، 2002 ، ص 60 .

[5] البلدان ، ص 190.

[6] مزاتة : قبيلة بربرية بترية ، نسبها : مزاتة بنوزاير بنو لوا الأصغر وتنتهي إلى لواتة . يقول ابن حزم أن نسابة البربر ذكروا أن مزاتة وسدراتة ولواتة نسبهم من القبط . غير أن ابن خلدون يقول أن ذلك ليس صحيح ، لأنه ابن خلدون لم يطلع على كتب هؤلاء النسابة البربر . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص 498 . ؛ ابن خلدون : العبر ، ج 06 ، ص 152 153 .

[7] البكري : المصدر السابق ،ج 2 ، ص 227 .

ورغم أهمية هذا الحصن الذي اتخذته قبيلة بني تميم ومن بعدهم قبيلة مزاتة بالنسبة للدولة الأغلبية ، فإن المصادر التاريخية لا تشير إليه في أثناء حملات القادة الفاتحين لبلاد المغرب . إذ من المرجح أنه استخدم كملجأ للروم الفارين من حملاتهم الناجحة بالمنطقة . ولا يرد ذكر للمدينة إلى غاية ظهور الدولة الأغلبية ، التي كان يشغلها تأمين حدودها الغربية . إذ ستكون هذه المدينة أحد أهم نقاط الدفاع عن الحدود الغربية للدولة الأغلبية بجانب طبنة .

فالحصون البيزنطية قد رممت واستخدمت من جديد ، وواصلت القيام بدور الدفاع عن الإمارة الأغلبية[1] . وبالنسبة لحصن بلزمة فقد وصفه الإدريسي أنه «حصن لطيف وفي أهله عزة ومنعة و لها ربض وسوق ولها آبار طيبة وماؤها أيضا غدق ، وهو في وسط فحص أفيح وبناؤه بالحجارة الكبار القديمة . ويذكر أهل تلك الناحية أنه من أيام السيد المسيح . والمدينة في ذاتها مردومة بالتراب والأحجار، فإذا نظر الناظر إلى السور من خارج رأى سورا كاملا وإذا دخل المدينة لم يجد لها سورا لأن أرض الحصن مساو للشرفات...وهذا غريب في البناء »[2]. وهذا ما يعني أن بناء المدينة يعود للعهد الروماني حسب هذا الوصف .

تبعد المدينة عن بجاية بمرحلتان وبعض .

وعن قسنطينة تبعد مسافة يومان[3] ، ولها مجموعة طرق تربطها بمدن نقاوس في الاتجاه نحو مدينة طبنة، وعبر باغاي إلى القيروان ، وعبر سطيف إلى مدينة بجاية .

ب– علاقة المدينة بالقيروان :

موقع المدينة الذي يشرف على إقليم كتامة بجانب ميلة وسطيف لم يجعلها في أحسن وضع ؛ فقد تميزت بالشك في نوايا سكان المدينة والخوف من استقلالهم ، خاصة وأن أبا عبد الله الشيعي قد عرف هذه المدن التي على حدود كتامة من خلال سؤاله لوفد كتامة المصاحب له . فقد سألهم « قال: فبالقرب منكم أمصار؟ قالوا : نعم ، وذكروا ميلة وسطيف وبلزمة وقالوا: هي في حدودنا...»[4]، وكان يتولى حكم هذه المدن قبائل قيسية من نفس عصبية الدولة الحاكمة لبلاد إفريقية وهي الدولة الأغلبية .[1]

---

[1] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 144.

[2] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1، ص270 .

[3] الإدريسي : نفسه ، ج 1، ص 260 . 270 .

[4] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 64 .

لقد كانت الحصون التي استغلها الأغالبة في منطقة الزاب قد أوكلت لها مهمة رقابة جبال أوراس ، وهي الحصون التي حرست وحاصرت منذ العصور القديمة المنافذ بنجاح متفاوت ، أي بالخصوص ، حصون باغاية وبلزمة وطبنة وقمودة ، وهي التي كانت تشكل الحزام الواقي للولاية ، و لم ترضخ في النهاية إلا لسيوف العلويين[2].

وإذا كانت طبنة عاصمة الزاب قد تمتعت بعلاقة وطيدة بالقيروان ، فإن بلزمة كان لها نوع من الاستقلال عن المركز، وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال محاولة عبد الله الشيعي معرفة أوضاع المدن الحدودية لإقليم كتامة بعد سؤاله الكتاميين :« قال : فلسلطان افريقية بها عمال ؟ قالوا : لا ، فإنما بها رجال ملكوها ما له عندهم أكثر من الدعوة على المنابر ، وهم له طاعة في معصية...»[3].

فهل كان الكتاميون يُرغبون عبد الله الشيعي ويشجعونه على الإجهاز على هذه المدن عندما كان بتازروت يعد جيشه للثورة على الأغالبة ؟ أم أنهم يقرون بالواقع الذي كانت عليه هذه الأمصار ؟ إذ أن العلاقة بين بلزمة وإقليم كتامة لم تكن على أحسن حال . بالإضافة إلى ما ميز علاقة بلزمة بالقيروان . والسبب يعود إلى سطوة جند بلزمة على المنطقة ؛ فالمصادر التاريخية تشير إلى أن « أهل بلزمة كانوا قد أذلوا كتامة واتخذوهم خولا وعبيدا . وفرضوا عليهم العشور والصدقات وأن يحملوا ذلك على أعناقهم...»[4]. وقد يعني هذا أن الحامية التي تقطن بلزمة بدأت تُظهر نوع من الاستقلال عن العاصمة القيروان ، أو أنها كانت تجبي تلك الأموال لبسط النفوذ الأغلبي على قبيلة كتامة .

ومهما يكن فإن تطور الأحداث التاريخية ستجعل من تصرفات هذه الحامية نقمة عليهم ،إذ أن قبيلة كتامة ستصبح بالتحالف مع عبد الله الشيعي صاحبة السيف في الدولة العبيدية ، في حين أن الأغالبة سيقدمون على ارتكاب مجزرة في حق خيرة الجند البلزمي . وهو ما سيعجل بنهاية المدينة في نفس ، وهذا بدوره يؤدي إلى سقوط الدولة الأغلبية .

---

[1] بوبة مجاني : مدينة قسنطينة في الفترة الإسلامية ، ص 57 ؛ محمد الطالبي : المرجع نفسه ، ص 316 .

[2] محمد الطالبي : نفسه . ص 288 289 .

[3] القاضي النعمان : المصدر نفسه ، ص 64 65 .

[4] النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 131.

ج- دور الأغالبة والفاطميين في إضعاف المدينة :

لم تستمر هذه الأوضاع طويلا أمام رغبة الكتاميين تولي مكانة ملائمة بالمغرب ، ومؤازرتهم عبد الله الشيعي آملين أن يحقق لهم رغبتهم في الملك . ومن جهة أخرى بدأت مدن الزاب تتضايق من السياسة الأغلبية ، هذه الأخيرة التي كانت تعتبر الكثير من مدنه مصدر تخوفات القيروان ، ولذلك عملت على إضعاف هذه المدن . ففي عهد ولاية أبي الغرانيق (250 -261 هـ) الذي «كانت في أيامه حروب وفتن »[1] ؛ لم تستثن هذه الفتن بلاد المغرب الأوسط فكانت قبائل بلزمة من الذين سيساعدون قائده أبا خفاجة على تهدئة الثورات والفتن بالزاب بعد « اضطراب ثغر الزاب عليه . فأخرج إليه أبا خفاجة محمد بن إسماعيل في عسكر عظيم ، ففتح فتوحات عظيمة في طريقه ، وخافه جميع البربر و لم يقم أحد له... ثم نهض إلى طبنة . وأتى حي بن مالك البلوي في خيل بلزمة فصارفي عسكره »[2].

في سنة 268 هـ اجتمعت حادثتان ببلاد المغرب الأوسط كان لهما الأثر السيئ على العديد من المدن :

1 - ففي هذا العام « اشتد القحط وغلت الأسعار حتى بلغ قفيز[3] القمح ثمانية دنانير. والقفيز مقدار إردب وربع بالمصري . فهلك الناس حتى أكل بعضهم بعضا »[4]. ولو أننا لا نملك معلومات حول مدى تأثر منطقة الزاب ومدنه بهذه المجاعات فإن ذلك يتوقف على مقدرتها وما تمتلكه من خيرات تمكنها من تجاوز هذه الجوائح وبالنسبة لبلزمة فقد كانت في عهد ابن حوقل « من الرخص والسعة وكثرة الكراع والماشية والعز والمنعة في غاية حسنة »[5]، فهذا ما يرجح ربما عدم تأثر المدينة كثيرا بهذه المجاعة ، فعندما غزاها عبدالله الشيعي بعد عام 291هـ، كانت المدينة في موسم حصاد ، فكان « يخرج إليهم العساكر في أوان زراعتهم فتأتي عليها »[6] .

2- أما الحدث الثاني الذي وقع في هذا العام أيضا، فسيكون له تأثير خطير على مدينتي بلزمة وطبنة خاصة وباقي مدن المغرب الأوسط التابعة للسلطة الأغلبية ، يتمثل في السياسة التي انتهجها إبراهيم أخ أبوالغرانيق

---

[1] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 114.115. ؛ ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 4 ، ص 257 .

[2] النويري : المصدر نفسه ، ج 24 ، ص 126.

[3] القفيز : أقفزة : جمع قفيز . وحدة وزن كانت في عهد الحجاج تساوي صاع النبي ﷺ، أي ما قيمته : 4,2125 لتر وكانت تساوي بالقيروان القفيز الواحد = 32 مُدا كل مُد من 6 أمداد من امداد النبي ﷺ= 201 ,877 لتر . قالتر هنتس : المكاييل و الأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ص 66 68 .

[4] النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 130.

[5] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 93 .

[6] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 164 .

حيث « فتك بأهل الزاب ، فقتلهم وقتل أطفالهم ، وحملوا على العجل إلى الحفر، فألقوا فيها »[1].

وبعد عشر سنوات في عام 278هـ، يقوم إبراهيم بن أحمد أخو أبي الغرانيق بأكبر مجزرة في حق الجند الذي ببلزمة وكان ذلك أهم حدث يتسبب في إسقاط هذا الحصن الأغلبي ، والذي سيكون له أثره في نجاح الدعوة الشيعية هناك . وسبب هذه المجزرة تتمثل في استجارة هارب من أهل باغاية ببني مالك ببلزمة كان إبراهيم بن أحمد قد سجنه ورفض عامل بلزمة تسليمه للأغالبة[2]، وهو ما أثار حفيظتهم فجهز حملة على مدينة بلزمة ، لكنه فشل في اقتحامها ما جعله يلجأ إلى المكر والإيقاع بنحو من ألف من خيرة جندها الذين دعاهم إلى مدينة رقادة « فأنزلهم ووسع عليهم ، وبنى لهم دارا كبيرة تشتمل على دور ترجع إلى باب واحد وأسكنهم فيها . فلما سكنوا واطمأنوا ، جمع ثقات رجاله لأخذ أرزاقهم ، ثم أمرهم بمصاحبة ابنه عبد الله لما أمره به ، فلما اجتمعوا إليه ، ركب إلى دار البلزميين في الجند ، فقتلهم عن آخرهم ، بعد أن دافعوا عن أنفسهم إلى وقت العصر»[3].

لا شك أن هذه المجزرة التي تعرض لها خيرة جند بلزمة قد أربكت باقي الحاميات الأغلبية بمختلف مدن وحصون المغرب الأوسط التابعة للسلطة الأغلبية ، بكل من ميلة وسطيف وباغاية ونقاوس ومقرة[4]. ومن جهة ثانية، فإن مدينة بلزمة التي قضي على ألف من أبطال فرسانها برقادة، فهذا يمكننا من تقدير عدد سكان المدينة ، فلا شك وأنها قد نظمت وفق ما تقتضيه حاجة هؤلاء وأسرهم ، فالمدينة قديمة ، وتخطيطها روماني، وكانت تتمتع بخيرات كثيرة، وهو ما يرجح وجود شرائح اجتماعية أخرى بجانب هؤلاء الجند بالمدينة، مثل التجار والمشتغلين بالفلاحة والحرفيين وغيرهم ، ففي أثناء الحصار الفاطمي للمدينة كان بالمدينة «رجل من أهل مجانة يعرف بأبي عبد الله له لسان ، وكان يحملهم على العناد والإصرار ويصنع لهم المجانيق والعرادات وآلات الحروب»[5]. وهو ما يدل على وجود صناعات وحرفيين بالمدينة ، غير أن عدم عثورنا على النصوص المكتوبة وانعدام الشواهد الأثرية يجعل دراستنا لمثل هذه المدن غير مكتملة .

وقد رثى الشاعر محمد بن رمضان من نفطة أهل بلزمة عن هذه النكبة في قصيدة[6] يهجو فيها الأغالبة ويتوعدهم بقرب قدوم المهدي للانتقام لهم . ونورد بعض ما قاله حول هذه المجزرة :

---

[1] ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 1، ص 119.

[2] القاضي النعمان : المصدر نفسه ، ص 88 .

[3] ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 1، ص 123 . النويري : المصدر نفسه ، ج 24 ، ص 131 .

[4] عن هذه الحاميات أنظر : اليعقوبي : البلدان ، ص 190 191.

[5] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 164 .

[6] أنظر هذه القصيدة عند القاضي النعمان : نفسه ، ص 89 .

جل المصاب لئن كان الذي ذكروا ... مما أتتنا به الأنباء والسحر
عن ألف أروع كالآساد قد قتلوا ... لساعة من سواد الليل إذ غدروا
قل لابن أحمد إبراهيم مألكة ... عن الخبير بما يأتي و ما يذر
جرعت ضيفك كاسا أنت شاربها ... عما قليل وأمر الله ينتظر
فدولة القائم المهدي قد أزفت ... أيامها والذي أنبا به الأثر

ويرى ابن عذارى أن هذه المجزرة كانت من « أسباب انقطاع دولة بني الأغلب ، إذ كان أهل بلزمة في نحو ألف رجل من أبناء العرب والجند الداخلين إلى إفريقية عند افتتاحها وبعده ، وكان أكثرهم من قيس ، وكانوا يذلون كتامة . فلما قتلهم إبراهيم، استطالت كتامة، ووجدت السبيل للقيام مع الشيعي على بني الأغلب »[1].

منذ هذه الحادثة التي أحدثت قطيعة نهائية بين مدينة بلزمة والسلطة الأغلبية ، سيكون لها أثرها كذلك في فشل المدينة في الوقوف أمام الزحف الفاطمي الذي حاصر المدينة من خلال قطع الصلة بين المدينة وأرباضها التي لم تجد من يدافع عنها، لأن جند المدينة قضي عليهم برقادة .

وفي نفس الوقت ، لا نفهم أن دفاع السكان عن مدينتهم هو دفاع عن سلطة الأغالبة ؛ إذ أن قبيلة مزاتة كانت قد أظهرت عداءها للحركة الإسماعيلية ، كما لا ننسى الصراع القائم بين بني مميم و قبيلة كتامة قبل ظهور الدعوة الفاطمية ببلاد المغرب الأوسط .

ستؤدي سياسة الأغالبة في المبالغة في إضعاف الحامية العتيدة الموجودة في قلعة بلزمة في عهد إبراهيم الثاني، إلى فتح ثغرة في الأسوار المحاصرة لكتامة قضت على بقاء الحكم في دولته[2]، وهذا ما سيفتح أيضا ثغرة واسعة في الجهاز الدفاعي الأغلبي من الناحية الغربية[3] .

فقد أصبحت هذه المدن بين فكي كماشة ، التشدد الأغلبي من الشرق سعيا من أمراء القيروان الهيمنة على إقليم الزاب الحيوي ، ومن الغرب سيكون التهديد الشيعي أكثر حدية في اقتحام هذه المدن خاصة وأن الأغالبة قد سهلوا لهم المهمة من حيث عملهم على إضعاف مدن الزاب والفتك بحامياتها ظنا منهم أنها تهدد السلطة القائمة .

---

[1] المصدر السابق ، ج 1 ، ص 123 .

[2] محمد الطالبي : المرجع السابق ، ص 648 .

[3] فرحات الدشراوي : الخلافة الفاطمية بالمغرب 296-365هـ/909-975م التاريخ السياسي والمؤسسات ، ترجمة ، حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1994 ، ص 36 .

تسقط بلزمة أمام عبد الله الشيعي الذي لم يفشل أمام المقاومة التي وجدها بهذا الحصن مما جعله يلجأ إلى حصارها ، والإغارة عليهم في مواسم الصيف إذ عرفت بلزمة بزراعاتها المزدهرة وكثرة مواشيها.« وقاتل أهل بلزمة قتالا شديدا ودافعوا مدافعة عظيمة ونصب أبو عبد الله عليهم الدبابات والأبرجة فأحرقوها..."ويضيف القاضي النعمان أن شدة الحصار الذي دام ثلاث سنوات بلغت أن السكان :"أكلوا كل ما عندهم من الحيوان ثم أكلوا جلودها ، ثم لما نفذ ذلك كله عادوا إلى درقهم فكانوا يقطعونها و يبلونها و يطبخونها و يأكلونها إلى أن غلب عليهم الجوع فاستأسروا...وأمر أبو عبد الله بهدم سورها فهدم» [1] .

حصار هذه المدينة اعتبر طريقة جديدة في طريقة الحرب التي سلكها الفاطميون في تخريبهم للمدن فبعد تشديد الحصار وإفساد الزروع هوجمت الأسوار بدواليب متنقلة قذفت منها القلعة بقذائف مشتعلة حشيت فيها النار، فأمكن بذلك اقتحامها ، وقتل كل من بقي من المقاتلين ، باستثناء النساء والأطفال واحتجزت كل أمتعتهم وأموالهم [2] .

من خلال وصف الجغرافيين لهذه المدينة التي كانت أقرب للحصن منها إلى المدينة العادية ولعل هذا ما جعلها تلعب دورا هاما في أحداث العصر الوسيط [3]. غير أننا لا نستبعد أن استقرار الجند في هذا الحصن القديم لم يكن ليخلو من مظاهر مدينية . ويقدر أبعاد السور حسب كومبيزا على (125م ×112م) يحيط بها ثمانية أبراج ، وعمارته تشبه إلى حد بعيد سور مدينة طبنة [4].

وإذا كانت هذه نهاية المدينة التي سيطرت ردحا من الزمن على إقليم كتامة ، فإن عبد الله الشيعي أرادها أن تكون كذلك ، ومثلما يرى محمد طالبي ؛ فإنه ينبغي البحث عن السبب في الضغائن الهائلة المتراكمة منذ أجيال في قلوب كتامة على حصن سقاهم طويلا كأس الإهانة حتى الثمالة [5]، ويكون الجند الكتامي قد عبث بالمدينة وغنم كل ما وجوه من الأثاث والأمتعة وغيرها مثلما يخبرنا القاضي النعمان .

---

[1] القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص 165.

[2] محمد الطالبي : المرجع نفسه ، ص 722 723 .

[3] ناصر الدين سعيدوني : الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة ، دراسة في التاريخ الاقتصادي ة الاجتماعي لمدنية الأوراس قبل وأثناء العهد العثماني ، مجلة الأصالة العدد 60 61 ، أوت سبتمبر 1978 ، ص 123 .

[4] Cambusat, Op, Cit, Tome 2, p. 48 .

[5] محمد الطالبي : المرجع نفسه ، ص 723 .

3- مدينة دار ملول:

لم يرد ذكر هذه المدينة عند اليعقوبي ولا البكري ، وهو ما يعني أن دورها كان ثانويا في فترة حكم الأغالبة ، غير أنها كانت محطة هامة في الطريق بين باغاية و طبنة عبر دوفانة، أوعين العصافير ، ثم دار ملول إلى طبنة ، وهو طريق روماني قديم[1]. وتبعد عن باغاي بثلاثة مراحل ، وعن طبنة بمرحلة[2].

أما الإدريسي فيقدر أبعاد دار ملول كما يلي :

المسافة بين دار ملول وطبنة مرحلة كبيرة .

وبين دار ملول ونقاوس ثلاث مراحل .

وجبل أوراس منها على مرحلة »[3].

يمكن أن يكون للدور الذي كانت تؤديه الحامية الأغلبية المستقرة ببلزمة من جهة ، ومركزية طبنة في منطقة الزاب من جهة ثانية سببا في أن لا يكون لها شأن يذكر. غير أن المصادر الجغرافية تذكر أنها كانت « فيما سلف من الدهر مدينة عامرة وأسواقها قائمة ولها مزارع وغلات جمة وفيها حصن مطل فيه مرصد من البلد ينظر إلى مجال العرب في بلادهم ويتطلع منه إلى ما بعد من الأرض...»[4]، وكانت دار ملول المدينة التالية التي قصدها أبوعبد الله الشيعي بعد سيطرته على حصن بلزمة ، وقد فشل عامل باغاية الأغلبي في استخلاص دار ملول من الشيعة ، وجهز حملة لما علم أن سكان دار ملول « قد دخلوا في طاعة أبي عبد الله »[5]. غير أنهم انهزموا أمام الحملة التي أرسلها عبد الله الشيعي بقيادة غزوية إلى جبل بلزمة[6]

في ظل السيادة الفاطمية في بلاد المغرب الأوسط تصبح دار ملول « منزلا ينزله المجتازون وفيها مرصد قديم على جميع ما يجتاز بها »[7]، فقد كانت هذه المراصد أحد السمات البارزة للسياسة المالية

---

[1] Cambusat , Ibid , p. 82

[2] المقدسي : المصدر السابق ، ص 197 .

[3] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 264 .

[4] الإدريسي : نفسه ، ج 1 ، ص 264 .

[5] القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص 166 .

[6] يقع الى الشمال الغربي لهذه المدينة جبل بلزمة وهو الذي لجأ إليه أبي مخلد صاحب الحمار . ويسمى اليوم بجبل "بوغيول" بالبربرية ومعناه "جبل صاحب الحمار"، له ميزة الإشراف على سهول بلزمة الواسعة ، ومن الجهة الأخرى يشرف على مرتفعات جبل الرفاعة الشاهقة غرب الأوراس .

[7] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 .

الفاطمية وعمالها . غير أن المدينة لم تحافظ طويلا على ازدهارها ، حيث ما لبثت أن تحولت إلى خرائب[1]. ويكون من الصعب اليوم تحديد موقعها .

4- مدينة نقاوس :

مدينة رومانية قديمة كانت تسمى (nicivibus)، ويذكر اليعقوبي أن نقاوس مدينة «كثيرة العمارة والثمر بها قوم من الجند وحواليها البربر من مكنانة بطن من زناتة وحولهم قوم يقال لهم أوربة ...»[2].

ولعل الموارد الاقتصادية التي تحتويها المدينة تكون وراء غناها بالعمران ، فضلا عن موقعها على الطريق بين باغاية وطبنة، « يأخذ الآخذ على بلزمة إلى نقاوس إلى طبنة »[3] .

يذكر الشريف الإدريسي أبعاد ومسافات هذه المدينة عن المدن المجاورة لها فهي: « تبعد عن مدينة طبنة بمرحلتان ، ومن نقاوس إلى المسيلة أربع مراحل وقيل ثلاث مراحل ، ومن مدينة نقاوس إلى حصن بسكرة مرحلتان...»[4].

وهذا الموقع يؤهل هذه المدينة أن تلعب دورا لا يقل أهمية عن بلزمة وباغاية ؛ فبالنسبة للجند المتمركز بمدينة نقاوس فإنه يعود بالدرجة الأولى إلى الحزام الذي أمنه الأغالبة بمنطقة الزاب تحت إشراف مدينة طبنة وبالحاح من بغداد . خاصة وأن تحصيناتها كما يذكر ابن حوقل تجعلها من المناعة التي تسمح لها بالوقوف في وجه الهجمات الخارجية ، فهي « مدينة كبيرة عليها سور من حجارة قديمة أزلية...»[5] .

---

[1] ناصر الدين سعيدوني : الإنسان الأوراسي و بيئته الخاصة ، دراسة في التاريخ الاقتصادي ة الاجتماعي لمدنية الأوراس قبل وأثناء العهد العثماني ، ص 123 .

[2] اليعقوبي: المصدر السابق ، ص 190.

[3] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85.

[4] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1، ص 264.

[5] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 93.

دورها الاقتصادي :

ميزت المدينة حسب ما يصفها ابن حوقل بتوفرها على «مياه كثيرة وأجنة عظيمة وهـا جميـع الفواكه كاللوز والجوز والكروم وزرعهم غزير كثير»[1]. ونجد المقدسي لا يذكر المدينة إلا باختصار شديد فهي «باردة بلد الجوز والثمار الجبلية »[2].

وقد لا تكون مدينة نقاوس في حد ذاتها المعنية بهذه المنتجات فقط وهذا إذا مـا اعتمـدنا علـى الأوصاف التي جاء بها الجغرافيون العرب فالوقوف على مفهوم البلد الذي جاء في وصف المقدسي يجعلنـا نستبعد اقتصار الأوضاع المشار إليها على مدينة نقاوس فقط ، وما يدعم رأينا أن البكري في ذكره للمدينة يقول أنها : «كثيرة الأنهار والثمار والمزارع وبشرقيها مدينة اللوز»[3] .

فبالنسبة لمدينة قصر اللوز[4] فهي تقع في الطريق بين باغاي وبلزمة ونقاوس إلى طبنة . ونقاوس تقع في منطقة غنية على حواف جبل أوراس الغربية وتعتبر منطقة وصل بين هذه السلسلة الجبلية ومنخفضات الـشمال الشرقي للحضنة[5]، فهي إذا محطة لمرور أغلب الأنهار المنحدرة من هذه الجبال . وهذا ما يجعلنا نـرجح أن كل المنطقة كانت تعيش في ظروف الازدهار الاقتصادي ، هذه الخصائص والمنتجات المتنوعة من الفواكه المختلفة هي التي تسمح للمدينة بالتطور والنمو أكثر خاصة في العهد الحمادي فالمدينة « منها يحمل الجوز إلى قلعة حماد وإلى بجاية وإلى أكثر تلك البلاد »[6].

ليس هذا فحسب بل إن المدينة ستصبح ولاية حمادية ، يحكمها أخ الناصر بن علناس 454هـ/1062-481هـ/1089م) باني بجاية ، وهو خرز، وأهم ما قام به الحاكم الجديد هو إعادة بناء سور مدينة نقاوس الذي هدمه المعز بن باديس (406هـ/ 1016م- 454هـ/ 1062م)[7]. فهل كانت هناك دواعي لحماية المدينة من الهجمات المحتملة من الخارج ؟ .

---

[1] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 93.

[2] المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص 186.

[3] البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 228 .

[4] مدينة قصر اللوز تسمى اليوم لمبريدي وهي قرية صغيرة قريبة من مدينة باتنة غربا .

[5] Cambusat, Op,Cit, Tome , p.179

[6] مجهول : الاستبصار ، ص 172.

[7] الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 1 ، ص 303 .

5- مدينة مقرة :

يشير اليعقوبي إلى هذه المدينة التي تشكل مركزا للعديد من الحصون المحيطة بها « مدينة يقال لها مقرة لها حصون كثيرة والمدينة العظمى مقرة أهلها قوم من بني ضبة وبها قوم من العجم وحولها قوم من البربر يقال لهم كزبرة و قوم يقال لهم سارسة ...»[1].

مقرة مدينة بإقليم الزاب تقع ما بين مدينة طبنة ومدينة المسيلة ، وقد تكون هذه المدينة قد جمعت بين كونها مكان لمرور المسافرين والتجار ، وستصبح في العهد الفاطمي مقرا للمراقبة وجباية الضرائب على التجار؛ فابن حوقل يشير إلى أنها « منزل فيه أيضا مرصد"وتبعد عن المدينتين بمرحلة »[2]، ولعل هذا يدخل في السياسة الفاطمية التي عرفت بازدهار هذه المراصد ، والتي انتشرت على كامل الطرق والمسالك الرئيسية بالمنطقة. فيما يشير البكري أن مقرة « بلد كبير ذو ثمار وأنهار ومزارع »[3]، ووقوع المدينة بين مدينتين لهما دور كبير في منطقة الزاب (طبنة والمسيلة) ، وبالخصائص الزراعية التي وصفها بها البكري ، يجعلنا نرجح ابتعاد الشيعة عن تهديم هذه المدينة ونواحيها مثلما وقع لأرباض بلزمة ، ومن ثمة الاستفادة المادية من المدينة خاصة وأنها ستدعم فيما بعد بتأسيس مدينة المسيلة . ولمناعة المدينة التي كانت محاطة بعدد غير قليل من الحصون فإنها تدعم بجند يحمي هذا المسلك التجاري الهام حيث « كان بها مسلحة للسلطان ضابطة للطريق »[4]، وهذا ما جعل القبائل المستقرة في الحصون القريبة من مدينة مقرة لم تكن على علاقة جيدة بالسلطة الأغلبية كما يبين ذلك اليعقوبي من أنهم « خالفوا ابن الأغلب وظفر ابن الأغلب ببعضهم فحبسهم »[5]، لكن المدينة ستنتعش في الفترة الفاطمية وتتخذ كمرصد تجاري ، فهل استمرت هذه الوضعية التي تميزت بها مقرة ، البلد الكبير في عهد البكري ؟ وفي ظروف جديدة تتمثل في تحول مركز ثقل الزاب من طبنة إلى المسيلة .

لقد كان الإطار الذي وضع فيه إقليم الزاب ومجموع المدن الرئيسة التي كانت تابعة له ، يهدف أساسا لتكوين درع من المدن التي يمكنها الدفاع عن القيروان ، واعتمد على المدن القديمة التي كانت تتمتع بتحصينات بيزنطية . غير أن هذه المدن لم يتوقف دورها على الدفاع عن مركز السلطة فقط بل نجدها في

---

[1] اليعقوبي : المصدرالسابق ، ص 191.

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 .

[3] البكري : المصدر السابق . ج 2 ، ص 229 .

[4] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 05 ، ص 175.

[5] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 191 .

الكثير من الأحيان تشق عصا الطاعة عليها وتظهر لديها نزعات استقلالية ، مما يؤدي إلى رد فعل عنيف من السلطة الأغلبية التي ستعمل على القضاء على تلك الأطماع ، غير أن ذلك سيؤدي إلى إضعاف المنطقة التي ستكون لقمة سائغة أمام الزحف الفاطمي عليها ، وستنهار هذه المدن الواحدة تلو الأخرى أمام حملات عبد الله الشيعي عليها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

مدن الإمارات العلوية والإباضية

المدينة الإمارة

أولا :

- مدن الإمارات العلوية.

ثانيا :

- مدن الإمارات الإباضية .

ثالثا :

-تيهرت، المدينة الحاضرة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : المدينة الإمارة :

تميزت الفترة التي تلت مرحلة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، بداية تغلغل الإسلام وحضارته في هذه الربوع ، وقد صاحبها نوع من التحول البطيء من مرحلة الحكم البيزنطي إلى مرحلة الانصهار في العالم الإسلامي وتشكل ما أصبح يسمى فيما بعد بالمغرب الإسلامي والأندلس ، أو منطقة الغرب الإسلامي ، وقد شكل كتاب البلدان مصدرا غنيا بالمعلومات عن هذه الفترة ، حيث ذكر الكثير من المدن التي كانت تحت سيطرة قبائل بعينها والتي لم تكن تابعة لأية سلطة سياسية على ما يبدو ، فشكلت بذلك كيانات شبه مستقلة عن الدول .

يرى أحد الباحثين أن هذا النوع من المدن ظهر لتوافر مجموعة من الأسباب أهمها: ارتباطها بعوامل اقتصادية وحربية ودينية وغيرها ، وكانت تبدأ كنواة عمرانية تتطور وتتشكل لتأخذ ملامح المدينة نفسها وإن اختلفت في بعض التفاصيل ارتباطا بظروف النشأة أو بالعوامل البيئية والمحلية[1]. وكان أول ما يبدأ به في تخطيط مثل هذه المدن يتمثل في تأسيس وبناء دار الإمارة ، حيث تتخذ كمقر للحاكم ، والتي تكون في جميع هذه المدن والعواصم الوسيطية على بعد أمتار من المسجد الجامع[2] .

وقد ظهرت هذه المدن خاصة مع ازدياد الانتفاضات على السلطة بالمشرق بسبب تعسف الولاة ، وكانت أكثر المناطق تأثرا بذلك هي بلاد المغرب الأوسط والأقصى ، هذه الإمارات التي قام بعضها بخلع طاعة بني أمية ومن بعدهم بنو العباس ، ومن هذه الإمارات : إمارة برغواطة في تامسنا بالمغرب الأقصى ، وإمارة بني واسول المدراريين في سجلماسة في الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى أيضا ، كما ظهرت إمارة بني صالح في نكور في شمال المغرب الأقصى.

في حين ظهرت في غرب المغرب الأوسط إمارة بني يفرن ومغيلة بتلمسان، ونشأت في وسط المغرب الأوسط كذلك الإمارة الرستمية من أتباع المذهب الإباضي في مدينة تيهرت الذي توسع نفوذهم في جنوب إفريقية وجبل نفوسة وطرابلس وغدامس وطرابلس وفزان وزويلة[3]، كل هذه الكيانات شكلت شبه إمارات مستقلة تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية ؛ أمراؤها من أصل عربي وأهلها من البربر[4].

ويتفق أغلب المؤرخين والدارسين على أن بلاد المغرب تميزت في القرن الثالث الهجري خاصة وطيلة القرن الرابع ، بنوع من السلم والهدوء على الصعيد السياسي ، إذ كانت الحروب التي خاضها

---

[1] المدينة الإسلامية ، ص 69 .

[2] Revue D'Alger Tom 02 n 10 Alger 1945 . P 528 .

[3] عبد العزيز فيلالي : المظاهر الكبرى في عصر الولاة ، ص 86 87 .

[4] دائرة المعارف الإسلامية . المجلد الثالث ، ص 505 .

الفاطميون ليست أكثر من نزاع على السيادة وتضارب المصالح . و لم تكن تلك الحروب لتترك هزة عنيفة في الحياة الاقتصادية[1] .

ورغم ما عرف عن الفاطميين من الاهتمام البالغ بالجوانب المالية وتحصيل الأموال بكل الطرق ، المقبولة وغير المقبولة من الرعية ، فإن المصادر الإسماعيلية تشير إلى عموم الأمن والسلم في بلاد المغرب الأوسط ؛ فقد كان « التجار يسافرون بالأموال الصامتة والنعم الظاهرة يمر بها الواحد والاثنان في الجبال والشعاري[2] والفلوات والبراري ومواضع الخلاء فيبيت حيث أمسى ويسير حيث أحب واشتهى ، كأنما هو في بيته أو سوقه يبيت آمنا ويصبح سالما ؛ وأن الضالة لتضل كالغنم من رعائها والدواب بسروجها ولجمها فتجول في البراري والعمران وبين الرجال والنساء والولدان لا يلتفت منهم إليها ملتفت ولا يطمع فيها طامع ولا يرغب فيها راغب ، تقيم كذلك الأيام والليالي حتى يأتي طالبها ويحضر صاحبها...»[3]. وكانت العلاقات التي تسود بين الناس جيدة وقد أصبحوا إخوانا « وإن تلاقى الرجلان منهم تصافحا وتعانقا وقبل كل واحد يد صاحبه لا يأنف في ذلك شريفهم عن مشروفهم ولا يرغب بنفسه فيه قويهم عن ضعيفهم...»[4]. غير أننا نرى أن هذا الأمر مبالغا فيه من قبل هذه المصادر، حتى تضفي على الفاطميين نوع من القداسة بأن الأمن لا يوجد إلا في ظل حكمهم ولا يتحقق إلا على أيديهم .

لقد كانت المدن محورا رئيسيا للسلطة الفاطمية ، ويفسر عبد الله العروي هذه الأهمية وعلاقة الفاطميين بمدن المغرب الأوسط التي كانت أقرب ما تكون للمدن المستقلة ، منها إلى المدن التابعة إلى سلطة معينة ، ويطلق عليها اسم : "المُدن الشورى"، إذ يقول :« افتراضنا أن المدن- الشورى الموجودة في المغرب الأوسط كانت في اتفاق ضمني وعرفي مع الجماعات الزناتية حامية تجارة القوافل . وهذا الاتفاق الذي يضمن في نفس الوقت وعلى قدم المساواة مصالح أصحاب الطرق والمسالك . وهو ما أتى الحكم الفاطمي لنفسه »[5].إذ أن الفاطميين كانوا في أمس الحاجة لهذا السلم الذي يضمن لهم المزيد من المال .

---

[1] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 195 .

[2] الشعارى : أصلها من الشعراء ، وهي الشجر الكثير ، والشعراء : الأرض ذات الشجر ، وجمعها شُعُرٌ . الفيروز أبادي : المصدر السابق ، ص 375 .

[3] القاضي النعمان بن محمد : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 125 .

[4] القاضي النعمان : نفسه ، ص 126 .

[5] مجمل تاريخ المغرب ، ص 75 .

وطبيعي أن تزدهر في ظل هذه الظروف كل جوانب الحياة ، وما يهمنا في هذا الجانب هو العمران وأوضاع المدن التي ستعرف طرازا آخر منذ القرن الثالث الهجري ؛ فبالإضافة إلى أن الغاية من بناء الملوك مدينة جديدة يكون لمحو ذكر من سبقهم من الحكام ، فإن هؤلاء « صاروا يبنون لأنفسهم إلى جانب العاصمة مدنا خاصة يتخذونها مقرا لهم ، مثل مدينة سامراء[1] والجعفرية على نهر دجلة إلى جانب بغداد ، ورقادة[2] التي اتخذها بنو الأغلب بجوار القيروان... وفي القرن الرابع بنيت المدن التي اتخذها خلفاء الفواطم مقرا لهم ، مثل المهدية[3] والمنصورية[4] والمحمدية[5] والقاهرة ، فكانت أعظم ما أسس من المدن نجاحا في القرن الرابع. بل في تاريخ الإسلام »[6].

وقد حصلت في القرن الرابع الهجري تطورات عمرانية ، ناتجة عن حدوث تطورات حضرية واسعة إذ ازدهرت الحياة الثقافية ، وتقدمت الحياة الحضرية ، واتخذ المجتمع الإسلامي طابعه المميز ، ومقوماته الراسخة[7]، وتشمل هذه التأثيرات على الخصوص جانب الدين واللغة اللتين كانتا محور التغييرات التي كانت مسرحها المدن التي استقر فيها العرب مع قبائل البربر. وقد كانت هذه المدن بعيدة عن مركز السلطة السياسية ، ومن ثم قل اهتمامها عما بعد عنها أو عن عصبيتها .

إن هذا الأمر هو الذي جعل ابن خلدون ربما يفسر غياب مدن كبيرة بحجم العواصم التي برزت ببلاد المشرق ، فيقول : «... ولهذا نجد الأمصار التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها

---

[1] سامراء : لغة في سر من رأى ، وهي المدينة التي أنشاها المعتصم ، بين بغداد وتكريت . صفي الدين عبد المؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ج 02 ، تح علي محمد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ص 684 . 685 .

[2] رقادة : بلدة كانت بإفريقية ، بينها و بين القيروان أربعة أميال ، كبيرة ذات بساتين لم يكن بإفريقي أطيب هواء منها ، ولا أرق نسيما ، وقد خربت الآن . صفي الدين عبد المؤمن البغدادي : المصدر نفسه ، ج02 ، ص 624 .

[3] المهدية : مدينتين بموضعين : إحداهما بإفريقية ، والأخرى اختطها عبد المؤمن بن علي بقرب سلا ؛ وبين الأولى وبين القيروان مرحلتان من جنوبيها . صفي الدين عبد المؤمن البغدادي : المصدر نفسه . ج 03 ، ص 1337.

[4] المنصورية : وتسمى المنصورة : مدينة بقرب القيروان من إفريقية ، أحدثها المنصور بن القائم بن المهدي الخارج بالمغرب ، ثم خربت بعد ذلك . كما توجد مدن بهذا الاسم في كل من : خوارزم القديمة ، وأخرى بلدة أنشأها الملك الكامل بن الملك العادل أيوب بين دمياط والقاهرة ، وأخرى باليمن . صفي الدين عبد المؤمن البغدادي : المصدر نفسه ، ج 03 ، ص 1322 .

[5] المحمدية : مدينة المسيلة بالمغرب ، يقال لها أيضا المحمدية . وتوجد الكثير من المدن بهذا الاسم مثل : المحمدية بكرمان ، والمحمدية من قرى بغداد ، وأخرى بالري . صفي الدين عبد المؤمن البغدادي : مراصد الاطلاع ، ج 03 ص 1236 .

[6] آدم ميتز . الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر النهضة في الإسلام : ترجمة ، محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الدار التونسية للنشر تونس . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986، ج 02 ، ص 694 .

[7] عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، ص 67 .

أحوال البداوة وتبعد عن الحضارة في جميع مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها وما ذاك إلا لمجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم ... »[1].

وقد ظهرت ببلاد المغرب الأوسط العديد من هذه الإمارات كما سبق ذكر ذلك ، وعرفت أشكالا عديدة من الاستقلال عن سلطة المركز، ليس فقط مراكز سلطتها بل حتى المدن التي كانت تتبع لها ، ومن بينها مدن أخرى لاحقة تلك التي ذكرها اليعقوبي ، والتي كان يسيطر عليها « ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام[2] ، كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم وينسب إليهم »[3].

وتمكن هؤلاء العلويون الطالبيون في فترات مختلفة في خلال النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة من تكوين نظام الإمارة – المدينة في عدد من مدن المغرب الأوسط وعلى الخصوص بحمزة ومتيجة والخضراء وملیانة وتلمسان . وبذلك تتحول بلاد المغرب الأوسط إلى ملاذ آمن لهؤلاء بعيدا عن ملاحقة العباسيين لهم .

أولا : مدن الإمارات العلوية :

ارتبط الوجود العلوي ببلاد المغرب بالظروف التي كانت تحدث بالمشرق خاصة تلك المتعلقة بالاضطهاد والقتل الذي تعرض له الشيعة خلال عهد الدولة الأموية ، وخيبة أمل الشيعة من الدولة العباسية التي استأثرت بالخلافة دونهم ، وهو ما جعلهم يفكرون في كيفية الثورة على الحكم القائم باللجوء إلى خارج بغداد بحثا عن أماكن توفر لهم شروط نجاح الثورة على الخلافة العباسية وإسقاطها، خاصة بعد معركة فخ عام 169هـ/ 786م[4] (تبعد عن مكة بثلاثة أميال) والتي انهزم فيها الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبيب طالب ، فلم تجد البقية من أتباعه الناجون غير الفرار إلى الأطراف البعيدة عن بغداد وكانت بلاد المغرب من أهم هذه المناطق التي لجأ إليها العلويين ، وانتشروا فيها بغرض تأسيس دول لإسقاط الخلافة العباسية .

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ، ص 409 .

[2] عن أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وإماراتهم أنظر : ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص 48 .

[3] اليعقوبي : البلدان ، ص 192 .

[4] الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج 04 ، ص 596 597 ؛ وعن ظروف إنشاء إدريس بن عبد الله الهارب من وقعة فخ مملكة مستقلة في المغرب الأقصى سنة 172هـ/ 788م أنظر : عبد العزيز الدوري : العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي ، دار الطليعة ، بيروت ، 1997 ، ص 109 وما بعدها .

وسعيا من هؤلاء لإنجاح حركتهم لجأوا إلى تجريب كل الطرق التي توصلهم لأهدافهم ، فكانت الجماعة الإسماعيلية[1] ونشاطات الدعوة منبثة في طول الإمبراطورية العباسية وعرضها ، كما يبدو أن هناك بعض الأدلة التي تفيد أن الاسماعيليين الأوائل قد اتبعوا فقه أي بلد استوطنوه »[2]. و في بلاد المغرب الأوسط تبنت الكثير من المجتمعات القبلية أفكار التيارات المعارضة التي استطاعت تكوين كيان سياسي ، ومنها العلويين الطالبيين الذين كونوا نظام الإمارة – المدينة في عدة مدن بالمغرب الأوسط[3] ، وفي ما يلي نورد أهم المدن التي استقر فيها هؤلاء أو التي أسسوها وهي :

1 – مدينة – إمارة هاز :

حسب أوصاف الجغرافيين الذين ذكروا المدينة باقتضاب شديد ، فإنهم لم يحددوا موقعا بدقة ، غير أننا من خلال أوصافهم نستطيع القول أن المدينة تقع ضمن منطقة عرفت بغناها العمراني ، بمنطقة الزاب والتي كانت أذنة من أكبر مدنه .

يذكر اليعقوبي موقع المدينة بالبلد الذي « تغلب عليه الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسن بن علي...»، أما سكانها فهم من قبائل «البربر القدم يقال لهم بنو برنيان من زناتة[4] أيضا ثم مدن بعض سكانها صنهاجة و زواوة[5] يعرفون بالبرانس وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع ، وإلى هاز ينسب البلد ... »[6].

---

[1] عن الظروف التي نشأت فيها هذه الفرقة أنظر : محمود إسماعيل : فرق الشيعة بين التفكير السياسي والنفي الديني ، سينا للنشر القاهرة ، 1995 ، ص 46 وما بعدها .

[2] فرهاد دفتري : الإسماعيليون في العصر الوسيط ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ، 1999 ، ص 125 .

[3] علاوة عمارة : إنتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط ، قراءة سوسيو– تاريخية ، مجلة آفاق الثقافة و التراث ، الإمارات العربية المتحدة ، العدد 56 ، 2007 . ص 25 32 .

[4] ابن حزم : المصدر السابق ، ص 55 .

أما قبيلة بنو برنيان : فهم إخوة مغراوة و بني يفرن ، والكل ولد يصليتن ، وهم يقطنون بين زناتة وأكثرهم بملوية بالمغرب الأقصى ما بين سجلماسة و كرسيف ، كانت لهم صولة و اعتزاز و كانوا من أفحل جند الأندلس وأشدهم شوكة . أنظر : ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 07 ، ص 66 .67 .

[5] قبيلة زواوة : قبيلة بربرية بترية من ولد سمكان بن يحي بن ضري بن زحيك بن مادغيس الأبتر . وهم أقرب إلى زناتة لأن أباهم أخانا هو أخو سمكان . ويرى ابن حزم أن قبيلة كتامة منهم ؛ وهذا ما يدعمه ابن خلدون . ولقد اختلف المؤرخون في نسبهم ، مساكنهم بشمال افريقيا من مدينة الجزائر إلى بجاية و إلى جيجل . ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص 501 . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 6 ، ص 168 169 . الزواوي ، ابن محمد الريف ابو يعلى : تاريخ زواوة ، د ط ، مطبعة الفيحاء ، دمشق ، د س ط ، ص 12 وما بعدها .

[6] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 191 .

كانت هذه المدينة قد حكمها العلويون بعد دخولهم بلاد المغرب الأوسط ؛ وحسب ابن حزم فالمدينة حكمها « حمزة بن الحسن بن سليمان بن سليمان بن الحسين بن علي بن أبي طالب ملك هاز في أرض المغرب وملك قطيعا من صنهاجة »[1].

تتراجع هذه المدينة في عهد ابن حوقل ، وتصبح مجرد قرية ، إذ يصفها أنها : «قرية كانت قديمة فخربت وهي في وقتنا هذا مفازة فيها ماء عيون...»[2]. ويكون سبب تخريب المدينة حسب البكري الذي يقول عن المدينة : « مدينة هاز على نهر شتوي ، وهي خالية ، أجلى أهلها زيري بن مناد الصنهاجي . إلى بورة[3] ...»[4]. ويذكر الإدريسي قرية صغيرة بإسم هان[5] تقع بين أشير والمسيلة ، ويحدد مسافتها عن المسيلة بمرحلة[6]. وقد تكون الاضطرابات السياسية سببا في تراجع هذه المدينة[7]، التي ينتهي دورها نهائيا بعدما رَحّلَ سكانها زيري بن مناد ، ولذلك اعتبرت هذه المدينة من المدن المندثرة .

2 – مدينة – إمارة ابن كرام :

كانت هذه المدينة في عهد اليعقوبي عبارة عن حصن ، يقع بين بلد جرتيل ومتيجة ؛ ففي الطريق من هاز إلى متيجة نجد «حصن يقال له حصن ابن كرام و ليس أهله بشراة[8]، ولكنهم جماعية ، بلدهم بلد

---

[1] ابن حزم : المصدر نفسه ، ص 55 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 86 .

[3] بورة : مدينة تلي مدينة هاز لم نعثر على تحديدها الجغرافي الدقيق ، ماعدا ما يذكره البكري من أن زيري بن مناد أجلى سكان هاز هذه المدينة التي يصفها بأنها كثيرة العقارب ، وبها سويقة . المسالك والممالك ، ج 02 ، ص 327 .

[4] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 327 ؛ موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف ق 05هـ / 11م ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979 ، ص 209 210 .

[5] لا يمكن أن نغفل مسألة النقل والأخطاء المطبعية في الكتاب فقد تكون المشكلة متعلقة بطباعة النون بدل حرف الزاي لتصبح هاز بدل هان.

[6] الإدريسي : المصدر السابق ، مج 01 ، ص 356 .

[7] يذكر مبارك الميلي أن المدينة تكون واقعة في نواحي المدن الحالية : عين بسام وسور الغزلان وسيدي عيسى . تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مطابع أ . بدران وشركاه بيروت ، 1963 ، ج 02 ، ص 89 .

[8] الشراة : فرقة من الخوارج الأولى (الحرورية والشراة) فيقال للخوارج : محكمة وشراة . واختلفوا في أول من تشرى منهم ؛ فقيل : عروة بن حرا أخو مرداس الخارجي . وقيل : أولهم يزيد بن عاصم المحاربي . وقيل رجل من ربيعة من بني يشكر ، كان مع علي بصفين ، فلما رأى اتفاقا على الحكمين استوى على فرسه وحمل على أصحاب معاوية وقتل منهم رجلا ، وحمل على أصحاب علي وقتل منهم رجلا ، ثم نادى بأعلى صوته ألا إني خلعت عليا ومعاوية ، وبرئت من حكمهما ، ثم قاتل أصحاب علي حتى قتله قوم من هذان . و الخوارج يكفرون علي رضي الله عنه ، و عثمان رضي الله عنه وطلحة ، والزبير وعائشة ، وجيشهما ، وتكفير معاوية وأصحابه بصفين وتكفير الحكمين ومن حكمهما ، أو رضي بحكمهما ، ووجوب الخروج على السلطان الجائر . والخوارج بعد عودة علي رضي الله عنه من صفين إلى الكوفة ، انحازوا إلى حروراء في اثنا عشر ألف ، لذلك سميت الخوارج حروراء . أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي : الملل والنحل ، تح ، ألبير نصري

زرع ثم يصير إلى بلد يقال له متيجة »[1]. وهذه المدينة حسب ابن حوقل قديمة « سوق كران وهو حصن أزلي له مزارع وسوان وهو على نهر شلف أيضا مرحلة »[3].

وتصبح المدينة في عهد البكري سوقا كبيرة لقبائل المنطقة الممتدة من مدينة أشير إلى مدينة مليانة ، ويقول عنها أنها :« قرية تسمى سوق كرام وهي على نهر شلف ، ومنها إلى مدينة مليانة »[2].

3 – إمارة متيجة والمدينة :

ترد عند اليعقوبي بصفة الإقليم الذي يضم عدة مدن وقرى ، ويقول أن متيجة بلد « تغلب فيه رجال من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام يقال لهم بنو محمد بن جعفر ، وهو بلد واسع فيه عدة مدن وحصون وهو بلد زرع وعمارة ، بين هذا البلد وبين حصن مصادف بن جرتيل مسيرة ثلاثة أيام مما يلي البحر»[5] .

يؤكد المقدسي على غنى متيجة التي تقع في « مرج لهم ماء جار عليه أرحية وشعبة من النهر تدخل الدور كثيرة البساتين »[3] ؛ فالمنطقة التي تشكل متيجة مركزها تكون قد لعبت دورا اقتصاديا هاما في القرن الرابع الهجري ، وهذا لموقعها الوسط بين مدن الساحل والأطلس التلي ، ومن جهة ثانية الإمكانيات الاقتصادية و المياه التي تتمتع بها جعلها من المناطق التي تنتشر فيها مختلف الصناعات .

ولعل البكري يكون أهم جغرافي لخص لنا أوضاع هذه المدينة التي تقع على الطريق بين مدينة أشير ومدينة جزائر بني مزغنة ، ويوضح جغرافية المنطقة أكثر دقة من سابقيه ويقول : « قزرونة[4] : وهي مدينة على نهر كبير عليه الأرحاء والبساتين، ويقال لها متيجة، ولها مزارع ومسارح ، وهي أكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل ، وفيها عيون سائحة وطواحين ماء . ومنها إلى مدينة أغزر ومنها إلى مدينة جزائر بني مزغنى»[5]. وبذلك يكون البكري قد لخص أوصاف الجغرافيين الذين سبقوه إلا أن ما ذكره يعتبر الأكثر دقة وتحديدا للمدينة ، فتكون بذلك قزرونة مركزا لإقليم متيجة .

نادر ، دار المشرق ، بيروت ، 1992 ، ص 58 59 ؛ محمد إبراهيم الفيومي : الخوارج و المرجئة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2003 ، ص 89 .

[1] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 191 .

[2] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص ، 241.

[3] المقدسي : المصدر السابق ، ص 184 .

[4] قزرونة : مدينة البليدة حاليا ، أنظر رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته ، ص 31 .

[5] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 247 .

4 – مدينة – إمارة سوق حمزة[1] :

من المدن التي تشكل نموذجا هاما للمدينة الإمارة ، فقد كانت المدينة التي لم يـذكرها اليعقـوبي والذي اكتفى بذكر البلد الذي تغلب عليه الحسن بن سليمان بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو «أول المدن التي في يده مدينة يقال لها هاز... »[2]، فقد تكون هاز المدينة التي برزت قبل أن تظهـر على مسرح الأحداث مدينة سوق حمزة ، وهذا ما يؤيده ابن حزم الذي يقول عن حمزة بن الحـسن بـن سليمان أنه : «...ملك قطيعا من صنهاجة ، وإليه ينسب سوق حمزة ، وولده بها كثير، وكذلك أيضا ولد إخوته في تلك الجهة...»[3]، ويتفق البكري مع ابن حزم الذي يقول : «حمزة : نزلها وبناها حمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- ، والحسن بن سليمان هو الـذي دخـل المغرب ، وكان له من البنين : حمزة هذا...». ويضيف البكري أن المدينة « عليها سور وخندق، وبها آبار عذبة، وهي لصنهاجة...»[4].ونوع البناء في المدينة يحدده المقدسي أن « بناؤهم من الطوب و شربهم من نهر وأعين»[5].

إن ظهور المدينة بين مجموعة قبائل صنهاجية على طريق هام يربط المشرق بالمغرب وعلى طـرق داخلية ، رمز التأثر الحضاري واتساع دائرة التبادل التجاري ، هذه الظروف هيأت أصحاب المنطقـة لأن ينتقلوا إلى حياة المدن[6] .

لكن المصادر الجغرافية لا تتفق على درجة نمو المدينة واتساعها، فهذا ابن حوقـل لا يتطـرق إلى المدينة على الإطلاق . ويذكرها مجرد أنها نقطة عبور « ومن أراد من سطيف إلى حائط حمزة إلى أشير بلد زيري كان أقصد له إن كان يريد المغرب »[7]. وقد شهدت مدينة سوق حمزة صراعات سياسية مثل بقيـة المدن الأخرى ، وفي عام 336 هـ، كانت ميدانا للصراع بين حميد بن يصليتن[8] عامل المغرب وزيري بن

---

[1] سوق حمزة تقع اليوم بمدينة البويرة .

[2] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 191 ؛ ابن حزم : المصدر السابق ، ص 45 .

[3] ابن حزم : نفسه ، ص 55.

[4] البكري : المصدر نفسه ، ص 246 .

[5] المقدسي : المصدر السابق ، ص 184 .

[6] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 356 .

[7] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 .

[8] حميد بن يصليتن : تولى حكم تيهرت والمغرب بعد وفاة أباه يصليتن بن حبوس ، لكنه انشق عن الشيعة ، و أعلن الولاء لعبد الرحمن الناصر . ثم أجاز إلى الأندلس وولي الولايات أيام الناصر وابنه الحكم . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 171 .

مناد الذي حشد له جموع صنهاجة من كل ناحية[1]، ثم كانت المدينة من نصيب دولة حماد صاحب القلعة ، بعد أن انقسم ملك صنهاجة بين القيروان والقلعة . وعين عليها أحد أبناء حماد عام 419 هـ[2]، وفشل ملك فاس حمامة بن زيري بن عطية في السيطرة على المدينة التي دافع عنها حاكمها ويغلان الذي استطاع إبعاد الخطر الزناتي عنها عام 430 هـ .

5 – مدينة – إمارة الخضراء[3] :

يذكر صاحب كتاب الاستبصار عن اسم المدينة ويقول : «إنما سميت الخضراء لكثرة بساتينها ، و كانت مدينة كبيرة قديمة فيها آثار أولية ...»[4]، وحسب اليعقوبي فإن هذه المدينة تكون مركزا لمجموعة أخرى من مدن تابعة لها ؛ وتبعا لذكره باقي المدن يقول عن مدينة الخضراء : « يتصل بهذه مدن كثيرة وحصون وقرى ومزارع ، يتغلب على هذا البلد ولد محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية وعددهم كثير حتى أن البلد يعرف بهم وينسب إليهم »[5]. تبقى المدينة هامة بالنسبة للسلطة الفاطمية التي تكون قد حافظت على إمكانيات المدينة التي توافرت فيها مرافق هامة ؛ خاصة الجامع والسوق والحمام حسب ما يذكره ابن حوقل « تقع على نهر ولها فواكه ... ولها ناحية خصبة و فيها سوق وجامع وحمام ، ومنها إلى مليانة ...»[6] .

تزداد المدينة اتساعا وثراء في عهد البكري ، وتصبح « مدينة كبيرة على نهر خوار عليه الأرحاء ، وإذا حمل دخل المدينة، وحولها بساتين كثيرة ، ويكتنفها من قبائل البربر : مدغرة[7] وبنو دمر[8] ومديونة[9]

---

[1] ابن خلدون : نفسه ن ج 4 ، ص 57 .

[2] ابن خلدون : نفسه ، ج 06 ، ص 229 .

[3] مدينة الخضراء تسمى اليوم مدينة عين الدفلى . Rachid Bourouiba, l'architecture militaire, p. 96

[4] مجهول .: الاستبصار ، ص 171 .

[5] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 192 .

[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 90 .

[7] قبيلة مدغرة : كذا وردت ، وهي نفسها قبيلة مطغرة .

[8] بنودمر : هم من زناتة ، وينقسمون إلى فروع كثيرة ، قطنوا جبال بنواحي طرابلس ، وبتلمسان ، كما أجاز الكثير منهم إلى بلاد الأندلس . ومن أهم بطونهم بني برزال . ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 07 ، ص 71 . 72 .

[9] مديونة : قبيلة بربرية بترية ، من إخوة مطماطة ومغيلة ، يقطنون نواحي تلمسان ويجاورهم بنو يلومي وبنو يفرن من ناحية الشرق ، وقبيلة كومية ووطاسة من جهة الساحل ، وقبيلة مكناسة من الغرب . انتقل منهم الكثير لبلاد الأندلس في طلائع الفتح ، وسكنو شرق الأندلس وشنتمرية ، فقل عددهم بالمغرب الأوسط مما ادى إلى استطالة زناتة عليهم . وفرضت عليهم المغارم ، فقل عددهم . ابن خلدون : العبر ، ج 06 ، ص 165 .

وبنو واريفن »[1]. والمدينة مجاورة لتنس التي يسكنها أبناء إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب[2]. فتكون المنطقة في معظمها تحت سيطرتهم .

6 – مدينة – إمارة سوق إبراهيم :

يذكر ابن حزم أن المدينة كانت من نصيب أحد أبناء سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب : « ... ومنهم : أحمد بن عيسى بن إبراهيم بن محمد بن سليمان ، صاحب سوق إبراهيم »[3] . وهو نفس ما يراه ابن خلدون في تاريخه[4] .

أما اليعقوبي فيعتبر أن هذه المدينة هي أخر المدن العلوية ، ويذكرها بعد مدينة الخضراء : «... وآخر المدن التي في أيديهم التي تقرب من ساحل البحر يقال لهم سوق إبراهيم وهي المدينة المشهورة... ثم من هذه إلى تاهرت...»[5] . أما ابن حوقل فيذكر المدينة وموقعها « وهي مدينة أيضا صغيرة فيها حمام وسوق وهي على نهر شلف ...»[6]. والبكري لم يغفل ذكر هذه المدينة ، ويذكر أن الكثير من سكان مدينة سوق إبراهيم رحلوا ليستقروا بمدينة تنس بعدما زادت تجارتها ازدهارا ، ويحدد البكري عدد الذين انتقلوا إلى تنس « كانوا في أربعمائة بيت ، فوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم ، وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم »[7] .

وإذا كانت رواية البكري تتحدث عن "أربعمائة بيت" فهذا ما يوضح لنا بصورة تقريبية حجم مدينة سوق إبراهيم ، وعدد سكانها ، ثم أن البكري لم يوضح لنا سبب هذه الهجرة الجماعية وبهذا الحجم إلى مدينة تنس . فهل أن ذلك تم بسبب الرخاء الذي عم تنس أم إلى تراجع دور مدينة سوق إبراهيم ما جعل أهلها يهجرونها ؟ والراجح أن موقع تنس الساحلي يكون وراء هذه الهجرة ، لما لها من خصائص تجارية وغيرها .

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 258.

[2] البكري : المصدرنفسه ، ج 2 ، ص 242 .

[3] ابن حزم : المصدر السابق ، ص 48 .

[4] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 24 .

[5] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 192 .

[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 90 ؛ الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 251.

[7] البكري : المصدرنفسه ، ج 2 ، ص 242 243 .

7 – مدينة – إمارة ابن ماما :

تقع هذه المدينة بين قرية جرتيل ، ومدينة تيهرت . غير أن أغلب المصادر التاريخية والجغرافية لم تذكرها باستثناء ابن حوقل الذي حدد موقعها وبعض من مرافقها ، ويقول عنها أنها : « مدينة صغيرة ذات منبر عليها سور طوب ولها خندق وماء في واد عذب كثير الماء يزرع عليه وعلى المطر...»[1].

وإذا كان توفر المنبر قد اعتبره الفقهاء أحد شروط قيام المدينة لارتباطه بواجبات العقيدة ، فالراجح أن تكون المدينة قد شهدت مرحلة رخاء في الفترة التي سبقت ابن حوقل ، لأن الفاطميين يكونون قد ضيقوا على السكان في الجانب المذهبي .

وعلى صغر المدينة إلا أنها تكون قد جمعت بين الأهمية الدفاعية[2]، وهذا من خلال توفرها على تحصينات السور المبني بالطوب والخندق الذي أحيط بالمدينة ، وكذا الأهمية الاقتصادية التي ساعدت وفرة المياه على تطور زراعتها المسقية والبعلية .

8 – مدينة – إمارة جراوة أبي العيش :

تعتبر من أهم نماذج المدينة– الإمارة ، ويذكر ابن حزم أنها كانت تحت سلطة « أبو العيش عيسى بن محمد بن سليمان ، صاحب جراوة »[3]. والذي يذكر البكري أنه هو من بنى المدينة عندما تحدث عن تلمسان التي: « نزلها محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومن ولده عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان الذي بنى جراوة ، وكان أميرها وبها توفي »[4]. ويذكر ابن عذارى أن المدينة تأسست عام 257هـ[5].

وإذ ينفرد البكري وابن عذارى بذكر رواية التأسيس في عام 257 هـ للمدينة فإن السؤال المطروح هو: هل أن التأسيس المقصود في هذه النصوص يتعلق بتخطيط مدينة من بدايتها ، أم أن أبا العيش وجد المدينة وقام هو بتوسيعها وتعميرها زيادة على ما كان عامرا بها ؟

---

[1] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 86 .

[2] Rachid Bourouiba, *l'architecture militaire*, p.70

[3] ابن حزم : المصدر السابق ، ص 48 .

[4] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 259 260 .

[5] ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج 1 ، ص 196 .

إلا أنه وفي غياب النصوص التاريخية التي توضح لنا كيفية تأسيس المدينة، فإن أبا العيش قد أعطى للمدينة طابعا معماريا إسلاميا فاتبع نفس عادة المسلمين في بناء مدنهم[1].

استمرت هذه الأسرة في حكم المدينة ، حيث كانت «جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان ، ثم لابنه عيسى وكنيته أبوالعيش عام257 هـ، و لم تزل إمارتها في ولده ، ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى سنة 291هـ، ثم ابنه يحي بن إبراهيم ، ثم أخوه إدريس بن إبراهيم »[2] .

والمدينة بها « قصبة وحولها أرباض في جميع جهاتها وعيون ملحة ، وداخلها آبار عذبة وخمسة حمامات... وجامع من خمسة بلاطات على أعمدة حجارة أسسها أبو العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسن سنة تسع وخمسين ومائتين ، وكان لها بابان شرقيان وثالث غربي ورابع جوفي وحولها بسائط عريضة للزرع والضرع »[3] .

وكانت هذه المدينة محاطة بمجموعة من القرى والقبائل أهمها : « قرى مدغرة على البحر. وفي الجبل بنويزناتن[4]، ومن جهة الشرق بنو يفرن من زناتة ، ومن جهة الغرب قبائل زواغة[5] وغيرهم »[6].

وبالإضافة إلى هذه الخصائص الهامة لموقع المدينة فإنها تقع على طريق هام بمنطقة شمال المغرب الأوسط وتربط بين القيروان وفاس ، كما تتمتع بواجهة بحرية و لها مرسى يدعى تافرجنيت: « وهو مأمون وله نهر يريق (يصب) في البحر... ويقابله من بر الأندلس مرسى قمجلة بينهما مجريان »[7]. ولذلك فهي أحد أهم المراكز البحرية التي تربط ميناء الإسكندرية ببلاد الأندلس .

هذا الموقع الهام هو الذي جعل المدينة تتجاذبها قوتان كثيرا ما كان الصراع بينهما بين أهم المسالك التجارية ببلاد المغرب الأوسط، فالسلطة الفاطمية كانت تعتبر المدينة من الأهمية التي تجعلها تحاول بسط نفوذها عليها ، ففي عام 315هـ، وفي أثناء حملة أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله المهدي ، نحو المغرب

---

[1] جودت عبد الكريم : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م) ، ص 358.

[2] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 4 ، ص 23 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 196 .

[3] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 326 .

[4] قبائل بنويزناتن : من أوفر قبائل بني توجين ، وأعزهم جانبا ، سكنوا نواحي وادي شلف بالمغرب الأوسط . ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 07 ، ص218 .

[5] قبيلة زواغة : حسب ابن خلدون فإن أخبار هذه القبيلة قليلة جدا ، لها ثلاثة بطون هي : دمر بن زواغ وبنوواطيل بن زحيك بن زواغ وبنو ماخر بن تيغون من زواغة . استقروا في براري طرابلس بالجبل المعروف بدمر ، وبجهات قسنطينة ، وكذلك بجبال شلف بنوواطيل وبنواحي فاس . ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 06 ، ص 170.

[6] ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 196

[7] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 266 .

وقبيل تأسيسه لمدينة المسيلة « نازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش وضيق عليه ...»[1]. وفي عام 323هـ حاصر ابن أبي العافية صاحب جراوة الحسن بن أبي العيش ، فانضم هذا الأخير إلى عبد الرحمن الناصر .

إن هذه الاضطرابات السياسية والصراعات التي شهدتها المنطقة هي التي جعلت المدينة تفقد أهميتها في القرون التالية ، ويمكن لهذه الظروف أن تجعل ابن حوقل يصف المدينة بقوله:«... وكانت عامرة آهلة»[2]. وهوة ما يعني أن المدينة لم تكن كذلك في الوقت الذي وصفها فيه.

9 مدينة – إمارة تلمسان :

أ- إسم المدينة :

مدينة قديمة ببلاد المغرب الأوسط ، واسمها مركب من كلمتين : جمعهما يعطينا كلمة زناتية اللغة واللسان تعني تجمع اثنين ، وهما : تلم – سان ، فحسب اللغة البربرية فإن تلم كلمة تعني : تجمع ، أما سان فتعني : اثنان ، ويعنون البر والبحر[3].

كما وجدنا تفسير آخر يقول أصحابه أن الكلمة تعني "مدينة الينابيع"، فالاسم بربري وهو تحريف صيغة جمع وهو تلمسان أو تلمسين ومعناه جيب أو ينبوع ، فيكون معنى اسم تلمسان مدينة الينابيع[4] ، ونحن نرجح التفسير الذي جاء به ابن خلدون لسبب أنه تفسير معقول ومنطقي، ولا ندري على أي أساس بنى أصحاب التفسير الثاني مقولتهم . والمدينة قديمة وكانت « عظيمة قديمة فيها آثار كثيرة أزلية تنبئ أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة ، وهي في سفح جبل أكثر شجره الجوز ...»[5] .

ب- المدينة بعد الفتح الإسلامي:

مرت المدينة عبر تاريخها بعدة تحولات عبر التاريخ ، كما لعبت أدوارا هامة أثناء فترة الفتح الإسلامي للمنطقة ، المدينة كانت مما افتتح عقبة بن نافع في طريقه للمغرب الأقصى ، أثناء حملته الثانية ، ثم وصلها أبو المهاجر دينار، وارتبطت بآثاره التي أقامها هناك والمتمثلة في حفره لمجموعة من العيون قرب

---

[1] ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 51 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 89 .

[3] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 07 ، ص 102 .

[4] ابن مريم . أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد : البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1986 ص 09 ؛ محمد بلقراد : تلمسان ، مجلة الأصالة ، العدد 26 ، السنة الرابعة 1975 ، ص 296 وما بعدها .

[5] مجهول : الاستبصار ، ص 176 .

تلمسان عرفت بعيون أبي المهاجر، وكان لها دورها فيما بعد الفتح[1]، وفي عهد موسى بن نصير أصبحت مستقرا للعرب الفاتحين ، وكان القائد طارق بن زياد بعد عام 92 هـ ، منها يراسل يليان بالأندلس[2] .

المدينة ولموقعها وخصائصها الهامة لعبت جغرافيتها دورا كبيرا في أن تكون أحد أهم المدن التي تأسست فيها إمارات عديدة كانت تسعى دوما للثورة على المركز . في البداية شهدت تلمسان ثورة خارجية ناتجة عن تعسف الولاة ، وخاصة من عسف ابن الحبحاب[3] ثم الأمير كلثوم بن عياض[4] في عام 132هـ، حيث كان يعاملها معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية ، فاشتكت أمرها إلى حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع[5] المقيم يومئذ بتلمسان ، فكتب هذا إلى كلثوم ينهاه عن ذلك ، فاعتذر كلثوم تصنعا وزحف بجنوده على تلمسان ليقاتل حبيب ، وهو ما أدى إلى سخط البربر من ذلك[6]. وكان ذلك من العوامل الهامة لاعتناق البربر لمذهب الخوارج .

ج- الخوارج والأدارسة بتلمسان وبداية التأسيس :

علاقة تلمسان بالطابع الذي نحن بصدد دراسته والمتمثل في المدينة – الإمارة ، مرده إلى دورها البارز في ثورة الخوارج ببلاد المغرب الأوسط الذين حاولوا إقامة دول مستقلة ببلاد المغرب الأوسط، فقد

---

[1] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 07 ، ص 102 .

[2] ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، ص 345 . ويذكر ابن عبد الحكم المدينة باسم تلمسين .

[3] ابن الحبحاب : هو مولى بني سلول ، كان بارعا في الفصاحة و الخطابة ، حافظا لأيام العرب و أشعارهم ، قدم إفريقية عام 116هـ، بنى المسجد الجامع و دار الصناعة بتونس ، كان كاتبا ، ثم أصبح بعد ذلك والي مصر و إفريقية و المغرب و الأندلس ، عرف بسيرته التي عانى منها البربر الكثير خاصة لما زاد في التكلف في إرسال البربريات السنيات لخلفاء المشرق ، فكان ذلك سببا في ثورة البربر على عامله ، بقيادة ميسرة . ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 51 52 .

[4] كلثوم بن عياض القشيري : ولاه هشام بن عبد الملك ولاية افريقية بعد أن استدعاه ابن الحبحاب ، عام 123 هـ ، وقدم على رأس اثني عشر ألف من أهل الشام ، وانضمت أليه جيوش من مصر وبرقة وطرابلس وافريقية ، وكان مكلفا بالقضاء على ثورات الخوارج ببلاد المغرب ، لكن القتال الذي كان بين الخوارج و جيش الأمويين انتهى بهزيمة كلثوم بن عياض الذي قتل . ابن عذارى : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 55 54 .

[5] حبيب بن عبيدة بن عقبة بن نافع : أرسله عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية والمغرب للقضاء على ثورة بمنطقة السوس الأقصى ، وبلغ أرض السودان ، وبعد عودته ، غزا صقلية لكن عبيد الله بن الحبحاب استدعاه مرة أخرى من أجل القضاء على ثورة ميسرة المطغري الذي تسمى بأمير المغرب عام 122 هـ . وأثناء فترة حكم الوالي كلثوم بن عياض ، استمرت الصراعات بين القبائل العربية القيسية واليمنية ، ببلاد المغرب ، واندلع الصراع بين حبيب بن عبيدة وبلج بن بشر القشيري ، انتهى بموت حبيب بن أبي عبيدة عام 123 هـ . الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص 71 ؛ ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 51 55 .

[6] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 4 ، ص 242 .

أصبحت تلمسان بعد ظهور فرقة الخوارج في المنطقة مقرا أساسيا للخوارج الصفرية في المغرب الأوسط ، بقيادة أبي قرة المغيلي التلمساني الذي بايعه بني يفرن بالخلافة عام 148هـ، بايعه قومه بالخلافة عام 148هـ[1]، ومنذ أن ظهرت أولى محاولات الإباضية السيطرة على افريقية تمكن الصفرية من تكوين إمارتين في المغرب الأوسط[2]، وبتلمسان حاول أبو قرة أحد كبار فرسان الخوارج إقامة كيان سياسي مستقل ، ولعب دورا سياسيا وعسكريا في غاية الأهمية أيام عبد الرحمن بن حبيب ومحمد بن الأشعث وعمر بن حفص . إذ استطاع أن يوحد كلمة الخوارج بل جل السكان في المغرب الأوسط حتى مشارف طبنة. غير أن محاولة أبي قرة قد فشلت ويرجع السبب إلى قرب تلمسان من قاعدة إمارة خارجية أخرى هي تيهرت[3]. وينتهي أمر أبي قرة عام 170هـ/ 786م، وهذا بعد أن اتخذ لقب الإمامة على مذهب الصفرية وخوطب بأمير المؤمنين أربعين سنة[4].

تعود المدينة مرة أخرى لمسرح الأحداث ، وهذه المرة عن طريق ربط العلاقة مع العلويين ، الذين قاموا بدور مهم في إنشاء المدن وبعث المدن القديمة[5]، وتنشأ علاقة بأسرة سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، هذه الأسرة العلوية التي شمل نفوذها مدينة تلمسان من خلال إسناد حكمها لمحمد بن سليمان الذي اعتبر صاحب تلمسان حسب ابن حزم[6].

اختار العلويون مدينة تلمسان لما كانت تتمتع به من مزايا تتعلق خاصة بتاريخها و موقعها بالإضافة إلى عنصرها البشري الذي ساهم كثيرا في نصرة هؤلاء الفارين من آل البيت ، وبعد مبايعة إدريس بن عبد الله سنة اثنتين وسبعين ومائة[7]، يقول التنسي « ثم زحف في سنة ثلاث وسبعين إلى تلمسان[1]، وبها أميرها محمد ابن خزر المغراوي ، فخرج إليه مبايعا مطيعا فأمنه و أبقاه أميرا بتلمسان ، ورجع إلى وليلي »[2].

---

[1] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 7 ، ص 17 ؛ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد أبي عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الأثير : الكامل في التاريخ ، تح عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي بيروت ، 2004 ، ج 05 ، ص 157 . فيلالي عبد العزيز : تلمسان في العهد الزياني ، ج 01 ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2002 ، ص 95 .

[2] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، ص 182 .

[3] عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ص 26 .

[4] ابن الأحمر : تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تح هاني سلامة ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد مصر ، 2001 ، ص 11 . يذكر الكاتب المجهول صاحب كتاب : مفاخر البربر : أن ممن ثار بالمغرب من البربر قديما : أبو قرة المغيلي الصفري ، ثار بتلمسان ، سنة تسع وعشرين ومائة وبقي أربعين سنة يسلم عليه بالخلافة . ص 188 .

[5] موريس لومبار : المرجع السابق ، ص 108 .

[6] ابن حزم : المصدر السابق ، ص 48 .

[7] لسان الدين ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ، ص 192 .

وأهم ما قام به إدريس الأكبر بن عبد الله بن الحسن بتلمسان يتمثل في اختطاطه مسجدها ، « وأتقنه وضع فيه منبرا وكتب عليه : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أمر به إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وذاك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة »[3]، وقد أجريت العديد من الحفريا في موقع المسجد عام 1910 و1911 ، من طرف الفرد بل Alfred Bel وعثر على بناء مربع تراوح طول جدرانه بين 39 متر و45 متر . والمسجد أضاف عليه الحكام فيما بعد خاصة المئذنة[4] .

وصفت المدينة وذكرت مكوناتها بالإضافة إلى السور الذي يحيط بالمدينة : « لها خمسة أبواب ثلاثة منها في القبلة : باب الحمام ، وباب وهب ، وباب الخوجة ، وفي الشرق : باب العقبة ، وفي الغرب : باب أبي قرة ...

...وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الأوسط لها الأسواق، ومساجد، ومسجد جامع، وأشجار ، وأنهار عليها الطواحين ،وهو نهر سطفسيف، وهي دار مملكة زناتة وموسطة قبائل البربر، ومقصد لتجار الآفاق...»[5].

ولعل كثرة أبواب المدينة إنما تدل على سعتها وحجمها الكبير الذي يحتاج إلى منافذ عديدة ، ويرى جورج مارسي أن المدينة رغم أنها مسورة ، فإن واجهتها الشمالية لا يوجد بها باب . وهذا لا يفاجئنا ، فإن المدينة التي تطل من هذه الجهة على السهل ، تتوج منحدرا له من العلو ما يجعله صعب التسلق[6] ، أما مسجد المدينة فسيعرف تغييرات في عهد إدريس الثاني خلال الفترة التي قضاها بتلمسان من 199هـ إلى 201 هـ ، « ونظر في أموالها وأصلح أسوارها وجامعها الذي بأقادير وصنع فيه منبرا وكتب

---

[1] لا يذكر ابن عذارى هذه الحادثة بالتفصيل واكتفى بذكر أحداث عام 174 هـ عامة وفيها توجه إدريس بن عبد الله بعسكره إلى رباط تازا لما قفل من حركة السوس ، فوجد في جيلها معدن الذهب . وأجابه جميع القبائل الغربية ،و أطاعوه ، وبايعوه في هذه السنة ؛ وكملت له الإمارة فيهم . البيان المغرب ، ج 1 ، ص 84 .

أما ابن خلدون فيقول : إن إدريس الأكبر بن عبد الله نهض إلى المغرب الأوسط سنة أربع وسبعين ومائة فتلقاه محمد بن خزر وألقى إليه المقادة ، وبايع له عن قومه وأمكنه من تلمسان بعد أن غلب عليها بني يفرن أهلها . ديوان العبر ، ج 07 ، ص 34 .

[2] أبو عبد الله التنسي : تاريخ دولة الأدارسة – من كتاب نظم الدر و العقيان – ، تحقيق ، عبد الحميد حاجيات ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 35 ؛ ابن خلدون : نفسه ، ج 07 ، ص 102 .

[3] علي بن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1990 ، ص 25 ؛ الشيخ أبو العباس احمد بن خالد الناصري : الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصر ، ومحمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء المغرب ، 1954 ، ج 01 ، ص 107 ؛ ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 07 ، ص 102 .

[4] رشيد بورويبة : جولة عبر مساجد تلمسان ، الأصالة ، العدد 26 ، السنة الرابعة ، 1975 . ص 171 172 .

[5] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 259 .

[6] جورج مارسي : تلمسان ، ترجمة ، سعيد دحماني ، دار النشر التل ، الجزائر ، 2004 ، ص 17 .

اسمه عليه »[1].

تبقى تلمسان معرضة للتجاذبات السياسية التي عرفتها المنطقة ، خاصة بين زناتة وصنهاجة ، ومع تغلب الشيعة على يعلى بن محمد اليفرني الذي كانت ميوله لأمويي الأندلس، استطاع أن يقوي نفوذه بتأسيس افكان، فكان ذلك سببا في إثارة حفيظة الفاطميين الذين أرسلوا حملة بقيادة جوهر الصقلي الذي خرب المدينة ، واستمرت الصراعات وبقيت المدينة في يد بني يفرن إلى أن ملك المرابطون المنطقة .

د- تاقرارت :

مع نهاية القرن الخامس ستعرف المدينة تغييرات أخرى هامة، ففي عام 472 هـ، يقوم يوسف بن تاشفين بتكليف قائده مزدلي بعد أن خرب مدينة نكور بافتتاح « مدينة تلمسان واستلحم من كان بها من مغراوة، وقتل العباس بن بختي أمير تلمسان وأنزل محمد بن تينعمر المسوفي بها في عساكر المرابطين ، فصارت ثغرا لملكه. ونزل بعساكره واختط بها مدينة تاكرارت بمكان محلته ، وهو اسم المحلة بلسان البربر...»[2]، واستمرت الحملة للسيطرة على باقي مدن المغرب الأوسط كتنس ووهران و وانشريس والجزائر.

وكانت أهم أعمال المرابطين بتاقرارت التي بنيت غرب المدينة القديمة – أغادير- بعد عام من الاستيلاء على تلمسان[3] فتتمثل في بناء قلعة للتحصن بها ، والقصر القديم الذي اهدم و لم يبق منه شيء، وأجريت فيه حفريات من طرف "بروسلارد" وعثر على حجارة قبور بها كتابات لأسماء ملوك وأمراء وأعيان[4] ، بالإضافة إلى المسجد الأعظم ، والذي كان من ضمن حفريات جورج مارسي بالمنطقة[5]. وبالمدينة الجديدة – تاقرارت – يكون وجهاء لمتونة وأمراؤهم قد شيدوا المباني الجميلة الضخمة بها .

---

[1] الجزنائي : زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق ، مديحة الشرقاوي ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 1422 / 2001 ، ص 65 ؛ أبو العباس الناصري : الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، ج 1، ص 169 ؛ ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 04 ص 18.

[2] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 6 ، ص 247 . يقول الكاتب المجهول صاحب كتاب الحلل الموشية أنه في سنة ثمان وستين (وأربع مائة) بعدها فتح مدينة تلمسان وكان أميرها العباس بن يحي الزناتي ويوسف بن تاشفين كان يدعى بالأمير . صحح الكتاب البشير الفوزي ، مطبعة التقدم الإسلامية ، تونس ، ص 16 .

[3] Rachid Bourouiba , *L'Art Religieux Musulman En Alger*, Société Nationale D'Edition Et De Diffusion , Alger ,1983, p.103 .

[4] محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر العصور ، ص 44 .

[5] Rachid Bourouiba ,Op,Cit,.p.103 .105

هـ- سور المدينة :

لعل أهم ما لفت انتباه الرحالة والجغرافيين يتمثل في أسوار المدينة ، ففي القرن الثالث كان للمدينة سوران من الحجارة وصفهما اليعقوبي بقوله أن المدينة « العظمى المشهورة بالغرب التي يقال لها تلمسان وعليها سور حجارة وخلفه سور آخر حجارة و بها خلق عظيم و قصور ومنازل مشيدة...»[1]. أما ابن حوقل فيشير إلى أن لها : « سور من آجر حصين منيع... »[2]، وهو ما يراه جورج مارسي التفاتة إلى أن التحصينات هذه تعرضت إلى أضرار خطيرة أثناء المواجهات بين زناتة وصنهاجة . فوجب ترميم الثغرات ، وربما إعادة بناء أقسام كاملة مهدمة ، ويرى أنه من الممكن قبول ملاحظة ابن حوقل من أن هذه الترميمات استعمل فيها الآجر وأن تلك الأجزاء المرممة هي التي شدت انتباه ابن حوقل ، أي بعد ستين سنة من مرور اليعقوبي عليها[3].

ولا شك أن ملاحظات الرحالة والجغرافيين تشكل مصدرا هاما لتطور تلمسان طيلة هذه القرون ، غير أن الدراسة التاريخية لا يمكن أن تجعلنا بعيدين عن الشك في مصداقيتها ، فنجد عوامل أخرى ليس بالإمكان التغاضي عنها ؛ فالمدينة تعرضت في نهاية القرن الرابع الهجري عام 385 هـ لرياح أتت على منازلها ففي عام « خمس وثمانين كانت الرياح الهائلة التي هدمت المباني بمدينة تلمسان وأحوازها واقتلعت الأشجار العظام ونظر الناس إلى البهائم تمر بين السماء والأرض نعوذ بالله من سخطه »[4]. بالإضافة إلى عامل آخر لا يقل خطورة في التأثير على العمران وتغيير بنيته ، والمتمثل في القحط والمجاعات وهذا ماحدث بالمنطقة عام 407 هـ « وفيها كان بالمغرب والأندلس وإفريقية قحط شديد ومسغبة عامة ووباء كبير ، وفي سنة إحدى عشر وأربعمئة اشتد القحط ببلاد المغرب كلها من تيهرت إلى سجلماسة وكثر الفناء في الناس »[5]، فلا شك أن المدينة تكون قد تأثرت كثيرا من هذه الظروف .

10 – مدينة – إمارة العلويين:

مدينة كانت من أهم المراكز التي استقر فيها العلويون ، قبل أن تؤول إلى قبيلة زناتة ، وقد أشار اليعقوبي إلى أن : «... المدينة التي تسمى مدينة العلويين كانت في أيدي العلويين من ولد محمد بن سليمان

---

[1] اليعقوبي : البلدان ، ص 196 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 89 .

[3] جورج مارسي : تلمسان ، ص16 .

[4] ابن أبي زرع الفاسي : المصدر السابق ، ص 147 .

[5] ابن أبي زرع الفاسي : نفسه ، ص 149 .

ثم تركوها فسكنها رجل من أبناء ملوك زناتة يقال له علي بن حامد بن مرحوم الزناتي »[1]. وبعد فترة تكون المدينة قد عرفت فترة من الانتعاش، وهذا إذا ما اعتمدنا على شهادة ابن حوقل الذي أصبحت في عهده المدينة عبارة عن: « قرية عظيمة آهلة على نهر ولها أجنة وعيون »[2]. الإدريسي لم يذكر هذه المدينة ، ما يعني أنها لم تكن ذات أهمية في عهده ، أما البكري فقد أشار إلى أن المدينة كانت مسورة ، وغنية بالمياه «...وهي مدينة يعلى بن باديس ، عليها سور ، وهي على نهر كبير وداخلها عيون »[3] .

وباستثناء هذه الأوصاف عند الجغرافيين لا نجد معلومات كافية تسمح لنا بتوضيح أوضاع هذه المدينة بصورة أشمل . وتكون قد حافظت على مستواها من التطور لكنها لم تصبح مدينة كبيرة الحجم ، فالإدريسي يذكر أنها « قرية كبيرة على نهر يأتيها من القبلة وفواكهها فاضلة وخيراتها شاملة . ومنها إلى تلمسان مرحلة لطيفة...»[4] .

11- مدينة – إمارة افكان :

تعتبر من أهم المنشآت العمرانية التي أقامها بنو يفرن . وقد مدها يعلى بن محمد بن صالح اليفرني ، وكان ابتداء تأسيسه سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ، وارتحل إليها أهل المعسكر[5]، وكان هذا الأمير الزناتي من "أعظم ملوك زناتة"[6]. وينقل ابن خلدون الذي أخذ بروايات من تقدمه ويقول أن أمير بني يفرن في عهد أبي يزيد هو: محمد بن صالح، لما مات استخلفه ابنه: «يعلى فعظم صيته، واختط مدينة إفكان »[7].

ولوقوع المدينة بين تيهرت وتلمسان ، فقد كانت محل أطماع التوسعات الفاطمية التي حاولت السيطرة عليها لما كانت تتمتع به من ثروات ، فقد كانت ذات « أرحية وحمامات وقصور وفواكه » ويضيف ابن حوقل أن « لايفكان على واديها أعمال عريضة وأجنة ومزارع »[8]، وكانت «سوقا قديمة من أسواق زناتة »[9]. والمدينة كانت تتمتع بمجموعة من المرافق ، أهما بالإضافة إلى السور« جامع وحمام

[1] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 196 .
[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 89 .
[3] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 254 .
[4] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 248 .
[5] البكري : نفسه .ج 02 ، ص 262 .
[6] مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، ص 129 .
[7] ديوان العبر ، ج 7 ، ص 24 .
[8] صورة الأرض ، ص 89 .
[9] البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 262 .

وخنادق »[1].

ويشير ابن حوقل المعاصر لهذه الفترة أن المدينة كان عليها « سور من تراب في غاية الارتفاع والعرض ووواديها يشقها بنصفين »[2]، واستمر هذا السور في القرن الخامس وهو الذي أشار إليه كل من المقدسي والبكري ، غير أنه لم يصمد أمام كثرة النزاعات حيث نجد الإدريسي أشار إلى أن افكان : « كان عليها سور تراب لكنه الآن تهدم وبقي أثره...»[3] .

و لم تجد المناعة أو الحصانة الطبيعية التي تمتعت بها هذه المدينة والمتمثلة في كونها تقع في « سفح جبل أوشيلاس وهو بجوفيها، ولهذا الجبل شعراء غامضة »[4]، في الصمود أمام الزحف الفاطمي ، فقد استطاع الفاطميون إخضاع المدينة لسيطرتهم في عام347 هـ[5]، وهذا في صراعهم مع الأمويين بالأندلس وقد كانت زناتة قد حاربت الفواطم بهذه المنطقة ، وفي العام نفسه تعرضت ايفكان للتخريب من طرف جوهر، الذي أرسله المعز لدين الله الفاطمي للقضاء على الثورات التي قامت ضد الفواطم ، فانحاز يعلى بن محمد اليفرني أمير زناتة لجوهر، غير أن ذلك لم يشفع له، وقتل من طرف رجالات صنهاجة وكتامة ، «وخرب جوهر مدينة ايفكان و فرت زناتة أمامه...»[6]، ثم عادت المدينة وعمرت « فبعث المنصور بن أبي عامر[7] من بناها وعمرها »[8] .

وتكون المدينة كغيرها من المدن التي عانت الكثير بسبب الأطماع التوسعية لكل من الفاطميين وحكام الأندلس الأمويين من جهة ، ومن جهة ثانية الصراع الذي كان على أشده بين قبيلة زناتة التي تراوحت ميولها بين الأمويين بالأندلس والشيعة ، وبين قبيلة صنهاجة وكتامة الموالية للفواطم .

كانت هذه المدن الفاطمية تعيش فترة إزهار لم تنقطع إلا ببروز الاضطرابات السياسية ، وحسب شهادة

---

[1] البكري : المصدر نفسه . ص 263 .

[2] المصدر نفسه ، ص 89

[3] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1، ص 251.

[4] البكري : المصدر نفسه ، ص 263 .

[5] القاضي النعمان بن محمد : كتاب المجالس و المسايرات ، تحقيق ، الحبيب الفقي ، إبراهيم شبوح ، محمد اليعلاوي ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 1978 ، ص 217 .

[6] ابن خلدون : المصدر السابق ، ج7 ، ص 25 .

[7] هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر : ويعود نسبه إلى بنو خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ . ولي الأندلس ، هو وابناه : عبد الملك المظفر ، وعبد الرحمن الناصر . ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، ص 418 .

[8] مجهول : كتاب الاستبصار ، ص 135 .

ابن حوقل فإن سكان المدن الفاطمية ببلاد المغرب : « كانت حالهم فيما تقدم أزيد من هذا الوقت صلاحا، وقد تغير بعض ما أدركته في سبى نيف وثلثين من حالهم ، وفي وقتنا هذا فقد تدانت أحوالهم و عمر طريقهم»[1] ، ولعل تراجع النفوذ العلوي ببلاد المغرب الأوسط لمن تقتصر تأثيراته على مدينة دون غيرها ، فقد تأثرت أغلب المدن التي كانت تحت نفوذهم ، بعدما ازدهرت في فترة سلم قبل ظهور الأطماع الفاطمية .

ثانيا : مدن الإمارات الإباضية .

إلى جانب الإمارة الإباضية التي برزت ببلاد المغرب الأوسط ، واتخذت من تيهرت عاصمة لها ، ظهرت العديد من الإمارات التي لم يكتب لها الظهور بالمستوى الذي كانت عليه تيهرت ، وكانت هذه الإمارات في بعض الأحيان تناصب العداء لتيهرت ، وهذا منذ أن بدأ الاختلاف حول أحقية الإمامة عند إباضيي تيهرت ، ويذكر المؤرخ ابن الصغير عن بداية فترة حكم الإمام عبد الوهاب : «...كان ملكا ضخما وسلطانا قاهرا ، وعلى يديه افترقت الإباضية ، وافترق كبراؤهم ...»[2]. وأهم هذه القبائل التي انشقت حسب ابن الصغير هم :« جمع الناس من هوارة وغيرها من القبائل ، كانوا بإزاء مدينة تاهرت ، وكان لهوارة رؤساء مقدمون يقال لهم الأوس و يعرفون ببني مسالة ...»[3].

وقد ذكر اليعقوبي هذه الإمارات التي سادت بلاد المغرب الأوسط ، ومن أهم هذه المدن – الإمارات التي ذكرها هي :

1 – قلعة هوارة (تاسقدالت):

مدينة تقع في الطريق بين تيهرت والساحل ، اتخذت كمملكة لبني مسالة الهواريين بعد أن نشبت الفتنة بينهم والإمام عبد الوهاب فلجأ هؤلاء إلى مدينة لا يحددها الجغرافيون بالضبط ، فقد أشار اليعقوبي إلى المدينة التي يسكنها ابن مسالة الإباضي : « يقال لها الجبل منها إلى مدينة يقال لها يلل[4] تقرب من البحر المالح مسيرة نصف يوم ولها مزارع وقرى وعمارات وزرع وأشجار»[1] .

---

[1] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 104 .

[2] ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق ، محمد ناصر وإبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي لبنان ، 1986 ، ص 43 .

[3] ابن الصغير : نفسه ، ص 52 .

[4] مدينة يلل : مدينة ذات أنهار و فواكه تقع بين المعسكر و شلف . ابن حوقل . المصدر السابق ، ص 89 90 . ويقول عنها البكري : "هي كبيرة آهلة كثيرة الأشجار يسكنها هوارة و بها مسجد جامع" . المصدر السابق ، ج 02 ، ص 327 .

أما البكري فيحدد قلعة هوارة التي « يسمونها تاسقدالت : وهي قلعة في جبل ، لها ثمار ومـــزارع ...»[2]، ويحدد ابن الصغير بعد هذا المكان الذي لجأت إليه قبيلة هوارة عن تيهرت « نحو من عشرة أميال أو أكثر، فعمروا لنهر من أعلاه إلى موضع اذاك قبائل من جمعهم اسم هوارة...»[3]. وتكون المدينـــة قـــد اتخذت من التحصينات أساسا في بنائها وتخطيطها إذ وردت في مصادر أخرى كالاستبصار مثلا بـــصيغة القلعة فقط دون الإشارة إلى أنها مدينة ، ويقول عنها : « هي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع ، وأعناب ، وتحتها فحص طوله نحو 40 ميلا...»[4] .

هذه المدينة لم نعثر على تفاصيل تركيبتها ولا بنيتها، أو تخطيطها، والأرجح أن الأسوار والتحصينات قدأخذت القسط الأوفر فيها، وهو طابع المدن التي اتخذت كمراكز للدفاع ، وغلبت عليها الأزمات السياسية وانعدام الأمن ، فقد كانت قبيلة هوارة من القبائل التي شقت عصى الطاعة على الأئمة الرستميين منذ عهد الإمام الثاني .

2 – مدينة – إمارة أيزرج :

كانت هذه المدينة مستقر قبيلة بني مطماطة، وكانت مملكة كبيرة حسب صاحب كتاب البلـــدان ومركزهم بهذه المدينة القريبة من مدينة تيهرت ، ولعل التسامح الذي سلكته تيهرت اتجاه باقي المـــذاهب الأخرى جعل من هذه المدينة تكون معتزلة المذهب ، وهذا ما يخبرنا به ابن خرداذبة الذي يقـــول « وفي يدي إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي مدينة تلي تاهرت تدعى أيزرج »[5]، غـــير أن المدينـــة لم تـــرد في المصنفات الجغرافية الأخرى ، وقد يكون ذلك بسبب فقدانها لأهميتـــها، أو لتـــأثير العوامـــل الـــسياسية والعسكرية التي برزت بعد سقوط تيهرت . وحتى اليعقوبي الذي ذكر هذه المدينة اكتفى بوصفها أنهـــا : «مدينة عظيمة يقال لها أيزرج »[6]. و لم يزد على ذلك .

---

[1] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 195 .

[2] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 252.

[3] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 53 .

[4] مجهول : كتاب الاستبصار ، ص 178 .

[5] ابن خرداذبة : المسالك و الممالك ، ص 88 .

[6] البلدان ، ص 196 .

3 – مدينة – إمارة بني دمر :

ملك هذه الإمارة مصادف بن جرتيل ، ويذكر هذا البلد كل من اليعقوبي وابن حوقل ، فقد ارتبط أمير هذا البلد الذي يلي مدينة هاز، ويقول ابن حوقل عن جرتيل أنها : « قرية كبيرة كثيرة الزرع والمياه وشربهم من عيون بها مرحلة وسكانها زناتة »[1]. هؤلاء السكان حسب اليعقوبي هم « بنودمر من زناتة »، وأما عن مستقرهم ففي « بلد واسع وهم شراة كلهم عليهم رئيس منهم يقال له مصادف بن جرتيل في بلد زرع ومواش بينه وبين هاز مرحلة »[2]. وقد يعود إحجام الجغرافيين عن ذكر هذا البلد في القرون التالية إلى تراجع دوره ، أو اندثار المدينة نهائيا .

4 – مدينة – إمارة أوزكى : مقر إمارة بني مسرة .

مدينة استقرت فيها إمارة بني مسرة ، تقع غرب مدينة تيهرت ، وفي الاتجاه نحو مدينة سجلماسة[3]، والمدينة يسكنها « فخذ من زناتة يقال لهم بنو مسرة رئيسهم عبد الرحمن أودموت بن سنان وصار بعده ولده...»[4]، والمدينة اعتبرت حدا لبلاد زناتة وهي آخر المدن الآهلة قبل الوصول إلى مدينة سجلماسة والتي تبعد عنها بمسافة سبع مراحل أو نحوها حسب اليعقوبي .

وهي من أهم مدن تيهرت ، وقد تتبع تيهرت ، وتارة تتبع فاس[5]، و لم يرد ذكرها في الفترات اللاحقة من القرن الثالث وإلى غاية القرن الخامس .ولعل السبب يعود إلى العوامل السياسية ، أو أن المصادر أغفلت ذكرها لغياب أي دور لهذه المدينة وإمارتها .

ثم نجد الشريف الإدريسي يتحدث عن مدينة (آزكى) والتي تكون أوصافها هي نفسها المدينة التي تحدث عنها اليعقوبي ، إذ يقول أنها : «... هي أول مراقي الصحراء ومنها إلى سجلماسة ثلاث عشرة مرحلة ومنها إلى نول سبع مراحل . وهذه المدينة ليست بالكبيرة لكنها متحضرة ...» ويضيف «... تسمى هذه

---

[1] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 86

[2] اليعقوبي : المصدر نفسه ، ص 191. تقع هذه المنطقة بنواحي قصر البخاري . والمدينة التي كانت مركزا للإمارة هي مدينة تيمطلاس . الشيخ داود بن سفيان : دولة بني يفرن الاباضية بتلمسان . الأصالة ، العدد 26 ، السنة الرابعة ، 1975، ص 114.

[3] حدد موقع هذه المدينة بنواحي مدينة سعيدة بالغرب الجزائري .

[4] اليعقوبي : المصدر نفسه ، ص 198 .

[5] سليمان بن عبد الله الباروني باشا : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، تحقيق ، احمد كروم ، عمر بازين ومصطفى بن دريسو، دار ابعث ، الجزائر ، 2002 ، ص 72 .

المدينة بالبربرية آزقى وبالجناوية قوقدم ومن أراد الدخول إلى بلاد سلى وتكرور وغانة من بلاد السودان فلا بد له من هذه المدينة »[1].

ولهذا فالمدينة تكون بداية لحد الصحراء ، وحسب موقعها الهام ، إذ أنها تشكل حلقة وصل ومحطة لعبور القوافل التجارية في طريقهم نحو الصحراء ، فلاشك أنها اتخذت كأحد المراكز التجارية ومحطة هامة لتوقف هذه القوافل التجارية . نقول هذا من باب الاستنتاج لأن المدينة لم تحظى بوصف دقيق من المصادر التاريخية أو الجغرافية ، لتطرفها على حدود الصحراء وتراجع دورها .

كما عرف المغرب الأوسط الكثير من هذا النوع من المدن الشبه مستقلة ، فالكثير من القبائل تنطوي على نفسها ، كما لا ننسى دور التضاريس في ظهور هذه المدن ، فلدينا نماذج من مدن بمنطقة الأوراس الذي يعرف عمرانه خصائص محلية ، وكثيرا ما كانت المدن التي تقع في الجبال بعيدا عن سلطة الدولة تشكل مراكز مغرية للدعاة والثوار والهاربين من عيون السلطة وغيرهم .

ويذكر اليعقوبي الكثير من هذه المدن والتي تكون قد اندثرت ، تقطنها قبائل بربرية وفي الفترة المبكرة من مراحل هجرات قبائل الفتح للاستقرار ببلاد المغرب الأوسط ، شكلت تلك المرحلة بداية « للأخطار والحروب والنزاعات ، لكنها ليست معطيات دائمة ، بل هي حالات طارئة وجزئية »[2]، ونجد أن اليعقوبي كثيرا ما يقول عن علاقة هذه المدن والقبائل بالسلطة أنهم « خالفوا على ابن الأغلب في هذا الوقت »[3]. مثلما يذكر ذلك عن الكثير من المدن بالمنطقة، والعامل الرئيسي في ذلك هو أن بداية تشكل المذاهب ببلاد المغرب الأوسط سيتأخر إلى غاية القرن النصف الأول من القرن الثاني الهجري حيث تصلها الأفكار السياسية الثورية الخارجية ، والتي ستجعل من مدن المغرب الأوسط قواعد لها لمحاربة نظام الخلافة القائم على أساس أفضلية العنصر العربي[4] .

فلا شك أن المرحلة التي زار فيها اليعقوبي المنطقة كانت فيها الهياكل الاجتماعية للقبائل التي تقطن المغرب لم تتغير كثيرا منذ العصور القديمة ، وقد بقي تنظيمهم القبلي خالصا بصورة خاصة ، وتمكنوا من التحرك بقوة ، والإفلات بصورة عملية[5] ، ولذلك فمن الطبيعي أن تشهد مدن تلك المنطقة نوعا من

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، مج 1 ، ص 225 .

[2] محمد نجيب بوطالب : سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي ، ص 46 .

[3] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 190 .

[4] علاوة عمارة : إنتشار المذهب المالكي ببلاد المغرب الأوسط ، قراءة سوسيو– تاريخية ، ص 25 32 .

[5] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 284 .

الاستقلال ولو أن المصادر التاريخية لا تذكر ذلك بوضوح، ولعل عدم ذكر هذه المدن أحد الشواهد على استقلالية هذه المدن عن مراكز سلطة الدولة خاصة في منطقة الأوراس .

أما في باقي مناطق المغرب الأوسط فكان العطف على آل البيت أحد العوامل التي ساعدت على احتضان سكانه لكل من يدعي النسب إلى آل البيت ، وهذا ما جعل المدن العلوية تنتشر كثيرا في هذه البلاد ، فقد اشتمل في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، باستثناء الأراضي التابعة لإمام تيهرت ، على إمارات شيعية بلغ عددها تسع إمارات[1]، وسيكون هذا أحد عوامل نجاح الدعوة الفاطمية في البلاد ، حيث عملت هذه الإمارات على تهيئة التربة قبل قدوم عبد الله الشيعي عل قبيلة كتامة . حيث نجد أنفسنا أمام محاولة هذا الداعي تأسيس مدن دعوية لنشر المذهب الإسماعيلي ، ومن ثم تأسيس ملك سياسي لمزاحمة بغداد ، وقد تطورت العديد من هذه المدن إلى عواصم جميلة وكان لها حض أوفر للبقاء لمدة أطول ، وتستمر لقرون أخرى، مثل المدن التي أسست لهدف عسكري أو سياسي، وتكون تنميتها دائمة بسبب الشروط التي تنمي العمران(L'urbanisme)[2]، وهذا ما سنشهده مع الكثير من مدن المغرب الأوسط ، كمدن تلمسان وتيهرت وغيرهما .

[1] محمد سهيل طقوش : تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام ، ص 63 .

[2] Revue D'Alger, Tom 02, Ne 10, Alger 1945 . P. 520..

ثالثا : تيهرت المدينة الحاضرة :

تميزت فترة حكم الولاة الأمويين لبلاد المغرب الأوسط بنوع من الاستبداد القائم على أساس توريث الحكم والذي أدى بسكان المغرب الأوسط أن يعتنقوا مبادئ الخوارج ويحتضنوا أفكارهم في الحكم المتعلقة بنظام الشورى ، وفي نفس الوقت الذي ظهرت فيه هذه الثورات كانت بلاد المشرق تشهد في بغداد ثورة للعباسيين ضد الحكم الأموي ، وأصبحت أطراف الدولة الإسلامية مقصدا لكل ثائر لبعدها عن المركز دمشق، وبلاد المغرب الأوسط كانت من أهم المناطق التي استهوت هؤلاء الخوارج[1]، فقد كانت جغرافيتها تغري هؤلاء على اللجوء إليها ، فضلا عن سكانها الذين لا زالوا يحتفظون بالولاء الشديد لكل ما له علاقة بالمبادئ الأساسية للدين الإسلامي الحنيف .

أ- ظروف تأسيس المدينة :

منذ استطاع الخوارج الاستيلاء على القيروان عام 140هـ/ 757م، اندلعت بينهم اضطرابات بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة ، وبين ولاة القيروان من جهة أخرى ، بعد أن ظهرت بينهم تناقضات الصراع على السلطة، أما بالنسبة للإباضيين، وبعد أن حال عبد الرحمن بن حبيب دون أن تظهر لهم دولة ببلاد المغرب ، عقدوا الإمامة لأبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري[2]، هذا الأخير الذي ولي عبد الرحمن بن رستم على القيروان[3]، ليعود هو إلى طرابلس لمواجهة العباسيين هناك. وبعد موته بتاورغا عام 144هـ/ 761م فر عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب وكان معه ابنه عبد الوهاب، ثم لجأ إلى جبل سوفجج ومنه تتأسس الدولة الدولة الرستمية . وتبدأ مرحلة جديدة في تاريخ المذهب، والدولة.

بالنسبة للمذهب فقد بدأت مرحلة الانتقال « من إمامة الدفاع التي تنتهي 161هـ. إلى مرحلة إمامة الظهور التي تعقب ذلك »[4]، ومن هنا تبدأ مرحلة التأسيس الفعلي للدولة ، وكان أول عمل يقوم به عبد الرحمن هو بناء المدينة التي ستكون عاصمة لدولته .

---

[1] حول ثورات الخوارج ببلاد المغرب الأوسط أنظر : حسين مؤنس : ثورات البربر في إفريقية والأندلس بين سنتي 102 – 136هـ (721 – 753 م) ، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، المجلد العاشر ، الجزء الأول ، ماي 1948 .

[2] أحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشماخي : كتاب السير. تحقيق ، أحد بن سعود السيباني ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، 1992 ، ج 01 ، ص 114 .

[3] الشماخي : نفسه . ج 01 ، ص 118 .

[4] إبراهيم زروقي : المذاهب الإسلامية في عهد إمامة تاهرت أول دولة إسلامية في الجزائر ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، النصف الثاني من سنة 1982 ، الجزائر ، 1982 ، ص 13 .

لذلك فالاهتمام الرستمي بالعمارة والبناء اقترن منذ الإمام عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة . وما تجدر الإشارة إليه في هذا الجانب هو أن مدينة تيهرت[1] قد مرت بمراحل متدرجة من التطور وكان ذلك بالتوازي مع تطور الدولة ، والتي لا يمكن فصلها عن المذهب الذي تأسست على مبادئه ، ونشير إلى أن الدولة الرستمية لم تضع لنفسها حدود سياسية مرسومة، وإنما جعلت من طبيعة مذهبها وعلاقاتها بالجماعات الإسلامية سبيلا جديدا بين حدودها[2].

إن إقبال مجموعة من أهل الغرب الإسلامي على التمسك بالمذهب الإباضي كان بمثابة رد فعل إيديولوجي ضد الممارسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الظالمة التي مارسها الحكام والولاة الأمويون على خيرات هذه المنطقة وأهلها فقد وجد بعض الأهالي في هذا المذهب مناسبة للتعبير بواسطته عن تذمرهم وسخطهم على ما يمارسه الأمراء الأمويون وولاتهم في هذه البلاد[3].

لقد كانت مرحلة تأسيس المدينة في عهد الإمام الأول عبد الرحمن، إذ يذكر أبو زكريا رواية تأسيس تاهرت فيقول : «...وسبب ولايته أن جماعة المسلمين اتفقوا أن ينتخبوا موضعا يبنون فيه مدينة

---

[1] تختلف التسميات بين تاهرت وتيهرت فيذكرها بصيغة تيهرت كل من :

الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 130 . ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ص 197 . الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص 10، 5 . البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 248 . أبي الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا ، تحقيق ، إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 . سليمان بن عبد الله الباروني باشا : الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية ، تحقيق ، احمد كروم ، عمر بازين ومصطفى بن دريسو، دار ابعث ، الجزائر ، 2002 ، في الكثير من صفحات الكتاب .

أما من يذكرها بصيغة تاهرت بالألف نذكر :

اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 195 . أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة . المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد ، ص 87 . ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري : المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيسني ، دار القلم القاهرة ، 1961 ، ص 34 . ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 86 . المقدسي . المصدر السابق ، ص 185 . ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 07 . 08 . 09 . مجهول : الاستبصار ، ص 178 . أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري : كتاب الجغرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب العجائب ، تحقيق ، محمد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، ص 113 . الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 255 . ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق ، محمد ناصر و إبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي لبنان ، 1986 ، ص 28 . وغيرها . أبو زكريا : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، ص 53 . أبو القاسم بن إبراهيم البرادي : الجواهر ، مكتبة مصطفى بن الناصر ، غرداية ، الجزائر ، ص 173 .

أما بحاز إبراهيم ، فيرجح أن تكون التسمية الصحيحة هي : تيهرت و يعتبر أن اسم تاهرت بالألف خطأ و هذا ما نرجحه . بحاز إبراهيم بكير . الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية 160 هـ 196 هـ/ 777م 909 م ، ص 86 ، هامش رقم 19 .

[2] جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984، ص 61 .

[3] يوسف احنانة : تطور المذهب الأشعري في الغرب الإسلامي ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، مطبعة اليديني ، الرباط ، 2003 ، ص 34 35 .

تكون حرزا وحصنا للإسلام . فأرسلوا الروافد في الأرض ، فرجعوا فدلوهم على تاهرت، فاتفق جمهور المسلمين مع أهل تاهرت القديمة على أشياء معلومة يأخذوها من غلتها .

وقد كانت قبل ذلك غياضا عامرة بالوحوش والسباع والهوام »[1] كما وردت روايات حول تأسيس المدينة أقرب ما تكون لتلك المتعلقة برواية تأسيس عقبة بن نافع للقيروان ، إذ يذكر أبو زكريا إلى هذه الرواية : «...فلما اتفقوا على عمارتها ، أمروا مناديا ينادي ، إلى من بها من الوحوش والسباع : أن أخرجوا ، فإنا أردنا عمارة هذه الأرض، وأجلوا لها ثلاثة أيام . وبلغنا أنهم رأوا بها وحشا تحمل أولادها في أفواهها . خارجة منها، فكان ذلك مما رغبهم فيها وزادهم بصيرة في عمارتها وإنشائها »[2].

وكان عبد الرحمن الرحمن بن رستم « لما فر إلى المنطقة بما خف من أهله وماله ، فاجتمعت إليه الإباضية ، وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم ، فنزلوا بموضع تيهرت...»[3].

وقد واكب قدومه إلى المنطقة تفكيره في تأسيس قاعدة لملكه ، فبعد أن فرمن القيروان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط. واجتمعت إليه طوائف من البربر الإباضية من لماية ولواتة ورجالة من نفزاوة فنزل بها و اختط مدينتها سنة أربع و أربعين[4]. وقد تحالف عبد الرحمن مع قبائل المنطقة ليضمن التأييد لسياسته فيما بعد و يخبرنا ابن خلدون أنه : «... نزل على لماية لقدم حلف بينه وبينهم فاجتمعوا إليه وبايعوا له بالخلافة وائتمروا في بناء مدينة ينصبون بها كرسي إمارتهم فشرعوا في بناء مدينة تاهرت في سفح جبل كزول والسياح على تلول منداس، واختطوها على وادي ميناس النابعة منه عيون بالقبلة، ويمر بها وبالبطحاء إلى أن يصب في وادي شلف، فأسسها عبد الرحمن بن رستم واختطها سنة أربع وأربعين ومائة فتمدنت واتسعت خطتها إلى أن هلك عبد الرحمن...»[5]، إلا أننا وقبل رواية ابن خلدون في زمن تأسيس المدينة نجد ابن عذارى يقول أن ذلك حدث بعد تاريخ 144هـ، ويقول : «... واختط الناس مساكنهم . وذلك في سنة 161هـ وكانت في الزمان الخالي مدينة قديمة. فأحدثها الآن عبد الرحمن بن رستم وبقي بها إلى أن مات في سنة 168هـ...»[6]، ويرجح جودت عبد الكريم يوسف[7] أن تكون عملية البناء في التاريخ الذي

---

[1] أبي زكريا : المصدر السابق ، ص 53 .

[2] أبي زكريا : المصدر نفسه ، ص 53 .

[3] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 196 .

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 6 ، ص 132 .

[5] ابن خلدون : نفسه ، ج 06 ، ص 143 .

[6] ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ص 196 .

[7] جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص 30 .

أشار إليه ابن عذارى فيما نجد رأي آخر يرى أن الانطلاقة الفعلية لبناء هذه المدينة التي ستصبح عاصمة الدولة الرستمية فيما بعد في نهاية عام 155هـ وبداية عام 156هـ . وهذا على أساس أن عبد الرحمن بن رستم كان من المشاركين في حصار مدينة طبنة عام 153هـ،[1] وعلى كل فالمدينة تكون قد تأسست في الفترة ما بين 155هـ إلى 160هـ.

بالنسبة للمصادر الجغرافية يعتبر اليعقوبي أهم مصدر لهذه المرحلة . هذا المؤرخ الرحالة ، ذو الميول الشيعية الواضحة ، تجول في المغربين الأدنى والأوسط في تاريخ يقع بعد سنة 260هـ/873م يعتمد فيما يكتب على مشاهداته ، على الأخبار التي استقاها مباشرة من التجار وأحيانا ممن ينتمي إلى أسرة حاكمة (عن عبد الرحمن بن محمد بن ميمون بن عبد الوهاب الرستمي) فلا يمكن إذن إهمال شهادته[2].

وتعتبر تيهرت من المدن الإسلامية الأولى المحدثة . فمن الملاحظ أن بلاد المغرب الأوسط لم تشهد ظهور أية مدينة جديدة منذ الفتح الإسلامي حتى بناء مدينة تيهرت . وربما كان السبب الرئيسي يتمثل في تلك الحروب والثورات المتكررة التي شهدتها المنطقة وبالتالي فقدان عنصر الأمن والاستقرار. وهكذا كانت تاهرت هي المدينة الأولى المحدثة في البلاد[3].

اختطت تاهرت في الشق الغربي للمغرب الأوسط على نمط الأمصار الإسلامية ، ولعل البصرة كانت هي المثال ، من حيث تخطيط المدينة ، وتعميرها من طرف القبائل التي سكنتها ، في أحياء خاصة بكل قبيلة . وكانت تنزل حول تيهرت قبائل من هوارة ولواتة[4] ومكناسة[5] ومزاتة[1] ولماية[2]. وهي داخلة في

---

[1] نجاز إبراهيم : الدولة الرستمية ، ص 85 .

حول موضوع مشاركة عبد الرحمن بن رستم في الحصار الذي تعرضت له مدينة طبنة إلى جانب كل من : أبوقرة الزناتي ، والمسور الزناتي ، و الكثير من قبائل المغرب الأوسط في عام 153هـ ، أنظر : الرقيق القيرواني . المصدر السابق ، ص 105 106 . ابن عذارى المراكشي . المصدر السابق ، ج 01 ، ص 75 . محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ، المعروف بابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية و تونس ، دار المسيرة ، لبنان / مؤسسة سعيدان تونس ، 1993 ، ص 60 . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 04 ، 246 .

[2] عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ص 30 .

[3] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 343 .

[4] لواتة : انتقد ابن خلدون ابن حزم الأندلسي الذي أرجع نسب قبائل سدراتة ، ومزاتة ، ولواتة ، من القبط . ويرى ابن خلدون أن ابن حزم لم يطلع على كتب علماء البربر في ذلك . فيما يرى هو أن لواتة بطن من بطون البربر البتر ينتسبون إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك ، وفي لواتة بطون كثيرة وفيهم قبائل كثيرة أكثرها مزاتة . استقروا بنواحي برقة ، ومنهم بجبل أوراس أمة عظيمة ، و هم بتيهرت أمة عظيمة على وادي ميناس ، وهم حيرانا لبطون من قبائل زناتية . أنظر : ابن حزم الأندلسي : المصدر السابق ، ص 498 . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 152 153 154 .

2 مكناسة : قبيلة لها بطون كثيرة ببلاد المغرب واستطاعت أن تشيد ملكا سياسيا ، كانت بعد الفتح الإسلامي تنتشر على وادي ملوية إلى منطقة سجلماسة ، ومنطقة تازا وتسول ، وبعد فتح الأندلس انتقل كثير منهم إلى العدوة حسبما يذكر ابن خلدون . وتسببوا في الكثير من=

المذهب الإباضي ، فهي مادة بشرية مهمة لتأهيل المدينة التي ستصبح القصبة الكبرى للإباضية والمخالفين للدولة العباسية عامة ، بل ستكون دولة هي دولة بني رستم ستلعب دورا كبيرا في المصير التاريخي للمغرب ولتركيز الإسلام في الجماهير المغربية المشتتة[3] .

يصف لنا اليعقوبي المدينة وظروفها العامة فيقول فيما يرويه عن أبي معبد أحد أعيان الأسرة الحاكمة ، قال : « تاهرت مدينة كبيرة آهلة بين جبال وأودية ليس لها فضاء . بينها وبين البحر المالح مسيرة ثلاث رحلات في مستوى من الأرض وفي بعضها سباخ وواد يقال له وادي شلف وعليه قرى وعمارة يفيض كما يفيض نيل مصر يزرع عليه العصفر والكتان والسمسم وغير ذلك من الحبوب ويصير إلى جبل يقال أنقيق ثم يخرج إلى بلد نفزة ثم يصير إلى البحر المالح. وشرب أهل مدينة تاهرت من أنهار وعيون يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبل قبلي يقال له جزول...»[4].

كانت بداية تأسيس المدينة مطابقة إلى حد بعيد بالشروط التي سبق الإشارة إليها في دراستنا لشروط اختطاط واختيار المدن ، فقد كانت المرحلة الأولى تتمثل في اختيار الموقع بالقرب من المدينة القديمة و تحت إشراف أعيان متخصصين . فاختاروا إذ ذاك من أهل العلم و الخبرة بالأرض جماعة ليرتادوا مكانا جيد الهواء كثير المياه خصب الأرض . قابلا للعمارة مأمونا من العدو كما طلبوا ، فطافوا أقطار تلك الجهات إلى أن عثروا على المكان الذي بنيت فيه . وكانت غابة ملتفة بالأشجار يسكنها أنواع الوحوش[5] ،

وكان اختيار الموقع لأسباب عديدة يلخصها جودت عبد الكريم يوسف في أن نزول عبد الرحمن بن رستم منطقة تيهرت فهي بعيدة عن القيروان . تفصل بينهما منطقة الزاب وجبال أوراس ، وهي بمأمن

=الثورات ببلاد الأندلس ومن أشهر قادتهم مصالة بن حبوس الذي ولاه عبيد الله الشيعي على تيهرت وتوسع لحساب الفواطم ببلاد المغرب وفاس وسجلماسة . وقد استطاعوا أن يؤسسوا ملك لهم بسجلماسة ، وأقاموا بها ومواطنهم بوادي ملوية وبتلمسان وسجلماسة وتازة ومليلة ، وكانت لهم بالأندلس رياسة وكثرة . وتشكل مكناسة مع ورتناجة وأوكتة ثلاثة بطون ينحدرون من الإخوة : ورصطف بن يحي وأجانا بن يحي ، وسكان بن يحي .أنظر : ابن حزم الأندلسي : المصدر السابق ، ص 496. ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 170 171 .

[1] قبيلة مزاتة : انظر الفصل الثاني .

4 لماية : قبيلة بترية ، وهي من بطون فاتن بن قصيت ، كانوا ظواعن بأفريقية والمغرب ، انتسبوا للمذهب الإباضي مثل جيرانهم لواتة وهوارة ، استقروا بأرض السوس، وهم من استقبلوا عبد الرحمن بن رستم لقدم حلف بينهم . ويقول ابن خلدون أن القبيلة انقرضوا وهلكوا هلاك مصرهم الذي اختطوه وحازوه وملكوه . العبر ، ج 06 ، ص 158 . 159 .160 .

[3] هشام جعيط : تأسيس الغرب الإسلامي ، ص 188 189 .

[4] المصدر السابق ، ص 197 .

[5] سليمان باشا الباروني : المرجع السابق ، ص 51 . البكري : المصدر السابق ، ص 249 – 250 .

من ضربات الأسطول البيزنطي لبعدها عن الساحل ، وفي موقع متوسط بين التل والصحراء وبذلك فهي حلقة وصل بين تجارة الصحراء وما وراء البحر على الطريق بين الشرق والمغرب الأقصى والأندلس .

إضافة إلى ذلك فهي تقع في منطقة خصبة ذات مناخ ملائم . كما أنه باختياره هذا الموقع يكون قد تخلص من مشكلة المياه ، فهي تقع على نهر مينة ونهر ناتش [كذا][1] . وهناك عامل آخر على درجة كبيرة من الأهمية ، ووفر مقرا آمنا للمدينة وأتباع الإمام عبد الرحمن بن رستم هو وقوعها في قلب منطقة تسكنها قبائل إباضية المذهب متعددة[2] .

وفي نفس السياق فإن عبد الرحمن بن رستم اختار مقرا آمنا له ولأتباعه في جبل سوفجج القريب من تيهرت لحصانته ومنعته الطبيعية ، كما أنه يتوفر على المياه والأراضي الخصبة الصالحة للزراعة وتربية الماشية[3]، فاحتمى عبد الرحمن بأهل هذه المنطقة وبجبالها مدة تزيد عن 15سنة ، دون أن تصل إليه يد الدولة العباسية وولاتها في إفريقية ، وهو الأمر الذي جعله يعمل بجد ونشاط على جمع شمل الإباضية وتهيئة المناخ لبناء مدينة جديدة تكون قاعدة للإباضيين في المغرب الأوسط.

هذه الصفات التي تميز تيهرت يذكرها صاحب كتاب الاستبصار: «...ومدينة تاهرت في سفح جبل يسمى قرقل[4] [كذا] وهي على نهر كبير يأتيها من ناحية المغرب يسمى مينة (منيت) و لها نهر آخر يجري من عيون تجتمع يسمى تانس ومنه تشرب أرضها وبساتينها . وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار ...

... وبلد تاهرت شديدة البرد كثيرة الغيوم والثلج . قال أبو بكر بن حماد يصفها :

ما أصعب البرد و ريعته وأضرف الشمس بتاهرت

تبدو من الغمام إذا ما بدت كأنها تنشر من تحت

نفرح بالشمس إذا أشرقت كفرحة الذمي بالسبت [5]

و لم تتم عملية البناء إلا بعد الاتفاق مع أصحاب الأرض إذ أنها أرض لقوم وهم بعض صنهاجة و مداسة مستضعفين فراودهم عبد الرحمن على البيع فامتنعوا فمن ورعه وعدله أن اتفق معهم أن يأخذوا الخراج من الأسواق ويتركوا الناس يبنون ففعلوا وكانوا يأخذون ما عليه الاتفاق[1] .

---

1 نهر تاتش : يورده صاحب كتاب الاستبصار بلفظ : نهر تانس ، أما البكري فيرد عنده بلفظ : تاتش

2 جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص 31 .

3 عبد العزيز فيلالي : المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب والأندلس ، ص 85 .

4 يقصد به جبل جزول

5 كاتب مجهول : كتاب الاستبصار ، ص 178 .

وكان بناء تيهرت بالقرب من المدينة القديمة التي كانت قائمة في عهد ابن حوقل النصيبي الذي وصف المدينتين القديمة والمحدثة :«...وتاهرت مدينتان كبيرتان إحداهما قديمة أزلية والأخرى محدثة . والقديمة ذات سور وهي على جبل ليس بالعالي ، وبها كثير من الناس وفيها جامع...»[2]

إن هذا النص يعطينا دلالة واضحة على الأهمية التي أولتها الكيانات السياسية التي قامت ببلاد المغرب الأوسط للعمران القديم الذي لم يدمر بل إننا نجد تواصل في البناء بما يتلاءم مع المتغيرات الإسلامية الجديدة ، فكانت هذه الكيانات السياسية أحد عوامل الازدهار العمراني حيث كانت تسعى إلى بناء المدن والعواصم لنشر المذهب من جهة ، وكسب الأتباع ، ومن جهة أخرى لبسط نفوذ الدولة .

كما أن ازدهار العمران في المدن ، يرتبط بتوسع ديموغرافي قوي ، فقد كانت بلاد البربر في العصور الوسطى العليا مستودعا للاحتياطي من الرجال . كما يشهد بذلك استعمار أصحاب الجمال من البربر للصحراء، وفتح إسبانيا ، وفتح صقلية في عهد الأغالبة ، ثم غزو مصر وسورية في عهد الفاطميين بجيوش من أصل بربري[3] . وينطبق هذا على مدينة تيهرت التي وجدت في وسط قبلي غذاها بالعنصر البشري الذي كانت المدينة تحتاج إليه في مختلف الجوانب .

ب- منشآت تيهرت ومرافقها :

كانت بداية الدولة الرستمية في مرحلتها الأولى تتميز بالبساطة وهذا من خلال النص الذي جاء في كتاب أخبار الأئمة الرستميين ، حيث يعبر لنا مؤرخ الدولة الرستمية عن الإمام عبد الرحمن الذي كان يشرف بنفسه على بناء داره ، وحالة البساطة جدا التي كانت تطبع ظروف قيام هذه الدولة التي لا زالت لم تستحكم فيها أصول الملك بعد .

نص ابن الصغير المالكي يورده في سياق حديثه عن قدوم الوفد المشرقي الذي كان محملا بالمعونة المخصصة للإمام الرستمي ، وبعدما سألوا عن دار الإمام وجدوه بسطح الدار يصلحها فجاءهم:«... على ما كان عليه من إصلاح عمله حتى انقضى والقوم ينظرون إليه وهم شاكون فيه هل هو صاحبهم أم لا. حتى نزل عن سطحه إلى داره فغسل ما كان بيده من أثر الطين ثم توضأ وضوء الصلاة فأذن للقوم فدخلوا

[1] الشماخي : المصدر السابق ، ص 130.

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 86 .

[3] موريس لومبار : المرجع السابق ، ص 211 .

عليه فوجدوا رجلا جالسا على حصير فوقه جلد وليس في بيته شيئ سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره...»[1].

إن هذه الصورة التي وردت في نص ابن الصغير المالكي تعطينا دلالة واضحة على الصورة العامة التي كانت عليها الدولة في أيامها الأولى وهي أبعد ما تكون على كل مظاهر الترف ، لأن الدولة كانت في مراحلها الأولى من التأسيس ، وبناء المدينة كان موازيا لتأسيس الكيان السياسي .

ولعل هذا ما أشار إليه ابن خلدون من أن ثمرات الملك هي محصلة مراحل تالية من مراحل تطور الدولة . وحتى أن الدولة الإسلامية كثيرا ما لجأت للاستعانة بالدول المجاورة لها في أثناء قيامها بعمليات البناء الضخمة ، ويقول : «...عندما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تفتقر في أمر البناء إلى غير قطرها كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث إلى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث إليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد...»[2].

على أن هذه الحالة لم تلبث أن تغيرت ، وتبدلت أحوال المدينة نحو الأحسن بفعل الرخاء الذي عمها ، وكذلك بفضل سياسة الإمام عبد الرحمن ابن رستم تجاه القبائل المجاورة خاصة ، والتي كانت تستقر في المدينة وتوسع من عمران تيهرت، أو تأتي في مواسم معينة للاستقرار فيها. إذ يخبرنا ابن الصغير: «...أخبرني غير واحد من الإباضية وغيرهم ، أن قبائل مزاتة وسدراتة وغيرهم ، كانوا ينتجعون من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها في أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأجوازها لما حولها من الشلأ و غيره...وكانوا إذا انتجعوا دخل وجوههم ورؤساؤهم المدينة فيبرون ويكرمون ثم يخرجون إلى شياههم و بعيرهم فيقيمون بها إلى ظعنهم...»[3].

مع انتجاع هذه القبائل ، وترددها على المدينة تبدأ مرحلة توسع المدينة وبناء خططها ، وبدأت تتخذ الأحياء الخاصة بكل قبيلة ، ثم تبرز المرافق الأخرى التي يحتاج إليها هؤلاء السكان ، فقد كان الوافدون من الناس والقبائل إلى المدينة حسب ابن الصغير دائما « قد شرعوا في البناء وإحياء الأموات وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك ، واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار...»[4] .

---

[1] ابن الصغير المالكي : المصدر السابق ، ص 33 . أبي زكريا : المصدر السابق ، ص 54 .

[2] ابن خلدون : المقدمة ، ص453 454 .

[3] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 47 .

[4] ابن الصغير : نفسه ، ص 35-36 .

تكون الظروف التي تأسست فيها المدينة من الاضطراب وانعدام الأمن ما يجعل البكري يسكت رواية عن هذه الظروف، ويقول : «...إنهم لما أرادوا بناء تيهرت، كانوا يبنون النهار فإذا جن الليل وأصبحوا وجدوا بنيانهم قد تهدم . فبنوا حينئذ تيهرت السفلى وهي الحديثة. وبقبليها لواطة [كذا][1] وهوارة في قرارات وبغربيها : زواغة[2]، وبجوفيها مطماطة[3] وزناتة[4] ومكناسة...»[5]

استمرت رغم ذلك عملية بناء ونمو المدينة حتى إذا ما كانت زيارة الوفد الثاني القادم من البصرة والمحمل بالمعونة لإخوانهم بالمغرب يخبرنا ابن الصغير عن رسل هذه السفرية «...أتت البلد ونزلت بالموضع الذي نزلت به أولا. ثم توجهت نحو عبد الرحمن فوجدوا الأمور قد تبدلت و أحوال المدينة والأشياء قد حالت و ذلك أنهم نظروا إلى قصور قد بنيت وإلى بساتين قد غرست وإلى أرحاء قد نصبت وإلى خيول قد ركبت وإلى حفدة قد اتخذت السور والعبيد والخدام قد كثرت...»[6].

لقد تغيرت تيهرت و أصبحت حاضرة تستقطب الناس والتجار والعلماء وغيرهم، وأصبح لها مرافق تشتمل على كافة أسس المدينة الحاضرة بما تكفله للناس لقضاء حوائجهم واستمرت المدينة في النمو بعد الإمام عبد الرحمن بن رستم ، ففي عهد ابنه عبد الوهاب حيث زاد ت حدود الدولة في التوسع ، انعكس ذلك النمو على تنظيم المدينة التي أصبحت مقسمة إلى أحياء ودروب ، وأصبحت بلد كبير كثير الخير رحب، رفق، طيب، رشيق الأسواق غزير الماء ، جيد الأهل، قديم الموضع ، محكم الرصف، عجيب الوصف ، بها جامعان على ثلثي البلد قد بنيا بالحجارة والجبل، قريبان من الأسواق . من دروبها المعروفة أربعة : درب مجانة ، درب المعصومة ، درب حارة الفقير ، درب البساتين .[7]

---

[1] الراجح أنها قبيلة لواتة .

[2] قبيلة زواغة سبق التعريف بها في هذا الفصل الثالث .

[3] قبيلة مطماطة : قبيلة بربرية بترية ، يعتبرها ابن خلدون إخوة لقبيلة مطغرة ، ولماية ، من ولد فاتن بن قصيت . أما مطماطة فشعوبهم من لوا بن مطماط الذي كان له أربعة أبناء ومنهم افترقت شعوب مطماطة ، الذين تفرقوا في نواحي فاس ، وقابس ، وبطول منداس عند جبل ونشريس ، وجبل كزول نواحي تيهرت . و لما تغلب عليهم الصنهاجيون ارتحل الكثير منهم إلى بلاد الأندلس . العبر : ج 06 ، ص 161 . 162

[4] حول قبيلة زناتة : انظر الفصل الثاني .

[5] البكري : نفسه ، ص 249 .

[6] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص 38 .

[7] سليمان باشا الباروني : المرجع السابق ، ص 83 .

وقد وصفها المقدسي «...تاهرت اسم القصبة[1] أيضا هي بلخ المغرب قد أحدق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين ونبعت حولها الأعين وجل بها الإقليم وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب يفضلونها على دمشق وأخطأوا وعلى قرطبة ، وما أظنهم أصابوا ...»[2]، وتكون المدينة حسب المقدسي الذي وصفها بالقصبة وهو مفهوم لا يخرج عن إطار المفهوم العربي للفظ القصبة التي تشير إلى المستوى الذي بلغته تيهرت ، من التطور العمراني ، ولو أن المقدسي ينكر أن تتمتع مدينة تيهرت بمكانة دمشق إلا أنه أصاب في وصف هذه الحاضرة والتي لا تقل أهمية عن الحواضر والعواصم الأخرى .

وبفضل موقعها عند سفح جبل كزول في نهاية التل الذي على الحد الشمالي للسهوب المتاخمة لأرض البدو والحضر ، مما جعل البدو يؤمونها زرافات . وتقاطر عليها الأجانب وخاصة الفرس بدافع الأمل في الربح أو للدخول في مذاهب الخوارج . وكان لهؤلاء الأجانب مساكن جميلة وأسواق ، ولذلك سميت تاهرت "العراق الصغير"[3] .

أما بالنسبة للمباني والمساكن فالراجح أنها كانت موزعة بين أحياء مختلفة ، وكانت تاهرت مقسمة إلى أحياء ، اختصت كل قبيلة أو جنس بحي منها مثلما جرى العمل به في المدن الإسلامية عامة[4]. وبالعودة إلى المصادر فابن الصغير المالكي يقول : «...ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد البصريين وهذا مسجد الكوفيين...»[5]، هؤلاء السكان كانوا يتجمعون حول المساجد، وحول القصور المبنية بجوار بعضها والمحاذية للنهر، وكانت مبنية بمواد محلية من الطين والحجارة[6].

---

[1] القصبة : جوف القصر، وقيل : القصر . وقصبة البلد : مدينته ؛ وقيل معظمه ، وقصبة السواد : مدينتها. والقصبة جوف الحصن ، بني فيه بناء هو أوسطه . وقصبة البلاد : مدينتها .
والقصبة : القرية . وقصبة القرية : وسطها . ابن منظور : لسان العرب ، المجلد 05 ، ص 95 .

[2] المقدسي : المصدر السابق ، ص 185 .

[3] مادة تاهرت : دائرة المعارف الإسلامية . المجلد الرابع ، ص525 .

[4] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأوسط ، ص 350 .

[5] ابن الصغير المالكي : المصدر السابق ، ص 36 .

[6] Brahim zerouki, *l'imamat de tahart premier état musulman du Maghreb (144/296 de lhegire). tom1: Histoire Politico- Socio- religieuse*,C.N.R.S, Paris, p. 20

في عهد الإمام أفلح تسابق الناس في البناء حتى أن ذلك تجاوز المدينة ليشمل نواحيها وأرباضها . وشمل البناء خاصة القصور والضياع كما يقول عن ذلك ابن الصغير: «... وتنافس الناس في البناء حتى ابتنى الناس القصور والضياع خارج المدينة وأجروا الأنهر...»[1].

وما يلفت النظر أن هذه القصور المشار إليها تقع جميعا خارج مدينة تاهرت ، وربما كانوا يعتمدون ذلك لأن بناءها بين البساتين وعلى الأنهر يضفي عليها جمالا ورونقا أكثر. ولا عجب أن تكون لقبائل تاهرت قصور، فهي قد اكتسبت الأموال ونالها من الكبر ما نال أهل المدينة منذ عهد الإمام افلح[2].

وقد أورد الفرسطائي أحكام هذه المباني (القصور) في مصنفه – القسمة و أصول الأراضين – ففيما يخص قوم أرادوا أن يبنوا قصرا يقول :«...فقوم أرادوا أن يبنوا قصرا فيما بينهم خواص كانوا أو عامة و قد اشتركوا في الأرض التي أرادوا أن يبنوا فيها ؟

قال: يبنون حائط قصرهم على قدر ما لكل واحد منهم من الأرض فيكون حائط السور بينهم على قدر سهامهم من الأرض . وكذلك إن بنوا فيه بيوتا على هذه الحال . وتكون على قدر سهامهم من الأرض . كذلك الغرف على هذا الحال مثل البيوت .

وأما إن لم يكن لهم في الأرض شيئ ، فأذن لهم صاحبها أن يبنوا فيها قصرا فبنوه فيها فإنه يكون على اتفاقهم فيما بينهم البين في السور والبيوت »[3].

وبطبيعة الحال يحتاج هذا النوع من البناء على طوابق إلى إنشاء الدرج ، الذي يعتبره الفرسطائي شرطا ولا يمكن لأي أحد أن يمنعه : «...وإن أحدثوا قصرا وبنوا فيه البيوت والغرف ، و لم يجعلوا لتلك الغرف درجا يرقى بها إليها يجعلون الدرج بعد ذلك ، كما أمكنهم كلهم ولا يصيب أحد منعهم من ذلك ويجعلون تلك الدرج بكيف لا يضر بصاحب البيت . ولا يمنع صاحب الغرفة من الطلوع إلى غرفته ، وكذلك الغرفة الثانية والثالثة على هذا الحال »[4].

وكثيرا ما كانت هذه القصور مزينة بشرفات ، وأما أحكامها بالنسبة للفرسطائي : «...وإن اختلفوا في شرفاته فقال بعضهم يجعلها وأبى بعضهم على ذلك فإن كانت القصر قبل ذلك له شرفاته ، فإنهم يتآخذون على بنيانها وإن لم تكن قبل ذلك فلا يتآخذون عليها إلا إن رأوا أن ذلك أصلح .

---

[1] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص 61 .

[2] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص385

[3] الفرسطائي : القسمة وأصول الأراضين ، ص 163 .

[4] الفرسطائي : المصدر نفسه ، ص 174 .

وكذلك الغرف إن اختلفوا في بنيانها على ما قلناه في هذه المسألة وهذا كله إنما يرجع إلى رأي أهل النظر والصلاح منهم في إحداث ما يحدثونه أو نزع ما كان قبل ذلك »[1].

وقد امتلك الأفراد والقبائل التي سكنت تيهرت هذه القصور؛ فيخبرنا ابن الصغير عن البعض منهم «...فابتنى إبان وحمويه القصرين المعروفين لهما بأملاق وابتنى عبد الواحد قصره الذي يعرف به اليوم و غيره...وانتشرت القبائل وعمرت العمائر وكثرت الأموال بأيديهم ، وكانت العجم قد ابتنت القصور ونفوسة قد ابتنت العدوة والجند القادمون من إفريقية قد بنت المدينة العامرة اليوم . وأمنت الساحات كثرت الأموال...»[2].

وحسب طبيعة المنطقة فإن هذه المباني كانت مختلفة و لم تكن على نسق واحد ؛ فوجد منها المساكن المشكلة من عدة طوابق . وقد يشترك مجموعة من الأفراد في امتلاكها . إذ يورد الفرسطائي هذه المسألة في حالة انهدام البيت الأعلى على الذي أسفله : «... وإن انهدم بيت لرجل وعليه غرفة لرجل آخر ، فانهدم البيت و بناه صاحبه ، فاستمسك بصاحب الغرفة أن يرد غرفته ، وقال له ليس في حيطانه ما يبني عليها فهي ضعيفة ولكن أهدمها ووثق حيطانك فهل يدرك عليه ذلك ؟

قال : ينظر في ذلك أهل النظر، فما قالوا لهم في ذلك فعلوه .

وإن كان لرجل بيت وعليه غرفة الآخر فنزل في الأرض ودفنت ، فاستمسك به صاحب الغرفة في ذلك .

قال : إن انهدم فإنه يدرك عليه رده كما كان أولا . ولا يحاسبه بما دفن في الأرض . وإن لم ينهدم فلا يدرك عليه شيئا .

وإن استمسك به صاحب البيت أن يهدم غرفته حتى يبني بيته إلى الموضع الذي انتهى إليه أولا ، فإنه لا يدرك عليه ذلك . ومنهم من يقول يدرك كل واحد منهما على صاحبه ما ذكرنا في هذا كله حتى يرد ذلك كما كان أولا»[3]، فهذا النمو في العمران وبناء المساكن ليدل بشكل قاطع على مدى الازدهار الذي بلغته المدينة في وقت سلكت فيه سياسة مسالمة مع جيرانها أكسبها استقرار وأمن ساعد على هذه الحركة بشكل كبير.

[1] الفرسطائي : المصدر نفسه ، ص 165 166 .

[2] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 62 .

[3] الفرسطائي : المصدر السابق ، ص 223 .

ج- التحصينات :

كانت المرحلة الأولى من تأسيس تيهرت كما رأينا قد تميزت بنوع من البساطة ، و الذي تتعدد أسبابه ، غير أن الوضع سرعان ما أخذ يتطور مع تطور مراحل تشكل الدولة الرستمية . فأخذ هؤلاء يفكرون في تأمين حاضرهم التي أصبحت عاصمة الدولة . ولعل أول ما ينبغي أن يراعى في حصانة المدينة يتمثل في موقعها بالدرجة الأولى ، وهذا ما انتبه له المؤسس الأول للدولة الرستمية من خلال لجوئه جبل منيع ؛ « فبعد قدومه المغرب وتوليته افريقية عاملا لأبي الخطاب و هروبه إلى المغرب ونزوله بسوفجج وحصار ابن الأشعث له وامتناعه منه وقول ابن الأشعث هذا سوفجج لا يدخله إلا دارع أو مدجج »[1].

وبداية تحصينات المدينة يبدأ بإحكام الأبواب وإحاطتها بسور المدينة ، يحدد ابن عذارى المراكشي أبواب مدينة تيهرت الحديثة ، التي تبعد على خمسة أميال من القديمة. « والحديثة مشهورة ، ولها أربعة أبواب : باب الصفا ، وباب المنازل ، وباب الأندلس ، وباب المواجن ، وهي في سفح جبل يقال له جزول . وهي قصبة مشرفة على السوق ، يقال لها المعصومة ، وهي على نهر يأتيها من القبلة ، وهي كثيرة البرد والثلج والأمطار ، حتى قيل لبعضهم : كم زمان الشتاء عندكم ؟ فقال : ثلاثة عشر شهرا »[2].

إن الموقع الإستراتيجي والطبيعي لمدينة تيهرت كان على درجة كبيرة من الأهمية ؛ فالمدينة اختير لها أن تكون في موقع هام يخدم العديد من المصالح الدفاعية والتي سبقت الإشارة إليها. أما تحصينات المدينة في حد ذاتها فأول ما يصون المدينة ويحميها هي أبوابها وأسوارها وخنادقها ، والتي تتخذ لأغراض دفاعية ولضرورات حربية ما فتئت تهدد الاستقرار والاستمرار في البناء والتطور داخل المدينة . ورغم أن مدينة تيهرت قد شيدت أول الأمر على مستوى من البساطة إلا أنه بالإضافة إلى الأبواب التي أشار إليها ابن عذاري ، اتخذت القلاع والأسوار، إذ أن تيهرت نفسها كان لها قلعة عظيمة مشرفة على سوقها[3]. والتي أشار إليها ابن عذارى ، وقد أشار البكري إلى الظروف التي تأسست فيها المدينة بعدما ذكر أبواب المدينة الأربعة ، ويرى أن تيهرت القديمة اتخذت كحصن لبرقجانة فيذكر: « وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تيهرت القديمة ، وهي حصن لبرقجانة ، وهو في شرقي الحديثة »[4].

---

[1] الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 124 .

2 ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 25 .

[3] القلقشندي : المصدر السابق ، ج 05 ، ص 111 .

[4] البكري : المصدر السابق ، ص 249 .

ذكر كل من ابن حوقل والشريف الإدريسي والمقدسي أن المدينة القديمة كانت ذات سور. أما الحديثة لم تكن تيهرت وفي أوج قوتها لتخلو من التحصينات وتشييد العمارة الحربية بما يكفل لها العيش في أمن وسلام أمام الأخطار الخارجية. فيذكر صاحب كتاب الاستبصار عن تيهرت: « مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور صخر ، وبها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة...»[1]، فكان السور الأداة الدفاعية الهامة بالإضافة إلى الأبواب المحيطة بالمدينة . ويعبر أبو الربيع الوسياني عن حصانة المدينة أنها كانت «...حرزا وحصنا لجماعة المسلمين وسميت بأم العسكر، عسكر المبارك»[2].

وقد كانت الأوضاع العامة التي كانت تعيشها تيهرت لها أثرها في العمران الدفاعي خاصة أيام الفتن ؛ فقد نجد أن القبائل تبادر إلى بناء مثل هذا النمط من العمران ، و لم تكن العملية مقتصرة على الدولة فقط . فقد « صار للعجم ونفوسة الرستميين موضع واحد في العدوة المعروفة بعدوة نفوسة فنوا حصنهم فيه وشيدوه ، وتبع من العرب والجند توابع من التجار... فقالوا للعرب والجند لو بنيتم حصنا تأمنون فيه ليلكم ، وتتحصنون فيه إن دهمكم شيئ من عدوكم ، وهذه أموالنا في أيديكم ، فشرعوا في بناء الحصن...»[3]، وقد تبنى هذه الحصون والقلاع كحتمية للظروف المعاشة وحسب درجات الفتن التي تهدد أمن القبائل «... قالوا وربما كان البناؤون يبنون والنبل تصيبهم فيحفلون لهم ستارة حتى استدار حصنهم وركبوا له أبوابه وعلته أبرجته والحرب لا تفتر ليلا ولا نهارا ، حميت فيهم حمية الجاهلية...»[4].

كما أن النزاعات التي كانت تنشب بين القبائل بين الحين والآخر كان لها مفعولها في ظهور الحاجة لبناء الحصون مثلما حدث بين لواتة و هوارة : فلم تزل أمور الناس هادئة حتى وقع شيئ بين هوارة و لواتة وكانت لواتة إذ ذاك بالمدينة مع أهل المدينة فتسلطت عليها هوارة بسلطانهم وأعانتها أهل المدينة. فلما رأت لواتة ذلك ظعنت عن المدينة وخلت عنها ونزلت بحصنها المعروف بحصن لواتة[5].

وكان لهوارة قلعتها الخاصة بها . وهي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار وأشجار ومزارع وأعناب. وتحتها فحص طوله نحو أربعين ميلا يشقه نهر سيرات[6].

---

[1] مجهول : الاستبصار ، ص 178 .

[2] أبو الربيع الوسياني : سير مشائخ المغرب ، تحقيق، إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1985 ، ص 54 .

[3] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 83 .

[4] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص 84 .

[5] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص 85 .

[6] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 178.

كما أن الأئمة الرستميين اهتموا كثيرا بأمن الطرق التجارية التي كانت تشكل أهم مورد لخاضرهم تيهرت ، إذ يعتبر تاديوش ليفيتسكي Tadeusz Lewicki أن الاقتصاد الإباضي قد ارتكز ـــ فيما ارتكز عليه ـــ على التجارة العابرة للصحراء الكبرى مع بلاد السودان الغربي والأوسط [1] .

ومن أهم النقاط التي اتخذها الأئمة الرستميون كحصون ومحطات لتأمين طرقهم التجارية نحو الشمال ، يذكر البكري :« إن أردت الطريق من تيهرت إلى البحر ، فإنك تمر بين قبائل البربر حتى تأتي شلف بني واطيل، ومن هناك إلى الغزة يومان ، والغزة : ساحل تيهرت ، وبقرب هذا الموضع على البحر قلعة مغيلة دلول...»[2] .

– **قلعة مغيلة دلول :**

لم يورد ذكرها في المصادر كثيرا ، وتعتبر الواجهة البحرية لمدينة تيهرت ، يذكر البكري عنها أنها : « في أعلى جبل منيف هناك شديد الحصانة ، بينها وبين البحر خمسة فراسخ[3] »[4] .

– **مستغانم :**

مدينة قريبة من قلعة مغيلة ، تبعد عنها بمسافة يقدرها البكري « مسيرة يومين » ويحدد موقعها «على مقربة من البحر، وهي مدينة مسورة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء ويبذر في أرضها القطن فيجود ، وهي بقرب مصب نهر شلف في البحر»[5] .

إن هذه المميزات جعلت مدينة مستغانم تجمع بين أدوار دفاعية فهي محصنة بالسور الذي أحاطها ، وفي نفس الوقت يكون موقعها الجغرافي قد جعلها مدينة ذات أهمية اقتصادية كبيرة ،ولو أنها لم تصبح مدينة كبيرة ، لكنها حافظت على نشاطاتها مثلما يقول الإدريسي أنها : « مدينة صغيرة لها أسواق وحمامات وجنات وبساتين ومياه كثيرة وسور على جبل مطل إلى ناحية الغرب»[6] .

---

[1] فريدة بن عزوز كلية الآداب – تطوان : أبحاث تاديوش ليفيتسكي في فجر العلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء الكبرى . مجلة التاريخ العربي .

4 البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 251 .

6 الفرسخ : يتكون من ثلاثة أميال ، كل ميل 1000 باع ، كل باع 4 اذرع شرعية . لذلك فإن طول الفرسخ كان حوالي ستة – 6 – كلم . فالتر هنتس : [illegible] وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة ، كامل العسلي ، مكتبة الأسد ، دمشق ، ص 94 .

7 البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 251. Rachid Bourouiba : *Architecture militaire*, p. 94

3 البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 251 ، 252 .

4 الإدريسي : المصدر [illegible] ص 271

– تامزغان :

لم تكن هذه المدينة من الأهمية التي تجعلها محل اهتمام الجغرافيين والرحالة ، و يقتصر البكري عند ذكرها أنها : «**مدينة مسورة لها مسجد وجامع ، وعلى مقربة منها قلعة هوارة ...**»[1]. **ولعل إحجام الجغرافيين عن ذكر هذه المدينة دلالة على محدودية الدور الذي كانت تمثله.**

بالإضافة إلى العديد من المدن الأخرى التي لعبت دورا رئيسيا في الربط بين تيهرت و الساحل ، مثل : أرزاو ، ووهران .

– مدينة العباسية :

لعل التهديد الخطير الذي تعرضت له مدينة تيهرت يتمثل في سعي محمد بن الأغلب عام 239 هـ/835م بناء مدينة بالقرب من تيهرت هي مدينة العباسية ، إلا أن المصادر التاريخية لم تذكر أو تحدد موقع هذه المدينة سوى أنها بالقرب من مدينة تيهرت . و الرواية تعود للبلاذري الذي يقول «...ولى عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة بن أبي صفرة العتكي . وهو الذي يسمى هزارمرد . وكان المنصور به معجبا فدخل إفريقية وغزا منها حتى بلغ أقصى بلاد البربر وابتنى هناك مدينة سماها العباسية »[2]، ولا شك أنها كانت إلى الشرق من تيهرت على حدود أطراف بلد الرستميين ، لكننا نجهل بعدها عن تيهرت .

ويحدد البلاذري سنة بناء هذه المدينة أن « محمد بن الأغلب أحدث في سنة تسع وثلاثين ومائتان مدينة بقرب تاهرت سماها العباسية أيضا فأخربها أفلح بن عبد الوهاب الأباضي ، وكتب إلى الأموي صاحب الأندلس يعلمه ذلك تقربا إليه فبعث إليه الأموي مائة ألف درهم »[3]. وقد يكون سبب سقوط المدينة الجديدة التي أنشأت بغرض مزاحمة تيهرت يعود إلى عوامل عديدة أهمها ما كانت تتمتع به تيهرت من نفوذ تجاري[4]، ونحن لا نغفل القوة السياسية التي مكنت تيهرت من الصمود في وجه التحرشات الأغلبية التي حاولت النيل منها .

---

5 البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 252 .

[2] البلاذري : المصدر السابق ، ص 271 .

[3] البلاذري : المصدر نفسه ، ص 273 .

[4] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، 353 354 .

د- مصادر مياه مدينة تيهرت :

تشير المصادر الجغرافية إلى أن مدينة تيهرت كانت تتمتع بنظام خاص للمياه ، تستفيد منه كافة المرافق الموجودة في حيز المدينة من مرافق وأحياء ودور، وأرحية وغيرها . وقد أشار صاحب كتاب البلدان إلى أن سكان تيهرت شربهم من « أنهار وعيون يأتي بعضها من صحراء وبعضها من جبلي قبلي يقال له جزول ...»[1]، أما ابن حوقل فقد أشار إلى أن سكان تيهرت المحدثة « لهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورهم وأشجار وبساتين وحمامات وخانات...»[2]، ويكون قرب المدينة من الأنهار قد ساعدها على الاستفادة من مياهها ، هذه الأنهار التي تبلغ ثلاثة حسب ابن عذارى الذي يقول أن تيهرت « تقع بين ثلاثة أنهار...»[3] ، فيما يحدد البكري أن تيهرت « على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى: مينة ، وهو في قبليها ، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى: تاتش ، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها ، وهو في شرقيها...»[4] ، وأشار ابن الصغير أن سكان مدينة تيهرت لما أكملوا البناء شرعوا في «غرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء والمستغلات وغير ذلك...»[5]، كما ذكر نهرا يقال له "نهر أبي سعيد "وآخر يعرف "بالنهر الصغير "وثالثا يقال له " نهر اسلان "، وربما كانت هذه الأنهار جميعا شأن نهر تاتش الذي ذكر البكري أن شرب أهل تيهرت منه[6].

بالإضافة لهذه الأنهار كانت تتواجد بتيهرت العيون والتي تكون مصدر لمياه الأنهار في فصول الجفاف خاصة في الصيف ، ويشير المقدسي إلى أن تيهرت « على واد عظيم ذات أعين وبساتين »[7]، ويؤكد الإدريسي شهادة ابن حوقل، ويقول عن مصادر مياه المدينة « بمدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل أكثر ديارهم و يتصرفون بها ولهم على هذه المياه بساتين وأشجار...»[8] .

أما عن كيفية الاستفادة من هذه المياه وتوزيعها فالراجح أنها كانت خاضعة إلى نظام خاص يشمل جميع السكان والدور والأحياء التي بالمدينة ، وتوجد إشارة عند الشماخي تتحدث عن شكل توزيع الماء

---

[1] اليعقوبي : البلدان ، ص 197 198 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 86 .

[3] ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 57 .

[4] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 248 .

[5] ابن الصغير : المنصدر السابق ، ص 35 36.

[6] جودت عبد الكريم يوسف : المرجع نفسه ، ص 57 58.

[7] المقدسي : المصدر السابق ، ص 185 .

[8] الادريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 256 .

بين سكان مدينة ورقلة إلا أن ذلك يكون في الجانب الفلاحي وري البساتين ، وقد يكون هذا النظام هو السائد بمدينة تيهرت أيضا ؛ فلما أرسل يعقوب بن الشيخ أبو القاسم يونس بن وزجين رسولا للسؤال عن صديقه أبوعبيد الله أجابه الرسول « فقال تجده في جنانه لأن نوبة الماء عنده »[1]، ويكون الأئمة الرستميين قد عملوا على أن تكون المدينة مزودة بشبكة قنوات موصلة للمياه لكافة السكان كما للبساتين أيضا.

وبالنسبة للتخزين فقد عثر جورج مارسيه ولامار في أثناء حفرياتهما بالمنطقة عام 1941[2] على خزانات للماء وأحواض للمياه كما وضعوا لها تصاميم حسب تخيطها . ومن بين الآثار الباقية بمنطقة تيهرت بناء يحتوي على ثلاثة أحواض رئيسية مستطيلة الشكل جدرانها مبنية بالحجر والملاط وملبسة بطلاء سميك[3]. كما وجدت العديد من العيون ومخازن الماء.

هـ- الوضع الاجتماعي والثقافي :

قبل أن تصبح تيهرت حاضرة متطورة لم تتخلص في البداية من طابعها البدوي الذي غلب على سكانها ، إذ أن تركيبة سكانها عند تخطيط المدينة كان يتشكل من القبائل البربرية المحيطة بها ، والتي تحالفت مع عبد الرحمن بن رستم، ونجح هذا الأخير في استمالتها، وبدأت تيهرت تستقطب مختلف هذه العناصر .

قبل ازدهار المدينة ليس فقط بالمغرب الأوسط بل في كل المغرب الإسلامي ، فإن سكانها تمتعوا بحكم الأئمة الذين حكموا بالعدل و اهتموا بالفقراء والمساكين ، فالإمام عبد الرحمن أشرف بنفسه على توزيع أموال الصدقات على الفقراء «ثم نظر في باقي سائر المال فإذا بلغ مبلغه أمر بإحصاء من في البلد وفيما حول البلد ثم أمر بإحصاء الفقراء والمساكين ، فإذا عرف عددهم أمر بإحصاء ما في الأهراء[4] من الطعام ، ثم أمر بجميع ما بقي من مال الصدقة فاشترى منه أكسية صوفا وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع في كل أهل بيت بقدر ذلك ، ويؤثر بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه»[5].

---

[1] الشماخي : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 125 .

[2] G. Marçais et A . Dessus-Lamare : *recherches D'Archéologie Musulmane , Tihert – Tagdemt*, Revue Africaine, 1946, p. 31 -32- 33 .

[3] رشيد بورويبة :الفن الرستمي بتاهرت و سدراتة ، الأصالة . العدد 45 ، ماي 1975 ، ص 184 .

[4] الأهراء : هي المخازن .

[5] ابن الصغير : المصدرالسابق ، ص 41 .

استمر الأمر على هذا النحو إلى أن بدأ الناس في اتخاذ البيوت والقصور وتغيرت أحوال مدينتهم نحو الأحسن[1]، وهذا ما لاحظه الوفد القادم من البصرة والذي كان محملا بالمعونة الثانية لأهل تيهرت : « ودخلوا المدينة فرأوا هيئتها قد تبدلت ولاح عليها رونق المدنية والملك وعلت وجوه أهلها سيماء الحضارة والرفاهية، وبدت من محياهم آثار النعمة والغنى ، وازينت المدينة بقصور مشيدة ودور منظمة وأبنية مبهجة ، وقباب مرتفعة وأسواق مزدحمة ومساجد متعددة بمنارات عالية وحمامات متقنة يحيط بها بساتين متنوعة . ومطاحن منتصبة على تلك الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها الفرش والستائر المزخرفة والخيل المسومة .... ورأوا ما لم يخطر لهم ببال ، ولا سمعوه في مجيئهم الأول بحال من الأحوال»[2].

ونتيجة هذا الرخاء الذي عم البلد أخذ الناس يتنافسون في البناء خاصة في عهد الإمام الثالث أفلح ابن عبد الوهاب. حيث تكتمل مرافق المدينة المختلفة، وتزدهر التجارة والتعليم وغيرها، فأما البيوت المشيدة فكانت البسيطة وبجانبها وجدت بيوت تتكون من عدة طوابق وهذا ما تكشف عنه رواية ابن الصغير المالكي عن القاضي محمد بن عبد الله ، الذي أمر صاحبه سليمان بالصعود إلى أعلى الدار للبحث عن ابن الإمام أبي اليقضان والذي اشتكت منه امرأة أنه اختطف ابنتها فقال له :«... يا سليمان اصعد إلى أعلى الدار واحذر من أن يزل من جوانب الدار ثم أقبل يتخلل بيوت الدار بيتا بيتا وموضعا موضعا فلم ير شيئا ، ثم صعد أعلى الدار والمرأة معه فلم يجد شيئا...»[3] .

كانت البيوت تزين بالشرفات وبجانبها تغرس الأشجار على جانبي الطريق والشوارع إلا ما يكون فيه مضرة الجار فإن صاحب البيت يمنع من ذلك ، أما حكم ذلك في رأي الفرسطائي «... وأما إن منعوه من غرس الأشجار على جوانب الطريق من أجل ما يلحق الشارع من غصونها أو عروقها فلا يمنعوه من ذلك ما لم تصل مضرته إلى الطريق . فإذا وصلت فليأخذوه بنزعها ، وكذلك وارثه بعده على هذا الحال ، وكذلك ورثة أصحاب الشارع مثلهم في المنع والنزع »[4]. وكانت الأحكام التي وضعها الفرسطائي تشمل كافة مرافق المدن ، إنما قصدنا من ربطها بمدينة تيهرت كونه مرتبطا بالفكر الإباضي.

---

[1] إحسان عباس : المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين ، الأصالة ، عدد 45 ، ماي 1975 ، ص 24 .

[2] أبو زكرياء : كتاب سير الأئمة و أخبارهم ، ص 54 . سليمان باشا الباروني : المرجع السابق ، ص 143 .

[3] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص 91 . البرادي : الجواهر، ص 178 .

[4] الفرسطائي : المصدر السابق ، ص 152.

و- الحياة العلمية بتيهرت :

بدأت الدولة الرستمية تثبيت أركانها ببلاد المغرب الأوسط اعتمادا على المذهب الإباضي[1] كأساس للدولة وكان الأئمة يتولون الحكم وهم على درجة عالية من العلم ، فكان بيت الرستميين بيت العلم في فنونه من الأصول ، والفقه ، والتفسير، وعلم اختلاف الناس، وعلم النحو والإعراب ، والفصاحة وعلم النجوم[2]. ومع ازدهار تيهرت الاقتصادي و تنوعها الاجتماعي بدأت تدب فيها حركة النباء التي ستشمل المساجد والكتاتيب ونسخ ونشر الكتب ونقلها من المشرق إلى المغرب وتحت إشراف الأئمة الرستميين أنفسهم . خاصة في ظل سهولة حركة قوافل التجار والحج .

وقد سايرت مدينة تيهرت فترة الازدهار التي شهدها العالم الإسلامي في الميدان العلمي ، و لم يتوقف الاهتمام بالعلم على الأمراء مثلما فعل الإمام عبد الوهاب ، ولا على كبار الأثرياء الذين كانوا ينفقون الأموال الطائلة في طلبه ، بل كان عامة الناس من أهل القبائل يشجعون الطلبة على تلقي العلم ، فكانت على سبيل المثال نفزة ولماية ومزاتة وما حولها من القبائل يبذلون الجهد في معاونة الطلبة بالهدايا والتحف والعطاء واللطف[3].

أما الأئمة الرستميون فكان النهوض بتيهرت علميا وفكريا من أهم إشغالاتهم ، وعملوا على أن تكون تيهرت منارة للعلم بالمغرب الأوسط ، فيذكر أبو زكريا أن أحد الرستميين قال : « معاذ الله أن تكون عندنا أمة لا تعلم منزلة يبيت فيها القمر»[4]، حتى أننا نجد من بعض الباحثين من يرى أن الاهتمام الرستمي بالعلم قد شغلها عن باقي المجالات الأخرى؛ ففي وسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب ، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم وهو ابن رستم . وأهملوا في العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم[5]. فقد شكل العلم أولى اهتمامات هؤلاء الأئمة ؛ فمؤسس الدولة عبد الرحمن كان بالإضافة إلى أنه المؤسس للدولة فهو من حملة العلم بالبصرة[6]، فقد بويع على إقامة كتاب الله

---

[1] بكير بن سعيد أعوشت : دراسات إسلامية في الأصول الإباضية ، ص 20 .

[2] أبي الربيع الوسياني : سير مشائخ المغرب ، ص 65 .

[3] حودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 320 321 .

[4] أبي زكريا : سير الأئمة وأخبارهم ، ص65

[5] الفرد بل . الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ص 150.

[6] يقول الشماخي أن عبد الرحمن بن رستم تعلق بسلمة بن سعد الذي كان يدعو للمذهب الإباضي ببلاد المغرب ، غير أن رجلا من أهل الدعوة أشار عليه بالذهاب إلى البصرة لأن فيها عالم كبير وهو مسلم أبو عبيدة بن أبي كريمة التميمي ، وقيل أن أمه هي التي قالت له ذلك ،=

وسنة رسوله وإتباع الخلفاء الراشدين فقبلها على ذلك وأقام بأمر الله وزهد الدنيا بعد أن تمكن منها فلم ينقم أحد عليه في خصومة ولا حكومة ولا أخذ مال ولا إقامة حد ولا ميل إلى الدنيا[1]، فيما يقول عنه ابن الصغير : « فقد شمر ميزره وأحسن سيرته وجلس في مسجده للأرملة والضعيف ، ولا يخاف في الله لومة لائم »[2]. و لم يغفل عبد الرحمن الاهتمام بالمرافق الخاصة بالمجال العلمي والمتمثلة في المساجد التي اتخذها الرستميين أماكن يقيمون فيها حلقاتهم العلمية والمناظرة وغيرهما ، وإذا كان ابن الصغير المالكي ينفي أن تكون له مؤلفات خاصة به «...و لم يكن لأبيه عبد الرحمن (عبد الوهاب) كتاب معروف من تأليفه »[3]. إلا أن الشماخي ذكر« للإمام عبد الرحمن تفسير كتاب الله »[4].

أما الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن فلم يكن أقل شأنا من أبيه ؛ فقد امتدت الدولة في عهده و اتسعت أكثر مما كانت في عهد أبيه، وكان من عادته أنه إذا فرغ من الصلاة أن يأخذ كتابا فيقرأ فيه[5]، وحبه للعلم جعله يكلف من يشتري له الكتب من المشرق ؛« فبعث ألف دينار إلى إخوانه من أهل المشرق بالبصرة أن يشتروا له بها الكتب . فلما وصلهم الألف اجتمعوا واتفقوا أن يشتروا بها رقا ويجعلوا من أنفسهم الحبر والأقلام وعولة الكتاب ، وأخذوا في النسخ ، فنسخوا له أربعين حملا من كتب . فبعثوا بها إليه»[6].

وقد مكث هذا الإمام سبع سنين بجبل نفوسة يعلم مسائل الصلاة[7]، كما كان يناظر الواصلية بتيهرت[8]. وكان له تصنيف في النوازل يذكره ابن الصغير المالكي :« كان لعبد الوهاب كتاب معروف بمسائل نفوسة الجبل لأن نفوسة كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه ، وكان هذا الكتاب في أيدي الإباضية مشهورا عندهم معلوما يتداولونه قرنا عن قرن ، إلى أن لحق الفصل فأخذته عن بعض الرستميين فدرسته ووقفت عليه»[1].

- فسافر مرتحلا للبصرة ، ووافق ارتحاله جماعة إليه في ذلك العام حملة العلم وهم : عاصم السدراتي ، وإسماعيل بن درار الغدامسي ، وأبو داود القبلي النفزاوي . الشماخي : المصدر السابق ، ج01 ، ص 113 . وقد انظم إليهم فيما بعد أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري.

[1] الشماخي : نفسه ، ص 125.

[2] المصدر السابق : ص32 .

[3] المصدر نفسه : ص 45 .

[4] الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 167.

[5] أبي زكريا : المصدر السابق ، ص 61 .

[6] أبي زكريا : نفسه ، ص 65 . الشماخي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 142 .

[7] أبي زكريا : نفسه ، ص 76

[8] أبي زكريا : نفسه ، ص 67 . الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 137

ابن عبد الوهاب الإمام أفلح يشير أبي زكريا ؛ أنه قعدت عليه أربع حلق يتعلمون عند فنون العلم ، قبل أن يبلغ الحلم ، وبلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيما[2]. و« ذكر عن الإمام أفلح أنه لم يعد خطبة قط لجمعة ولا لعيد أو لغيرهما »[3] .

أما الإمام أبي بكر بن أفلح فكما يذكر ابن الصغير المالكي أنه «كان سمحا جوادا لـين العريكـة يسامح أهل المروءات [كذا] ويشايعهم على مروءاتهم ويحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين »[4]. وكـان الإمام أبواليقضان «كثير الالتزام بالمسجد ، زاهدا ورعا ناسكا سكينا وكان إذا جلس في المسجد الجامع جلس على وسادة من أدم مستقبلا الباب البحري »[5]. ويقول عنه الشماخي :« أنه قد جمع العلم والعمل وألف كتبا كثيرة ...وكانت نفوسة تجعل داره كالمسجد يسهرون حوله طائفة يقرأون وطائفة يـصلون وطائفة يتحدثون في فنون العلم وكان حسن السيرة أورع من في زمانه وله في الرد على المخالفين كتـب كثيرة...»[6].

وبالنسبة للإمام أبي حاتم يوسف بن محمد و الذي مكث في الإمامة أربعة عشر سـنة، « وقـد اطردت له الأمور و لم ينقم عليه من رعيته أحد»[7]. ويقول عنه الشماخي أنه : «...الإمام الماهر والبحـر الزاخر العالم الذاكر...»[8]، على أن ابن الصغير يصور لنا ملامح الحياة الفكريـة في هـذا العهـد :« أن مساجدهم عامرة وجامعهم يجتمعون فيه وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئا إلا أن الفقهاء تناجت المسائل فيما بينهم وتناظرت واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيه عاقبتها [كذا] ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه وناظروه ألطف مناظرة وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك»[9].

إنها صورة تدلنا على المستوى الكبير الذي كان عليه الأئمة الرستميين من الرقي العلمي الرفيع ، ولـذلك فلا غرابة أن تزدهر هذه الحاضرة وتنعت بالعراق الصغير ، وبعراق المغرب ، وكانت هذه الحركة العلمية

---

[1] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 45 46 .

[2] أبي زكريا : المصدر السابق ، ص 89 .

[3] الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 224 .

[4] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 71 .

[5] ابن الصغير : نفسه 92 . الشماخي : المصدر نفسه ، 189 .

[6] الشماخي : نفسه ، ص 189 .

[7] أبي زكريا : المصدر السابق ، ص 99 .

[8] الشماخي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 223 .

[9] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص117 .

والفكرية تجري في مقرات كانت مخصصة لذلك شملتها المساجد المنتشرة في كل الأقاليم التابعة للدولة الرستمية، كما لم تستثن دور العلماء وقصور الأثرياء .

ويرى الحبيب الجنحاني[1] أن اهتمام الخوارج المتزايد بتآليف المشرق جعلتهم يستخدمون اللغة البربرية ، وإن بعض الدروس كانت تلقى بالعربية ثم يعقبها تفسير بالبربرية ، وهذا ما يستخلص من كتب التراجم والطبقات الاباضية مثلما نجده عند أبي سهل الفارسي ؛ فقد ألف لسكان مرسى الدجاج وقيل لجزائر بني مزغنة « اثني عشر كتابا وعظا وتذكيرا وتخويفا نظما بلغة البربر وكان يحسنها إذ هو ترجمان الإمام افلح...»[2]، فهذا يدل على طبيعة العلاقة الموجودة بين الطبقات الدنيا في مجتمع المغرب الأوسط والعلماء الذين استطاعوا النفاذ إلى كافة شرائحه ، وفي مختلف الأنحاء سواء بهدف نشر المذهب أو السعي لنشر العلم .

ز- مسجد المدينة ودوره العلمي :

حسب ما تذكر المصادر فإن بناء المساجد مهمة سعى إليها الأئمة أنفسهم والعلماء وغيرهم من الشرائح الاجتماعية الأخرى . فقد كان للمسجد أدوار كثيرة يقوم بها بالإضافة إلى الجانب التعليمي ونشر الدين ، وكانت الدراسة تتم في مجالس تعرف بحلقات العلم ، يقصدها الناس عامتهم ، إضافة إلى الطلاب الذين يخصصون جل أوقاتهم لطلب العلم وحضور حلقاته[3]. فلقد كان الإمام عبد الرحمن الإمام المؤسس للدولة والمشرف على بناء الحاضرة التي سرعان ما ارتقت إلى عاصمة الدولة الرستمية ، كان أول ما بناه هو المسجد الذي بناه من الخشب المقتطع من موضع المدينة تيهرت نفسها كما يوضح ذلك البكري :« وابتدأوا من تلك الساعة فبنوا في ذلك الموضع مسجدا وقطعوا خشبه من تلك الشعراء ، فهو كذلك إلى اليوم ، وهو مسجد جامعها ، وهو من أربع بلاطات»[4]. ثم تعددت المساجد بتيهرت وأصبح لكل مذهب وفرقة مسجدها الخاص بعدما ازدهر عمران المدينة ونعمت تيهرت بنشاط حر لكل المذاهب المختلفة[5].

---

[1] الحبيب الجنحاني : دراسات في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للمغرب الإسلامي ، ص 198 .

[2] الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 244 .

[3] بحاز إبراهيم .: الدولة الرستمية ، ص 281 .

[4] البكري : المصدر السابق ، ج01 ،ص 250 . ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 01، ص 196 .

[5] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص 36 . بحاز إبراهيم : المرجع السابق ، ص 277 278 .

وعرف عن الإمام عبد الوهاب مسجدين أحدهما بجبل دمر« مشهور بمسجد عبد الوهاب، وله في تطاوين مصلى غير مسقف »[1]، وكانت المساجد أهم مؤسسة تعليمية في تيهرت[2]. وبجانبه كان الكتاب، والمصادر لا تشير إلى هذه الكتاتيب ، ويرى بحاز إبراهيم أن الكتاب كان منفصلا عن المسجد ولكنه ملازم له ، ويرجع ذلك إلى سببين :

أولا : أن الكتاب كان لتعليم الصبيان الذين مازالوا لم يبلغوا سن الرشد بحيث يحترزون من النجاسة إذا دخلوا المسجد الذي يشترط فيه الطهارة[3].

ثانيا : أما الغرض الثاني، والذي يفسر ارتباط الكتاب بالمسجد فإنه يرجع ولا شك إلى طبيعة العلوم التي كانت تدرس في الكتاتيب وهي دينية بحتة أو مرتبطة به ارتباطا وثيقا كاللغة العربية الوسيلة الوحيدة لقراءة القرآن وحفظه[4].

كما استخدم المسجد بتيهرت لمبايعة الأئمة ، فالإمام أبو حاتم بن أبي اليقضان (281هـ/ 294هـ) لما نودي إماما جيء به « فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر، فاصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله وحملوه على الأيدي والأعناق »[5]. كما تتخذ المساجد للنظر في شؤون الناس من طرف القضاة ، وغيرها من المهام الأخرى الخاصة بمصالح الناس، والكلام عن أدوار المساجد يطول ولا يتسع المجال لذلك .

ح- أسواق تيهرت :

إن المكان الذي اختير في بداية تخطيط مدينة تيهرت لم يغفل أصحابه عن التفكير في أن يكون للمدينة موقع متوسط يجمع الكثير من المزايا والخصائص الهامة كان احدها توسط القبائل الموفورة العدد والتي أشرنا إليها آنفا فلذلك يكون من الطبيعي أن تتمع المدينة بمراكز لتبادل السلع والبضائع بين الناس ، كما كانت أيضا لها علاقات تجارية مع باقي أسواق القيروان، وفاس ، وسجلماسة ، وبلاد الأندلس ، وبلاد السودان ، وهذا لتوفر طرق ومسالك تجارية تربط بين هذه المراكز وتيهرت .

---

[1] الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 140.

[2] بحاز إبراهيم : المرجع السابق ، ص 275 .

[3] بحاز إبراهيم : نفسه ، ص 276 .

[4] بحاز إبراهيم : نفسه ، ص 277 .

[5] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 104 – 105.

يقول الإدريسي عن ذلك ، أن المدينة « بها ناس وجمل من البرابر ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة وبأرضها مزارع وضياع جمة وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن وأما البقر والغنم بها فكثيرة جدا وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة...»[1].

وحسب البكري يمكننا القول أن تيهرت لم يكن لها سوق واحدة فهو يقول أن «بتيهرت أسواق عامرة ، وحمامات كثيرة ، يسمى منها اثني عشر حماما ، وحواليها من البربر أمم كثيرة...»[2]، ولعل ازدهار النشاط التجاري الناتج عن الاستقرار وعدل الحكام في المرحلة الأولى لقيام الدولة الرستمية أدى إلى ظهور أسواق يحكمها أشخاص معينين مثل ابن وردة مقدم العجم الذي « ابتنى سوقا يعرف به»[3].

والنتيجة لذلك تتمثل في تطور نشاط التبادل التجاري لهذه المدينة التي أصبحت مستقرا للتجار فزاد العنصر الغريب في العاصمة الرستمية وزاد النشاط التجاري الداخلي حيوية ، إذ أن الكثيرين منهم اتخذوا تيهرت مستقرا لهم ، و لم يقصدوها عابرين أوسائحين[4]، كما أن الكثير من اباضيي افريقية ظلوا على اتصال بعاصمة إمامهم[5].

أما عن المكاييل التي كانت تستخدم بأسواق تيهرت فقد أشار البكري إلى أن « مدهم الذي يكتالون به خمسة أقفزة[6] ونصف قرطبية . وقنطار[7] الزيت وغيره عندهم : قنطاران غير ثلث إلا المجلوب من الفلفل وغيره ، فإنه قنطار عدل . ورطل[8] اللحم عندهم خمسة أرطال»[9]. ويمكن أن نعرف سبب اتخاذ تجار تيهرت مكاييل قرطبة في اعتقادنا إلى العلاقات الجيدة التي كانت سائدة بين الإباضية وسكان الأندلس،

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 256 .

2- البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 250 .

3 - ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 621 .

4 - بحاز إبراهيم : المرجع السابق ، ص 176 .

5 - جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص 116 .

6 – أنظر الفصل الثاني ص 79 .

7 - القنطار : يساوي القنطار الواحد أساسا 100 رطل ، و كانت تستعمل في أنحاء العالم الإسلامي أوزان قنطار مختلفة ، ففي بلاد المغرب كانت القناطير المغربية تحسب بمضاعفة اوزان الأرطال المتوافقة معها مائة مرة . فكانت القنطير الخاصة بالبضائع و الدقيقة و التوابل ، و المعادن ...إلخ . فالتر هنتس : المكاييل و الأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ص 40 43 44 .

8 - الرطل: وحدة تساوي 12 اوقية ، في صدر الإسلام كان الرطل الواحد في مكة = 12اوقية كل اوقية 40 درهما أي يساوي 1,5غم . و قبل العصر الفاطمي في شمالي إفريقية كان = 130 درهما (406 ,25 غرام)كما كان في بغداد الا رطل الفلفل كان يزن 140 درهما ، وفي زمن الفاطميين زيد الرطل إلى 140 درهما . فالتر هنتس : المرجع نفسه ، ص 30

9- البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 250 .

حيث انتقلت إلى المنطقة أفكار الإباضية من المغرب وليس من المشرق مباشرة[1] ، بالإضافة إلى الحضور الكثيف للقوافل التجارية القادمة من الأندلس ، والتي اتخذت من سواحل الدولة الرستمية قاعدة لمبادلاتها التجارية من وإلى الشرق .

ويكون السوق الكبير لمدينة تيهرت قد خطط قرب قلعة بجانبه مثلما يقول القلقشندي أن لتيهرت «قلعة عظيمة مشرفة على سوقها »[2]، وهذا للحفاظ على أمن هذه الأسواق والتجار الذين يرتادونه باستمرار خاصة في الأوقات التي تتردى الأوضاع وتفقد الاستقرار لسبب أو لآخر.

بالنسب النقود ، فإن الانتشار الواسع للتجار الرستميين يكون قد حتم على السلطة من أن تسك عملة خاصة بهم ، غير أن المصادر لا تفيدنا بعملة خاصة بالرستميين ، ويكون الازدهار الذي شهده عهد عبد الوهاب قد أدى إلى اتساع نطاق التجارة، « وعلى عهده كثر المسافرون إلى بلاد السودان عن طريق الصحراء للاتجار واستجلاب التبر وضربه دراهم ودنانير للتعامل واتخاذه حليا »[3].

نشير إلى أن كل من جورج مارسيه ولامار عثرا عام 1941 في حفرياتهما بمنطقة تيهرت ب(تاقدمت tagdemt) وهي قصبة تيهرت على مجموعة نقود يريان أنها رستمية وهي موجودة عند السيد بيريز الابن في شكل مجموعة صغيرة من النقود[4]. كما يذكر كولان (G.Colin)أنه تم العثور على فلوس برونزية مضروبة في تيهرت أحدها على وجهها كتب « ضرب هذا الفلس بتيهرت» لكنه لا يعرفنا بمن ضرب هذا الفلس[5]. فيما تشير بعض الدراسات[6] إلى أن العملة التي تسك بتيهرت تكون هي أساس للتعاملات التي تتم في باقي الأقاليم الأخرى ، وتكون أسواق تيهرت قد شهدت ضروبا من أشكال التدليس والربا[7] ، والتي استوجبت وجود الحسبة بالمدينة .

---

[1]- سلفادور غومث نوغاليس : الرستميون قنطرة صلة بين الجزائر والأندلس من خلال الاباضية ، الأصالة ، العدد 46 47 ، السنة الخامسة جوان جويلية 1977 ، ص 11 .

1- القلقشندي أبو العباس احمد : صبح الأعشى ، ج 05 ، ص 111 .

[3] أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ، ص 49 .

[4] G. Marçais et A . Dessus-Lamare, Op, Cit. 1946 p.35 .

[5] حودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 172 173 .

[6] يثير بحاز إبراهيم مسألة وجود دار سكة من عدمه بمدينة تيهرت ، ويخلص إلى أن المدينة تكون قد وجدت بها دار للسكة بناءا على مجموعة دلائل فلا يمكن حاضرة تتعامل مع بلاد السودان الغني بالتبر،و الذي تشكل تيهرت أحد معابره الرئيسية نحو الأندلس أن تكون خالية من هذا المرفق ، بالإضافة لحاجة التجار للعملة بالمدينة التي كانت تستقبل هذه الشريحة من مختلف الأقطار والأسواق الكبيرة . أنظر : الدولة الرستمية ، ص 181 187 .

[7] في عهد الإمام عبد الوهاب أراد ابنه أفلح السفر للتجارة قبل ولايته فسأله أبوه فتوقف في مسألة فمنعه خشية أن يدخل عليهم الربا . أنظر : الشماخي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 189 190 .

ط- الحسبة بتيهرت :

عرفت مدينة تيهرت الحسبة و التي أشارت إليها مختلف المصادر الإباضية ، فابن الصغير المالكي يشير إلى أن هذه الوظيفة مارسها أبو اليقظان أخ الإمام أبي بكر: «...فإذا كان آخر النهار أتى باب أخيه أبي بكر فإن وجده جالسا دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خير وحكم، وإن وجده مشتغلا قال لمن علم إنه يصل إلى حرمته أقرأ على الأمير السلام وقال له أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادئة ، لمن علم إنه يصل إلى حرمته أقرأ على الأمير السلام وقال له أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادئة ، وإذا كان في الليل ركب وطاف في المدينة حتى أقصاها و يحكم في الأمر الضروري و يأمرهم إذا حدث حادث أن يوافوا داره فإذا حكم جميع ذلك انصرف إلى داره...»[1].

كانت الأسواق ميدانا تتجلى فيها وظيفة المحتسب وتتضح مهامها أكثر من أي مكان آخر وهذا بحكم المعاملات الكثيرة المرتبطة بهذا الموضع من بيع وشراء وغيره ؛ فعندما آلت الإمارة لأبي اليقظان نفسه نجده يكلف بهذه المهنة قوما من نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، « قالوا، فإن رأوا قصابا ينفخ في شاة عاقبوه ، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها ، وإن رأوا قذرا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه . ولا يمنعون أحدا من الصلاة في مساجدهم »[2].

غير أننا نجد من الباحثين من يرى أن مدينة تيهرت لم تعرف نظام الحسبة بكامل مهامها وشروطها ، وذلك بسبب عدم انتظامها مثلما هو الشأن في بلاد الأندلس و إفريقية[3]. غير أن في ذلك شك ذلك أن بلاد الأندلس كانت أكثر تطورا ريفا ومدنا ومن ثم اقتضى الأمر أن تظهر وظيفة المحتسب ، ويمكن أن نقول أنها لم تكن خطة واضحة المعالم ولكنها ظهرت وتبلورت بمرور الزمن .

وتكون هذه الخطة قد أسندت ربما إلى صاحب الشرطة[4]. وهذا ما تذكره المصادر الإباضية من مهام خاصة برجل الشرطة في عهد الإمام أبي حاتم ، بعدما بدأت تظهر المفاسد في المجتمع التيهرتي « وبها فسدت البلد وفسد أهلها وأظهروا المنكر وكثر الفسق والزنى وشرب الخمر جهارا . فكان على المكلفين بالشرطة أن يقطعوا ذلك »[5].

---

[1] ابن الصغير : المصدر السابق ، ص 73 .

[2] ابن الصغير : نفسه . ص 88 . البرادي : المصدر السابق ، ص 177 .

[3] موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب الإسلامي نشأتها وتطورها . الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ،1971 ، ص 33 .

[4] جودت عبد الكريم يوسف : العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ص 53 .

[5] ابن الصغير : المصدر السابق . ص 116 117 . الشماخي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 223 224.

ومن المرافق التي كانت تخدم هذه المهنة نجد السجن والتي كانت تيهرت مزودة بها[1]. كما لم تترك الطرقات دون مسؤولية من السلطة إذ تكفل بها الحكام الذين كانوا هم المشرفين بالدرجة الأولى بنزع ما يضر الناس في هذه الأماكن كما يوضح ذلك الفرسطائي الذي يقول : «وأما ما جعل من المضرة على طريق الخواص فلا ينزعونه بأنفسهم إذا لم يحضر من جعلها. وأما الحاكم أو جماعة المسلمين فإنهم ينزعون ما جعل من المضرة على طريق الشارع سواء كان الحاكم أو جماعة المسلمين من أهل الشارع أو غيرهم . إن كان الشارع للعامة »[2].

أما القضاء فتكون هذه المهنة قد مارسها الأئمة أنفسهم ، إذ كانوا يجلسون فقي المساجد للنظر في أمور الناس ، ولدينا نص يشير إلى مشاركة الناس في اختيار القاضي العدل ، وقد يكون ذلك رغما عن السلطة ، ففي عهد الإمام الثالث أفلح بن عبد الوهاب اتفق الناس « أجمع رأيهم على محكم الهواري الساكن بجبل أوراس ، فأتوا إلى أفلح بن عبد الوهاب فقالوا قد تدافعنا هذا فيما بيننا فلم نرتض أحدا منا وقد ارتضينا جميعا بمحكم الهواري الساكن بجبل أوراس لخاصتنا وعامتنا وديننا ودنيانا...»[3]. لم تستمر المدينة كثيرا في نموها، وسرعان ما عرفت مظاهر عديدة للسقوط والانهيار .

ي- نكبة المدينة :

من بين العوامل التي أدت لتراجع المدينة تلك المتعلقة بالبيت الرستمي في حد ذاته ، فلقد شهدت مدينة تيهرت طغيان لأبناء الحكام مثلما حدث لأبناء الإمام أبي اليقضان وبدأ الناس يمتعضون من هذه التصرفات إلى أن ظهرت الدولة الفاطمية التي كان على يدها نهاية مدينة تيهرت . ويكون الثراء أحد العوامل الرئيسية التي عجلت بنهاية المدينة بالإضافة إلى الانقسامات بين القبائل المحيطة بالمدينة وأهل الحواضر قد ظهرت أولى علاماتها في عهد الإمام أفلح لتصبح واقعا معيشا في حكم الإمام أبي اليقضان[4] .

إن التطور التاريخي لمدينة تيهرت لم يكن ليخدم استمرار نمو المدينة واتساع مجال نفوذ الدولة ، فقد كان تطور المدينة مرتبطا إلى حد كبير بتطور الدولة الرستمية ، كما أن انهيار الدولة أدى إلى تراجع دور تيهرت التي نهبت من قبل الفاطميين بعد عام 296 هـ، بعد أن تجمعت إليها أسباب الزوال والانقراض

[1] البرادي : المصدر السابق ، ص 180 .

[2] الفرسطائي : المصدر السابق ، ص 153 .

[3] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص 57 .

[4] إحسان عباس : المجتمع التاهرتي في عهد الرستميين ، الأصالة ، عدد 45 ، ماي 1975 ، ص 32 33 .

من كل جانب ، ودخلها احد أعوان الفاطميين أبو عبد الله الحجاني[1] ونهبها وقتل من ظفر من بني رستم واستباح أموالهم وقصد المكتبة الكبرى (المعصومة) وأخذ ما فيها من الكتب الرياضية والصناعية والفنية واحرق ماعدا ذلك كله[2]، وبعد أن قتل عبد الله الشيعي يقضان بن أبي اليقضان وجماعة من أهل بيته وبعث برؤوسهم إلى أخيه أبي العباس برقادة ، انتهت الدولة الرستمية ، وأصبحت حاضرهم تابعة للدولة الفاطمية وأصبح واليها هو أبا حميد دواس بن صولات اللهيصي[3] ، الذي ثارت عليه أهل تيهرت عام 299هـ ، فكانت حملة أبي عبد الله على المدينة في محرم / صفر من هذا العام و لمدة ثلاثة أيام « قتلوا الرجال وسبوا النساء ة الذرية ، وانتهبوا الأموال ، وحرقوا المدينة بالنار، وبلغ عدد القتلى بها ثمانية آلاف رجل ، ثم ولى عبيد الله تيهرت مصالة بن حبوس بن منازل بن هلول المكناسي »[4]. إن هذا الرقم الذي يقدمه ابن عذارى يدل على حجم المدينة التي تستوعب هذا الرقم من السكان ، وهو أقرب إلى الحقيقة فرغم ظروف الحرب حيث تكون المدينة خالية من السكان ورغم ذلك أبى سكانها مغادرتها .

فهل تحولت تيهرت إلى مركز توسع شيعي نحو بلاد المغرب الأقصى ؟

أم أنها بقيت وفية لأصولها الزناتية ، وتحولت إلى مركز المقاومة الزناتية ضد الوجود الفاطمي في بلاد المغرب ؟ فلاشك أن الموقع الذي تميزت به المدينة ، على طريق القوافل التجارية نحو سجلماسة[5] ، يجعل الوطأة الفاطمية على المدينة تكون ثقيلة ، وهذا ما جعلها تتراجع عن المكانة التي كانت تتمع بها في السابق.

تتوالى النكبات على مدينة تيهرت في القرن الرابع وتتعرض للحرق في بداية وأواخر القرن ففي «سنة خمس وثلاثمائة أحرقت النار أسواق مدينة تاهرت قاعدة زناتة»[6]، وفي عام 347 هـ نهبها وأحرقها أبو الحسن جوهر الذي كان في حملة مع الأمير زيري بن مناد الصنهاجي[7] للقضاء على ثورات المغرب الأقصى على السلطة الفاطمية .

---

[1] هو (عبد الله الشيعي) مولى عبيد الله المهدي . شكا إليه أهل تيهرت من اليقضان أبي اليقضان فكان ذلك ذريعة ليدخل المدينة ويخربها.

[2] سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ، ص 57 . الأزهار الرياضية ، ص 346 .

[3] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج01 ، ص 153 .

[4] ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 166 .

[5] محمد سهيل طقوش : تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا و مصر و بلاد الشام، ص 89 110 .

[6] ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، ص 121 .

[7] تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تح جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، 1996 ، ج 01 ، ص 93 .

الفصل الرابع

دور الدعوة والقبيلة في تمدين المغرب الأوسط

أولا :

- المدينة الدعوة .

ثانيا :

- قبيلة صنهاجة وتمدين المغرب الأوسط .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : المدينة الدعوة:

– المذهب الاسماعيلي ببلاد المغرب :

لقد رأينا في الفصل السابق أن الدولة الفاطمية بدأت كدعوة بإقليم كتامة سرعان ما تحولت إلى حركة انقلابية لم تتوانى في استخدام كافة الوسائل للوصول إلى تحقيق أهدافها ، بما في ذلك القتل وحرق المدن وتخريبها ، وهذا في سبيل الوصول لتتويج المهدي بالسلطة ، وكانت بدايات الدولة عنيفة تختلف اختلافا جوهريا عن الدولة الرستمية بتيهرت المسالمة إلى حد ما مقارنة بما قام به الفواطم بمدن ميلة، سطيف، بلزمة، وطبنة، وغيرها كثير حتى أننا نجد أنفسنا أمام صعوبة كبيرة لإيجاد حركة توسع فاطمية لم تقرن بالحرق أو الهدم وتخريب للمدن والقرى .

كانت إذن الدولة الفاطمية تقوم أساسا على العمل من أجل الوصول إلى المشرق عبر جعل بلاد المغرب مرحلة وقاعدة انطلاق فقط لهذا العمل العسكري دون التخلي عن العمل الدعوي[1] ، فلقد كانت الدعوة الفاطمية تنشط في الظل بعيدا عن أعين السلطة ، واتخذت لنفسها مراكز استخدمتها كمدن دعوية ، أوكدور للهجرة بمفهوم إسماعيلي ، هذه المدن التي شهدت المرحلة الأولى لنشأة الدولة احتضنها إقليم كتامة الذي يشمل منطقة هامة معروفة بتضاريسها الوعرة ، وانغلاقها على نفسها ما جعلها تحظى باهتمام الدعاة الشيعة الذين توافدوا على المنطقة لمناعتها وبعدها عن مراكز سلطة الولاة .

ويشير ابن خلدون أن مناطق انتشار هذا القبيل أنهم « موطنين بأرياف قسطينة[كذا] إلى تخوم بجاية غربا إلى جبل أوراس من ناحية القبلة. وكانت بتلك المواطن بلاد مذكورة أكثرها لهم »[2]، وبالنسبة لهذا التوزيع نجد أن محمد الطالبي يتحفظ عليه ويرى أنه من « المؤكد أن ما خصت به المدن من إثبات طابع الوضع الموالي لانتصار الشيعة ، لا الوضع السابق الذي كان مغايرا نسبيا »[3]، ونحن نعلم أن مجال تحرك القبائل ببلاد المغرب كان خاضعا لظروف وعوامل تجعل من الصعب على أي دارس الوقوف على مستقر ثابت لأي من منها في نطاق خاص بقبيلة معينة . أما بالنسبة للمدن والأمصار بهذا الإقليم ، فباستثناء ما ورد بشأن ميلة غداة الفتح مباشرة والتي ربما اتخذت كمستقر للفاتح أبي المهاجر دينار، بعدها لم يرد في المصادر التاريخية ما يشير إلى دور هذه المنطقة في التحولات التي شهدها المغرب الأوسط طيلة

[1] بوبة مجاني : دراسات إسماعيلية ، قسم التاريخ لجامعة منتوري قسنطينة ، مطبوعات الجامعة ، 2002 – 2003 ، ص 85 .

[2] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 6 ، ص 195 .

[3] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 647 .

حكم الولاة ، أما في فترة حكم الأغالبة فقد كانت ميلة ولاية تابعة للقيروان غير أنها قد عانت الكثير من تسلط الحامية الأغلبية المستقرة بمدينة بلزمة ما جعلها ربما تتحين الفرص للتخلص من سطوتها .

هذا المجال الذي تسيطر عليه قبيلة كتامة والتي تمتد أراضيها من بونة شرقا إلى بجاية غربا ومن ساحل المتوسط شمالا إلى مدينة سوق اهراس وبلزمة وسطيف جنوبا[1]. وقد شهدت هذه المنطقة مرحلة الدعوة للمذهب الشيعي الإسماعيلي ، حتى ما إذا قدم إليها عبد الله الشيعي بعد موت الحلواني وأبو سفيان بالمغرب ، فأمره ابن حوشب « بأن كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني و أبوسفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك»[2] وكان وصول عبد الله الداعي لبلاد كتامة في يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين /891م[3]، و قد لحق بالإمام « أخوه أبو العباس بعده بأعوام . فجعل أبوعبد الله المذكور يأخذ بقلوب أهل كتامة و من تابعهم من قبائل البربر ويستميلها إليه و يروضها و يسوسها حتى انقادت إليه و تألفت عليه »[4].

ومع وصوله تبدأ أولى مراحل البحث عن اتخاذ دار هجرة لأتباعه من الكتاميين وغيرهم ، ولا يكون ذلك إلا بمكان يتميز بخصائصه التي تسمح له بما تقتضيه طبيعة المرحلة من تستر وقدرة على المنعة . فكان اختيار الشيعة لدار الهجرة بأرض كتامة لوضع أسس دعوتهم تمهيدا لمرحلة الانتشار من هذه المنطقة الشبه مغلقة . فالتضاريس ولا شك قد كان لها دورها الهام في تشكل البذرة الأولى لنشأة الكيان السياسي الفاطمي ، والذي نما بعيدا عن أعين السلطة الأغلبية . وقبل الحديث عن المدن التي أسسها الفاطميين بإقليم كتامة نشير إلى أن هذه النحلة قد قدمت إلى منطقة المغرب الأوسط وهذا بخلفيات كثيرة كان أهمها يتمثل في السيطرة على المدن الرئيسية والطرق التجارية التي كانت تعبر هذه المنطقة الإستراتيجية ، إذ يشير عبد الله العروي إلى أنه لم يعد في الإمكان نفي ما كان للتجارة البعيدة والقريبة من دور في تخطيط سياسة الفاطميين من بداية إلى نهاية حكمهم، وهو الأمر الذي جعل المهدي يصمم منذ البداية وتبعه خلفاؤه في ذلك الاتجاه ، على أن يتحكم في المغرب الأوسط لأنه موطن التجارة الصحراوية بعد ترك الطريق

---

[1] بوبة بجاي : مدينة قسنطينة ، ص 53 .

[2] تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، ج 1 ص 55 .

[3] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 71 . يوجد اختلاف في تحديد تاريخ وصول الداعي لبلاد كتامة فنجد التاريخ عند ابن خلدون منتصف ربيع سنة 288 . وهو ما يوجد أيضا عند المقريزي : اتعاظ الحنفا الجزء 01 ، ص 56 . أما عند ابن الأثير : فهو تاريخ منتصف شهر ربيع الأول سنة ثمانين ومائتين . الكامل في التاريخ ، ج 6 ، ص 584. والزهري : كتاب الجغرافية ، ص 110.

[4] الزهري : نفسه ، نفس الصفحة .

الشرقي[1]. وإذا ما تتبعنا الطريقة التي اتبعها الخلفاء الفاطميون نجد أن هذا الحكم صائب إلى أبعد الحدود. فقد عمل عبد الله الشيعي منذ تراجع السيادة الأغلبية على إقليم الزاب بالمغرب الأوسط إلى تشكيل حركة سريعة الانتشار بهذا الإقليم و بدأ في الجهر بدعوته في نفس الوقت الذي كان يبسط نفوذه على المدن الرئيسية التي كانت إلى وقت قريب تشكل حدا فاصلا ومانعا للنفوذ الأغلبي على حدوده الغربية.

ويمكن أن نميز نوعين من المدن التي أسسها الفاطميون ببلاد المغرب الأوسط ، ففي بداية الأمر وقبل ظهور المهدي، ولمدة قاربت عشر سنوات اعتمدت سياستهم على محاولة إيجاد نوع من المدن الدعوية لبث الفكر الشيعي ، لأن فكرة المهدي عبارة عن مشروع إصلاحي اجتماعي واقتصادي وسياسي ، وهذا الإصلاح مرتبط بإصلاح أمر الناس الفكري[2].

أما المرحلة الثانية ، فنستطيع معرفتها بعد مرحلة تأسيس الدولة وظهور حاجة ملحة للخلفاء الفاطميين للمال ، ومنه ضرورة السيطرة على المدن التجارية للتحكم في الطرق والمسالك الرئيسية لتجارة المغرب فاتجهوا نحو تأسيس مدن تؤدي دورا مزدوجا بين الجانب العسكري والجانب الاقتصادي وهذا ما نستنتجه من خلال تأسيسهم لمدينة المسيلة عام 315هـ ، أو تأسيس مدينة أشير 324 هـ .

إيكجان وتازروت بين مدينة الدعوة ودار الهجرة : حتى عام 296 هـ :

1 – المدينة الدعوة بإيكجان :

ارتبطت هذه المدينة[3] بظهور عبد الله الشيعي ببلاد كتامة ، والتي استقر بها وجعل منها أرض هجرة لكل من له تشيع في إفريقيا والمغرب وكان ذلك سنة 280 هـ/ 893م[4]، وبذلك فلقد كانت تشكل له أول محاولة لتأسيس المذهب ومحاولة نشر المذهبة الإسماعيلي في إقليم كتامة .

إيكجان كلمة تعني في اللهجة البربرية الكلاب إذ هي جمع لكلمة (أقجون) عند البربر فيكون معنى الاسم خربة الكلاب[1]. قام الشيعي بأول مهمة قدم من أجلها ، وبدأ أولا ببناء « بموضع يعرف ب:إيكجان على مقربة من مدينة قسنطينة . مدينة سماها (دار هجرة)»[2].

---

[1] العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ص 75 .

[2] بوبة مجاني : دراسات إسماعيلية ، ص 91 .

[3] ترد عند الإدريسي بصيغة إيكجان بالياء . نزهة المشتاق ، مج 01 ص 269 ، وأيضا عند القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، صفحات متفرقة . أما ابن الأثير فيوردها بلفظ : إنكجان بالنون ، وهي عنده جبل : و يقول : "وسار إلى جبل يقال له إنكجان ، وفيه فج الأخيار ، فقال هذا فج الأخيار و ما سمي إلا بكم ... " . الكامل . ج 6 ، ص 585.

[4] عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ص 60 .

ترد المدينة في المصادر الجغرافية بصورة مضطربة مما يدل على الجهل التام بموقعها عند هؤلاء الذين وصفوها، فتذكر بصيغة أنها « ناحية بالمغرب من بلاد البربر. ثم من بلاد كتامة منهم ، كان أكثر مقام عبد الله الشيعي بها، ويسميها دار هجرة »[3]. فيما ترد إيكجان في مصادر أخرى بمجرد الحصن؛ فهي« جبل بين سطيف وقسنطينة فيه قبائل كتامة وبه حصن حصين ومعقل منيع...»[4] .

والمدينة على أية حال حسب المصادر التاريخية تقع في مكان ما ، بين مدن قسنطينة وسطيف وميلة أي بين مراكز هامة في بيئة كتامة ويحتل مركزا وسطا بين مدينتي سطيف وميلة[5]. وهو نفس التحديد الذي ذكره المؤرخ الأثري الفرنسي كومبيزا (Paul-louis cambuzat)، الذي يحددها بين سطيف وميلة وهي أقرب لهذه الأخيرة[6]. كما يذكر شارل فيرو (L. Charles Féraud) تقريبا نفس الأبعاد حيث يحدد الموقع شرق جبال البابور ، وتسمى اليوم باسم محلي هو: خربة إيكجان، وهي منطقة توجد بها الآثار، ويمكن جدا أن تكون المدينة التي استخدمها الفاطميين[7] .

لقد استقر عبد الله الشيعي عند فرع من فروع كتامة وهم بنو سكتان المقيمون في إيكجان ، وشكلت النواة الأولى للمؤسسة العسكرية الفاطمية في بلاد المغرب ، وعليها عول التنظيم الدعوي في تحقيق أهدافه ، فأرضها جبلية وعرة تصلح لأن للعمل الدعوي السري كما تصلح للعمل العسكري، كما أن وقوعها على طرف بلاد إفريقية ، المستهدف الأول في العمل العسكري الفاطمي لأنها ولاية عباسية ، فهي بعيدة عن قلب الإمارة الأغلبية رقادة ، لذلك فهي تصلح كقاعدة لضرب الأهداف في الإمارة الأغلبية[8]. وقد هيأت إيكجان لتكون على قدر من المناعة يتمتع بها أتباع الشيعي ، وبالتالي فهي محصنة ، ويحدد الإدريسي بعدها عن بجاية بيوم وبعض اليوم[9].

---

[1] موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص 155 .

[2] ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد ، ص 19 .

[3] ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 1 ، ص 273 .

[4] الإدريسي : نزهة المشتاق ، ج 1 ، ص 269 . الحميري : الروض المعطار ، ص 71 .

[5] موسى لقبال : المرجع نفسه ، ص 154 .

[6] Cambuzat, Op,Cit, Tom 2, p. 110.

[7] L-Charles Féraud , *Histoire Des Villes De La Province De Constantine, Societe et archeologique Du Département De Constantine* , 5e volume de la 2e serie, 1871- 1872, p. 58 .

[8] بوبة مجاني: دراسات إسماعيلية ، ص 150 151 .

[9] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 260 .

كان لقدوم عبد الله الشيعي لهذه المنطقة ولا شك في أن له حدا معينا من المعلومات عن البلاد وطبيعتها ، يتجلى ذلك أكثر مما ينقله القاضي النعمان من سؤاله للكتاميين « فقال : في أي موضع عندكم فج الأخيار ، فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم رأوا أنه قد علم ذلك ، قالوا : هو عند بني سكتان وطريقهم من هذا الوضع فيه... وسار أبو عبد الله مع حريث وموسى وأبي القاسم الورفجومي وأبي عبد الله الأندلسي إلى إيكجان»[1]. هذا ما جعل الكثير من الدارسين مثل محمد الطالبي يؤكدون أن الداعي ربما استخدم دليلا خاصا أمد أبا عبد الله بكل أنواع الأخبار الخاصة بالبلاد والعباد في الطريق ، ثم يتساءل محمد الطالبي إن كانت هذه الأخبار هي التي مكنته من إدهاشهم تماما لما ألقى عليهم السؤال التالي : أين فج الأخيار؟[2] كما نحتمل أن الداعي عندما مكث بالقيروان قد تحصل على قدر من المعلومات حول كتامة والكتاميين ، حيث أنه "أقام بالقيروان يتعرف أخبار القبائل حتى صح عنده أن ليس في قبائل إفريقية أكثر عددا ، ولا أشد شوكة ، ولا أصعب مراما على السلطان ، من كتامة[3] .

مع استقرار الداعي بإيكجان تبدأ المرحلة الأولى والحاسمة من تاريخ الدولة العبيدية ببلاد المغرب الأوسط ، وكانت أول أعمال الداعي بإيكجان تتمثل في بنائه قصرا اتخذه مستقرا له « وارتحل الناس إليه وجعله دار هجرته وقرار أهل دعوته»[4] ، من هنا يمكننا الاستنتاج أن بداية تشكل المدينة قد بدأ بمركز المدينة الذي كان ممثلا في قصر الداعي وبجواره المسجد، الذي استغله الداعي لنشر المذهب بين الناس .

وقد يكون عبد الله الشيعي قد استفاد من خبراته السابقة قبل استقراره بإيكجان والمتمثلة في اشتغاله بالحسبة بالبصرة ، ثم اشتغاله بالتعليم ، فتكون شخصيته قد لعبت دورا كبيرا في نجاح المهمة التي قدم من أجلها إلى بلاد المغرب الأوسط ، وإلى إقليم كتامة بالضبط ،مثلما تبين المصادر التاريخية « ويعرف بالمحتسب يقال أنه كان محتسبا بسوق الغزل بالبصرة . ويقال أن المعروف بالمحتسب هو أخوه أبو العباس... ويعرف أيضا أبو عبد الله بالمعلم ، لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامين الباطنية...»[5]. كم أنه كان

---

[1] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 72 . يجعل ابن خلدون عام دخول الشيعي لبلاد كتامة في سنة ثمان وثمانين ومائتين . العبر . ج 4 ، ص 42 . عكس باقي المصادر التي تشير ان ذلك حدث عام 280 هـ. ابن عذارى : البيان المغرب، ج01 ، ص 125 وما بعدها .

[2] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 657 .

[3] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1، ص 125 .

[4] إدريس عماد الدين القرشي : تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، تح محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي لبنان ، 1985 ، ص 113

[5] ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد ، ص 19 .

حسبما وصفه عامل ميلة لإبراهيم بن الأغلب «يلبس الخشن، ويأمر بالخير والعبادة »[1]. وأصبح أبو عبد الله الداعي وفي مدة وجيزة أن يصبح معلما للصبيان، و لم تلبث سياسته هذه أن تثمر بعد ذلك .

تكون إيكجان لحظة التأسيس قد جمعت بين الهدف الدعوي والسياسي معا ؛ فقد لعب العامل السياسي في نشأة الكثير من المدن فكل أسرة حاكمة لها أصولها القبلية التي ترتبط بها ، كانت تحاول بناء عاصمة جديدة تكون رمزا لها ، ويتجمع فيها أشياعها[2]. وتصبح المدينة عمليا دار هجرة ، « فأقبل الناس إليه(عبد الله الشيعي) من كل ناحية وتسامعوا به ، فكان يجلس لهم ويحدثهم بظاهر فضائل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وعلى الأئمة من ولده عليهم السلام ، فإذا رأى الواحد منهم بعد الواحد قد لقن عنه وأحس فيه ما يريده ألقى إليه شيئا بعد شيء حتى يجيبه فيأخذ عليه »[3]. فعمل الداعي على أن يكون له مجلس والمرجح أن يكون بالمسجد هذا المجلس خاص يجتمع فيه مع الوفود ويبث فيه أسرار الدعوة وفضائل آل البيت ، ويتلقى العهد من المستجيبين وكان كل مستجيب يأخذ عن الداعي من الحقائق ما يكفيه للاقتناع بالدعوة دون بحث أسرارها[4] .

وعلى ندرة النصوص التاريخية و المصادر الجغرافية الخاصة بتأسيس هذه المدينة ، فإن نشأة أية مدينة في البداية ، وقبل أن تصبح مقرا للإقامة الدائمة ، بدأت بأن كانت مكانا للاجتماع يختلف إليه الناس من حين إلى آخر ، فقطب المغناطيس يأتي قبل الوعاء[5].

لقد احتضنت إيكجان أول نواة لبناء الدولة التي سيكون طموحها إزاحة بغداد ، لكنها لم تكن لتخلو من العديد من الأخطار منذ البداية لكن عبد الله الشيعي استغل كل ما أمكن للتغلب على مختلف المصاعب والأخطار، حيث استفاد من إستراتيجية الأماكن الطبيعية التي وفرت له الحماية كما استغل عنصر الجوسسة إلى أبعد حد[6].

وحسب المصادر التاريخية ، فإن مسجد إيكجان كان المقر الذي منه يدعو الشيعي أتباعه لمذهبه الذي ركز فيه على السرية التامة « فتسامع الناس بأنه يدعوا إلى أمر مكتوم لا يعلمونه ، وأن من دخل

---

[1] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 6 ، ص 585 .

[2] سعيد ناصف : المدينة الإسلامية ، دراسة في نشأة التحضر ، ص 57 .

[3] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 73 .

[4] موسى لقبال : دور كتامة ، ص 243 .

[5] لويس ممفورد : المدينة على مر العصور ، ص 15 .

[6] محمد الصالح مرمول : السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي ،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .1983 ص 44 .

ذلك الأمر لم يظهره ولا شيئا منه »[1]. فالمسجد في العهد الوسيط مركزا للحياة الفكرية والسياسية فكان فعلا للمذاهب الدينية قواعد وامتدادات سياسية. وبالطبع استخدم مسجد إيكجان إذا من طرف أبي عبد الله الداعي كمنبر ومنصة للنقاشات[2].

كما أن مسجد إيكجان قد عرف أول تغيير مس المنطقة والسكان ، وسيكون لهذا التغيير أثره فريدا في نفوس الكتاميين الذين ارتابوا له ، فبعد أن أصبح عبد الله الشيعي إماما لهم الكتاميين ، وبحلول شهر رمضان « قال أبو عبد الله للشيخ : إن رمضان قد جاء ؛ ومذهبنا أنه لا تصلى التراويح ، لأنها ليست من سنة النبي ﷺ وإنما سنها عمر رضي الله عنه ونحن نطول القراءة في صلاة العشاء الأخيرة ، ونقرأ بالسور الطوال ، فيكون ذلك عوضا عن التراويح . فقال له الشيخ : أنا طائع لك . فأفعل ما تريده! »[3]. فكانت قدرة المدينة وإمكانية تحولها إلى لعب دور كبير يتماشى مع طموح الدعاة الشيعة يتوقف على قدرتهم على إقناع الناس بالمذهب، وهم الذين ركزوا نشاطهم في المناطق الريفية الأقل تحضيرا والبعيدة عن المراكز الإدارية الحيوية. لهذا اختيرت منطقة كتامة الجبلية الريفية لتكون مجالا لبذر المبادئ الشيعية الداعية إلى إقامة إمامة إسماعيلية[4].

وإذا ما اعتمدنا الروايات التاريخية الشيعية فإن إيكجان في البداية كانت مقصدا لشيوخ القبائل الذين استطاع الدعي أن يستقطبهم لمذهبه، ومنها كان يبعث و يبث الدعاة إلى باقي المناطق المحيطة بالمدينة فقد «قرب أبو عبد الله الدعاة إلى القبائل ، وكان يجلس إلى المؤمنين فيحدثهم و يعلمهم أحكام الدين ، فحسنت أحوالهم وقويت نياتهم وبصائرهم »[5].

وبالنسبة للتغييرات التي أحدثها عبد الله الشيعي بإيكجان والتي مست أتباعه فقد وضع لهم نظاما ألزمهم به « فالتزمت كتامة الطاعة لأبي عبد الله ، ودخلت قبائل كثيرة في دعوته . فصير لهم ديوانا ، وألزمهم العسكرية...»[6]، وقد كانت هذه الطاعة مرتبطة بطاعة الإمام المعصوم .

أما بالنسبة للعلاقة بين هذه المدينة والأرياف المحيطة بها فقد كانت في تكامل تام ، ففي المدينة كان يتم تشكيل وإعداد الدعاة للمذهب الإسماعيلي انطلاقا من مجالس عبد الله الشيعي بالمسجد ، وإلى الريف

[1] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 76 .
[2] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 660 .
[3] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 127 .
[4] بوبة مجاني : المذهب الإسماعيلية وفلسفته في بلاد المغرب ، منشورات الزمن الدار البيضاء. المغرب ، 2004سلسلة قضايا تاريخية العدد6 .
[5] عماد الدين القرشي : تاريخ الخلفاء الفاطميين ، ص 113 .
[6] ابن عذارى المراكشي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 128 .

تنشر هذه الأفكار التي نالت اهتمام البربر الكتاميين ، كما أن الريف اعتبر السوق الرائجة للفكر الإسماعيلي فالبدو هم من يشكلون أساس الدولة .هذا فضلا عن العلاقات الاقتصادية حيث أن الكتاميين قد دعموا الوافد الجديد بالمال والرجال ومن أوجه إنفاق الأموال بإيكجان لعبد الله الشيعي أن رجلا كتاميا يدعى يحي بن يوسف وكان من أصحاب الحلواني ومات قبل دخول أبي عبد الله ولما احتضر « أخرج مالا إلى امرأته – وكانت حدثة السن يومئذ وهو شيخ وكان قد أدبها وعلمها التشيع والولاية – فقال لها :

إن هذا المال مال كنت أعددته لما كنا نسمعه من الحلواني من أمر المهدي وأنه يطأ بلدنا هذا وكنت أعددت هذا المال للنفقة في الجهاد بين يديه أو بين يدي داعيه ، فليكن عندك بأمانة الله ، فإن بلغت ذلك الزمان فأخرجيه وأنفقيه،...وعاشت إلى أن دخل أبو عبد الله ودعيت وحسنت حالها فأخرجت إليه المال و دفعته إليه...»[1].

هكذا تتضح آثار البذر الذي قام به الحلواني و قطف الداعي للثمرة بإيكجان ، فالدولة الفاطمية كانت دعامتها الأساسية المال بالدرجة الأولى ، وبعد قيامها تعمل الدولة على خلق علاقات اقتصادية « وأن تحول الزيادة الاقتصادية إلى البادية بدون معارضة وبإذعان القبائل لدفع الضرائب . وفي بعض الأحيان نجد أن قبائل البادية هي التي تحاول الحصول على موارد الحضارة »[2]. فهل استفادت إيكجان من تعاون البوادي والأرياف المحيطة بها في نموها وتقدمها ؟ أم أن المدينة هي التي كانت مركز ومحور تحول هذه البوادي ؟ إنها قضية جدلية لا يمكننا الجزم بإنفراد نمط على آخر إلا بتعاونهما معا ؛ النمط البدوي الزراعي الرعوي ، والنمط المديني الحضري ، بما كان يحمله من مذهبية ودعوة اتخذت من الدعوة لآل البيت وسيلة للتحكم في توجيه الكتاميين لخدمة أهداف ضلت تلتزم الكتمان والسرية.

بعد أن نمت حركة عبد الله الشيعي بإيكجان ، بقدر كان له تأثير حتى لدى صاحب إفريقية إبراهيم بن أحمد والذي أراد أن يستميل إليه العامة بسبب ما كان يحدث في كتامة من تحولات سيكون لها قريبا مفعولها في تغيير موازين القوى في كامل بلاد المغرب .وبإيكجان أحدث الشيعي فتنة بين القبائل البربرية بسبب دعوته التي تباينت المواقف إزاءها ، وخشي على حركته الفتية نجده ينتقل إلى مكان آخر سعيا منه للحفاظ على أتباعه .

[1] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 132 133 .

[2] عبد القادر جغلول : الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون ، ترجمة ، فيصل عباس ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، لبنان ، 1982 ، ص 109 .

يبتعد الشيعي لمدة زمنية محدودة على إيكجان ، غير أنه سرعان ما يعود إليها ، وكان رحيله إلى تازروت بعد أن تحالف ضده « موسى بن عياش صاحب ميلة وعلي بن عسلوجة صاحب سطيف وحي بن تميم صاحب بلزمة، وهؤلاء أمراء هذه المدائن الذين عندهم العدة وفيهم النجدة ولديهم العدد والقوة وفي أيديهم الأموال الكثيرة »[1].

إن تعذر عثورنا على المصادر التاريخية التي تسمح لنا بالوقوف على أوضاع هذه المدينة من مختلف جوانبها ، والمصادر التي تذكر هذه المدينة لا تعدو أنها أخبار تذكر أهم أعمال عبد الله الشيعي بالمنطقة، ولذلك فإن شكل هذه المدينة والخطط التي استحدثت فيها ومرافقها قد كانت خاضعة للنظام القبلي الذي كان يتشكل أساسا من بني سكتان وجيملة وغيرهم من الأتباع الجدد ، وكان المسجد الذي اتخذه الشيعي للتدريس والدعوة لمذهبه مركزا لهذه المدينة . فهل إن رحيل الداعي إلى تازروت ترجع إلى ضعف حصانة المدينة ؟ أم أن أتباع الداعي قد ازدادوا إلى درجة لم يعد بإمكان ايكجان احتوائهم جميعا . وهل أن لجوء الداعي إلى تازروت يعود إلى ضعف شوكة بني سكتان وقبائل جيملة ، ما يعني أن المدينة لم تكن بالحجم الذي يرقى إلى تحصينها بنظام الأسوار والخنادق وبالتالي راح الداعي وأتباعه يبحثون على مدينة أكثر حصانة وأمنا من إيكجان ؟

فيما يرى بعض الدارسين[2] في هذا الخصوص أن لجوء عبد الله الداعي إلى تازروت يكون بسبب الحفاظ على مشروعه في بناء مجتمع جديد تحكمه العصبية المذهبية بدل العصبية القبلية .

ومهما يكن فإن مدينة إيكجان قد استقبلت الداعي عبد الله الشيعي ، وشكلت له أول حلقة وصل مع القبائل الكتامية التي ستأخذ على عاتقها تأسيس الدولة ، وتنقل الدولة الفاطمية من مرحلة السرية إلى مرحلة التأسيس الفعلي ، وبعد تخريب مدينة تازروت لم يجد عبد الله الشيعي غير الرجوع إلى إيكجان ، وبازدياد الأخطار التي تهدد الحركة الجديدة التي أصبحت تستقطب القبائل الكتامية قام عبد الله الشيعي بتنظيم أتباعه في شكل فرق متساوية العدد ، إلى « أسباعا وجعل لكل سبع منها عسكرا و قدم عليه مقدما وأطلق بكل موضع داعيا وسمى المقدمين والدعاة : المشائخ »[3]. لكن المشكلة أن هذه الفترة المبكرة من تاريخ الفاطميين ببلاد المغرب الأوسط ، تتعلق بانعدام أي شهادة عليها توضح الأساليب التي مارسها

[1] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 94 . النويري : نهاية الإرب ، ج 28 ، ص 82 .

[2] بوبة مجاني : دراسات إسماعيلية ، ص 151.

[3] القاضي النعمان : المصدر نفسه ، ص 127 .

الدعاة في تعليمهم للعامة[1] . ثم هل وجدت مرافق حتى لا نقول مدارس لممارسة هذا النشاط الدعوي التعليمي ؟ أم أن الأمر بقي طي الكتمان ، حتى يكون هؤلاء أمينين مع داعيتهم .

لا شك أن في هذه المرحلة قد ظهرت أحياء بالمدينة التي أصبحت مؤهلة لاستقبال جيش بلغت عدته «سبعمائة فارس لا يزيدون ولا ينقصون ، وبلغت رجالتهم نحو ألفي راجل...»[2] فإذا كان هؤلاء الجند يقطنون بالمدينة فإن ذلك يستلزم حتما مرافق لخدمتهم ، لكننا نستبعد ذلك ويكون هؤلاء الجند مستقرين خارج المدينة التي يكون سكانها من الأعيان وقادة الجند وأسرهم ، نقول هذا في غياب أية دلائل من النصوص التاريخية والشواهد الأخرى الدالة على طبيعة الاستقرار في هذه المدن . إذ لا يمكننا بأية حال في غياب النصوص القاطعة التي تخص حياة هؤلاء الجنود . وهل كانت المدينة في بدايتها معسكرا لهؤلاء الجند فقط ؟ إذ أن الداعي لم يستقر بالمدينة وسيكون عمله مركزا على الانتقال الكثير والحركة بحثا عن أكبر توسع ممكن بذلك الإقليم ، على الأقل في تلك الفترة أي قبل 296 هـ .

بالإضافة لأدوار المدينة الأولى فقد كانت مستودع أموال الشيعة وبعد الجهر بالإمام عبيد الله المهدي ، وبعد خروجه من سجلماسة يمر على إيكجان « ثم سار إلى إفريقية، وأحضر الأموال من إيكجان فجعلها أحمالا، وصار بها إلى رقادة في العشر الأخير من ربيع الأخير سنة سبع وتسعين ومائتين »[3] .

ومن خلال هذا النص الذي يورده المقريزي فإن إيكجان لم ينته دورها بعد ، ولا زالت محافظة على وفائها لخدمة الدولة، سواء بالرجال أو بالأموال والتي كان قد جمعها الداعي من المنطقة ، هذه الأموال التي نالت حيزا وفيرا من السياسة الفاطمية التي كانت دعامتها في قيام الدولة .

2 – تازروت دار الهجرة :

تعتبر دار الهجرة للمهاجرين الشيعة الأوائل ببلاد المغرب الأوسط فبعد أن عانى عبد الله الشيعي الذي كان شبه محاصر في إيكجان لم يجد بديلا عن اللجوء إلى السرية التي اعتبرت أحد مقومات وأسس الدولة والمذهب الإسماعيلي . وبعد انتقال الداعي إلى تازروت تحت إلحاح الحسن بن هارون[4]، تقاطر عليه الأتباع المتشيعون الذين هاجروا من إيكجان إلى المدينة الجديدة تازروت ، وتورد المصادر الفاطمية أن

---

[1] فرهاد دفتري : الاسماعيليون في العصر الوسيط ، ص 108 .

[2] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 112 .

[3] المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج 01 ، ص 66 .

[4] الحسن بن هارون الغشمي : كان من دخل في الدين (أي أنه تشيع) وكان رجلا من خيار المؤمنين وفيه عقل ، وله أدب وحسن خلق وكرم نفس وله نعمة وكان مطاعا في قومه ومسكنه بتازروت. القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 100.

العملية تمت بروح الإخاء بين القبائل التي تعاطفت مع المؤمنين أتباع عبد الله الداعي «وقام الغشمانيون بما احتاج إليه المؤمنون ، وقاسموهم أموالهم وأحلوهم فيها محلهم، واروهم من الغبطة والسرور بهم ما أسرهم»[1]

استقبلت تازروت الداعي والمهاجرين « وصار أبو عبد الله بالقرب من بلد إجانة وملوسة ولهيصة ولطاية وجيملة ، فتسارب إليه الناس وظهر أمره وعز جانبه »[2]؛ صورة تبين لنا القاعدة القبلية في المدينة المهاجر إليها ، فهي ذات موقع بين القبائل الكتامية ، تلك التي تكون سندا للداعي الذي بدأ مرحلة الجهر والانتقال من الاستتار إلى العلن بعد أن اطمأن إلى قوته التي تشكلت من البدو، الذين أقنعهم الداعي بمحاربة أعداء آل البيت ، وبقرب الفرج .

وأول إجراء قام به الداعي أنه « ابتنى أبو عبد الله بتازروت قصرا سكنه بنفسه وأقطع الأولياء دورا حوله ، وارتحل إليه المؤمنون من كل ناحية وبنوا وسكنوا وأوطنوا وقوي أمرهم واستأمن كثير من القبائل إليهم»[3]. وبهذا تكون تازروت ملجأ لجميع أنصار الداعي الذين شعروا بالخطر داخل قبائلهم بالذات نظرا لمعتقداتهم ، واستخدمت أيضا كقاعدة لحملات متعددة ، كان القصد منها إظهار قوة الأمة الجديدة و توسيع رقعة نفوذها[4] .

المدينة لم يتمكن الجغرافيون ولا النصوص التاريخية تحديدها بدقة ، باستثناء الإشارة إليها في سياق اتخاذها كدار هجرة فقط . وكما يتبين من خلال الاسم أنه مشتق من كلمة بربرية تعني (الصخرة) وهو ما يعني أن المدينة قد بنيت في منطقة قد تكون ذات طابع صخري ، وهو ما ذهب إليه فيرو(m.feraud) في دراسته عام 1864 من أن المنطقة ربما تقع في حدود إقليم "كاف تازروت" في الحدود المتاخمة لأولاد عبد النور وهي توجد في منطقة صخرية باسم كاف تازروت على قلعة وهي اليوم مندرسة ، لكنها لعبت دورا كبيرا من قبل[5].

في نفس العام أي في 1864 أثبتت أبحاث على إستراتيجية المنطقة الواقعة على وادي الرمال ووادي أنجاس والتي تقع نواحي مدينة فرجيوة وتلتف شرقا على جبال البابور، حيث عثر على صخور تحمل اسم

---

[1] القاضي النعمان : المصدر نفسه ، ص100 .

[2] القاضي النعمان : المصدر نفسه ، ص 101 .

[3] القاضي النعمان : نفسه ، ص 117 . عماد الدين القرشي : تاريخ الخلفاء الفاطميين ، ص 105 . النويري : المصدر السابق ، ج 28 ، ص 90 .

[4] محمد الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 674 .

[5] Cambuzat, Op,Cit, Tom 2, p. 214.

كاف تازروت باللغة العربية والبربرية معا[1]. كما أن أبحاث أخرى أكدت أن المدينة تكون قد وجدت بمنطقة لا تزال غنية بالآثار ولا زالت تحمل نفس الإسم "تازروت"[2].

وتدل هذه الأوصاف للمنطقة على أمر أساسي يتمثل في الاعتماد على الجوانب الدفاعية في الأماكن والأمصار التي يحل بها الداعي وأتباعه من جهة ، ومن جهة ثانية الاعتماد على السرية والتستر، وهذا إلى غاية الاطمئنان على القوة القبلية للقبائل التي استطاع الداعي أن يبهرها بقوة حجته في الدفاع عن المذهب الجديد . فمن تازروت كان الشيعي ينظم الغارات على الأقاليم المجاورة لمدة جاوزت السنتين حسب ما يقرر بذلك القاضي النعمان وكان خلال ذلك يتجنب المدن والأمصار . مقتصرا على البوادي فقط « أقام بعد الهزام الجميع عنه نحوا من سنتين يوقعها بهم وينقص أطرافهم و يقتلهم ويغنم أموالهم حتى أجابوه وسلموا لأمره طائعين ومكرهين وراغبين وخائفين ، و لم يبق غير المدائن ومن فيها من أمرائها ومن انضم إليهم »[3].

من هنا يمكننا أن نشكل صورة على شكل المدينة التي كانت مقسمة على هؤلاء الأتباع طبقا لانتماءاتهم القبلية ، والذين سيبنون في الاقطاعات التي أقطعهم إياها عبد الله الشيعي ، وليضمن أمن هذه المدينة أحاطها بخندق دفاعي تمكنه من صد الهجمات المحتملة و« خندق على مدينة تاصروت[4] ، وقد زحفت إليه قبائل المغرب ، فاقتتلوا عدة مرات ، كان له الظفر»[5].

كما أن للمدينة سورا يحيط بها ، وكان لها باب ، وهذا لتسهيل مراقبة سكانها أكثر، كما أن نظام المدينة كان يمنع فيه حمل السلاح ، وكانت تتمتع بقدر من الأمن والاستقرار إذا ما اعتمدنا على المصادر الإسماعيلية إذ يورد الداعي عماد الدين القرشي حوارا بين المهدي وحجاما كان قد قدم للعمل بمدينة تازروت :

«فقال له : و الله يا مولاي ، لقد شاركت شريكا و قلت له ، تعال بنا حتى ندخل تازروت ونعمل بها

---

[1] Cambuzat,Ibid, 215. ويشير موسى لقبال إلى أن المدينة (تازروت) قد يكون موقعها قرب مركز عين ملوك خاصة مع وجود وادي العثمانية جنوبا ، وقد تكون الخرائب القريبة من القريبصة بين الرواشد وميلة وكلها قريبة من إيكجان . لكن خرائب القريبصة تبدو أقرب إلى ميلة من عين ملوك ، لذلك يرجح لقبال من أن الخرائب الرومانية في القريبصة هي التي سميت في عرف السكان باسم تازروت لضخامة صخورها . موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، هامش رقم 322 من ص 152 .

[2] Charles Féraud , *Histoire Des Villes De La Province De Constantine*, p.59- 60 .

[3] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 122 .

[4] ترد في بعض المصادر بهذا اللفظ : تاصروت وهي نفسها مدينة تازروت .

[5] المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص 58 .

مدة شهر، فما قسم الله ﷻ لنا من رزق قسمناه بيننا .

فسرنا إليها . فلما أردنا الدخول من باب المدينة منعنا من الدخول بسلاحنا إليها .

فقلنا لهم : فكيف نعمل به و ليس نعرف ههنا أحدا نودعه إياه ؟

فقالوا لنا . اطرحوه خلف سور المدينة .

فقلنا : وكيف نضيع سلاحنا ؟

فقيل لنا اطرحوه ولا تخافوا عليه .

قال: فطرحناه ودخلنا المدينة... فأقمنا فيها شهرا ثم خرجنا فإذا سلاحنا بحاله ما ضاع من منه »[1].

ومن خلال هذه النصوص التاريخية المختلفة نتساءل عن مدى احتفاظ هذه المدن على هذه التنظيمات ؟ أم هي ترتيبات ظرفية خاضعة لدرجة الولاء للسلطة الحاكمة، أو لاستمرارية وجود المدينة في حد ذاتها ؟ خاصة ونحن نعلم أن مدينة تازروت لا تلبث أن تنهار أمام ضعف دفاعاتها وعدم قدرتها على الوقوف في وجه أبي حوال بن عبد الله أبي العباس بن إبراهيم بن الأغلب الذي أرسل على رأس اثني عشر ألف وأتبعه بمثلهم عام 289هـ[2]، ونتيجة لخشية عبد الله الشيعي على أتباعه « لم ير أن تازرارت[3] تحصنهم ، فأخذوا ما قدروا عليه وانضموا إلى ايكجان »[4]. أما مصير تازروت فقد أحرقت من طرف أبي حوال في شتاء عام 289هـ بالإضافة إلى ميلة التي وجدها خالية .

بعد أن عاد أبي حوال إلى تونس واضعا حدا لحملته . استغل عبد الله التراجع الأغلبي فاستعاد ميلة واستقر في ايكجان التي حلت محل تازروت كعاصمة له[5]. واتخذها أبو عبد الله دارهجرة ثانية بعد تازروت ، بعدما كانت مستقره منذ عشر سنوات وأحدث فيها فتنة بين الكتاميين ، وخرج منها إلى تازروت .

إن المشكلة التي تصادفنا لدراسة هذه المدن تتعلق أساسا بغياب المصادر التي تمكننا من الوقوف على طبيعة هذه المدن المندثرة ، ولعل السبب يعود إلى كثرة الصراعات بين القبائل ، والحروب و المعارك التي يكون أثرها مدمرا على الكثير منها ، ثم أن المدة القصيرة التي قضاها الداعي ببلاد كتامة لم تكن لتسمح بتطور هاتان المدينتان ، إذ لا يمكن لمدة تقارب عشر سنوات أن تظهر مدينة ولو بحد أدنى من المرافق ، وإذا كانت حاضرة الرستميين قد تطورت بصورة أقرب إلى الأسطورية فإن تطورها التاريخي أثبت على نوايا

---

[1] عماد الدين القرشي : تاريخ الخلفاء الفاطميين ، ص 108

[2] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 133 . القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 137 .

[3] تازرارت : هي نفسها تازروت كما وردت في السابق بلفظة تاصروت .

[4] النويري : المصدر السابق ، ج 28 ، ص 92 . القاضي النعمان : نفسه ، ص 138.

[5] محمد سهيل طقوش : تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ، ص 71 .

مؤسسيها ، ومن هنا نزيد تأكيدا على أن السياسة الفاطمية ببلاد المغرب اعتُبِرَت مرحلة في سلسلة أهداف أخرى ، لم تكن بلاد المغرب الأوسط هدفا لها .

3 – مدينة سطيف :

مدينة بيزنطية قديمة (Sitifis)، أصبحت بعد الفتح الإسلامي من المدن التي استقر فيها قبائل الفاتحين ، وهم « قوم من بني أسد بن خزيمة عمال من قبل ابن الأغلب »[1]، وأصبحت من المدن الكبيرة بالمنطقة إذ يصفها الأصطخري أنها « مدينة كبيرة بين تاهرت والقيروان ، وهي حصينة و لها كورة تشتمل على قرى كثيرة وعمارة متصلة وسكانها كتامة قبيلة من البربر...»[2]، وقد عثر بالمنطقة على أربعة دنانير أغلبية[3]، وهذا ما يرجح ازدهار المدينة وهو الأمر الذي يجعلها أيضا هدفا سهلا لعبد الله الشيعي لقربها من مركز دعوته ونواة جيشه بإيكجان ، و لم ينفع مشاركة المدينة في الحلف المشكل من المدن الثلاثة: بلزمة ، سطيف وميلة ضد الداعي عبد الله الشيعي، حيث استطاع إخضاع المدينة مباشرة بعد سقوط ميلة عام 291هـ/904م، وقتل صاحبها ابن عسلوجة وأخوه. وكان للمدينة « سور خربته كتامة مع أبي عبد الله الشيعي »[4]. و« انصرف أبو عبد الله إلى إيكجان بجميع العساكر واستعمل عاملا على مدينة سطيف »[5]. وهذا في ظل فشل الأغالبة رد الزحف المتواصل للشيعة الفواطم من جهة ، ومن جهة ثانية كان سقوط سطيف يشكل أحد نتائج سياسة الأغالبة التي أضعفت الحاميات المتركزة خاصة ببلزمة .

المدينة بعد أن سيطر عليها الفاطميون لم تعد ذات أهمية ولا نجد لها خاصية تذكر لدى الجغرافيين خاصة طيلة القرن الرابع الهجري ، ولعل هذا مرده إلى السياسة الفاطمية التي تكون قد أثرت على وضع المدينة . لكننا نجد البكري في القرن الخامس يصف المدينة أنها « كبيرة جليلة... وهي اليوم دون سور، لكنها عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار»[6] .

وقد يكون الاهتمام الحمادي بهذه المدينة سببا في ازدهارها مرة أخرى ، خاصة وأنها قريبة من العاصمة بجاية وهذا ما يجعل المدينة تصبح حصنا كبير القطر كثير الخلق كالمدينة ، ويذكر الإدريسي أبعاد

---

[1] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 190 .

[2] الأصطخري : المسالك والممالك ، ص 34 .

[3] Cambusat, Op.Cit. P.189 .

[4] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 258 .

[5] القاضي النعمان : رسالة افتتاح الدعوة ، ص 156 .

[6] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 258 259 .

المدينة عن بجاية مسافة مرحلتان ، وبين سطيف وقسنطينة أربع مراحل[1]، أما المسافة بين سطيف والمسيلة فيقدرها البكري[2] بمرحلتين على طريق كثير العيون .

4 – مدينة المسيلة:

أ – التأسيس:

أغلب الجغرافيين الذين كتبوا عن بلاد المغرب الأوسط لم يغفلوا كلامهم ذكر المسيلة ، ويتفقون في أن المدينة محدثة من طرف أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله ، فيما يختلفون ربما حول الخصائص العامة للمدينة والدور المنوط بها للقيام به، وهذا قد يعود للتأثيرات المختلفة لكل جغرافي ورحالة أو مؤرخ والذين قد يكونوا متأثرين ببيئاتهم أو تغير الظروف التي كتبوا فيها عن المدينة.

المدينة اختير لها موضع "في بسيط من الأرض"، وقد بنيت بالقرب من مدينة قديمة كما يضيف البكري «على مقربة منها مدينة للأول خربة يقال لها، بشليقة، فيها جدولان من ماء عذب جلبته الأول إليها يقال لها : تارقا أن ودى تفسيره : ساقية السمن»[3].

ابن حوقل الذي يكون قد مر بالمنطقة فهو يقول :« وقد أتيت بهذا الطريق (يقصد الطريق بين فاس والمسيلة) مقلوبا لأني سلكته من المغرب إلى إفريقية»[4] يصف المسيلة بأنها « مدينة محدثة استحدثها علي ابن الأندلسي أحد خدم آل عبيد الله وعبيدهم...»[5].

أما المقدسي فلم يتوسع في ذكر المدينة، و لم يتطرق إلى مؤسسها مكتفيا بذكر المدن التي تتبع المسيلة والتي أصبحت مركز الزاب :«والزاب مدينتها المسيلة ... »[6]. وكل الجغرافيين والمؤرخين يتفقون على روايات تأسيس المدينة من طرف العبيديين ومؤسسها « أسسها أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله...

وكان المتولى لبنائها علي بن حمدون بن سماك بن مسعود بن منصور الجذامي المعروف بابن الأندلسي ، واستعمله عليها...»[1] .

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ج1 ، ص 269 .

[2] البكري : نفسه ، ج2 ، ص 258 .

[3] البكري : نفسه ، ج02 ،ص 239 . صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي . مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ج 3 ، ص 1273.

[4] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 90 .

[5] ابن حوقل : نفسه ، ص 85 .

[6] المقدسي : المصدر السابق ، ص 181 .

بالنسبة للإدريسي فيذكر أن المسيلة «مستحدثة استحدثها علي بن الأندلسي في ولاية إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب...»[2]، ولعل ربط الإدريسي بين منشئ المدينة وسلسلة النسب العلوية تكشف عن طبيعة ميوله المذهبية . كما أننا نتساءل عن ربطه بين المنشئ وفترة الأدارسة المتقدمة ؟

أما عن روايات التأسيس فأغلب المصادر التاريخية تتفق حول رواية التأسيس ولكنها تختلف في السنة التي تم فيها البناء[3]، حيث ترد الرواية عند ابن حماد الصنهاجي، أن أبا القاسم لما عاد من المغرب مارا بوادي سهر « اختط مدينة المسيلة، رسمها برمحه، وهو راكب على فرسه، وأمر علي بن حمدون بن سماك بن مسعود الجذامي المعروف بابن الأندلسية ، أن يبنيها و يحصنها ويحسنها ، ويسميها ، المحمدية باسمه ففعل ...»[4]، وقبل أن تتم عملية البناء قام أبو القاسم بإخلاء المنطقة وترحيل سكانها إلى القيروان خشية من ثورتهم على السلطة الفاطمية ؛ فقد كانت المسيلة موطن « لبنو كملان من هوارة ، وكان يتوقع منهم الفتنة فنقلهم إلى فج القيروان ، وقضى الله أن يكونوا أولياء لصاحب الحمار عند خروجه . ولما نقلهم أمر ببناء المسيلة في بلدهم وسماها المحمدية...»[5] .

لم يرد في النصوص التاريخية ما يشير إلى الخطط التي استحدثت بالمدينة أو المرافق الرئيسية لها ، شأنها في ذلك شأن بقية المدن بالمغرب الأوسط في هذه الفترة ، لكن الطبيعة القبلية للسكان الذين عمروا المدينة أول الأمر قد يؤدي بهم إلى الاستقرار بأحياء تخضع لطابعه القبلي . وقد أقام فيها بنو حمدون قصورا فخمة لا نعرفها إلا من خلال قصائد مادحهم ابن هانئ الذي شدد على "بغددة الزاب وشبهها بالعراق"[6].

ويورد ابن عذارى الرواية في أحداث سنة 313 هـ فيقول :« وكان الأمير أبو القاسم بن عبيد الله أمر ببناء مدينة المسيلة سنة 313هـ، وجعل المتولي لبنائها ابن الأندلسي ، واستعمله بعد ذلك عليها ، إلى أن هلك في فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد سنة 326هـ، و بقي ابنه جعفر في المسيلة ، وصار أميرا على

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ص 239 .

[2] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 254 .

[3] يورد الداعي عماد الدين القرشي السنة التي تم فيها بناء المسيلة في عام 315 هـ ، وهي نفس السنة عند ابن خلدون . ديوان العبر ، ج 4 ، ص 50 51 . والمقريزي . اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطمين الخلفا ، ج 1 ، ص 72. ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج 6 ، ص 718 . والنويري : نهاية الإرب ، ج 28 ، ص 113 . أما ابن عذارى : فيجعل ذلك في أحداث عام 313 هـ. البيان المغرب ، ج 1 ، ص 215 . ونفس التاريخ يضعه صاحب كتاب الاستبصار 313 هـ ، ص 172 .

[4] ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، ص 24 .

[5] ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 51 .

[6] روجي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 2 ، ص 92 .

الزاب كله، إلى أن خرج عنها سنة 360هـ في فتنة زيري بن مناد ، والشيعة تسمي المسيلة المحمدية »[1]، وقد عمرت المدينة الجديدة بقبائل قد تكون موالية للسلطة الفاطمية خاصة من «عجيسة وجماعة من العبيد»[2].

اختطت المدينة وكان للسلطة الحاكمة حضور قوي فيها بدءا من التسمية ، وحتى الأبواب حيث « جعل لها بابين ، وسمي أحدهما باب القاسمية منسوبا إلى أبي القاسم ، وسمي الثاني باب الأمور...»[3].

ومن خلال الإشراف الرسمي للفاطميين على بناء المدينة تتضح العلاقة بين المدينة والدولة ، فلقد اتصلت سلطات المدينة اتصالا مباشرا بالدولة باعتبار أن سلطة الدولة هي مصدر هذه الولايات المختلفة من حقها التعيين والعزل وفق متطلبات الحكم والسياسة[4]. كما أن المدينة استفادت من الإشراف الرسمي للسلطة الفاطمية في عملية البناء فقد « دفع علي بن حمدون الأندلسي من صنائع دولتهم إلى بنائها »[5].

فهل أن السلطة الفاطمية عند نقلها لمركز الزاب من مدينة طبنة إلى مدينة المسيلة كانت تهدف إلى تجاوز المرحلة السابقة الأغلبية بما تحمله من معنى السيادة بالمنطقة ، وبالتالي العمل على خلق مدن جديدة تكون رمزا للسيادة الفاطمية بالمغرب الأوسط ؟ أم أن تأسيس المدينة كان لأغراض أخرى حتمت على أبي القاسم تأسيس المدينة ، وتحويل السكان المحليين بصورة قسرية إلى فحص القيروان ؟

وإذا كانت هذه العملية تخدم مصالح فاطمية في بسط السيادة على قبائل المنطقة، والتحكم أكثر في إقليم كثيرا ما شكل خطرا على الدولة السابقة الأغلبية . فهل هذا يعني أن العبيديين كانوا بناة للمغرب الأوسط، و لم يكونوا فقط جباة للأموال ؟ فما يذهب إليه بعض الباحثين من أن سياسة الفواطم ربما أدت وبطريقة غير مقصودة إلى خلق نهضة وانتعشت الثقافة وتطور فكر أهل الحواضر بالمجادلات والمناظرات الكثيرة والمتنوعة في المساجد المدارس وقصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة[6].

غير أن هذا لا يؤدي بنا حتما إلى الاعتقاد أن الدولة الفاطمية كانت حريصة على البناء والاهتمام بالمدن ، بقدر اهتمامها بجباية الأموال وإقامة المراصد على الطرق التجارية ، أكثر من اهتمامها بتشييد المدن

---

[1] ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 215 .

[2] عماد الدين القرشي : المصدر السابق ، ص 217 .

[3] ابن حماد الصنهاجي : المصدر السابق ، ص 24 .

[4] محمد عبد الستار عثمان : المدينة الإسلامية ، ص 265.

[5] ابن خلدون : المصدر نفسه ، ج 4 ، ص 51 .

[6] عبد العزيز فيلالي لعروق محمد الهادي : مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي والبيئة الطبيعية ، دار البعث قسنطينة الجزائر ، 1984 ص 50 .

الجديدة ، فحالة المسيلة لا يمكن اعتبارها قاعدة للحكم الفاطمي ببلاد المغرب ، ولعل الرجوع للوراء قليلا و بمقدار سبعة وعشرون (27) سنة، نجد أنفسنا أمام مصير مجهول للمدن التي كانت دعامة وقاعدة للدعوة الفاطمية ، والمتمثلتان في مدينتي إيكجان وتازروت . ولعل مصير المدينتين يجعلنا نعرف أكثر طبيعة العلاقة التي تربط بين السلطة الفاطمية والمدينة بالمغرب الأوسط .

ب – الدور العسكري للمسيلة :

إن انشغال الدولة الفاطمية بالحروب وتسكين الفتن والاضطرابات التي ما فتئت تندلع في مختلف مدن المغرب الأوسط، يجعل من المتعذر على هذه الدولة إيجاد فترة زمنية مستقرة تسمح لها بالبناء ، وإذا كانت مدينة المسيلة قد أسست في ظروف تميزت بالاضطرابات ، والمتمثلة في عودة أبي القاسم محمد ابن المهدي وولي عهده من المغرب الأقصى بعد أن قضى على ثورات بنواحي تيهرت وافتتح بلد نكور[1] .

وفي هذا الإطار يرى الهادي روجي إدريس أن المسيلة قد أسست من أجل « منع تقدم الزناتيين »[2] وهذا ما ينعكس على السياسة الحربية لبعض الدول على حياة المدن التي اتصلت بذلك . وتنوعت آثار هذه السياسة في المدن الإسلامية ، فمن هذه المدن ما أنشئ لكي تحقق في الأصل غرضا أمنيا[3]. ولعل هذا ما ينطبق إلى حد بعيد بتخطيط وبناء مدينة المحمدية .

فالمدينة التي أسست لم تعمر إلا بعدما قام أبو القاسم بإخراج بني كملان ، « فأخرجهم منها إلى فحص القيروان كالمتوقع منهم أمرا، فلذلك أحب أن يكونوا قريبا منه»[4] ، ولذلك نستنتج أن بناء المسيلة قد تم في ظروف حتمت عليها أن تكون ذات طابع بدوي بالدرجة الأولى فقد كانت خشونة البداوة مطلوبة من طرف المؤسس لأغراض أمنية . وهذا بسبب إحاطة المنطقة بحزام من القبائل التي تعودت على عصيان السلطة منذ أيام الأغالبة ؛ فقد كانت المنطقة التي تحيط بالمسيلة تقطن فيها قبيلة « بني برزال[5]، ولهم

---

[1] ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 50 51 .

[2] روجي إدريس : المرجع السابق ، ج 1 ، ص 47 .

[3] محمد عبد الستار عثمان : المرجع السابق ، ص 273 .

[4] المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص 72 .

[5] بني برزال : هي بطن من بطون قبيلة بين دمر الزناتية . من ولد ورنيدين بن وانتن بن واردبرن بن دمر يقطنون بأعمال المسيلة ، كانوا نكارية من فرق الخوارج ، ثم استقاموا على طاعة الشيعة وموالاة جعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة والزاب ، ثم أحازوا إلى الأندلس واستقروا بها . أنظر : ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 7 ، ص 72. 73 .74 .

كانت أرض المسيلة وبني كملان من هوارة وزناتة وسدراتة ومزاتة وعجيسة وهي قبائل إباضية في جملتها ، فكانت من الطبيعي أن تناهض الفاطميين وتقض مضاجعهم »[1] .

وهذا ما يؤكد على سياسة بني حمدون في تحصين المدينة التي كانت محاطة بأسوار فيذكر ابن حوقل أن المسيلة « لها سور حصين من طوب »[2]، أما البكري فيذكر أن «عليها سوران ، بينهما جدول ماء جار يستدير بالمدينة له منافذ يسقى منها عند الحاجة »[3]. والراجح أن المدينة كان لها سوران بينهما جدول الماء[4]، وهو أسلوب دفاعي عرفته العديد من مدن العصر الوسيط .

يظهر الغرض العسكري في بناء مدينة المسيلة أكثر إذا ما نحن عرفنا موقعها والأبعاد التي تفصلها عن باقي الحواضر والمدن الرئيسية، فيكون بذلك للمدينة دورا هاما في أن تكون بمثابة حصنا متقدما للجيوش الفاطمية ؛ فهي تبعد المسيلة عن طبنة على مسافة مرحلتان[5]، وتأخذ من مقرة إلى المسيلة مرحلة[6]، ومدينة سطيف على مرحلتين من المسيلة[7] ، أما أشير فتبعد عنها بمرحلتين يترل المار بينهما بوادى المالح[8]، كما تبعد عن المهدية بستة عشر مرحلة، وعن القيروان بأربع عشرة مرحلة[9]، هذه الأبعاد والمسافات تجعل من المسيلة نقطة وصل بين المهدية والمناطق الرافضة للسلطة الفاطمية .

وما يؤكد على هذا الغرض الهام هو سعي أبي القاسم على جعل المسيلة مخزن إستراتيجي للمؤونة لأوقات الأزمات المحتملة « وأمر أن تدخر فيها الأقوات وأنواع المأكولات ، وكل ما تنضم إليه الضرورة ، ففعل وزاد »[10] . وستكون هذه المؤن عونا للجيش الفاطمي في فترة الأزمة التي اندلعت بسبب ثورة صاحب الحمار ، وكانت هذه المخزونات سببا في صمود الجيش الفاطمي « فلم تزل تلك الأطعمة مصونة مختزنة إلى فتنة أبي يزيد ، وخروج إسماعيل المنصور إليه وأتباعه ، فكانت عونا له ولأنجاده وإمداده عند

---

[1] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في المغرب الأوسط ، ص 365 .

[2] بن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 .

[3] البكري : المصدر السابق ، ص 239 .

[4] مرمول محمد الصالح : المرجع السابق ، ص 298 .

[5] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 214 .

[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 . المقدسي : المصدر السابق ، ص 197 .

[7] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 258 .

[8] ابن حوقل : نفسه ، ص 88 . يجعل المقدسي المسافة بين المسيلة غربا إلى أشير مسافة ثلاثة (03) أيام وهي مسافة نرى و أنها غير مطابقة للواقع ، ونرجح المسافة التي قدرها ابن حوقل الذي مر بالمنطقة ، فلذلك فهو أقرب إلى الصواب بالنسبة للمقدسي .

[9] مرمول محمد الصالح : المرجع السابق ، ص 295 .

[10] ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد ، ص24 . 25 المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج 1 ، ص 72 .

وصوله إلى جبل كيانة[1]، وحصره أبو يزيد فيه . و لم يكن في تلك الجهات إذ ذاك مدينة غيرهـــا...»[2]. إن بقاء هذه المواد لفترة زمنية طويلة نسبيا ، تدل بشكل قاطع على أن المدينة كانت تتمتع بمرافـــق للتخـــزين وأدوات تسمح ببقاء هذه المواد و الأغذية لفترة معينة على حالها . ولو أن المصادر قد غضت الطرف على هذه المرافق المستخدمة، فإن هذا لا يمنعنا من الاستنتاج بوجودها ، واستخدامها في نفس الوقت .

ستصبح المسيلة محل صراع بين أبي يزيد مخلد بن كيداد والمنصور[3] ففي عام 335هـــ وفي ثورة أبي يزيد «رجع أبو يزيد إلى المسيلة وحاصرها . فلما عوفي المنصور رحل أول رجب سنة خمـــسة وثلاثـــين وقصده فأفرج عن المسيلة...»[4]. وستكون المسيلة في هذه الثورة التي قام بها أبي يزيد المدينة التي من أجلها أوصي مؤسسها بأن تجمع فيها المؤن والمواد المختلفة ليوم سيتخذها الخليفة المنصور قاعدة لعملياته الحربية، فقد « شن المنصور هجوما يوم 10 شعبان 335هـــ/ 6 مارس 947 م. وتواصلت ملاحقة أبي يزيد عبر جبل وعر حوالي خمسة أشهر»[5] .

وفي هذه الفترة لم تكن السلطة الفاطمية قد سيطرت على هذا الإقليم مما حتم على المدينة الجديدة أن تتحمل مسألة الحفاظ على الأقل على الأمن حتى لا نقول الولاء للفاطميين، لأن هؤلاء بدأوا في التفكير الجدي في التوسع نحو الشرق. ولعل القبائل التي كانت تحرج السلطة الفاطمية هي تلك المتمركزة بجبـــال الأوراس ، فكانت الحاميات الفاطمية المتمركزة في حصون طبنة والمسيلة مكلفة بمراقبة القبائل الأوراســـية ومنعها من الخروج من معاقلها[6]. وأصبحت المسيلة في الواجهة أمام هذه التهديدات فقد تحول مركز الثقل بالزاب من طبنة إليها و« أصبحت هي العاصمة السياسية والإدارية والمركز التجاري والحضاري للمنطقـــة الممتدة ما بين باغاية شرقا وتيهرت غربا...وبقيت تتمتع بمكانة مرموقـــة بـــين مختلـــف مـــدن المغـــرب الهامة...»[7].

---

[1] جبل كيانة يسمى اليوم جبل المعاضيد .

[2] ابن حماد الصنهاجي : نفسه ، ص 25 .

[3] المنصور هو لقب لإسماعيل بن القائم خليفة القائم بأمر الله بن المهدي ولد عام 303 هـــ بالمهدية وتولى بعد موت أبيه في سنة 334 هـــ وكان حاجبه جعفر بن علي و مات في آخر شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة . انظر: ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الإعلام ، ص 54 55 . ابن خلدون: ديوان العبر ، ج 4 ، ص 55 58 . ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 218 221 .

[4] ابن خلدون : نفسه ، ج 4 ، ص 56 . المقريزي : اتعاظ الحنفا ، ج 1، ص 84 .

[5] روجي ادريس : المرجع السابق ، ج 1 ، ص 55 .

[6] محمد سهيل طقوش : تاريخ الفاطميين في شمالي افريقية ، ص 120 .

[7] مرمول : المرجع السابق ، ص 299 .

لكن الدور الذي لعبته المسيلة في الجانب العسكري والسياسي سيتعرض لهزات عديدة نتيجة فشلها في فرض الحد الأدنى منه من جهة، ومن جهة ثانية فقد توالت الثورات بمنطقة المغرب الأوسط على الفاطميين، هؤلاء الذين كان أكبر همهم يتمثل في كيفية الاقتراب أكثر من الشرق حيث حلمهم القديم وهو السيطرة على بغداد .كما أن تنكر السكان للمذهب الإسماعيلي وسعي الأمويين بالأندلس على التدخل ببلاد المغرب، من خلال المتعاطفين معهم أو حتى أعوانهم بالمنطقة قد أربك الجهاز الأمني الذي خلقته الدولة الفاطمية ، ورغم قدرتها على الإحاطة بكل أخبار البلاد فإنها فشلت في التضييق على الناس . بمدينة المسيلة نفسها كان الجواسيس الفواطم يتحسسون الأخبار المتداولة بين العامة ، ومن بين ما يلفت الانتباه هو قدرة الدولة على معرفة ميول السكان وهذا تحسبا لكل طارئ قد لا يحمد عقباه للدولة . فقد شهدت المسيلة العديد من مظاهر الصراع الأموي (بالأندلس) الفاطمي ، بالإضافة إلى تنافس العمال الفاطميين فيما بينهم ربما على حكم الأقاليم والولايات ، أو التقرب للأئمة ، وهذا ما أذكى بينهم السعاية وربما أيضا الوشاية بينهم وهي سياسة كانت الدولة الفاطمية تدعمها على ما يبدو بحثا عن عمال مخلصين للأئمة .

في هذا الخصوص يورد جوذر نصا عن جعفر بن علي بن حمدون وفيه عن أحوال المسيلة ما يوحي أنها كانت محل هذه الصراعات ويقول أنه لما تطاول العمال على إلى الزيادة على علي بن جعفر بن علي في عمله كتب إلى أمير المؤمنين يقول « هذا بلد كثر القول فيه وتطاول المتقبلون إليه فالواجب عقده على من طلبه ، ولا يذهب مال مولانا خسارة...»[1]، ولعل هذا ما أدى إلى تأسيس مدينة القلعة بالقرب من المسيلة (تبعد عنها12 ميلا) وهو أحد الأسباب الهامة التي ستؤدي إلى تراجع الدور العسكري للمسيلة .

ج – الدور التجاري للمدينة :

قبل الحديث عن الدور الذي لعبته المسيلة في الجانب التجاري والمالي للدولة الفاطمية ، نشير إلى أن المدينة في حد ذاتها كانت تزخر بمجموعة من الخيرات والتي لم يغفلها الرحالة والجغرافيين العرب ، فقد ذكر ابن حوقل أن المدينة « لها واد يقال له وادى سهر فيه ماء عظيم منبسط على وجه الأرض وليس بالعميق ولهم عليه كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم ولهم من السفرجل المعنق ما يحمل إلى القيروان وأصله من تنس ومن غلاتهم القطن والحنطة والشعير وتكثر عندهم المواشي من الدواب والأنعام

[1] أبوعلي منصور العزيزى الجوذري : سيرة الأستاذ جوذر ، تح محمد كامل حسين و محمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي مصر ، ص 128 129 .

والبقر...»[1]، وبفضل هذه الثروات تشكلت بالمدينة الأسواق ، بل وأصبحت تموّن القيروان بالمؤن المختلفة ، و لا توجد مصادر تدلنا على حجم هذه المداخيل التي تجبى من المسيلة لصالح الدولة الفاطمية ، لكن جوذر يشير إلى أن دخل المسيلة « تافه يسير بالإضافة إلى ما أعطى فيه من الزيادة »[2] .

وقد تكون أسواق المسيلة قد عرفت التعامل بالدنانير الفاطمية والتي كانت مظهرا من مظاهر السيادة للدولة ، ويشير صالح بن قربة إلى أن سكة عبد الله الشيعي خالية من الأسماء . متسائل عن سبب تغييب اسمه على السكة. و لم تظهر العلامات التي تشير إلى المذهب الشيعي في الدنانير الفاطمية للخلفاء الثلاثة الأوائل ، إلى غاية المعز لدين الله[3]. فهل للعملة علاقة بالمذهب الشيعي الإسماعيلي ، والذي لم يستسغه المغاربة ، مما يطرح تخوفات لدى الخلفاء الفاطميين من التأثر اقتصاديا من هذا الجانب . وقد كان جعفر بن علي بن حمدون يتلقى التوصيات من جوذر يحثه فيها على الزيادة في جمع الأموال من المسيلة للتقرب للإمام الفاطمي المعز، لأن الإمام غير راض على ما يجبى من المدينة فكان رد جعفر بن علي بن حمدون : « أن البلد لا يفي بما ذكر. ولكنه يبذل مجهوده ويستفرغ وسعه وطاقته »[4]، ونتيجة للاهتمام الفاطمي البالغ بجمع الأموال لا غير، فإن رد الإمام الفاطمي كان يبطن عدم الرضى على الأموال المحصلة رغم ما يعانيه عامل المسيلة في جمعه الأموال له، فكتب ردا بواسطة جوذر مخاطبا عامل المسيلة : «...والله إن باطننا في الإحسان إليه أوكد من ظاهرنا . فلا يدع عليه حجة نسائله عنها ونطلبه بها من تقصير وتفريط ولا يجعل سلم والده هو إلى الانحطاط. ولا يكون ذلك بفضل الله علينا...»[5].

رغم الأزمات والاضطرابات التي مرت بها المسيلة خاصة تلك التي في عهد أبي يزيد مخلد بن كيداد فإن البكري يصف المدينة ذات « أسواق وحمامات ، وحولها بساتين كثيرة ، ويجود عندهم القطن ، وهي كثيرة اللحم ، رخيصة السعر...»[6]. وستستمر المدينة في هذا الرخاء طيلة القرنين الرابع والخامس للهجرة . ومهما كان الدور الذي لعبته هذه المدينة ، فإنه لا يمكن عزله عن الأوضاع العامة التي كانت تعرفها مدن المغرب الأوسط في هذا العصر، وهذا العامل الاقتصادي والتجاري أساسا لا يمكن إغفاله عن الدوافع

---

[1] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 85 86 .

[2] جوذر : نفسه ، ص 129 .

[3] صالح بن قربة : المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 ، ص 273 274 350 384 385 .

[4] جوذر : المصدر السابق ، ص 141 .

[5] جوذر : نفسه ، ص 141 .

[6] البكري : المصدر السابق ، ص 239 .

الفاطمية التي أدت بها لتأسيس هذه المدينة بالإضافة للعوامل العسكرية والأمنية ؛ فتخطيط المسيلة لم يكن فقط لأغراض سياسية وأمنية بقدر ما كان هذا الاختطاط مرتبطا بعامل اقتصادي له مساس بتأمين المسلك التجاري : سجلماسة- تلمسان- بلاد الزاب- إفريقية ، لأن المسلك الشمالي مهدد من الأمويين وحلفائهم ، والمسلك الصحراوي الجنوبي يسيطر عليه الخوارج وبطون قبيلة زناتة بصفة عامة [1].

ومن خلال قراءتنا لما ندر من عبارات ابن حوقل والبكري ، فإن المدينة تكون قد عرفت وجود لطبقة التجار الصغار الذين يكونون في الغالب حلقة وصل بين المدينة والقبائل التي كانت تستقر في الريف ، وتكون عملية المبادلات بين هؤلاء المزارعين والتجار لتموين أسواق المدينة . ويكون هؤلاء التجار من يتولى مسألة تمدين المسيلة فبناءا على القاعدة الخلدونية من أنه « إذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الأحوال والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه...»[2]، إذ أن من يمتلك زمام الاقتصاد والسلطة السياسية هو ذاته من يسعى لبناء عمارة ترفيهية كمالية، ويلجأ لإشادة الصروح والهياكل[3].

غير أن هذا المفهوم قد لا ينطبق على المسيلة ، وهذا يعود بطبيعة الحال إلى أنها لم تجمع بين الرفاهية الاقتصادية الخالصة ، والسيادة والحكم المستقلين . فقد كانت خادمة للفاطميين ، فإن هي لم تفلح في استتباب الأمن فقد يستفاد من جبايتها ومداخيلها المالية وغيرها من الخيرات التي تزخر بها . فإذا كان القرن الرابع قد تميز بتأسيس «مدن اتخذها خلفاء الفواطم مقرا لهم ، مثل المهدية والمنصورية والمحمدية والقاهرة ، فكانت أعظم ما أسس من المدن نجاحا في القرن الرابع . بل في تاريخ الإسلام »[4]. فإن المسيلة قد تركت لمواجهة التبعات التي نتجت عن السياسة الفاطمية ببلاد المغرب الأوسط .

فهل مرد ذلك هو عجز الفاطميين تثبيت التشيع ببلاد المغرب ، فلم يستطع الفاطميون تحويل رعاياهم إلى مذهبهم، بل على العكس من ذلك كان حكمهم يجري على نمط الخلافة العباسية السنية، رغم ثورية التنظيم الحزبي الذي حملهم إلى السلطة[5]. وكانت السياسة الفاطمية ببلاد المغرب مبنية على بذر الشقاق بينهم والسيطرة على الأوضاع بواسطة الدس والكيد[6].

---

[1] الحبيب الجنحاني : دراسات في التاريخ الاقتصادي ، ص 168 .

[2] ابن خلدون : المقدمة ، ص 190 .

[3] آزاد أحمد علي وآخرون : الفكر الاجتماعي الخلدوني ، ص 179 .

[4] آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هـ ، ص 694 .

[5] الفضل شلق : الأمة والدولة ، ص 38 .

[6] مرمول : المرجع السابق ، ص 332 .

كما أن الواقع أثبت أن الفواطم قد استخدموا مدن المغرب الأوسط للاستئثار المالي وجمع الثروات إلى أقصى ما يمكن جمعه ، حتى إذا ما كان موعد الرحيل نجد أن هؤلاء الجباة أمام مدينة منجزة (القاهرة) ومدارس مشيدة ومساجد وجوامع أصبحت بالفعل تنافس بغداد ، وهي المنجزات التي يكون الرقيق القيرواني قد انبهر منها في أثناء زيارته لمصر[1]، ومن هنا نستنتج و نتبين أنواع المدن المشيدة من أجل أهداف محددة فهي تنتهي بمجرد انتهاء الغرض الذي أنشأت من أجلها ، وهي حال المدن التي أسسها الفاطميون في بداية نشر حركتهم بالمغرب الأوسط .

5 – مدينة قسنطينة :

المدينة تعطينا مثالا عن تطور المدن واستمرارية البناء في نفس المكان ، وإذا لم تبرز هذه المدينة في الفترة التي تلت مرحلة الفتح ، و لم يكن لها دور يذكر في القرون التالية ، فقد كان حجم المدينة « تتداني ميلة ونقاوس في حالهما »[2]، وكغيرها من المدن المغربية الإسلامية لم يتغير مظهرها إلا بالبيوت والمنازل أو الأحياء الجديدة التي تضاف إلى القصبة[3]، وقد حافظت المدينة على نمط عمرانها ويحصي الإدريسي لها بابين : باب ميلة في الغرب وباب القنطرة في الشرق[4].

اتخذها الأغالبة كقاعدة للهجوم على قاعدة عبد الله الشيعي بإيكجان ، لما بدأ في الزحف لاحتلال المدن القريبة منه ؛ فقد استقر القائد الأغلبي (ابن حبشي) مدة ستة أشهر بقسنطينة واجتمعت له قوات بلغت نحو المائة ألف بين فارس وراجل[5]، لكنه انهزم وخسر المعركة ، وتراجع إلى مدينة باغاي ، مما سهل الأمر للشيعة للسيطرة على مدينة طبنة فيما بعد .

ومع نهاية القرن الرابع ، وبداية الخامس الهجري تبدأ المدينة في الظهور وتصبح بها الأسواق والمتاجر، وبدأت تعرف كمدينة ذات زراعات كبيرة ، اشتهرت بنظام تخزين خاص للمواد ، فمثلا « الحنطة تقوم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد"؛ والسبب يعود إلى طبيعة المدينة المبنية على الصخر "وأرضها

[1] عمارة علاوة : الرقيق القيرواني وبلورة الفكر التاريخي ببلاد المغرب ، مجلة التاريخ العربي ، العدد 25 ، 2003 ، ص 125.

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 93 .

[3] عبد العزيز فيلالي ومحمد الهادي لعروق : مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي و البيئة الجغرافية ، دار البعث قسنطينة ، 1984 ص 60 . 61

[4] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 265 .

[5] القاضي النعمان :رسالة افتتاح الدعوة ، ص 158 .

كلها حجر صلد وفي كل دار منها مطمورتان وثلاث وأربع منقورة في الحجر ولذلك تبقى فيها الحنطة لبرودتها واعتدال هوائها »[1] .

المدينة لها موقع هام يربط بين العديد من المدن ، فهي تبعد عن القل على مسافة يومين ، وعن بجاية مسافة ستة أيام ، ومنها إلى مجانة (قلعة بسر) يومان وأكبر من ذلك بقليل تبعد عنها قالمة[2]. ومع بداية العهد الزيري ثم الحمادي تنشط المدينة ، وتشكل مع مدينة قصر الإفريقي ميلة وسطيف نقاطا لمراقبة القبائل الثائرة على السلطة[3]. وأصبحت قسنطينة مقرا للعامل بلباز أخ الناصر بن علناس ، ثم تولى في عهد المنصور أبا يكنى بن محصن بن العابد واليا على المدينة ، والذي كلف من طرف المنصور خليفة الناصر بن علناس ليقضي على ثورة بلباز ، وأضيفت له بونة ، وفي عام 487 هـ ثارت قسنطينة على بجاية العاصمة مرة أخرى[4] مستغلة الاضطرابات التي كانت تشهدها المنطقة والفوضى التي سببتها القبائل العربية . ولحصانة المدينة نجد أن ياقوت الحموي يصفها أنها « مدينة وقلعة... وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية...»[5].

في العهد المرابطي أصبحت المدينة من أهم حواضر المغرب الأوسط ، وستعرف ازدهارا أكثر في معمارها الديني خاصة المساجد في القرن السادس الهجري .

وفي ختام هذا الفصل يمكننا التساؤل حول مدى نجاح الفاطميين في تثبيت مذهبهم ببلاد المغرب الأوسط ؟ وقبل ذلك كله هل وجدت مدن دعوة بهذه البلاد ؟ على اعتبار أن المسيلة استفيد منها اقتصاديا .

وما هو مصير المدن التي أسسها الفاطميون بالمنطقة ؟ فهل كان الفاطميون يسعون إلى البناء أم إلى خلق فوضى بين قبائل المغرب الأوسط لتسهيل التحكم فيه ؟

ولذلك فمن السهولة بمكان القول أن الفاطميين كانوا يبحثون عن مراكز للتزود بالأموال ، والرجال ، والسلاح لأمر ما يبحثون عنه في الشرق ، للاقتراب أكثر من بغداد ، حيث يرحلون ويؤسسون مراكز عمرانية بتلك الخيرات التي تحصلوا عليها بسيوفهم من سكان المغرب الأوسط ،غير أن المراكز العمرانية الجديدة لم تكن بحجم تازروت أو إيكجان ، بل هما : القاهرة ، والأزهر ، و هي المنشآت المعمارية التي لقيت الاهتمام في العصور التالية وبقيت تلعب أدوارا على مر القرون التالية . بل وإلى يوم الناس هذا .

---

[1] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 265 266 .

[2] الإدريسي : نفسه ، ج 01 ، ص 265 267 .

[3] Cambusat, Op,Cit, Tom 2. P. 75 .

[4] ابن خلدون : العبر ، ج 06 ، ص 232 233 .

[5] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 04 ، ص 149 .

قبيلة صنهاجة وتمدين المغرب الأوسط

– أصول صنهاجة :

تبدأ صنهاجة في الظهور على مسرح أحداث المغرب الأوسط، مع أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الهجري ، والقبيلة يعدها ابن حزم[1] من فرع البرانس ، ويقول عنها ابن خلدون « أنها من أوفر قبائل البربر، وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما قبله لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو بسيط، حتى لقد زعم كثير من الناس أنهمن الثلث من أهل البربر»، أما كلمة صنهاج فيقول أنها :« معربة لكلمة زناج أو صناك بالزاي والقاف القريبة من الجيم . إلا أن العرب عربته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج »[2] .

وقبل التطرق إلى مساهمة الصنهاجيين في عملية تمصير وتأسيس المدن ببلاد المغرب الأوسط، نشير إلى الانتشار الكبير لهذه القبيلة التي تشكل جزء هام من سكان بلاد المغرب الأوسط، ولهذه القبيلة أصول حضرية إذ أن أغلب النسابة يشيرون إلى أنها تنقسم إلى قسمين؛ فابن خلدون يقول عن مواطنهم «ما بين المغرب الأوسط وأفريقية، وهم أهل مدر. ومواطن مسوفة ولمتونة وكدالة...بالصحراء ، وهم أهل وبر»[3]. ويعود ظهور قوة الصنهاجيين بالدرجة الأولى إلى الدور الذي لعبته هذه القبيلة في ظل الصراع الفاطمي الأموي ، ومع حاجة الفاطميين الماسة إلى مساعدة وعون قبيلة تكون ذات شوكة ومنعة تقيها شر خصومها من القبائل المتمركزة بمناطق غرب المغرب الأوسط ، خاصة قبيلة زناتة التي كانت تريد التوسع شرقا . فاستخدمت القائد زيري بن مناد الذي « أنجده الشيعي بالمال والرجال. وأخرجه إلى المغرب في أول سنة إحدى وستين(361هـ). فأوغل في ديار زناتة . وقتل منهم في مواطن كثيرة خلقا لا يحصيهم إلا الله . واستولى على تاهرت والمسيلة وطبنة وباغاية وبجاية وبسكرة . وجميع المدن بالمغرب...»[4] .

في ظل هذا الصراع ، وأمام إخلاص القبيلة للفاطميين فكر هؤلاء في استخدام صنهاجة سدا منيعا في وجه التحرك الزناتي[5]، وذلك بإحاطة المنطقة بحزام من المدن الموالية لهم وهي : القلعة ، وأشير، والمدن الثلاث الجزائر والمدية ومليانة .

وسرعان ما تطورت الأحداث التاريخية لصالح هذه القبيلة ، وامتد نفوذها ليشمل المزيد من المدن ببلاد المغرب الأوسط، بل حتى البوادي والصحاري أصبحت تحت سيطرة هذه القبيلة، فأصبحت تمثل قوة أهلتها

---

[1] المصدر السابق ، ص 495 .

[2] العبر ، ج 06 ، ص 201 202 . روحي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 01 ، ص 31 32 ، هامش رقم 01 .

[3] ابن خلدون : نفسه ، ج 06 ، ص 202 .

[4] كاتب مجهول : كتاب مفاخر البربر ، ص 125 .

[5] روحي إدريس : المرجع السابق ، ج 01 ، ص 71 .

بأن تقفز على الروابط التاريخية التي كانت بين الكتاميين والفاطميين ، وأصبحوا هم من يحكم بلاد المغرب باسم الفاطميين بحكم القوة التي توفرت لها ، والمجال الذي يسيطرون عليه ، والذي يكاد يشمل كل بلاد المغرب الأوسط . ومن المدن التي قام بتمصيرها قادة هذه القبيلة نذكر :

المدن الصنهاجية : 1 – أشير:

أ – التأسيس :

ارتبطت مدينة أشير بمؤسسها زيري بن مناد ، حتى أننا نجد في المصادر من يسمي المدينة "بأشير زيري"، وهذا نظرا لما كان يتمتع به هذا القائد من قوة ، وهو الذي كان من أعظم ملوك البربر[1]، وكان « مقدما في دولة بن عبيد بالمغرب مشهورا بالنجدة والبأس والعزة...»[2]. ويتصف بمجموعة صفات من شجاعة وحزم وحسن سلوك وشهامة وتواضع مع العامة ، ظهر بمظهر البطل الذي أكدت التكهنات أنه سيبرز في صفوف الصنهاجيين[3] .

جعلت الظروف التاريخية الفاطميين أنفسهم في وفاق تام مع قبيلة صنهاجة ، هذه القبيلة التي كانت في حاجة لبناء مدينة تكون لهم قاعدة للحكم والملك ، خاصة وأنها لعبت دورا كبيرا في أثناء الحكم الفاطمي والذي أنقذته من الكثير من الهزات التي كادت تعصف بوجوده بالمنطقة ، وخاصة في ثورة صاحب الحمار أبي يزيد مخلد بن كيداد[4]، وهذا ما جعل بعض الباحثين يرون أن المدينة لم تبن لأغراض محلية صنهاجية فقط من أجل التحول من حياة الضعن إلى الاستقرار، بل أن المدينة بنيت بأمر من الخليفة القائم ، تقديرا منه لخدمات زيري بن مناد وولائه ، أذن له أن يبني مدينة تكون عاصمة إقليمية للمغرب الأوسط فاختار أشير وأحسن الاختيار إذ سرعان ما نمت المدينة الجديدة واتسعت وجذبت إليها التجار والصناع[5]. ولعل الفاطميين بسعيهم هذا لم يكونوا يريدون إقطاع زيري هذه المناطق ليحكمها ويؤسس المدينة الجديدة لينعم بالملك ، ومن ثم التفكير في الاستقلال عن الفاطميين وهم في غنى عن ذلك ، بقدر ما كان الأمر مرتبطا بصراع قديم يتجدد كل مرة ويتمثل في الصراع بين الزناتيين والصنهاجيين . وحاجة

---

[1] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 6 ، ص 203 .

[2] جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، تح ، عصام هزايمة ، وآخرون ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، الأردن ، 1999 ، ج 1، ص 32 .

[3] روجي إدريس : المرجع نفسه ، ج 1، ص 39 .

[4] Article Achir, Encyclopédie de l'islam, nouvelle édition, tome 01. a-b. p. 720 .

[5] عبد الله العروي : مجمل تاريخ المغرب ، ص 77.

الفاطميين إلى مساعدات قبيلة صنهاجة التي بإمكانها إخضاع المناطق المتمردة على السلطة بالمغربين الأوسط والأقصى. وهذا ما نستنتجه من خلال التغيرات السكانية التي صاحبت تأسيس المدينة والتي كانت تعمل على نقل السكان إلى أشير من المناطق الثائرة وهذا ليسهل التحكم فيها ومراقبتها باستمرار، مثلما سيحدث لسكان عام 361 هـ.

يذكر ابن حوقل والذي لم يتوسع كثيرا فيما يخص تأسيس المدينة ، مقتصرا على أن المدينة : « بحصن يسكنها آل زيري بن مناد ولها سور حصين وأسواق وعيون تطرد وأجنة ومزارع...»[1]. أما البكري فقد اعتمد على محمد بن يوسف الوراق ، وينقل عنه «إن الذي بنى أشير زيري ، والدليل على ذلك ما أنشده عبد الملك بن عيشون : [من السريع]

يا أيها السائل عن عزبنا وعن محل الكفر أشير
عن دار فسق ظالم أهلها قد شيدت للكفر والزور
أسسها الملعون زيرها فلعنه الله على زيرى »[2].

ولعل القصيدة القصيدة تذم مدينة أشير، وتستنكر سبب تشييدها ما يحتم اللعنة على صاحبها، فإنها تعطينا تأكيدا على معرفة مؤسس المدينة .

وقد مرت عملية بناء مدينة أشير أولا باختيار الموقع ، فقد أحسن زيري اختيار موقع ممتاز على الحد الطبيعي الفاصل بين سهول التل الغربي وجبال القبائل الشرقية تحكم في الطريق الرابطة بين السواحل والجبال وتراقب رحل السهول[3]. وسنتطرق فيما بعد للمسافات التي تفصلها عن بقية المدن الأخرى .

ب- تعمير المدينة :

بعد اختيار الموقع المناسب حسب زيري بن مناد بدأت الاستعدادات للمرحلة العملية ، فقد « أمر زيري بإحضار البنائين والنجارين من حمزة والمسيلة وطبنة »[4]. فهل لنا أن نتساءل إذا ما كانت هذه المدينة اعتبرت نمطا خاصا ببلاد المغرب الأوسط وصنهاجية الطابع بالضبط، من خلال هذه المشاركة للمدن التي استعان بها زيري لتمويله بالبنائين والمادة الأولية من الأخشاب وغيرها ؟

---

[1] المصدر السابق ، ص 90 .

[2] المصدر السابق ، ج 2 ، ص 240 241 .

[3] شارل أندري جوليان : تاريخ إفريقيا الشمالية من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830، ترجمة محمد مزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر تونس ، 1983 ، ج 02 ، ص 87.

[4] النويري : نهاية الإرب النويري ، ج 24 ، ص 160 161 .

تواصلت العملية بتدعيم من السلطة الفاطمية، حيث أرسل الخليفة الثاني القائم بأمر الله (322-334هـ/ 934 - 946م) لزيري مساعدات تمثلت في مادة الحديد كما أرسل له مهندس مشهور« لم يكن بإفريقية أعلم منه »[1].

لقد كان زيري في حاجة إلى العمال والصناع محليا، ولكنه طلب إلى الخليفة الفاطمي أن يبعث إليه بمهندس معماري ليجري العمل في بناء أشير تحت إشرافه فأجاب بلاط الفاطميين طلبه[2].

هذه الاستعانة والتعاون الفاطمي الصنهاجي ، ستجعل الاختلاف يدور حول المدينة التي أسست في عام 324هـ/935 م[3]، إذ يرى بعض الباحثين من أن المدينة لم تبن لغرض عسكري ذلك أن « الصنهاجيين لم يكونوا قد أعلنوا تأييدهم للفاطميين حتى ذلك التاريخ ، بل كان نتيجة حتمية لما بلغه بعض الصنهاجيين من الثراء ، نالوه خاصة بانتصاراتهم المتواصلة على زناتة...»[4].

وإذا كنا لا نستبعد هذا الاحتمال ، فانتماء قبيلة صنهاجة للفاطميين لا يستوجب حتمية تأسيس مدينة أشير، واتخاذ الحذر من طرفهم لما يكون لهذا الانتماء من تبعات قد تهددها من طرف القبائل المعادية للفاطميين . فلا يمكن إغفال عوامل مثل ظهور الميول الصنهاجية نحو الترف ما دفعهم لتأسيس المدينة ؛ لكن في نفس الوقت لا يمكن لنا بأية حال من الأحوال تجاهل العوامل العسكرية والأمنية لدى هذه القبيلة كعوامل ملحة في تأسيس هذه المدينة ، لذلك فليس لسلطان أفضل من أن تكون له مدينة تكون دار عزه .

إن قراءتنا للمصادر تدل على أن الناس سكنوا المدينة لأغراض أمنية بالدرجة الأولى«...وقصدها أهل تلك النواحي طلبا للأمن والسلامة ، فصارت مدينة مشهورة »[5]. أما ابن خلدون فيقول أن زيري «اختط مدينة أشير للتحصن بها سفح الجبل المسمى تيطرا [كذا][6]...وحصنها بأمر المنصور، وكانت من أعظم مدن المغرب...»[7]، وكان هذا الجبل يبلغ ارتفاعه حوالي 1400متر على مستوى البحر ، وهي أعلى قمم الجبل (الكاف) الأخضر[8] .

---

[1] النويري : نفسه ، ج 24 ، ص 161 .

[2] موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول ، ص 107. إسماعيل العربي : عواصم بني زيري ملوك أشير ، القعة ، بجاية ، غرناطة ، المهدية ، دار الرائد العربي بيروت ، 1984 ، ص 14 15 .

[3] ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 216 .

[4] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 368 .

[5] ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 01 ، ص 202 203 .

[6] هو جبل تيطري

[7] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 6 ، ص 203 .

[8] إسماعيل العربي : عواصم بني زيري ، ص 15.

ج – أهميته موقع أشير وأبعادها :

يصف البكري حصانة المدينة فهي «جليلة حصينة يذكر أنه ليس في تلك الأقطار أحصن منها ولا أبعد متناولا ومراما، ولا يوصل إلى شيء منها بقتال إلا بموضع يحميه عشرة رجال ، وهو في شـــرقيها... وهي مع ذلك بين جبال شامخة محيطة بها دائرة عليها...»[1].

وموقع المدينة الهام تدل عليه الأبعاد التي تفصلها عن باقي المدن الرئيسية بالمنطقة ، فبالإضـــافة إلى مناعة الموقع ، فهي تقع على سهول التل الغربية ، تبعد عن مدينة المسيلة بمرحلتان ، وبين المدينتين منزل « يترله المار بينهما في وادي المالح...»[2]. هذه المدينة (المسيلة) سرعان ما يدب فيها عامل المنافرة بينها وبين مدينة أشير لما ستتمتع به قبيلة صنهاجة من حظوة لدى الفاطميين خاصة لدورها في ثورة أبي يزيد (صاحب الحمار)، وهوما يثير حفيظة بني حمدون بالمسيلة[3]. ويدخل هذا في إطار السياسة التي نهجها الخلفاء الفواطم ببلاد المغرب الأوسط من التفرقة بين القبائل .

وتبعد عن « تامزكيدا وبها عين ولها انهار عذبة مرحلة»[4]، وقد ذكر البكري ثلاثة طرق رئيسية لمدينة أشير:

1 – طريق من مدينة أشير إلى مرسى الدجاج[5] .

2 – وطريق ثان يتجه من مدينة أشير ويمر على مدينة المدية ، إلى جزائر بني مزغنى[6] .

3 – وطريق ثالث من تنس إلى أشير عبر مدينة مليانة[7].

هذا الموقع يجعل من مدينة أشير تكون في وسط شبكة طرق هامة ورئيسية بشمال المغربالأوسط، ويكون من السهل على المدينة أن تتحكم في الطريق الرابطة بين السواحل والجبال وتراقب رحل

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 241 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 88 . يجعل المقدسي المسافة بين المسيلة وأشير بثلاثة أيام ، ونحن نرجح ما ذهب إليه ابن حوقل الذي زار المنطقة فتكون تقديراته أدق . المقدسي : المصدر السابق ، ص 197.

[3] يبدأ نجم زيري بن مناد في البروز بعد أن دخل في طاعة المنصور ، وساعده في القضاء على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، فقلده المنصور سيفا وعقد له على صنهاجة وفي عام 342 هـ حضر مع المعز لدين الله عند دخوله المغرب ، وفي عام 346 هـ(عند المؤنس 346هـ وابن عذارى عام 347هـ) كان مع جوهر لما كان محاصرا لفاس وكان زيري سببا لفتحها . ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار افريقية ، ص 94 . ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 222 . الأزدي : أخبار الدول المنقطعة ، ج 1 ، ص 32 . إسماعيل العربي : عواصم بني زيري ، ص 22 .

[4] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 90 .

[5] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 246 .

[6] البكري : نفسه ، ص 247 .

[7] البكري : نفسه ، ص 241 251 .

السهول[1]، غير أن الموقع لم يكن ليخلو من عيوب ونقاط ضعف لم تكن لتسمح لمدينة أشير أن ترتقي إلى مصاف مدن الكرسي الملكي. والسبب يعود بالدرجة الأولى إلى أن المدينة تشرف على سهول شاسعة تسرح وتمرح فيها زناتة عرضة لضغط هذه القبيلة وتهديدها بقطع طرق القوافل عليها ومنع وصول المؤن إليها[2].

المدينة تكون قد تعرضت لعملية تخريب من قبل يوسف بن مناد بن زيري عام 367 هـ، لكنها استعادت مكانتها في عام 440هـ، وعاد الناس ليسكنوها في عام 455هـ[3]. وستعرف ازدهارا في أثناء حكم الحماديين، ولو أن دورها سيتراجع أمام ظهور مدينة القلعة.

ورغم هذا فإن هذه العوامل لم تمنع من أن تكون المدينة مثلما يصفها الإدريسي فيما بعد من أنها «حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف يجلب إليه كل لطيفة ويباع به كل طريفة...»[4]. ولعل موقع المدينة الهام بين ممرات التل ببلاد المغرب الأوسط ومناطق الساحل هي التي أهلت هذه المدينة من أن يكون لها هذا الدور.

ومثلما كان للمدينة مراحل للبناء كان لها أيضا مراحل للتعمير والإسكان، وقد عرفت المنطقة تحولا حضاريا لا نرى أنه و ليد هذه السياسة التي أدت إلى تأسيس المدن بقدر ما نرى أن هذه المدن كانت نتيجة لطبيعة القبيلة في حد ذاتها؛ فقد أشار جودت عبد الكريم إلى أن قبيلة صنهاجة عرفت فترة أمن وهدوء خاصة في القرن الثالث أوائل القرن الرابع « فمالت نفوسهم إلى ترك حياة الجبال والنزول في المدن»[5]. وبذلك تكون مظاهر الاستقرار أحد العوامل التي ساعدت على تطور مدينة أشير، وقد استفادت المدينة من توافد السكان عليها إما طوعا أو قسرا مثلما حدث لسكان تلمسان الذين رُحلوا إلى المنطقة من طرف بلكين عام 361 هـ، فتكون قوة القبيلة عاملا على بسط نفوذها على باقي العصبيات الأخرى ومنها قبيلة زناتة.

المدينة تلاشت نهائيا واختفى اسم أشير من التاريخ، حيث لم يعد لها شأن يذكر بعد القرن الخامس الهجري، إلا ما بقي من آثار للمدينة، نجدها في مواضع بمنطقة التيطري التي تتشرف على المناطق

---

[1] شارل أندري جوليان : المرجع السابق، ج 2، ص 93.

[2] إسماعيل العربي : المرجع نفسه، ص 16.

[3] البكري : المصدر السابق، ج01، ص 241.

[4] الإدريسي : المصدر السابق، ج 1، ص 254.

[5] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط، ص 369.

المستوية لجنوب مدينة الجزائر ؛ والتي تحتوي على ثلاثة أماكن أثرية ، والتي بالرغم من اختلافها في المظهر الخارجي إلا أنها تحمل نفس صفات التخطيط الإسلامية[1]، وهي :

د – بقايا أشير :

1 – مترة بنت السلطان[2] :

منطقة محاطة بسور من الحجارة بطول يبلغ 276 متر وهذا السور محاط بالوديان العميقة التي تتوجه إلى الشمال ومرتبطة بسلسلة وديان الكاف الأخضر، وهي خزان كبير يضمن المواد الغذائية وقد عثر بها على خرائب لقصبة .

2 – يشير :

موضع قريب من مترة بنت السلطان، على مسافة 12 كلم من الشمال الشرقي وعلى نفس السلسلة ، يظهر شكل مستطيل جزء من محيطه يقدر عرضه ب02 متر ومتباين الارتفاع ، ولا يظهر أي بناء فيه، حيث يوجد منبع مياه يسمى عين يشير في واد بجوار المنطقة ، وحسب النقيب رودي (Rodet) الذي زار المنطقة عام1908، فإن اسم أشير مأخوذ من المنطقة نفسها.

خارج المنطقة أجرى قولفن (M.L.Golvin)[3] حفريات وعثر على قصر حجري في تلك المنطقة شبيه بقصر الفاطميين بالمهدية . ويعتقد روجي إدريس أن هذا القصر قد يكون للقائد زيري .

3 – بنية :

موقع يقرب من يشير ب02 كلم ونصف، سورها دائري لها ثلاثة أبواب مخربة ، والشيء المكتشف بسهولة هو المسجد ؛ به فناء ، قاعة للصلاة ، وقد حدده مارسيه (G. Marçais) وعدد كبير من المنابع . وقد أشار البكري إلى أن مدينة أشير « داخل مدينتها عينان ثرتان لا يبلغ لهما غور ولا يدرك قعر، إحداهما تعرف بعين سليمان والأخرى بعين تالانتيرغ »[4].

---

[1] حول هذه الحفريات ، أنظر : . Encyclopédie de l'islam, nouvelle edition, tome 01, a-b, p. 721

[2] تقع قرب عين بوسيف الحالية في الجنوب الشرقي لولاية المدية .

[3] روجي إدريس : المرجع السابق ، ج 02 ، ص 95 . أنظر أيضا : Encyclopédie de l'islam, nouvelle edition, tome Lucien-Golvin , *Le Magrib Central A I.' époque Des Zirides / Recherche* 01, a-b, p. 721 . Et Rachid *D'Archéologie Et D'histoire. Arts Et Metiers Graphiques*. Paris, 1957,p.192-. 193. Bourouiba . *l'architecture militaire de l'algerie médiéval*. p180 181.

حيث قدم لنا قولفان تصميما دقيقا لقصر زيري .

[4] المصدر السابق ، ج 02 ، ص 241 .

يتفق أغلب الذين أجروا حفريات بالمنطقة أن مدينة أشير مرت على كل المراحل التي توضحها الآثار الموجودة ؛ فموضع متره بنت السلطان لا يشكل المدينة بل هو حصن مراقب لصنهاجة ، وبموضع يشير توجد قصور الأسرة الحاكمة التي أسسها زيري بن مناد ، وبمساعدة هندسية من إفريقية ، أما في موضع بنية، فإنها على الأرجح تكون مدينة اختطها بلكين وبنى سورها كما أشار إلى ذلك البكري الذي قال: «والذي بنى سورها بلجين يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي سنة سبع وستين وثلاثمائة...»[1]. وتكون بذلك مدينة أشير هي مجموع هذه المواضع الثلاثة التي أجريت فيها الحفريات[2]، والتي تتطابق ولو نسبيا مع ما جاء به أوصاف الجغرافيين لهذه المدينة وخاصة البكري منهم ، إلا أن سياسة تعمير المغرب الأوسط قد عرفت توسعا كبيرا و هاما على يد بلكين بن زيري .

– دور بلكين بن زيري في تعمير وبناء المغرب الأوسط :

ارتبطت المدن الثلاثة : المدية ، مليانة ، الجزائر، بشخص زيري بن مناد الذي كان من أعظم ملوك البربر وانحاز للفاطميين في حروبهم مع مغراوة ، ثم برزت أهميته أكثر في ثورة صاحب الحمار، فكافأه إسماعيل بن القائم المنصور (334هـ-341هـ/946م-953م) ، وكانت هذه المكافأة حسب ابن خلدون أن :« عقد له على قومه وأذن له في اتخاذ القصور والمنازل والحمامات بمدينة أشير. وعقد له على تاهرت وأعمالها »فأمر بعد ذلك ابنه بلكين باختطاط المدن الثلاثة :«...اختط ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر، ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ، ومدينة لمدية»[3] .

لم تكن هذه المدن محدثة ، بل يتعلق الأمر بتوسيع وتهيئة بعض التجمعات السكانية التي لم تبلغ بعد درجة المدن الكبرى أكثر مما يتعلق ببناء مدن جديدة من الأساس[4]. ولعل إعادة بناء ثلاث مدن وبأمر من السلطان لتدل على حالة الرفاهية والتمدن التي تكون هذه القبيلة قد وصلتها ، أو تدل على حجم المساعدة التي تكون الدولة الفاطمية قدمتها للزيريين ليقدموا على إنجاز هذا الحجم .

ثلاث مدن تم إحياؤها بقرار أميري بعد أن بنيت مدينة أشير ، وهي مراكز تنتشر على الطرق المتجهة إلى

---

[1] البكري : نفسه ، ج 02 ، ص 241 .

[2] بن النية رضا : صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80هـ-699م / 362 هـ- 973 م) دراسة اجتماعية ، رسالة ماجستير بكلية العلوم الاجتماعية قسم التاريخ بجامعة قسنطينة ، السنة 2005 / 2006 . لم تطبع .

[3] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 204 .

[4] الهادي روجي إدريس : المرجع السابق ، ج 01 ، ص 60 61 .

البحر[1]. كما أنها تمتعت بمقومات بشرية هائلة تمثلت في البطون المتشعبة لقبيلة صنهاجة التي كانت على استعداد لبعث حركة البناء لبلاد المغرب الأوسط . من هذه المدن :

أ – مليانة :

مدينة رومانية قديمة، وحسب أوصاف الجغرافيين فقد كانت « مدينة كبيرة من بنيان الروم جددها زيري بن مناد أيضا وفيها آثار قديمة »[2]، ورغم أن المدينة كانت بهذا الحجم ، إلا أنها لم تكن ذات أهمية تذكر في المرحلة التي تلت الفتح مباشرة . وكباقي المدن الرومانية القديمة ببلاد المغرب الأوسط فإن الروم اتخذوا من هذه المدن أماكن للتحصن بها أمام زحف الفاتحين المسلمين ، هؤلاء الذين حافظوا على المدن القديمة، حيث أثبتت الأحداث التاريخية في القرون التالية صلاحية هذه المدن للتجديد مرة أخرى . ولعل مدينة مليانة كانت أحد هذه النماذج .

موقع هذه المدينة أهلها أن تبرز في الجانب الاقتصادي أكثر من غيره ، فهي تبعد عن مدينة الخضراء بمرحلة، وإلى الجنوب منها يقع جبل وانشريس[3]، وتبعد عن تيهرت ثلاث مراحل ، وعن مدينة تنس مرحلتان[4]، ويدخل هذا المسلك في الطريق الرابط بين مدينة تنس إلى أشير[5] ، حيث تقع مجموعة من المدن التي تشتهر بكثرة أسواقها . فيما نجد تحديد ياقوت الحموي للمدينة كحد لبلاد إفريقية إذ يقول عنها : «مدينة في آخر إفريقية »[6]. كما أنها امتازت بموقع بين الجبل والسهول ، بين جبل زكار الغربي ، ومن جهة الغرب يقع نهر الشلف وروافده التي شكلت سهولا خصبة وواسعة .

المصادر التاريخية لا تقدم لنا ما يشير إلى ما يدل على مكانة هذه المدينة إلى غاية القرن الخامس الهجري ، لكن المصادر الجغرافية ورغم أنها لم تذكر خطط المدينة أو مرافقها الرئيسية إلا أنها تطرقت إلى

---

[1] موريس لومبار : المرجع السابق ، ص 107 .

[2] مجهول : الاستبصار ، ص 171 . يصفها ابن حوقل أيضا أنها : مدينة أزلية . أما البكري فيقول عنها أنها : أولية شريفة . ابن حوقل : صورة الأرض ، ص 90 . البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 251 . وهي إلى اليوم تعرف بنفس الاسم .

[3] الإدريسي : المصدر السابق ، ج01 ، ص 253 .

[4] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 257 . يحدد ياقوت الحموي المسافة بين مليانة وتنس بأربعة أيام . معجم البلدان ، ج 05 ، ص 196 .

[5] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 241 .

[6] ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 05 ،ص 196 .

الدور الاقتصادي لهذه المدينة ؛ ابن حوقل أشار إلى أن المدينة تكون قد استفادت من مصادر مياه احد مجاري نهر الشلف ، وكانت « لها أرحية على نهرها وسقي كثير من واديها...»[1].

وتكون المدينة قد حافظت على هذه الخصائص طيلة القرن الخامس الهجري ، وزاد نشاطها أكثر إذ أصبحت: «...عامرة آهلة على نهر، ولها آبار عذبة وسوق جامعة...»[2]، أما الإدريسي فكان أكثر شمولية لوصف المدينة التي تمتعت حسبه بموقع سمح لها أن تكون على تلك الدرجة من الرفاهية ، فهي «...حسنة البقعة كريمة المزارع ولها نهر يسقي أكثر حدائقها وجناتها وجانبي مزارعها ولها أرحاء بنهرها المذكور ولأقاليمها حظ من سقي نهر شلف...»[3].

والمدينة تمتعت أيضا بموقع وسط بين قبائل بربرية ، فقد كان لها من الأرباض ما جعلها سوقا كبيرة لهذه القبائل المحيطة بها ، حيث توفرت على « بساتين فيها جميع الفواكه ، وهي من أخصب بلاد إفريقية وأرخصها أسعارا . ومدينة مليانة مشرفة على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة وحولها قبائل كثيرة من البربر»[4]. وقد ازدادت أهمية المدينة أكثر في عهد الحماديين ، وأصبحت تابعة لبجاية ، حيث يشير القزويني إلى أن مليانة : « مدينة كبيرة بالمغرب من أعمال بجاية مستندة إلى جبل زكار...»[5] .

إن هذه الخصائص العامة للمدينة جعلها تكون مدينة- سوقا أكثر من أي دور آخر يمكن لها أن تؤديه. وهذا بسبب توفر المياه ، والمزارع ، وتوفر العنصر البشري المتمثل في القبائل التي كانت تقطن بنواحي هذه المدينة، فضلا عن أن المنطقة عرفت كنقطة اتصال بين المنطق الساحلية والمناطق التلية لبلاد المغرب الأوسط.

ب – المدية :

اقترنت هذه المدينة بالمدن التي جددها الزيريون ، وبالنسبة للمدية فهي لا تختلف كثيرا عن مليانة من حيث قلة المصادر التاريخية التي تطرقت لها ، وإلى غاية حوالي 350 هـ، لم يرد ذكر لهذه المدينة التي

---

[1] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 90 .

[2] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 251 .

[3] المصدر السابق ، ج 01 ، ص 253 .

[4] مجهول : الاستبصار ، ص 171 .

[5] القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص 273 .

تعتبر قديمة بناها الرومان . غير أن مدينة المدية ارتبطت بالقبيلة المؤسسة لها مثلما ارتبطت بشخص المؤسس بلكين بن زيري، فالقبيلة التي أسست المدينة هي: « لمدية[1] . وهم بطن من بطون صنهاجة...»[2] .

المدينة أعيد بناؤها مع مدينتي مليانة والجزائر بأمر من زيري بن مناد . ومثل مليانة كانت المدية تقع في منطقة غنية بالموارد المائية، والسهول الواسعة، والموقع الوسط بين القبائل البربرية الصنهاجية المستقرة هناك وينفرد البكري بذكر حدود هذه المدينة التي تقع على الطريق بين أشير ومدينة جزائر بني مزغنة ، إلا أنهذكرها باختصار شديد ، ويكتفي بالقول أنها : « بلد جليل قديم ، ومنها إلى قزرونة »[3] .

ج – جزائر بني مزغنة :

مدينة الجزائر ترد في النصوص التاريخية والمصادر الجغرافية بصيغ مختلفة : فنجدها بلفظ : جزائر بني مزغناي عند كل من ابن حوقل[4] وصاحب كتاب الاستبصار[5]. أما المقدسي[6] فترد عنده بلفظ : جزيرة بني زغناية ، ويسميها البكري[7] : جزائر بني مزغنى ، وأوردها ياقوت الحموي بلفظ : جزائر بني مزغناي[8]، فيما ترد المدينة باسم : الجزائر عند الإدريسي[9] .

ثالث المدن الصنهاجية التي أعيد بناؤها بتكليف من طرف زيري بن مناد لابنه بلكين ، والمدينة ارتبطت بصورة مباشرة بالقبيلة الصنهاجية التي أسستها ، وهي قبيلة بني مزغنة[10]. وأصبحت بعد ذلك تعرف بجزائر بني مزغنة ، لكنها تختلف عن سابقاتها في كونها حظيت باهتمام الجغرافيين الذين لم يغفلوا ذكر هذه المدينة القديمة التي كانت رومانية ، ومحاطة بسلسلة من المدن القريبة منها. فهي : « مدينة جليلة

---

[1] في النسخة الباريسية : لمدرية ، وفي النسخة التونسية : لمدية ، وفي نسخة أخرى لمدونة . أنظر : ابن خلدون . ديوان العبر ، ج 06 ، ص 204 هامش المحقق رقم 01 . روحي إدريس : المرجع السابق . ج 01 ص 60 ، هامش رقم 82 . ولا زالت إلى اليوم تعرف بنفس الاسم.

2 ابن خلدون : نفسه ، ج 06 ، ص 204 .

[3] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 247 . مدينة قزرونة : هي مدينة البليدة حاليا كما كانت تسمى أيضا مدينة متيجة .

[4] المصدر السابق ، ص 76 .

[5] المصدر السابق ، ص 132 .

[6] المصدر السابق ، ص 184 .

[7] المصدر السابق ، ج02 ، ص 247 .

[8] المصدر السابق ، ج 02 ، ص 132 .

[9] المصدر السابق ، ص 258 .

[10] بني مزغنة : تعتبر من بطون قبيلة صنهاجة ، والتي لها أعقاب منهم متنان و أنوغة وبنو مزغنة وبنو جعد و تلكاتة وبطوية ... هذه القبائل تنتشر مواطنهم بين المسيلة إلى حمزة إلى الجزائر ولمدية ومليانة . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 202 203 .

، قديمة البنيان . فيها آثار للأول وآزاج محكمة تدل على أنها كانت دار مملكة ...»[1]، كانت تسمى في العهد الروماني مدينة إكوسيوم (Icosium) ، وقبل أن يعاد بناء هذه المدينة من طرف بلكين بن زيري ، كانت سوقا مزدهرة لقبائل المنطقة التي تمارس الزراعة ، كما تمتعت بمناعة الموقع بالإضافة إلى أن السكان أحاطوها بالسور. فقد أشار ابن حوقل إلى أن المدينة : « عليها سور على سيف البحر أيضا وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها ولها بادية كبيرة وجبال فيها من البربر كثرة...»[2] ، هذه البادية التي أشار إليها الكاتب المجهول ، أنه «فحص[3] كبير يسمى فحص متيجة ، وهو فحص عظيم كثير الخصب والقرى والعمائر تشقه الأنهار...»[4].

تحافظ المدينة على هذا الدور الحيوي الذي كانت تؤديه ، لما كانت تتمتع به من منعة طبيعية ، وقربها من الساحل ، وإحاطة القبائل بها، وتصبح معبرا هاما إلى بلاد الأندلس في القرن الرابع، فهذا المقدسي الذي كان وصفه للمدينة مقتضبا، يقول عنها: « جزيرة بني زغناية [كذا] على ساحل البحر مسورة يعبر منها إلى الأندلس ولهم عيون »[5]، تواصل جزائر بني مزغنة نموها خلال القرن الخامس وتصبح « فرضة[6] مشهورة من عمل بجاية... وفي آخر حد مملكة بجاية »[7]، فازدهار المدينة التي تصبح من أهم الموانئ التجارية للدولة الحمادية وتكون مقصدا للتجار من إفريقية وبلاد الأندلس ، وخاصة بعد انضمامها إلى الحلف الصنهاجي[8] ، كما لم تتأثر بالأحداث السياسية كثيرا ، فقد « كانت بين ملوك زناتة في قديم الزمان وحديثه ، وبين أمراء صنهاجة جيرانهم بالحدود المسيلية : من مليانة، والجزائر و الحدود التاهرتية، فما وراءها حروب عظيمة ، وأضرار متصلة ، وحسائف ظاهرة وكامنة...»[9]،ثم كان الصراع الذي اندلع فيما بعد لخلافة الفاطميين بعد رحيلهم إلى المشرق ، فبقيت « لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون،

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 247 .

[2] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 76 .

[3] الفحص : كل موضع يسكن ، وهي مواضع بالمغرب وبلاد الأندلس . الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، ص 562 .

[4] كاتب مجهول : كتاب الاستبصار ، ص 132 .

[5] المقدسي : المصدر السابق ، ص 184 .

[6] الفرضة : الفرضة من النهر ثلمة تسقى منها . والفرضة من البحر محطة السفن . الفيروزأبادي : نفسه ، ص 584 .

4عماد الدين إسماعيل : كتاب تقويم البلدان ، ص 137 .

[8] بن النية رضا : صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر 80هـ699م / 362هـ973 دراسة اجتماعية ، مذكرة شهادة الماجستير ، ص 52 53 .

[9] ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، ص 62 63 .

ولها أسواق ومسجد جامع... ومرساها مأمون ، له عين عذبة ، يقصد إليه السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما »[1] .

ازدادت الأهمية الاقتصادية للمدينة بفضل مرساها الذي لم يتأثر بباقي المراسي القريبة منه ؛ « فمن شرشال إلى الجزائر لبني مزغنا سبعون ميلا...ومن الجزائر إلى تامدفوس شرقا ثمانية عشر ميلا...»[2]. أما العاصمة بجاية فتبعد عنها أربعة أيام[3]، كما كانت الطرق تربطها بكل من مدينة أشير عبر المدية، العاصمة بجاية فتبعد عنها أربعة أيام[4]، كما كانت الطرق تربطها بكل من مدينة أشير عبر المدية ، ومتيجة[5].

هذه الطرق تدل على مدى الأهمية التي كانت تتمتع بها مدينة الجزائر ، سواء في أنشطة مرساها البحري عن طريق التجارة البحرية بتصدير منتجاتها ناحية الأندلس ولإفريقية ، أوفي علاقاتها مع بقية مدن الساحل وكذا مع المدن الداخلية التي لم تكن أقل أهمية منها ، التي شكلت مدينة الجزائر واجهة بحرية هامة لهذه المدن .

ويؤكد هذه الحقيقة كريستيان كورتوا (c.courtois) حول العلاقات الأندلسية المغربية في أوائل العصر الوسيط وفيه يقول أن مدينة الجزائر التي « طورها بلكين بن زيري قد أصبحت تقوم بدور مماثل للدور الذي قامت به مدينة شرشال في العصر الروماني ، ومدينة تنس في عصر اليعقوبي ، ذلك أن مدينة الجزائر قد صارت تمثل نقطة الاتصال بين المسالك البحرية في أعالي البحار وبين المسالك البحرية الساحلية »[6]. ونجد أن هناك اتفاق بين هذا الرأي والأوصاف والشهادات التي وردت في المصادر الجغرافية التي كتبت عن مدينة الجزائر ومكانتها التجارية ، و التي ازدهرت نتيجة خصوبة المنطقة ووفرة إنتاجها الذي كان يبحث عن ميناء يصدر منه هذه المنتجات ، وهذا يؤكد أهمية الدولة في تطور إقليم المنطقة في الجوانب الاقتصادية برعايتها لهذه الجوانب . بل إن العلاقة تكون أكثر وثاقة بين قوة الدولة و قوة اقتصادها .

بعد عام 474هـ، تصبح تحت سيطرة المرابطين حيث وصل نفوذهم للمدينة ، وأسسوا أهم منشأة معمارية بالمدينة والمتمثلة في الجامع الأعظم . وحسب رشيد بورويبة[7] يكون هذا المسجد قد بني في

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 247 . ينقل عنه صاحب كتاب الاستبصار نفس هذه الأوصاف . أنظر: الاستبصار ، ص 132 .

[2] الإدريسي : المصدر السابق ، مج ، 01 ، ص 258 .

[3] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، مج 02 ، ص 132 .

[4] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، مج 02 ، ص 132 .

[5] البكري : المصدرالسابق ، ج 02 ، ص 247 .

[6] روجي إدريس : المرجع السابق ، ج 02 ، ص 293 294 .

[7] Rachid Bourouiba , *L'Art Religieux Musulman En Algérie*,p. 103- 105 .

عام 490 هـ/ 1096م ، من طرف يوسف بن تاشفين . وهو من اكبر المنجزات المعمارية المرابطية ببلاد المغرب بالإضافة إلى مسجد تاقرارت بتلمسان .

3 – القلعة (قلعة بني حماد)[1] :

1 – التأسيس :

بعد أن قارب القرن الرابع الهجري على الانتهاء بعامين كانت قبيلة صنهاجة قد شرعت في بناء إحدى أهم منجزاتها العمرانية والمتمثلة في بناء مدينة القلعة ، المدينة التي تعتبر من أهم النماذج لمدن المغرب الأوسط المحدثة، وهي واحدة من أكبر المدن التي نالت حظا كبيرا من الحفريات التي جرت ببلاد المغرب، حيث وضعت لها تصاميم بكل المرافق التي احتوتها ووصفت من طرف المؤرخين وخاصة الجغرافيين . وأهم هذه الحفريات هي تلك التي قام بها كل من القائد دوبايلي(.Général L . de Beylié) ، في كتابه : قلعة بني حماد ،La Kalaa Des Beni-Hammad[2] :، ثم جاءت دراسة المؤرخ قولفان: المغرب الأوسط في العهد الزيري Lucien-Golvin : Le Magrib Central A L' epoque Des Zirides .

وكان اختطاط المدينة وتأسيسها قد ارتبط بظروف سياسية تميزت خاصة بتخلص حماد بن بلكين من وصاية باديس بن المنصور، ورغم حداثة عهد قبيلة صنهاجة بالملك والترف إلا أن بدايتهم في تأسيس الملك كان مقترنا بالبناء واختطاط المدن .

بالنسبة للسنة التي شرع فيها في البناء فالمصادر جلها تتفق على أن ذلك كان في عام 398 هـ/1007م-1008م . باستثناء ياقوت الحموي الذي يقول أن مؤسس المدينة حماد بن بلكين : « هو أول من أحدثها في حدود سنة 370 هـ...»[3] .

---

[1] تقع هذه المدينة في الطريق بين مدينة بريكة والمسيلة حاليا و بعد عن المسيلة مسافة 36 كلم عبر طريق يؤدي إلى المعاضيد ، حيث نجد خرائب المدينة المصنفة ضمن التراث العالمي لليونسكو .

[2] Général L. De Beylié , *La Kalaa Des Beni-Hammad, Une Capitale Berbère De L'Afrique Du Nord Au 10e Siècle*, Paris , 1909 .

[3] ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 04 ،ص 390 . الهادي روحي إدريس لا يستبعد أن تكون هذه السنة مرجحة لبداية عمليات البناء ، فحسبه انه لا يوجد ما يدعو لرفض هذا الإدعاء . أنظر : الدولة الصنهاجية ، ج 02 ، ص 98 .

ب – اختيار موقع البناء :

لقد اختار حماد بن بلكين مكانا كان القصد منه بالدرجة الأولى البحث عن المناعة و الحصانة لمدينته التي سيتخذها دارا لملكه ؛ فقد « اختطها حماد للتحصن والامتناع »[1] فكان اختياره في محله ، فالمدينة تقع في أسفل الجبل المنسوب لقبيلة عجيسة[2] المسمى تاقربوست[3]، وهو الجبل الذي لجأ إليه أبي يزيد مخلد بن كيداد في أيام ثورته على الفواطم ، وفي هذا الجبل كان الإمام إسماعيل يلاحق أبا يزيد النكاري في عام 335 هـ« وصعد في وعر بين صخور ومشى فيها راجلا في أماكن كثيرة...» وفي هذا الجبل كذلك حوصر أبا يزيد وضيق عليه «...وارتفع أبو يزيد ودخل قلعة كيانة وهي تاقربوست المطلة على قلعة حماد...»[4]. و يقول ابن الأثير عن هذه المدينة أنها : « من أحصن القلاع وأعلاها لا ترام ، على رأس جبل شاهق يكاد الطرف لا يحققها لعلوها ، ولكن القدر إذا جاء لا يمنع منه معقل ولا جيوش...»[5].

بعد أن أسس حماد المدينة لجأ إلى تحصينها بسور من الحجارة والذي استدار بجميع جبل تاقربوست[6]. ويخبرنا ابن حماد أن بناء السور كان «على يد مملوك لهم رومي يقال له »[7]، واشتمل هذا السور على ثلاثة أبواب هي : باب الجنان في الناحية الجنوبية الغربية ، وباب جراوة في الناحية الجنوبية الشرقية ، وباب الأقواس في الناحية الشمالية ، هذه الأبواب كشف عنها القائد دوبايلي (Général L . de Beylié.) الذي أجرى حفريات بمدينة القلعة عام 1908، واستنتج أن باب الجنان يكون مقابلا لمدينة المسيلة ، أما الباب الثاني وهو باب جراوة فوضع مقابلا للطريق نحو برج الغدير[8]، ومنطقة الحضنة[9].

---

[1] ياقوت الحموي : نفسه . مج04 ، ص 390 .

[2] يقول ابن خلدون عن هذه القبيلة : هم من بطون البرانس من ولد عجيسة من برنس ومدلول هذا الاسم البطن ، فإن البربر يسمون البطن بلغتهم عدّس بالدال المشددة ، فلما عربتها العرب قلبت دالها جيما مخففة ، وكان لهم من البربر كثرة و ظهور . و يضيف أن أبي يزيد لجأ إليهم و اعتصم بقلعة كيانة (هي نفسها جبل كيانة ، و ترد في نسخ أخرى قلعة كتامة) من حصونهم حتى اقتحم عليه . العبر ، ج 06 ، ص 192 .

[3] تاقربوست كلمة بربرية تعني السرج .

[4] ابن حماد الصنهاجي : أخبار ملوك بني عبيد ، ص 72 .

[5] الكامل في التاريخ ، ج 09 ، أحداث عام 547هـ .

[6] الإدريسي : المصدر السابق ، ج01 ، ص 255 .

[7] ابن حماد الصنهاجي : المصدر السابق ، ص 42 .

[8] مدينة الغدير : يقول عنها البكري أنها مدينة كبيرة أولية بين جبال فيها عين ثرة عذبة عليها الأرحاء وعين أخرى ... ومن هناك نهر سهر . ومدينة الغدير جامع و أسواق عامرة و فواكه كثيرة و هي رخيصة الطعام و اللحم وجميع الثمار . قنطار عنب فيها بدرهم . وسكانها هوارة يعتدون في ستين ألفا . المصدر السابق ، ج 01 ، ص 240 .

[9] Général L. De Beylié,Op,Cit,P. 33 .

وتعتبر حفريات دوبايلي ، التي تناولها في كتابه : قلعة بني حماد ، La Kalaa Des Beni-Hammad أهم الحفريات التي أجريت بالمدينة ، ثم جاءت دراسة المؤرخ قولفان الذي أضاف لتلك الحفريات دراسة في كتابه[1] عن : المغرب الأوسط في العهد الزيري ، وقد أشار المؤرخ والأثري الجزائري رشيد بورويبة إلى هذه الحفريات والتي لخصها في كتابه : الدولة الحمادية ، تاريخها وحضارتها[2] .

ج- تعمير المدينة :

بعد أن أصبحت المدينة مشيدة ومهيأة للسكن لجأ حماد إلى سياسة التعمير والتي كانت في بعض الأحيان قسرية للقبائل المجاورة لمدينته الجديدة ، ويقول ابن خلدون أن حماد « نقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة وخربهما . ونقل جراوة من المغرب و أنزلهم بها...»[3]. وبغض النظر عن هذه السياسة التي قام بها الحكام لتعمير المدن المنشأة ، فإن عوامل أخرى قد تكون قد لعبت دورا آخر لكن المصادر التاريخية تكون قدر أغفلته وتتمثل في تأثير الجوائح والمجاعات في تغيير طبيعة العمران ، ومن هنا نتساءل عن مدى تأثير الغلاء الذي « شهدته إفريقية عام خمسة و تسعين (395هـ) والذي أعقبه وباء عظيم حيث كان يدفن في اليوم الألف والأكثر والأقل »[4] على ازدياد عدد سكان المدينة ؟

فلاشك أن المدينة قد استفادت من توافد هؤلاء السكان الذين اختطوا مساكنهم في أحياء خاصة بهم ، بدل النمط الذي كانت عليه في السابق فلا ننسى وأن الإمام الفاطمي إسماعيل « أحرق فيها أخصاصا كثيرة لأصحاب أبي يزيد...»[5]، وطبقا لهذه الرواية ، فهل وجد في الموضع الذي اختطت فيه القلعة عمرانا سابقا.؟

والراجح أنها كانت مكانا لعدة حصون كانت موجودة في ذلك الموقع قبل إنشاء عاصمة بني حماد مثلما يرى روجي إدريس[6]، ومهما يكن الأمر فإن القلعة اختطت لتكون عاصمة للدولة أكثر من أن تكون مدينة تتجمع فيها القبائل الموالية للسلطة الحمادية فقط ، هذه القبائل التي تكون قد سكنت في الأحياء المخصصة لهم بعيدا عن المرافق الأخرى مثل قصور الأثرياء ، وكبار القادة وغيرهم .

---

[1] *Le Magrib Central A L'époque Des Zirides*

[2] رشيد بورويبة : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر: 1977

[3] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 227 .

[4] النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 278 .

[5] ابن حماد الصنهاجي : المصدر السابق ، ص 72 .

[6] روجي إدريس : المرجع السابق ، ج 02 ، ص 98 .

غير أن ظروفا تاريخية أخرى هي التي سترفع قلعة بني حماد إلى مصاف المدن الهامة و الرئيسة ليس فقط ببلاد المغرب الأوسط بل حتى في إطار العالم الإسلامي ، وهذا عقب عمليات التخريب التي تعرضت لها القيروان من طرائف بني هلال. وأصبحت القلعة « قبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد...»[1]. وأصبحت عنصر جذب للسكان خاصة القيروانيين منهم فبعدما عاثت هذه القبائل فسادا في تلك البلاد لم يجدوا بديلا عن اللجوء إلى مكان آمن ، و لم يكن هذا المكان إلا في مدينة القلعة التي « انتقل إليها أكثر أهل إفريقية ، وهي اليوم مقصد التجار ، وبها تحل الرجال من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب »[2].

أما عن عدد سكان هذه المدينة، فيقول ابن الخطيب أن الناصر بن علناس لما استقام له الأمر:«كره مجاورة بني حماد أكناف القلعة المنسوبة إليهم . إذ كان يسكنها من فرسان صنهاجة اثنا عشر ألف فارس فارس...»[3].

إن هذا الرقم ومهما تكن صدقية الرواية التاريخية له فإنها تعبر عن عدد كبير من السكان الذين يحتاجون فعلا إلى مدينة تتسع لهم ، ذات مرافق مختلفة وعديدة ، توزعت على المدينة . غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل أن هؤلاء الفرسان كانوا يقطنون القلعة المجاورة للمدينة ؟ أم كانوا يقطنون المدينة في حد ذاتها ؟

فالراجح كما قلنا أن قلعة بني حماد كانت تتشكل من المدينة التي احتوت على القصور والبيوت والصهاريج والأحواض والأحياء والغرف التي عثر عليها في مختلف الحفريات التي سنعرفها خاصة في قصور المدينة . وكان لها بالإضافة إلى ذلك قلعة تابعة لها ، وهي مدينة القلعة التي ربما درج المؤرخون والجغرافيون على ذكرها لأنها الأكثر شهرة باسم القلعة أكثر من المدينة وهذا قد يعود بالدرجة الأولى إلى الدور الدفاعي الكبير الذي يكون قد طغى على المدينة أكثر من أي شيئ آخر.

وإذا كانت المصادر التاريخية والجغرافية تعطينا أوصافا أكثر عن الدولة ومرافق السلطان خاصة القصور الكثيرة ، فإن توافد السكان والقوافل والتجار من إفريقية والمغربين الأوسط والأقصى ومن صقلية ومن الأندلس بعد المائة الرابعة حيث جرت حرب أهلية بقرطبة والمعروفة بالفتنة البربرية[4]، هذه العناصر

---

[1] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 261 .

[2] البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 226 .

[3] ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعما الأعلام ، ص 94 .

[4] عبد العزيز فيلالي : قلعة بني حماد الحاضرة الاقتصادية و الثقافية للمغرب الأوسط خلال القرن 05هـ/11م .مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد السابع ، شوال 1427/نوفمبر2006 ، ص 10 .

البشرية الوافدة على المدينة هي التي جعلتها « من أكبر البلاد قطرا وأكثرها خلقا وأغزرها خيرا وأوسعها أموالا وأحسنها قصورا ومساكن...»[1]. ويكون هؤلاء الوافدون قد شكلوا مختلف طبقات مجتمع المدينة الذي زاد مع ازدياد رواج التجارة ونمو الاقتصاد.

أخذت المدينة في الاتساع والنمو بفضل تزايد السكان فيها ، واستقطابها للحركة الاقتصادية في بلاد المغرب وغيره من البلدان الأخرى فكانت الحاجة ماسة إلى بناء مرافق جديدة لهؤلاء السكان مما دفع القائد حماد إلى الاستكثار من « المساجد والفنادق ، فاستبحرت في العمارة واتسعت في التمدن . ورحل إليها من الثغور والقاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفاق أسواق المعارف والحرف والصنائع بها »[2] .

د – أبعاد المدينة :

لقد ساعد مدينة القلعة موقعها الهام على أن تكون كذلك ، فهي غير بعيدة عن مدن الساحل ، ولها علاقات تجارية مع مدن الصحراء ، كما أنها في خط واحد مع مدن التل التي كان يسيطر عليها الحماديون ؛ فهي تبعد عن مدينة المسيلة غربا مسافة اثنا عشر ميلا حسب الإدريسي ، وعن الغدير مسافة ثمانية أميال[3]، وعن بجاية تبعد القلعة مسافة أربع مراحل[4] .

وبحكم تبعية مدينة ورجلان للدولة الحمادية فيقدر البكري المسافة بين قلعة أبي طويل ووارجلان مسيرة ثلاثة عشر يوما[5]. أما بعدها عن مدينة بسكرة فيقدرها ياقوت الحموي بمرحلتان ، وبينها وبين سطيف ثلاث مراحل[6]، ولها طريقان نحو القيروان عبر مسلك قديم يمرعبر طبنة ونقاوس وبلزمة وقاسان وباغاية وتبسة[7]. أما الطريق الثاني نحو القيروان فيمر عبر تيفاش ، وتيجيس ثم النهرين ودكمة والغدير ومنها إلى قلعة أبي طويل[8] .

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق . ج 01 ، ص 255 .

[2] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 227 .

[3] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 261 . لكن المسافة الحقيقة بين المسيلة والقلعة أكثر من ذلك وهي أكثر من 30 كلم .

[4] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تح خليل عمران المنصور ، دار الكتب العلمية لبنان : 1998، ص 256.

[5] البكري : المصدر السابق ، ج02 ، ص 371 .

[6] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 04 ، ص 390.

[7] البكري : المصدر نفسه ، ج 02 ، ص 226 227 .

[8] البكري : نفسه ، ج 02 ،ص 231 232 .

إن هذا الموقع الممتاز الحصين الذي تميزت به المدينة بالدرجة الأولى ، هو الذي شجع السكان على الاستقرار فيها حيث انتقل إليها كثير من سكان البوادي وغير البوادي كما سبق ذكره « فعمرت بلادهم وكثرت أموالهم »[1] .

هـ – مسجد المدينة :

يشكل جامع قلعة بني حماد أهم معلم بها ، وهو لا يزال شاهدا على شموخه إلى اليوم ، تدل عليه منارته التي ذكرها ابن خلدون في كتابه عن العمران البشري ، إذ عده من البناءات التي تلفت النظر والتي يعتقد البعض من أنها من أنواع البناءات العظيمة في التاريخ ، هذا النوع من البناء يرى ابن خلدون أنه يحتاج إلى ملك كثير، وإلى صناعة هندسية متقنة واستعمال للحيل وبعد أن يذكر مباني قوم عاد وإيوان كسرى، فهو يقول عن عمران الحماديين«...والصنهاجيين وأثرهم باد إلى اليوم في صومعة قلعة بني حماد...»[2] .

مسجد القلعة جرت فيه العديد من الحفريات أهمها تلك التي قام بها القائد دوبايلي عام 1908 ، وهو يتربع على مساحة مستطيلة تمتد على (66 مترعلى 54 متر)، ويتكون من منارة، وصهريج، وفناء، وداخل بيت الصلاة بناء عبارة عن مقصورة للصلاة[3]، فيما قدر قولفان مساحة فناء هذا المسجد ب(25 متر)كما أشار إلى أن مسجد القلعة شبيه بمسجد القيروان[4]. أما رشيد بورويبة والذي أجرى هو الآخر مجموعة من الحفريات في هذا المسجد وقدر سمك جدرانه ومساحته العامة ومكوناته فهو يرى أن المسجد لم تكن فيه المقصورة التي أشار إليها دوبايلي، وما وجد عبارة عن مسجد صغير بني داخل المسجد الكبير الأصلي بني بعد رحيل الحماديين إلى بجاية وقل عدد سكان القلعة[5].

غير أننا نستبعد مثل هذا التفسير لأن قلة عدد السكان لا يمكن أن يؤثر في مساحة عمران المسجد حتى ولو كان الوافدون الجدد من القبائل الموغلة في البداوة والتي صلح إسلامها بعد أن استقرت ببلاد المغرب، فيمكن أن يؤثر قلة سكان المدينة في تراجع نشاطاتها أو حتى اندثارها دون أن يؤثر في طبيعة تركيب المسجد ، خاصة و أن قلعة بني حماد ظلت تلعب دورا محوريا في تاريخ الدولة الحمادية حتى بعد

---

[1] النويري : نهاية الإرب في فنون الأدب ، ج 24 ، ص 231 .

[2] ابن خلدون : المقدمة ، ص 381 382 .

[3] De Beylié , Op,Cit ,P. 77- 78.

[4] Lucien-Golvin, Op,Cit, P.183- 184 ..

[5] رشيد بورويبة : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، 1977 ، ص 211 212 .

انتقال الأسرة الحاكمة إلى بجاية . ومن خلال شواهد سجلات الجنيزة والمصادر الأدبية فقد وجد في مدينة القلعة التي كانت عاصمة بني حماد أنه كانوا يصنعون لبادا رائعا ، أطلقوا عليه اسم الطالقان[1]، ويعتقد أن هذه الصناعة فارسية الأصل ، وكانت مشهورة بإيران نعرف مدى الانتشار الذي وصلت إليه هذه المدينة في أوج ازدهارها .

و- قصور القلعة :

تحدثنا المصادر التاريخية على أن المدينة بعدما زاد عمرانها ، أصبحت تشتمل بالإضافة إلى بيوت السكان على الكثير من المبان العظيمة والقصور التي شيدت بإتقان لدرجة أنها لفتت أنظار الرحالة والجغرافيين الذين وصفوا بعض هذه القصور بإعجاب، هذه القصور كانت مبنية في المدينة التي تكون قد بنيت بجوار القلعة، ويذكر ابن خلدون أن القادة الحماديين خاصة الناصر وابنه المنصور الذين يعود إليهما الفضل في تشييد قصور القلعة، كانا مولعين بالعمارة، فالمنصور« تأنق في اختطاط المباني وتشييد المصانع واتخاذ القصور وإجراء المياه في الرياض والبساتين. فبنى في القلعة قصر الملك والمنار والكوكب وقصر السلام وفي بجاية قصر اللؤلؤة وقصر أميمون »[2].

وقد أجريت العديد من الدراسات والحفريات في مدينة القلعة ، وكانت في أغلبها توافق أوصاف المؤرخين والجغرافيين الذين وصفوا عمران المدينة وأهم هذه القصور هي :

1 - قصر دار البحر :

يقول صاحب كتاب الاستبصار الذي ذكر قصور القلعة واقتصر على وصف قصر البحر:«...هذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف، وفيه قصور غير هذا ، ومبان عجيبة...»[3]، وقد قال دو بايلي الذي أجرى حفريات حول هذا القصر، وقام بوضع تصميم لقصر دار البحر(Le Palais Dar-el-Bahar) أنه صمم أساسا للسلطان وهو مخصص للاستقبالات، ويكون الحماديون قد أحاطوه بمجموعة من الحدائق[4]، كما يحتوي على العديد من القاعات والصهاريج والأحواض

[1] حوانيان : دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ترجمة وتحقيق ، عطية القوصي ، وكالة المطبوعات الكويت ، 1980 ، ص 174 .

[2] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج06 ، ص 232 .

[3] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 168 .

[4] De Beylié Op,Ccit.P. 53 ... 71.

للتزود بالمياه ، وغيرها من المرافق التي تناسب أناقة قصور الحكام[1]، هذه القصور التي تعبر وتناسب درجة الرقي الذي وصلته قبيلة صنهاجة .

وقد توصل رشيد بورويبة[2] إلي نتيجة تتمثل في أن الحفريات التي قام بها دوبايلي لم تكن مكتملة واشتملت على جزء فقط من القصر العظيم ، فيما قام دوبايلي باستكشاف قسم منه فقط ، هو القسم العلوي من الجدران ، واستكمل بورويبة باقي الجزء من قصر دار البحر .

2 – قصر المنار:

من أهم قصور القلعة ، والذي يشتمل هو الآخر على العديد من المرافق وقد شهد هو الآخر حفريات قام بها كل من القائد دوبايلي، وقولفان، ورشيد بورويبة، فدوبايلي وضع تصميم لهذا القصر ويقول أنه بني بالحجارة المنحوتة[3]، وقد يعود ذلك إلى أن المنطقة طابعها صخري وهو متوزع على العديد من الغرف، وكانت تتمتع بنظام خاص للمياه لوجود الكثير من الأحواض والقنوات بجوارها.

ونفس المخطط الذي وضعه القائد دوبايلي نقله عنه قولفان[4]. أما حفريات رشيد بورويبة التي قام بها في عام 1971 فلخص هذه الحفريات بطريقة أكثر تفصيلا ، خاصة فيما تعلق بمباني القصر وغرفه ، وقدر أشار إلى نقائص الحفريات السابقة التي لم تكشف عن القسم الجنوبي الغربي لهذا القصر الكبير[5] .

3 – قصر السلام :

يقع هذا القصر حسب حفريات قولفان التي قام بها في عام 1952 بجوار باب الجنان ، هذا القصر كان مزودا بالكثير من المخازن والمطامير، ووضع له تصميم في عام 1956[6]، وقد أشار رشيد بورويبة[7] إلى أن هذه الحفريات هي الأخرى لم تكتمل وهذا بعد أن أجرى هو الآخر استكشافاته بالقلعة .

تتفق الشواهد التي عثر عليها بقصور القلعة على ما جاء به الجغرافيون من أوصاف لقلعة بني حماد والتي تميزت بقدرتها على تخزين المواد الفلاحية والغذائية خاصة دون أن تتعرض للتلف بعد مجموعة من

---

[1] Lucien-Golvin, *Le Magrib Central A L' époque Des Zirides*..P. 189 .

[2] رشيد بورويبة : الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها ، ص 266 269 .

[3] De Beylié. Ibid , P. 39 .

[4] Lucien-Golvin,Ibid . P. 187 .

[5] رشيد بورويبة : المرجع السابق . ص 254 266 .

[6] Lucien-Golvin , *Le Magrib Central A L' époque Des Zirides*, P. 190 .

[7] رشيد بورويبة : المرجع نفسه ، ص 270 .

السنين . فالإدريسي يقول عن سكان القلعة : «كانت ذخائرهم مدخرة وجميع أموالهم مختزنة ودار أسلحتهم والحنطة تختزن بها العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير...»[1] .

4 – قصر الكوكب :

قصر بناه المنصور بن الناصر بن علناس، ويوجد هذا القصر حسب دراسة رشيد بورويبة بين قصر السلام وقصر البحر[2] ويشير إلى أن هذا القصر لم تجر فيه حفريات لاستكشاف مكوناته .

بالإضافة إلى هذه القصور بنيت قصور أخرى بالقلعة مثل قصر بلارة نسبة إلى ابنة تميم بن المعز[3]، وهي التي تزوجها الناصر بن علناس سنة 470هـ، وكان هذا القصر قد نسب إليها ، ويقول ابن عذارى : « في سنة 470 ، اصطلح تميم بن المعز والناصر ابن عمه ، وزجه بنته بلارة ، وجهزها إليه من المهدية في عساكر عظيمة ومال وأسباب وذخائر »[4] .

بالإضافة إلى العديد من القصور، مثل : قصر العروسين وقصر الخلافة والتي رثاها بن حماد الصنهاجي في قصيدة يقول فيها ذاكرا هذه القصور :

العروسين لا رسم ولا طلل ... فانظر ترى ليس إلا السهل والجبل

وقصر بلارة أودى الزمان به ... فأين ماشاد منها السادة الأول

قصر الخلافة !أين القصر من خرب ؟ ... غير اللجين وفي أرجائها زحل

وليس يبهجني شيئ أسر به ... من بعد أن هجت بالمنهج السبل

وماروى الكوكب العلوي معتصم ... وقد عرى الكوكب التغيير والندل

وقد عفا قصر حماد فليس له ... رسم و لا أثر باق ولا طلل

ومجلس القوم قد هب الزمان به ... بحادث قل فيه الحادث الجلل

وإن في القصر –قصر الملك ... معتبرا لمن تغزو به الأيام والدول

وما رسوم المنار الآن ماثلة ... لكنها خبر يجري بها المثل[5]

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 261 .

[2] رشيد بورويبة : المرجع نفسه ، ص 270 .

[3] تميم بن المعز : وصفه ابن عذارى المراكشي قائلا : كان –رحمه الله !– شهما شجاعا حازما عازما ، يستصغر صعائب الأمور ، ويستسهل عظائم الخطوب ، ويغلب عليه شدة البطش والمبادرة . وهو أحد فحول شعراء الملوك ... وكان جميلا، وسيما ، مُدير القامة ، دُري اللون... توفي في عام 501هـ /1108م عن عمر 79سنة . البيان المغرب ، ج 01 ، ص 303 304 .

[4] ابن عذارى المراكشي : نفسه ، ج01 ، ص 300 .

[5] ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط . القسم الثالث من كتب أعمال الأعلام ، ص 95 96.

وكما قلنا سابقا فأن قبائل بني هلال كان لها الدور الكبير في بعث مدينة القلعة ونموهـا، وهـذه القبائل نفسها سيكون لها الدور الأساسي في تراجع هذه المدينة ، فكان على الحماديين البحث عن مكـان للفرار أمام الضغط المستمر لهذه القبائل التي أثارت وقائعها الكثير من النقاشات بين المؤرخين ليس هذا مجال ذكرها والتوسع فيها .

المدينة التي كان للدولة سببا في بنائها وتعميرها ستكون الدولة أيضا سببا في تراجعها بطريقـة أو بأخرى ؛ يقول ابن الأزرق في علاقة المدينة بالدولة : «...إذا بنيت المدينة وكمل تشييدها ، بحسب نظـر من شيدها وبما اقتضته الأحوال السماوية والأرضية فيها ، فعمر الدولة حينئذ عمر لها. فإن كان أمد الدولة قصيرا وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة. وتراجع عمرانها وخربت ، وإن كان أمد الدولة طويلا فلا تزال المصانع فيها تشيد والمنازل الرحيبة تكثر وتتعدد ونطاق الأسوار يتباعد وينفسح...»[1] .

لقد استمرت مدينة القلعة لأن الدولة لم تنقرض وتنتهي ، إنما الذي حدث هو انتقال مركز الدولة إلى عاصمة جديدة ، فبقيت القلعة كما كانت لعدة سنوات أخرى بعد رحيل السلطة الحمادية إلى بجاية ، التي ستخلف الدور المركزي الذي كانت تؤديه القلعة ، وسيكون لهذا الانتقال أثره في فسح المجال أمـام تراجع القلعة .

و- نظام المياه بالقلعة :

عرفت مدينة القلعة العديد من أوجه وطرق الاستفادة من المياه التي توزعت على مختلف مرافـق المدينة ، فنجد أن القصور التي شيدت بهذه المدينة قد استخدم فيها نظام الحباب في كل من قـصر البحـر وقصر المنار، وينقل بورويبة معلوماته انطلاقا من الحفريات التي قام بها دي بايلي الذي وضع تـصميمات لهذه القصور مبرزا أحواضا تنقل منها المياه عبر القنوات إلى مختلف الغرف[2].

وقد أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى أن قصر دار البحر« وضع في وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق ، يدخله ماء كثير من ماء مجلوب على بعد...»[3]. كما وجد عن طريق هذه الحفريات علـى الأحواض في كل من قصر المنار وهو موصول بقناة للمياه . ووجد جنب بجامع القلعة الكبير ، وكانت هذه

[1] ابن الأزرق : بدائع السلك في طبائع الملك ، ج 02 ، ص 762 .

[2] تاريخ الدولة الحمادية ، ص 272 .

[3] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 168 .

الآبار تنجز، أو ترمم من طرف الدولة أو من طرف أشخاص، وكان لها قوانينها الخاصة بها[1] ويكون استخدام المياه بالجامع ضروريا وشرطا أساسا ، لأننا نعلم علاقة الطهارة بالمسجد ، فهي من شروط صحة الصلاة لكل المسلمين . كما تكون القنوات خاصة بنقل المياه سواء للغرف أو كان لها دورا آخر يتمثل في تصريف المياه .

ومن هنا فقد شكل الماء عنصرا حيويا في أول الأمر عند اختيار مكان اختطاط المدينة، وهو قريب من الأنهار، إلا أن السكان المحليين استطاعوا أن يكيفوا موقع المدينة على سفح الجبل مع نظام للمياه يستطيع أن يشمل ويعم كل سكان المدينة . ولذلك فإن القلعة تكون بعيدة عن الأزمات التي تكون المنطقة قد تعرضت لها والتي قد تؤثر سلبا على العمران، ففي عام 413 هـ« كان بإفريقية في تلك السنة مجاعة شديدة لم يكن مثلها قط »[2] .

غير أن العامل الذي ستتأثر به المدينة يتمثل أساسا في تركيبتها السكانية ؛ فقبيلة عجيسة التي أنشئت المدينة بينهم تراجعت قوتها و«هلكت القلعة من بعدهم وورثت مواطنهم بذلك الجبل عياض من أفاريق العرب الهلاليين وسمي الجبل[3] بهم ...»[4] وتمثل هذه التغييرات أهم ما ميز الكثير من مدن المغرب الأوسط بعد أن تراجع دورها ، حيث شمل التغيير أيضا أسماء الكثير من المدن .

4 – بجاية :

مدينة صلداي البيزنطية أو بجاية، يقول عنها ابن خلدون أن قبيلة صنهاجية تسمى بجاية تقطن المنطقة ونطق الكاف في لغتهم لا ينطق كذلك بل هو بين الكاف والجيم ، فلما خطط الناصر بن علناس المدينة وسماها الناصرية ، سماها الناس باسم القبيلة وهي بجاية[5] .

أما فيرو فهو الآخر يقدم تفسيرات أخرى من قبيل أن بجاية تكون قد كتبت بفاية وتعني بقايا أو نجاية ، وهذا من باب أن المدينة تكون قد اتخذت كملجأ لبقايا الروم في فترة الفتوحات الإسلامية لبلاد

---

[1] اهادي بن وزو . وآخرون : قانون المياه والتهيئة المائية بجنوب افريقية في العصر الوسيط ، من خلال كتاب القسمة وأصول الأرضين لأبي العباس أحمد بن محمد بن بكر الفرسطائي النفوسي ، مركز النشر الجامعي ، تونس ، 1999 ، ص 154 155

[2] النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 208 .

[3] يقصد به جبل المعاضيد نسبة لهذه القبيلة .

[4] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 192 .

[5] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج06 ، ص 231 232 .

المغرب الأوسط . فيما عرفت عند التجار الأروبيين آنذاك باسم : boujie [1]، ولعل فيرو وباقي المؤرخين الأروبيين يخلطون بين بجاية ، وباغاية بالأوراس وأيضا باجة بتونس .

والمدينة قديمة ، لم يكن لها أي دور يذكر في الفترة التي تلت مرحلة الفتح وإلى غاية القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي[2]، فقبل بنائها من قبل الحماديين كانت مرسى صغير للصيد بين بلاد زواوة وكتامة[3]، وكان الموضع الذي بنيت فيه « مرسى . ويقال إنه كانت فيه آثار قديمة وإنها كانت مدينة فيما سلف» [4]. وتكون مثل باقي المدن الأخرى التي دعمها البيزنطيون بتحصيناتهم والتي تدل عليها بقايا أسوار المدينة .

فالمدينة التي يقصدها الكاتب المراكشي المجهول هي مدينة صلداي saldae أنها أولية ويقول عنها الادريسي أنها « كانت قديما ميناء فقط ثم بنيت المدينة...»[5]، لم يكن لها دور يذكر إلى غاية قدوم الناصر بن علناس بن حماد (454 هـ/ 1062 م- 481 هـ/ 1089م). فلم يرد لها أي شأن يذكر في المصادر الجغرافية العربية عند اليعقوبي أو المقدسي، وابن حوقل ذكرها من أنها مرسى يلي جيجل ، ومنها إلى مرسى بني جناد[6]، أما البكري فقد أشار إلى كثرة سكانها وخصائص مرساها وأنها :« أولية آهلة عامرة بأهل الأندلس، وبشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة ، وهو مرسى مأمون شتوى... ومرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي طويل، وعلى هذا المرسى في تلك الجبال قبائل كتامة...» [7] .

إن وصف المدينة بالآمنة يعود إلى أنها تحتل موقع « ما بين جبال شاهقة قد أحاطت بها، والبحر منها في 3جهات: في الشرق والغرب والجنوب... وليس لها طريق سهلة إلا من جهة الغرب...» [8] ويؤكد على هذه الأوصاف العمري الذي يقول عنها أنها « قديمة مسورة أضيف إلى جانبها أرباض...والمدينة القديمة على المتصلة به في سفح جبل يدخل إليها جون من البحر الشامي يعبر بالمركب إليها "ويضيف أن

---

[1] Laurent – Charles Féraud. Histoir De Bougie P 45 .
[2] Charles Féraud,Ibid , P. 37- 38 . Cambusat, Op,cit, Tome 02, p. 33 .
[3] Lucien golvin, *le magrib centrale a l époque des Zirides*, p, 114.
[4] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 129 .
[5] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 339.
[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 76 .
[7] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 268 .
[8] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 129 .

المدينة "هي ثانية تونس في الرتبة والحال وجميع المعاملات والموجودات...»[1]. وكان هذا المرسى مقصد الأساطيل الأندلسية بوجه خاص[2]. بل من جميع الأصقاع .

إلا أن المدينة عرفت ازدهارا كبيرا في عهد الإدريسي وتصبح « عين بلاد بني حماد والسفن إليها مقلعة وبها القوافل منحطة والأمتعة إليها برا وبحرا مجلوبة والبضائع بها نافقة وأهلها مياسير تجار وبها من الصناعات والصناع ما ليس بكثير من البلاد...»[3]. كما ذكر أن المدينة محاطة بشبكة من القلاع والحصون على طول الطرق المؤدية إلى بجاية[4] ، وأصبحت تسمى الناصرية في سنة 457هـ/1064 -1065م ، وذلك لا محالة إثر هزيمة سبيبة[5] التي عرضت أمن القلعة للخطر[6].

أ – أهمية الموقع :

إن الموقع الهام الذي تشرف عليه المدينة يجعل منها مدينة تستطيع أن تلعب الأدوار التي فشلت فيها القلعة، أو التي لم يكتب لها أن تؤديها لسبب أو لآخر، كما أن هذا الموقع هو الذي سيؤهل بجاية أن تقوم بالدور الذي كانت تقوم به جزائر بني مزغنة ، فقد تراجعت مدينة الجزائر أمام بجاية وأصبحت « جزائر بني مزغناي، وهي فرضة مشهورة من عمل بجاية...»[7] وقد ازدهرت بجاية خاصة في التجارة البحرية ، سواء مع المدن الإيطالية ، أو مع الشرق حيث ستصبح التجارة البحرية بديلا لتردي الأوضاع التي نتجت عن استقلال المغرب الأوسط عن التبعية للسلطة الفاطمية .

ومثل باقي المدن الصنهاجية سيلعب الجبل دوره الهام في حماية المدينة ؛ غير أن بجاية لم تنفرد بخاصية جبليتها فقط، بل إن البحر سيفتح لها مجالا أكثر انفتاحا من الداخل[8]، فهي تقع في آخر منحدرات جبل أمسيون، يقول الإدريسي عن هذا الموقع :«...هي في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بني حماد...»[1]، أما الواجهة البحرية فقد تميزت بخاصيتين أساسيتين :

---

[1] شهاب الدين أحمد بن يحي بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، السفر الرابع ، اصدار فؤاد سيزكين ، معهد تاريخ العلوم العربية و الإسلامية ، استانبول ، 1988 ، ص 55 .

[2] السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، دارالنهضة العربية ، بيروت ، 1969 ، ص 53 .

[3] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 260

[4] الإدريسي : نفسه ، ص 262 263

[5] معركة سبيبة من أهم وأبرز الأحداث التاريخية التي عرفتها بلاد افريقية و المغرب ، أنظر :الهادي روجي ، ج 1 ، ص 305 306.

[6] روجي إدريس : نفسه ، ج 2 ، ص 107 .

[7] عماد الدين إسماعيل : كتاب تقويم البلدان ، ص 137 .

[8] Golvin, *Le magrib central a l'époque des Zirides*, p. 144 .

1 - وجه اقتصادي تجاري ، فالمدينة كانت منذ القدم ميناء صغير، وأصبحت من أهم المحطات التجارية بمنطقة المغرب الأوسط[2]، ومنها تقلع السفن إلى مختلف المناطق . وهذا بحكم أن المدينة الجديدة أصبحت « مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم . وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر ، وبلاد اليمن، والهند، والصين . وغيرها...»[3] .

2 - بالإضافة إلى الدور التجاري الذي كان لبجاية ، فإنها كانت أيضا مركز لصناعة السفن لتوفر المادة الأولية من أخشاب ويد عاملة، « ومنها تغزا بلاد الروم فإنها ليس بينها وبين صقلية غير03 مجار»[4]. والجهاد البحري كانت تقوم به بجاية على الأقل لرد الأطماع الأجنبية في الاستيلاء عليها . خاصة وأن المناطق الداخلية كانت تقع في تلك الأثناء تحت رحمة القبائل البدوية العربية التي كانت تستولي على البوادي والمدن معا ، ورغم ذلك فقد شكلت بجاية محطة لتجارة القوافل القادمة من المغرب والصحراء[5] . ولا يمكن للمدينة أن تكون بهذا الحجم من القوة إلا إذا كان تخطيطها وبنيتها الداخلية منظمة؛ فقد اهتم الحماديون في تخطيطهم للمدن بتخصيص أماكن للأسواق ، وبالبساتين المحيطة بالقصور والحدائق العامة . فضلا عن الجداول والأنهار التي كانت تخترق المدينة[6] .

ولأهمية المدينة الكبيرة فإن المدينة يمكن الدخول إليها من أبواب يبلغ عددها سبعة أبواب[7] وهي: باب البحر ومنه كانت تدخل السفن ، باب تاطنت ، باب أمسيون ، باب المرسى ، باب اللوز ، باب الجديد ، وباب البنود .

أبعاد المدينة :

يمكن ترتيب المسافة بين بجاية وبين غيرها من المدن وفق ما ذكره الإدريسي كالآتي :

من بجاية إلى انكجان يوم وبعض اليوم .

من بجاية إلى بلزمة مرحلتان وبعض .

من بجاية إلى سطيف يومان .

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 339 .

[2] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 339

[3] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 130 .

[4] كاتب مجهول : نفسه ، ص 130 .

[5] Cambusat, Op,cit, p. 37 .

[6] عبد الحليم عويس : دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ، دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة ، 1991، ص 275 276 .

[7] رشيد بورويبة : الدولة الحمادية ، ص 154 . Et Golvin, *Le magrib central a l'époque des Zirides*, p. 192 193 . rachid bourouiba, *l'architecture militaire de l'algerie médiéval*, p. 80 .

بين بجاية وباغاية ثمانية أيام وبين بجاية وقلعة بشر خمسة أيام .

بين بجاية وتيفاش ست مراحل .

بين بجاية وقالمة ثماني مراحل وبين بجاية وتبسة ستة أيام .

وبين بجاية وطبنة سبع مراحل[1].

وبين بجاية والقلعة أربعة أيام[2]. وقد كانت عبر هذا الطريق سلسلة من المدن اتخذها الحماديون كمراكز دفاعية وحصون لمراقبة هذه الطريق .

وبينها وبين صقلية ثلاثة بحار[3]. وكانت التجارة مزدهرة بين بجاية ومختلف المدن الإيطالية ، جنوة وبيزا (Pisans) على الخصوص[4]. وقد ساعدها على ذلك وجود « داران لصناعة المراكب ، وإنشاء السفن...»[5]. هذا الموقع والمسافات القريبة من أهم المدن التي كان لها دورها البارز في تاريخ البحر المتوسط ستؤدي لا محالة إلى خلق مدينة كان لها هي الأخرى وزنها في المنطقة .

ب- العمران والسكان .

إذا كان بناء بجاية مرتبطا بمدينة القلعة فإن هذا الارتباط يجعلنا نتساءل فيما إذا كان اختطاط بجاية في بدايةالأمر كان القصد منه بناء عاصمة للملك تكون تمهيدا للتخلي عن القلعة والتي كانت في أوج ازدهارها ؟ أم أن اختطاطها كان لغير الأهداف السياسية ؟

يورد الكاتب المجهول ، أن القبائل العربية بعدما عاثت في بلاد إفريقية فسادا و دمرت القيروان وغيرها بدأت تضيق على مدينة القلعة مما دفع الناصر أن يبحث عن موضع « يبني فيه ولا يلحقه فيها العرب . فدل على موضع بجاية وكان مرسى، ويقال إنه كانت فيه آثار قديمة وإنها كانت مدينة فيما سلف، فبناها المنصور[كذا][6]، وسماها المنصورية [كذا][7]، وانتقل ملكهم من القلعة إلى بجاية، واتخذها دار مملكتهم...»[1].

---

[1] الإدريسي : نفسه ، ص 260

[2] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 129 .

[3] كاتب مجهول : نفسه ، ص 130 . الحميري : الروض المعطار ، ص 81

[4] Charles Féraud, *Histoir De Bougie*, P. 87 - 88 .

[5] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 130 .

[6] المقصود والصحيح هو الناصر وليس المنصور .

[7] الأصح هو الناصرة أنظر : الهادي روجي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 2 ، ص 108 . هامش رقم 151. حيث يشير إلى أن الكاتب وقع في خلط في أسماء الناصرية و القائد المنصور بدل الناصر بن علناس .

فمدينة بجاية حسب الإدريسي تكون قد بنيت و« عمرت بخراب القلعة التي بناها حماد بن بلكين »[2]، غير أن ذلك يكون قد أخذ وقتا من الزمن فلقد بدأ الناصر بن علناس بعد عام 457 هـ في إتباع سياسة لتشجيع الناس على السكن بمدينته الجديدة وتعميرها فقد لجأ إلى إسقاط الخراج على سكانها حتى إذا ما كانت سنة 461 هـ نجد المدينة قد عمرت وأصبحت بها قصور والتي اعتبرت من أهم المظاهر العمرانية ببجاية ، قال عن قصورها ابن خلدون أنها «من أعجب قصور الدنيا »[3]، ويقول صاحب كتاب الاستبصار عن الموضع الذي بنيت فيه بجاية « فيه قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون أحسن منها بناء ، ولا أنزه موضعا...»[4]. وقد ذكر شارل فيرو Laurent Charles Féraud هذه القصور وهي :

- قصراللؤلؤة الذي بناه الناصر بن علناس ، ويكون بناء هذا القصر موازيا لبناء مدينة بجاية وزاد فيه خليفته المنصور، يقع في الناحية الشرقية للمدينة .
- قصر الكوكب فيقع في الناحية الغربية للمدينة .

وبنى قصر أميمون[5]، وقد استقر المنصور بن الناصر نهائيا ببجاية عام 484هـ، وتكون هذه قصور بجاية قد تأثرت إلى حد بعيد بالقصور المبنية بمدينة القلعة[6]. وكانت هذه القصور قد نالت إعجاب الشعراء الذين تغنوا بها لأنها تقع على البحر وتحيط بها الحدائق و تزينت بمشبكات معدنية ، وأبوابها المخرمة والمزوقة وقاعاتها ذات المقاطع والأطراف المكسية بالمرمر الأبيض المنقوش والمطلي بالذهب واللازورد و بنقائشها ورسومها الزيتية الحائطية[7].

مدينة بجاية ستلعب دورا يعتبر من أبرز الأدوار الحضارية ليس فقط ببلاد المغرب الأوسط ولكن في كل بلاد العالم الإسلامي خاصة في القسم الغربي منه في هذه الفترة الحرجة من تاريخ العالم الإسلامي ،

---

[1] مجهول : الاستبصار ، ص 129 . ورواية تأسيس المدينة جاءت في المصادر التاريخية وتتمثل في قدوم ابن البعبع على الناصر وعند مروره بموضع بجاية قال : هذا المكان يصلح مدينة ومرسى وصناعة للسفن . ثم عاد معه الناصر للموضع ورسم ابن البعبع المدينة والصناعة والميناء موضع القصر ، حول ذلك أنظر : النويري : المصدر السابق ، ج 24 ، ص 235 .

[2] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 01 ، ص 261 .

[3] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 06 ، ص 232 .

[4] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 130.

[5] رشيد بورويبة : الدولة الحمادية ، ص 245 .

[6] روجي إدريس : المرجع السابق ، ج 02 ، ص 109 .

[7] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 130 . روجي إدريس : المرجع نفسه ، ج 02 ، ص 109 .

وبعد النصف الثاني من القرن السادس الهجري ستعرف مرحلة أخرى من تاريخها على يد عبد المؤمن بن علي ، ثم في فترة توسع ابن غانية ببلاد المغرب الأوسط[1].

يمكن أن نقول في الأخير أن المدن الصنهاجية وإن كانت منطلقاتها وبداياتها جبلية في معظمها : فجميعها بني في أسفل الجبل ، أوفي سفحه ، وهذا لضرورات دفاعية بالأساس ، دون أن نتجاهل مضارب القبيلة التي استقرت في المنطقة ودور هذه القبائل في استغلال المكان وتمدينه وفقا لطبيعة المنطقة ، لكن بجاية (وبدرجة أقل جزائر بني مزغنة) مكنتها جغرافيتها من الربط بين دور الجبل وخاصية البحر. وهو ما سيمكنها من أن تلعب دورا استثنائيا في تاريخ المغرب الأوسط وعلاقاته مع الشرق والضفة الشمالية من البحر المتوسط .

[1] عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 144 193 . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج06 ، ص 254 . مجهول : الاستبصار ، ص 131 . النويري : نهاية الإرب ، ج24 ، ص 328 .

الفصل الخامس

مدن المغرب الأوسط الساحلية والصحراوية

أولا :

- مدن الساحل

أ : الأربطة

ب : المراسي والمدن

ثانيا :

- مدن الصحراء :

ورقلة نموذج .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا : مدن الساحل :

شكلت مدن الساحل قسما هاما من كتابات المؤرخين والجغرافيين الذين وضعوا قواعد وشروط لتخطيط المدن بهذه المناطق ، وقد تطرق ابن خلدون لهذه الشروط ، وربطها بضرورة أن تكون المدن الساحلية مبنية في وسط قبائل موفورة العدد ، قوية العصبية ، وهذا لتكون عونا للمدينة في حالة تعرضها لغارات من الخارج ؛ وقال: « ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون بين أمة من الأمم موفورة العدد تكون صريخا للمدينة متى طرقها طارق من العدو...»[1].

وقد ذكر نماذج من المدن الساحلية ببلاد المغرب الأوسط التي توفرت فيها هذه الشروط من المنعه والحصانة وحالت دون أن تكون سهلة المنال من الأعداء بسبب موقعها في تضاريس مانعة ، أو بسبب موقعها الوسط بين قبائل قوية الشوكة ، تدافع عنها متى تطلب الأمر ذلك ، خاصة وأن الواجهة البحرية لبلاد المغرب الأوسط كانت مواجهة تماما لبلاد النصارى ولها علاقات متعددة مع بلاد الأندلس والكثير من المدن الإيطالية . فتكون حصانة هذه المدن بالتالي عائقا أمام هذه الهجمات الخارجية ، وفي الوقت نفسه تكون ظروف الأمن سببا لنمو هذه المدن وتوسعها فيذكر أنه «متى كانت القبائل والعصائب موطنين بقربها بحيث يبلغهم الصريخ والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنمتها كان لها بذلك منعة من العدو ويئسوا من طروقها لما يكابدونه من وعرها وما يتوقعونه من إجابة صريخها كما في سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها...»[2].

ساحل المغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي :

لقد كانت المدن الساحلية لبلاد المغرب الأوسط عرضة للتهديدات البيزنطية منذ نجاح حملات الفتح الإسلامي. خاصة بعد النصف الثاني من القرن الأول الهجري حيث كانت هذه المنطقة عرضة لتهديدات الأسطول البيزنطي، إذ كان البيزنطيون ما يزالون قادرين على استعمال أسطولهم الذي كانت له قواعد في كل من صقلية، سردينيا، ومالطا وكانت بيزنطا أيضا تتحكم في جزر البليار ميورقة ومينورقة وابيزا في غرب الحر الأبيض المتوسط[3].

---

[1] ابن خلدون : المقدمة ، ص 386 .

[2] نفسه ، ص 386 387 .

[3] وولتر كيجي : ديناميكية التوسع الإسلامي والمقاومة بيزنطا في مواجهة الإسلام في إفريقيا الشمالية (القرن السابع الميلادي) ، محاضرة أمام طلبة الدراسات العليا لقسم التاريخ ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ، قسنطينة ، فيفري 2005 .

ولهذا كان لزاما على سكان مدن السواحل لبلاد المغرب الحذر من الهجمات المحتملة والقادمة من الضفة الشمالية للبحر المتوسط، وتكون عملية بناء المدن الساحلية متوافقة مع تلبية الحاجات الأمنية لهؤلاء السكان، ولعل هذه الشروط قد عرفتها المنطقة منذ القديم . حيث إن منطقة الساحل لم تخل من حركة تأسيس المدن منذ أن أسس الفنيقيون مراكزهم التجارية بالمنطقة .

أغلب المصادر وأقدمها لا تتجاوز ذكر الأعمال التي قام بها الفاتحون بمنطقة التل والهضاب، وعلى طول خطوط الفتح الإسلامي تجاه الغرب نحو المغرب الأقصى . وإلى غاية القرن الرابع للهجرة لا يمكن أن نجد مدنا مشهورة بهذه المناطق رغم أن الأغالبة اهتموا بالنشاط البحري ، فإن جميع المدن التي ازدهرت وكانت مراكز للعمران والحضارة في العصور الوسطى قبل بجاية . مثل تيهرت وسجلماسة وأشير والقلعة وتلمسان وطبنة، كانت كلها مدنا داخلية بعيدة عن البحر[1]. إن هذا ولا شك تكون له علاقة بالوجود الرومي ببلاد المغرب والذين استقروا في مناطق الشمال أكثر ولذلك أهمل المغاربة هذه المناطق ، وانتشروا في السهول والجبال والصحراء . كما أن عمليات الفتح التي ابتعدت عن مناطق الساحل كان لها ما يبررها من الخوف من استفادة البيزنطيين من الإمدادات البحرية من الشمال. حتى أننا نجد روم افريقية ببلاد المغرب أخذوا يستعيدون نشاطهم بعد سنة 55هـ. واستطاعوا أن يستعيدوا مدائن الساحل وبعض محارس الداخل خاصة بعد مقاومة كسيلة[2]، وكانت العديد من مدن الساحل قد اتخذها الروم ملاذا لهم من حملات الفاتحين ، فقد لجأ الروم والبربر إلى مدن باجة وبونة بعد أن خرب حسان بن النعمان قرطاجنة ، ولم يجد هؤلاء بديلا عن الفرار« ولجأ الروم هاربين خائفين إلى مدينة باجة ؛ فتحصنوا بها ؛ وهرب البربر إلى إقليم بونة . ..»[3] .

ولعل هذا ما يفسر وجود المسيحيين بالمدن الشمالية عكس المدن الداخلية ، فإن طبيعة المدن الداخلية لا تسمح بإقامة هذا العنصر فيها ، إذ كانوا وافدين عليها بغرض التجارة ، فلقد كانت الجاليات المسيحية في هذه الفترة تقتصر في إقامتها على المدن والأمصار الساحلية[4].

وإذا كانت مناطق الساحل كانت متأخرة عن منطقة الصحراء بالجنوب ، فإنها لم تكن أقل أهمية عن باقي المناطق الأخرى في حركة البناء للمدن والأمصار فنجد الكثير من المصادر التي تذكر غنى منطقة

[1] إسماعيل العربي : العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر ، مجلة الأصالة ، عدد 19 ، السنة 04 ، 1974 أفريل ، ص 347 348 .

[2] حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ص 215 .

[3] ابن عذارى المراكشي : المصدر السابق ، ج 1، ص 35 . ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 4 ، ص 238 239 .

[4] مجاني بوبة : مدينة قسنطينة في الفترة الإسلامية ، ص 60 .

الساحل بالسكان والمدن والقرى ، لكننا نتساءل إن كان تجمع هؤلاء السكان في المدن ؟ أم أنهم كانوا في قرى صغيرة لاشتغالهم بالزراعة في الريف ؟ وللإجابة على هذا السؤال لا بد من معرفة طبيعة هذه المدن من خلال سكانها وأدوارها .

فمن خلال النصوص التاريخية وأوصاف الجغرافيين العرب يمكننا فهم حقيقة التحولات الكبرى التي تمت بمدن الواجهة البحرية لبلاد المغرب الأوسط ؛ ولعل أهم هذه التحولات تتمثل في انتقال هذه المدن من الأدوار العسكرية إلى المهمات الأخرى التجارية خاصة وأن المنطقة كانت من أهم حلقات الوصل بين بلاد الأندلس وتجارة الصحراء ، فضلا عن دورها في ربط بلاد الغرب الإسلامي بالمركز حيث دمشق ، وبغداد، ومكة .

وطبيعي أن تنعكس طبيعة التحولات القادمة على سكان هذه المدن وتكوينهم القبلي ، والذي سيكون مواجها لموجات جديدة من توافد وهجرات عنصر سكاني جديد سيكون مكونا خاصة من العنصر الأندلسي.وسيكون لهذا الامتزاج آثار ونتائج على مستوى بعض الأمور المعنوية والمادية معا بالنسبة للسكان . سواء تعلق الأمر بنمط العيش ، أو حالة الاستقرار في البيوت والمدن وكيفية تخطيطها وتحصينها واتخاذ المراسي والموانئ في هذه المدن. والحصون والأربطة وغيرها من أنواع العمران الأخرى.

ويتوقف ذلك على مدى غنى مدن الساحل بالثروات ووجود الصناعات، ودور صناعة السفن وتوفر الأسواق، هذه العوامل التي يمكنها إيجاد مدن يمكن أن تلعب دورا أكثر من أن تكون مناطق لتركز وتجمع السكان إلى أدوار أخرى تجارية وحتى حضارية . سواء في علاقاتها مع المشرق الإسلامي ، أو مع بعض جزر البحر المتوسط . ومع التطورات التاريخية التي أفرزت ريادة البحرية الإسلامية بمنطقة البحر المتوسط ، نجد أنه مع القرن الرابع أصبحت بلاد إفريقية بلادا غنية لدرجة فرضت عليها أن ينتشر أهلها خارج أراضيها ، ولقد وجدت ضالتها في تجارة الهند والشرق الأقصى ، لذلك فإن الفاطميين في جهودهم للاندفاع نحو الشرق استطاعوا أن يستفيدوا من غنى المنطقة ، كما أن العامل السياسي لا يشكل وحده محرك التجارة لبلاد المغرب، بل هو ضغط اقتصاد البلاد المتين مثلما يقول جواتياين[1] .

وقبل الحديث عن هذه المدن لا بد من الإشارة إلى أهم أنواع العمران الذي شهدته المدن الساحلية لبلاد المغرب الأوسط بعد انتهاء عمليات الفتح والمتمثل في الأربطة ، والتي كانت قاعدة وأساس المدن طيلة القرنين الثاني والثالث للهجرة .

[1] جواتياين : دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ص 270 . وعن أعمال جواتياين وأهم الدراسات التي قام بها الخاصة بالعام الإسلامي ، والنظم والحرفين والحضارة والتاريخ أنظر : يحي مراد . معجم أسماء المستشرقين ، ص 277 278 .

أ- : الأربطة :

كانت بلاد المغرب الإسلامي بحكم موقعها الجغرافي من أهم الثغور الرئيسية للبلاد الإسلامية . ولذلك فلا غرابة من أن تزدهر فيها حركة بناء وتشييد المحارس والأربطة على طول سواحلها ، ولقد ارتبط الرباط في هذه البلاد ارتباطا وثيقا في البداية بالأدوار العسكرية، وهذا يعود إلى الدور الذي لعبه قبل الفتح ، وما كان ينبغي أن يقوم به في حماية المناطق الثغرية بالأساس ، والتي كانت مرشحة لأن تستهدف من طرف الأعداء أو تستغل من طرفهم للهجوم على بلاد المسلمين .

وقد كان الرباط قلعة حصينة للجنود المسلمين المرابطين للجهاد ، وكان في الوقت نفسه يستعمل ملجأ يلتجئ إليه السكان المسلمون المجاورون له في حالة هجوم العدو، وكان أيضا نوعا من الخانقاه[1] يحيا أصحابه بإرشاد شيخ زاهد حياة التقوى ، ويتلقون تعليما إسلاميا[2]. وهذا ما يدلنا على الدور المتشعب الذي لعبه الرباط ببلاد المغرب ، والموزعة على الجوانب العسكرية للحفاظ على الأمن، واستخدامه لأغراض دينية للتعبد لله ، وحتى أنه استغل لأغراض مدنية أخرى لصالح السكان .

وببلاد المغرب فإن الفاتحين قاموا ببناء الأربطة في القرن الثامن والتاسع ميلادي (القرنين الثاني والثالث للهجرة) حتى داخل القلاع البيزنطية التي تحولت إلى أربطة أو شبه مدن ، وهذا ما أشار إليه اليعقوبي[3] الذي تكلم على قلاع قريبة من بعضها البعض[4] .

كان ظهور نظام الأربطة والمحارس قد ارتبط ببلاد المغرب الإسلامي بعصر الفتوح ذلك لأن المغرب الإسلامي كان أرض جهاد، وكان ساحله كله معرضا للغارات البحرية المفاجئة التي يوجهها البيزنطيون من قواعدهم في صقلية وسردانية وجنوبي ايطاليا[5]،كما ارتبطت بالعبادة أيضا وكانت مقرا للعباد بالإضافة إلى الأدوار العسكرية، حيث كان هؤلاء العباد يدافعون ويردون غارات الأعداء على تلك المناطق ، ولذلك نجد في القرون التالية تحديدا دقيقا لمفهوم الرباط إذ يعرفه البرزلي (ت841 هـ) أنه «

---

[1] الخان : مصطلح يستعمل في المشرق ويعني الفندق أو البيت الذي ينزله المسافرون .

[2] الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . ترجمة ، عبد الرحمن بدوي ، ط 03 ، دار الغرب الإسلامي . لبنان ، 1987 ، ص 99

[3] يشير اليعقوبي عند ذكره لمدن المغرب القريبة من الساحل أن من يسكنها هم الجند أنظر مثلا كلامه : ومن أسفاقس إلى موضع يقال له بنزرت مسيرة ثمانية ايام وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد و المرابطون . البلدان ، ص 189 .

[4] Edmond Pauty , Annales . I . E . O . N 07 , 1951 . P. 58- 59.

[5] السيد عبد العزيز سالم و احمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس ، ص 41 .

موضع الحرس في الأوقات التي يتوقع فيها العدو . فلو كان العدو حاضرا أو توقع حضوره فهو الحرس » [1].

وإن عرف هذا الدور بعض التلاشي عند استقرار أوضاع البحر لصالح العرب، ابتداء من القرن الثالث الهجري[2]. ولذلك فإن مدن الساحل ببلاد المغرب الأوسط في القرون التي تلت مرحلة الفتح كان أغلبها قد استغل في المهام الدفاعية وضمان سلامتها وحمايتها من الضربات البحرية أكثر من الثورات المندلعة في الداخل[3]، أو استخدمت كمنطلقات لعمليات الفتح التي شهدتها مناطق الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، لتتحول إلى مراكز لأسواق كبيرة للتجار المسلمين بعد أن أصبح غرب البحر المتوسط محورا هاما في التجارة العالمية خاصة تلك التي ربطت مناطق جنوب الصحراء ببلاد الأندلس .

وقد تميزت الأربطة بنظام خاص بها سواء في الجانب العمراني المادي أو في ما يخص المرابطين أنفسهم. وكان الرباط يزود عادة بمنار توقد فيه النار ليلا للنذير باقتراب سفن العدو برا وبحرا[4]،كما ذكرت كتب الفقه والنوازل العديد من الشروط التي يجب أن تتوفر في سكان الأربطة والمحارس ، فقد ذكر البرزلي نازلة عن رجل يشتري ويبيع في الحصن ، هل يجوز له ذلك فأجاب « إن كان زمنا فلا يحق له في الحصن لأنه إنما يسكن الحصون من فيه القوة على الحرس والعسس والخروج عند وقوع النفير إلا أن يكون للفاضل الذي لا يستغنى عنه ومن يعلم الناس القرآن . فمثل هذا إذا أصابته زمانة لم يحول عن موضعه. وأما حرف التجارات فليس من شأن المرابطين »[5]. والمعنى المستخلص هو: التفرغ التام للجهاد وعدم الاشتغال بغيره من المهمات الأخرى إلا ما كان فيه مصلحة للمرابطين .

من هنا يمكننا القول أن الأربطة كانت ، ورغم مهامها الدفاعية ، قد تمتعت بمظاهر مدينية ، من تجمع للسكان الذين توفرت فيهم شروط المرابطة ، ووجود مرافق خاصة بهم كالمساجد والمتاجر والمعلمين ، وغيرها من المرافق الأخرى . ولذلك تعددت مهام الأربطة والمحارس ، تبعا لهذه الأدوار .

وفي الفترة التي امتدت إلى غاية القرن الخامس للهجرة ، مرت الأربطة ببلاد المغرب على مختلف المراحل والأدوار؛ فمع تطور الأسطول البحري لهذه البلاد في ظل الحكم الأغلبي والفاطمي والسيطرة على

---

[1] البرزلي : أبو القاسم بن أحمد البلوي . جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين و الحكام ،ج 02 ، تح محمد الحبيب الهيلة ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2002 . ص 30 .

[2] محمد حسن : الجغرافيا التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجري- 07 – 08 م ، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي ليبيا . دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، 2004 ، ص 147.

[3] Cambusat, Op,Cit,Tome1, P. 97 .

[4] السيد عبد العزيز سالم واحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص 41 .

[5] البرزلي : جامع مسائل الأحكام ، ج 5 ، ص 422 .

منطقة غرب البحر المتوسط ، أصبحت هذه الأربطة مركزا لشن الهجوم منذ بداية القرن الثالث وغزو صقلية عام 212هـ 829م[1]. على أن هذا لا يدفعنا إلى الاعتقاد أن السلطة كانت متحمسة لتركيز جهودها نحو منطقة البحر؛ إذ كانت جهود المغاربة في هذا الجانب تتمثل في قيامهم بجهد غير منظم ولا متصل لأن الدول الرسمية لم تعتن به ، و لم تنتبه إلى ما يعود عليها من الخير من وراء السيطرة على البحر ويعود ذلك إلى المغامرين وذوي البأس والمتحمسين من أهل شواطئ المغرب، وهؤلاء من الممكن أن يكونوا خالصي النية في الجهاد أو مجرد طامعين في الغنم والسلب[2].

وقد أشار أبو عبيد البكري إلى هذه الحصون والرباطات التي كانت ممتدة على طول الشريط الساحلي وكان أهمها :

1 – **رباطات مدينة شرشال**: يقول عنها البكري «...فيها رباطات يجتمع إليها في كل عام خلق كثير»[3]. ولعل هذا الوصف ينم عن طبيعة هذا الرباط الذي يكون قد جمع بين دور العبادة ودور الجهاد .

2 – **رباط مرسى مغيلة بني هاشم** : يصف البكري المرسى ورباطه أنه « مرسى صيفي لا يكن من ريح . وله رباط على ضفة البحر مسكون وماؤه كثير، وبينه وبين قصر الفلوس خمسة وثلاثون ميلا...»[4].

3 – **رباط مدينة ندرومة** : يقع هذا الرباط على النهر الذي يعبر المدينة ، والتي تبعد عن البحر بمسافة ميلين[5]، ويقول البكري أن على هذا النهر «حصنان ورباط حسن مقصود يتبرك به »[6] .

4 – **رباط أرزاو**[7]: المدينة بها قلاع «و رباط يقصد إليه »[8] .

عرفت هذه الأربطة الكثير من التغيرات مع مرور الوقت ، فلم تكن محافظة على وتيرة متناسقة من التهيؤ والاستعداد الدائمين فكثيرا ما اعترت حالات التراجع أو الدعة لهذه الحصون والأربطة ، والسبب في

---

[1] محمد حسن : الجغرافيا التاريخية ، ص 145 .

[2] حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الدار المصرية اللبنانية القاهرة ، 1993 ، ص 67 .

[3] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 268 .

[4] البكري . نفسه ، ج 2 ، ص 267 .

[5] أنظر : الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقية . ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي لبنان ، 1983 ، ص 350 . 132

[6] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 263 . مجهول . كتاب الاستبصار ، ص 135. وعن الحصون التي تمتد من تلمسان إلى مدينة أرشقول ، أنظر البكري : نفسه ، ج 2 ، ص 263 264 265 .

[7] أرزاو : هي مدينة أرزيو حاليا .

[8] البكري : نفسه ، ص 252 .

ذلك ما كان يعيشه العالم الإسلامي من تقلبات سياسية واضطرابات أثرت على حمول النشاط البحري وهذا بسبب انشغال الدولة العباسية بمشاكل القسم الشرقي من البلاد الإسلامية .

ثانيا : المدن والمراسي :

شكلت بلاد المغرب الأوسط بما كانت تتمتع به من موقع وسط ، بين أهم المناطق والمسالك التجارية العالمية إذ كانت تتحكم في أهم هذه المسالك سواء البرية والتي كانت تربط المناطق الجنوبية بالشمال ، أو البحرية الواصلة بين سواحل المغرب وبلاد الأندلس وأروبا أو مع المشرق . ومن هنا اكتست المدن الساحلية أهمية كبيرة في توفير أهم الأسواق والمراسي لاستمرارية هذه التجارة ، وما تجدر الإشارة إليه هو أن الكثير من المدن الساحلية ببلاد المغرب الأوسط كان منشؤها الأول لا يعدو أن يكون مجرد مرسى للتجار ، ثم تطورت هذه المراسي وأصبحت تتمتع بمقومات المدن الكبيرة والهامة والتي شهدت تطورا خلال القرون التالية .

يعتبر ابن حوقل أول وأهم مصدر جغرافي للواجهة البحرية لبلاد المغرب الأوسط إذ يعتبر شاهد عيان على واقع هذه المراسي ، فقد اهتم بذكر أهم هذه المراسي وتطرق إلى خصائصها ، من حيث رسمها وتحديدها ، وأيضا من خلال وصفها وذكر ما تتميز به هذه المنطقة التي خصصناها بالدراسة ويقول بعد أن وصف هذه المراسي :« وهذه جملة أحوال المدن المشهورة والمراسي والقرى المعروفة على نحو بحر المغرب من حد برقة إلى البحر المحيط مما انتهيت إليه وأدركته بالعيان أو أخذته عمن نشأ فيه...»[1]. كما يعتبر المقدسي أيضا من المصادر الهامة حيث ذكر أبعاد هذه المدن والمراسي لكنه لم يتوسع في ذكر خصائص هذه المراسي مثل سابقه ، ويكون البكري ثالث المصادر التي اهتمت بهذا الجانب حيث ذكر أهم الطرق التي تربط هذه المراسي والمدن ومن خلاله يمكننا الوقوف على أهم الطرق والمسالك الشمالية لبلاد المغرب الأوسط .

1 – مرسى الخرز[2] :

أغلب المصادر التاريخية و الجغرافية تشير إلى طابعه المؤسس على أنه مرسى أكثر من وروده كمدينة ساحلية ، وإذا كان هذا المرسى – المدينة قد حدده ابن حوقل على أنه «... قرية غير أنها نبيلة »[3]، فهذا

[1] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 83 .

[2] مرسى الخرز يقع بمدينة القالة حاليا .

[3] ابن حوقل : نفسه ، ص 75.

يعني أن المرسى أقرب ما يكون للمدينة منه إلى القرية في الحجم ، لذلك فالمقدسي يقول أنه « مدينة في جزيرة على البحر»[1]، ولعل وصف المقدسي يكون مجانبا للصواب كون المدينة ليست على جزيرة .

ويكون البكري أكثر دقة من سابقيه ؛ و يجمع بين صفة المدينة والمرسى بقوله «مدينة مرسى الخرز»[2]، أما موقع هذا المرسى فهو «على الطريق بين القيروان ومدينة بونة وعلى شرقه يقع مرسى طبرقة ... ومن ومن مرسى الخرز إلى طبرقة أربعة وعشرون ميلا...كما يبعد عن بونة مسافة مرحلة خفيفة »[3]، وعن القيروان يبعد مسافة « ثلاث مراحل»[4].

– نشاط المدينة :

المدينة ومرساها حسب أوصاف الجغرافيين تتميز بأهمية كبيرة في كامل الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وهذا يعود لغناها بمعدن المرجان الذي لا يضاهيه بالمنطقة أي مرجان آخر، بما في ذلك المتواجد بمناطق تنس أو سبتة أو الجزيرة الخضراء ، فابن حوقل الذي زار المنطقة يقول: «...ولا أعرف في شيئ من البحار له نظيرا في الجودة ولا يوجد المرجان في مكان غير هذه القرية المدعوة بمرسى الخرز»[5]، وهذا ما جعل المدينة تتغير وتصبح «عليها سور وبها سوق عامرة ، وقد صنع بها مرفأ للسفن...»[6].

والمرسى لم يكن يتمتع بإمكانيات فلاحية تكفي سكانه وهي « ناحية قليلة الزرع يجلب إليها ما يقوتها مما يجاورها من فاكهة وغيرها...»[7]. ويباع معدنها بعد استخراجه بأسعار منخفضة حسب ما يخبرنا المقدسي «...فمنهم من يخرج عشرة آلاف إلى عشرة دارهم، ثم يجلى في أسواق لهم ويباع جزافا رخيصا...»[8].

وإذا ما اعتمدنا على شهادة ابن حوقل فإنه يمكننا الوقوف على نسبة سكان هذا المرسى ولو نسبيا ، فهذا الجغرافي يقول أن المشتغلين في المرجان هو«الخمسون قاربا وما زاد على ذلك مما في القارب

---

[1] المقدسي : المصدر السابق ، ص 183.

[2] البكري :. المصدر السابق ن ج 2 ، ص 269 .

[3] الإدريسي : نفسه ، ج 1 ، ص 291 299 .

[4] المقدسي : المصدر نفسه ن ص 197.

[5] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 75 . Charles Féraud . La Calle , *histoire des villes de la province de constantine* , Alger , 1877 , p. 80 -81 .

[6] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 234 .

[7] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 75 .

[8] المقدسي : المصدر نفسه ، 192 . يرى كوميزا أن وزن الدرهم هو 3 ؛ 148 غرام . و مثقال 10000 درهم يكون 100000فرنك . cambusat, Op,Cit, Tome 2, p. 155

العشرون رجلا إلى ما زاد ونقص...»[1]، ومن هنا يكون عدد المشتغلين يفوق الألف (1000)، وإذا ما أضفنا التجار وأسرهم ، والسماسرة وغيرهم من الشرائح الأخرى أمكننا الوقوف على التقديرات المحتملة لسكان هذا المرسى المدينة .

ليس هذا فحسب، بل إن المرسى كان دارا مهمة لصناعة السفن والمراكب الحربية ، كما كانت قاعدة للغزوات البحرية في عهد بني حماد[2]. ويكون مرفؤها حديث العهد بالبناء حسب البكري الذي يقول « وقد صنع بها مرفأ للسفن منذ مدة قريبة »[3]، لذلك فإن أهم مرسى ببلاد المغرب الأوسط من الناحية الاقتصادية والعسكرية يكون قد جمع بين الأدوار المدينية الحضرية ، والأدوار البحرية . أما الجانب العسكري فيكون قرب المرسى من جزيرة سردينيا الذي جعله يكتسي هذه الخاصية الدفاعية ، حيث تقدر هذه المسافة «أن مقطعها يقرب من جزيرة سردانية ، بينهما نحو مجرأين...»[4]. هذه الخصائص التي جمعت في هذا المرسى جعلت منه يلعب تلك الأدوار المتعددة . ورغم ذلك فإن المرسى لم يسلم من الصراع بين الفاطميين وأمويي الأندلس، ففي عام 345 هـ نظم الناصر صاحب الأندلس مع مولاه غالب حملة بحرية تكونت من سبعين مركبا وأحرقوا مرسى الخرز[5] .

ورغم الأهمية الكبيرة التي تمتع بها هذا المرسى في الجانب السكاني إلا أننا نحتمل أن ظروفه لم تكن لتشجع على أن يتحول إلى مدينة كبيرة ، وقد يعود السبب إلى كون «هذه المدينة كثيرة الحيات ، فاسدة الهواء ، يمتاز أهلها من غيرهم بصفرة ألوانهم...»[6]. إن هذه الظروف هي التي كانت عماد النظرية الخلدونية في شروط اختطاط المدن والتي سبقت الإشارة إليها والمتعلقة بتجنب الأماكن الفاسدة الهواء لتأثيرها على صحة السكان . كما أن المدينة محاطة بأحراش وغابات وجبال قد تجعل السكن بها يكون محدودا .

---

[1] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 75 .

[2] البكري :. المصدر السابق ، ص 234 . إسماعيل العربي : العمران والنشاط الاقتصادي في الجزائر ، مجلة الأصالة ، عدد 19 ، السنة 04 ، 1974 أفريل ، ص 359 .

[3] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 234 .

[4] البكري : نفسه ، ج 02 ، ص 234 .

[5] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 4 ، ص 59 .

[6] البكري : المصدر نفسه ، ص 234 .

2 – بونة :

المدينة ترد في المصادر التاريخية والجغرافية بصورة مضطربة، فلا تفرق بين المدينة القديمة (هيبون . Hippone) التي تقع على وادي سيبوس، والتي أصبحت تسمى مدينة زاوي[1]، والمدينة الجديدة (بونة. buna)[2] التي تبعد بثلاثة أميال (2 كلم) عن شمال هيبون[3] .

أ– موقع المدينة:

لا تفيدنا المصادر التاريخية إلى وضع المدينة في الفترة المبكرة للفتح الإسلامي فقد تكون أحد النقاط الرئيسية التي لجأ إليها الروم وأتباعهم من البربر الفارين من معارك الفتح الإسلامي .

بالنسبة للمدينة القديمة "هيبون"، ولعلها هي التي يقصدها الكاتب المجهول في قوله أنها « مدينة قديمة من بناء الأول وفيها آثار كثيرة ، وهي على ربوة مشرفة على فحوصها وقراها...»[4]. وقد تكون هذه هي هيبون القديمة التي تهدمت في ظروف غامضة قد تكون بسبب فيضانات وادي سيبوس الذي أخذ يغير مجراه تدريجيا مجتاحا مباني المدينة[5]. وهذا ما نرجحه في غياب النصوص المكتوبة حول اندثار هذه المدينة ، فالظروف الطبيعية تشكل أحد العوامل التي لا يمكن تجاهلها في تغيير طابع المدن والعمران .

ونجد في الوقت نفسه دراسات أخرى ترى أن اسم عنابة لم يرد قبل القرن التاسع الهجري ، فليلى الصباغ مثلا تقول بإن «معاجم اللغة وكتب الجغرافيا العربية والرحلات السابقة للقرن التاسع للهجرة /الرابع عشر ميلادي، والتي وصلت إلى علمي لم تورد اسم عنابة...لا بل و لم تشر إلى جانب اسمها المتعارف عليه آنذاك وهي بونة أنه كان يطلق عليها آنذاك اسم عنابة »[6]. وهو الرأي نفسه الذي وصلنا إليه من خلال دراستنا لما كتبه الجغرافيون العرب طيلة هذه الفترة ، أي إلى غاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي .

ب– بونة عند الجغرافيين العرب :

نالت هذه المدينة اهتمام الجغرافيين العرب فابن حوقل اهتم بذكر حجمها ومواردها الاقتصادية

---

[1] زاوي بن زيري بن مناد مؤسس مدينة أشير . Article , Al-'Annaba, Encyclopédie de L'islam Nouvelle édition, Tome1, P. 527 .

[2] يقول عبد الواحد المراكشي أن معنى الكلمة بونة بلسان الإفرنج هو جيدة . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص 252 .

[3] Cambusat, Op,Cit , Tome 2, p. 67

[4] مجهول : الاستبصار ، ص 127 .

[5] هيبون القديمة . الأصالة ، العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 37 .

[6] عنابة بين اسمها ، وموقعها ، وعلاقاتها مع العالم المتوسطي حتى الاحتلال الفرنسي ، الأصالة ، العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 125 126 .

ويقول عنها أنها « مدينة مقتدرة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ومقدارها في رقعتها كالأربس وهي على نحرالبحر...»[1]. أما المقدسي فيقول عنها أنها :« بحرية مسورة بها معدن حديد شربهم من آبار»[2]. ويكون سور المدينة قريبا من البحر حسب الكاتب المجهول الذي يقول :« والبحر يضرب في سورها »[3]، والمدينة قد تكون ضمن المسالح والحصون والرباطات التي زرعها الأغالبة على ساحل شمالي إفريقيا حارسة لسواحلها من بيزنطة ومجهزة الرجال والسفن للغزو[4].

لم يغفل البكري المدينة ، فقد تطرق إلى المدينة القديمة والجديدة ؛ فالقديمة وهي التي تسمى بونة « مدينة أولية...وتسمى اليوم مدينة زاوي وبينها وبين الحديثة نحو ثلاثة أميال ، ولها مساجد وأسواق وحمام...»[5]. ويضيف صاحب كتاب الاستبصار أن لبونة مرسى« يسمى مرسى الأزقاق، وهو صعب...»[6].

أما مسجد المدينة فيعود إلى عام 425 هـ / 1033م[7]. اعتمادا على كتاب لأحمد بن قاسم البوني "التعريف ببونة افريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف"، والذي أشار إلى العالم الذي سيأخذ اسم المسجد الشيخ أبي مروان وأصبح المسجد يعرف بمسجد سيدي أبي مروان[8].

أما المدينة الحديثة فيذكر البكري أن فيها « بئر على ضفة البحر، منقورة في حجر صلد تسمى بئر النثرة ، منها يشرب أكثر أهلها »[9].ويرى ستيفان كسال أن المدينة الجديدة بنيت في بداية القرن الخامس الهجري، بجانب القديمة ، ويعود ذلك إلى تغير سيل نهر سيبوس الذي خاض على جانب مدينة هيبون القديمة ودليله في ذلك يعود إلى تراكم الغرين الذي أبعد هذه المدينة من الساحل[10] .

---

[1] ابن حوقل : المصدر السابق .، ص 75 .

[2] المقدسي : المصدر السابق . ص 184 .

[3] مجهول : الاستبصار، ص 127.

[4] الأصالة ، العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 142 .

[5] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 233 .

[6] مجهول : كتاب الاستبصار ، ص 127 .

[7] عنابة من الفتح الإسلامي إلى أواخر العهد الموحدي ، الأصالة ، العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 68 . cambuzat, Op,Cit, tome2, p. 70- 71 .

[8] هو : الشيخ أبو مروان عبد الملك بن علي أصله من قرطبة بالأندلس وسكن بونة واعتبر من الفقهاء . شرح الموطأ ، كما اعتبر أيضا من كبار علماء الحديث . أحمد ج بن قاسم البوني . التعريف ببونة افريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف ، تقديم وتعليق سعيد دحماني ، دار الهدى عين مليلة ، 2001 ، ص 49 50 .

[9] البكري : المصدر السابق ، ص 233 .

[10] الأصالة ، العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 67.

ويكون موقع المدينة سببا لتعرضها لحملات النصارى منذ وقت مبكر، ففي عهد الأغالبة استفادت من السياسة التي اتبعها هؤلاء في تحصين المنطقة ، ويكون سور المدينة الذي أشارت إليه مختلف المصادر قد بني في هذه الفترة وظهر بها علماء المعمار الاغلبي المبني على الزليج والنقش العربي، وأسس فيها الاغالبة الأسواق وبنوا سورها الأول وأحدثوا مرساها ودار الصناعة[1]، وتكون المدينة قد استفادت أيضا من السياسة الفاطمية التي زادت من تحصين البلاد وتأمينها أكثر ، وبعد الحكم الفاطمي كان على بونة عامل ،عينه بلكين هو أبو الخير توزين الزواغي وهو مولى للمعز بن باديس[2].

في القرن الخامس أصبحت المدينة تابعة للملك البربري زاوي بن زيري ثم لأبي الفتوح ، ويشير بعض الباحثين (عثمان الكعاك) إلى أن عنابة تابعة للحماديين وتأثرت بحضارتهم العلمية والمعمارية (القباب الحمادية والزليج الحمادي والنقش الحمادي) والاقتصادي نظام ديوان البحر[3].

ج– اقتصاد المدينة :

بالنسبة للجانب الاقتصادي للمدينة كان في أوج نشاطه في العهد الزيري ، وكان التجار أغلبهم أندلسيون «وأكثر تجارها أندلسيون ، ومستخلص بونة غير جباية بيت المال : عشرون ألف دينار »[4]. كما أن المدينة وجد بها الحديد والمرجان فينقل القلقشندي عن العزيزي أن : «بظاهرها معادن الحديد ويزرع بها الكتان الكثير . قال : وحدث بها عن قريب مغاص مرجان ، ولكن ليس كمرجان مرسى الخرز»[5].

إن هذه الثروات ستؤدي إلى ازدياد الغارات على المدينة من الضفة الشمالية للبحر المتوسط ، فقد ذكر كريستيان كورتوا « أن سكان مدينة بيزة اختاروا مدينة بونة كهدف لغاراتهم لأن المسافة بونة – كاغلياري هي على وجه عملي أقصر مسافة موجودة بين إفريقيا وسردينية ، وأن المراكب كانت بطبيعة الحال تسلك هذا الطريق في العصور القديمة »[6]. ويذكر الهادي روجي إدريس أنه تم العثور على دلائل توحي بحدوث هذه الهجومات ، وأن أهل بيزة شجعهم ما أحرزوه من نجاح في جزيرة سردانية ، فهجموا

---

[1] عثمان الكعاك : عنابة قبل الإسلام ، الأصالة ، العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 46 47 .

[2] الشماخي :كتاب السير، ج 2 ، ص 26 27 . روجي إدريس : الدولة الصنهاجية ، ج 1 ، ص 87 88 . موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص 139 .

[3] الأصالة . العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 49 .

[4] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 234 .

[5] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 05 ، ص 106 .

[6] رشيد بورويبة : الأصالة ، العدد 34 35 ، يونيو يوليو 1976 ، ص 68 .

على مدينة عنابة في سنة 1034 م (426هـ) واستولوا عليها ، وعثر على نقيشة غير مؤرخة في كاتدرائية بيزة تخلد ذكرى هذا العمل الباهر الذي ساهمت فيه حسبما يبدو بعض السفن القادمة من البروفانس[1]. وهذا في الوقت الذي كانت فيه الهدايا تصل إلى المعز بن باديس من طرف ملك الروم و كانت القطيعة بين المعز والقاهرة وشيكة الحدوث .

3- مرسى تكوش[2] :

يقع هذا المرسى ضمن سلسلة من المراسي والتي ذكرها البكري فمنها «مرسى أستورة ، وهو مرسى مدينة تاسقدة ، وهي مدينة أولية قديمة...ثم إلى مرسى الروم وهو شتوي مأمون ، إلى جزيرة عمر إلى مرسى تكوش...»[3]. وتكون هذه المدينة قد عرفت مرحلة من السلم في خلال القرن الخامس الهجري قبل حدوث هجمات النصارى على منطقة الشمال الشرقي للمغرب الأوسط[4]

أما المسافات الفاصلة بين هذه المراسي فيوضحها الشريف الإدريسي «ومن مرسى الروم إلى تكوش ثمانية عشر ميلا وهي رابطة وبها قوم ساكنون ومنها إلى رأس الحمراء ثمانية عشر ميلا»[5]. ويكون مرسى رأس الحمراء في الاتجاه نحو مرسى بونة وبها أيضا «رأس الحمراء ، ثم إلى مرسى ابن الأليبري ، ثم إلى مرسى الخروبة ، ثم إلى مرسى منيع وهو مرسى بونة »[6].

وإذا كان هذا المرسى قد حدد عند الجغرافيين بطبيعته الساحلية فقد كان يشرف على مساحات من السهول ، وكان في عهد البكري كثير القرى مثلما يوضحه أنه « مرسى مأمون فيه قرى كثيرة يتصل به جبل كثير الفواكه والخير»[7]. وسيعرف هذا المرسى انتعاشا أكثر في العهد الحمادي[8] ويتحول إلى رباط مثلما وضحه الشريف الإدريسي .

---

[1] روحي إدريس : المرجع السابق ، ج 1 ، ص 208 .

[2] يقع هذا المرسى في منطقة غرب شطايبي الحالية . بعنابة بالشمال الشرقي للجزائر. أنظر : Allaoua Amara. *L' Animation De La Maritime Du Maghreb Central*, revue des letters et sciences humaine,Ne6 , Ramadhan 1426 /Octobre 2005, Université Emir A.E.K –constantine, P.12 .

[3] البكري : الصدر السابق ، ص 269 .

[4] Charles Féraud . *La Calle , histoire des villes de la province de constantine* , Alger , 1877 , p 81 82

[5] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 275 .

[6] البكري : المصدر السابق ، ص 269 .

[7] البكري : نفسه ، ص 269 .

[8] Cambusat, p. 156- 157 .

4- مرسى الروم :

أشار إليه البكري بأنه مرسى شتوي مأمون يقع هذا المرسى بين مرسى سكيكدة ، ومرسى تكوش ، وقدرالإدريسي أبعاده فمن « استورة إلى مرسى الروم ثلاثون ميلا...ومن مرسى الروم إلى تكوش ثمانية عشر ميلا...»[1] . المعلومات حول تاريخ هذا المرسى شحيحة ونادرة في الفترة ما قبل القرن الخامس الهجري ، ويرى كومبيزا من أن هذا المرسى مثل باقي مراسي المنطقة يكون قد عرف تطورا هاما مع الفترة الحمادية[2] ، ويكون ذلك ناتج عن التطور الذي حصل بباقي المراسي الأخرى .

5- سكيكدة :

يرد اسم هذه المدينة عند الجغرافيين بصورة مختلفة بعض الشيء ، لكنه اختلاف بسيط : اليعقوبي يورد اسم المدينة انه : إسكدة[3] . أما عند البكري فترد باسم : تاسقدة[4] . ويذكره ياقوت الحموي باسم : سكدة[5] .

المدينة البيزنطية rusicade هي نفسها المدينة الرومانية[6]؛ « وهي مدينة أولية قديمة فيها آثار للأول عجيبة »[7] . ارتبطت بالساحل والبحر وعلاقاتها كانت مع الشمال مثلما كانت مع الداخل ، بمناطق التل . ورغم أنها مدينة قديمة فإن بعض المصادر الجغرافية لم تذكرها ، مثل صاحب كتاب الاستبصار الذي كثيرا ما تطرق للمدن الأزلية القديمة .

يذكرها اليعقوبي ضمن سلسلة السواحل التي تتبع مدينة ميلة ، ويقول عنها : «...وسواحل البحر تقرب من هذه المدينة [ميلة] ولها مرسى يقال له : جيجل ، ومرسى يقال له قلعة خطاب ، و مرسى يقال له إسكيدة...»[8] . فهي تبعد عن قسنطينة مسيرة يوم[9] . وترد عند ياقوت الحموي أنها « بلد على ساحل بحر إفريقية بقرب من قسنطينة الهواء »[1] .

---

[1] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 275 .
[2] Cambusat,Op,Cit, Tome2, p. 156
[3] اليعقوبي : البلدان ، ص 190 .
[4] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 269 .
[5] ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مج 03 ، ص 230 .
[6] Cambusat, Ibid, p.197 .
[7] البكري : المصدر السابق ، ص 269 .
[8] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 190 .
[9] البكري : المصدر السابق ، ص 245 .

والمعلومات القليلة جدا عن هذه المدينة لا تسمح لنا بمعرفة طابع المدينة بالضبط ، أو تطورها التاريخي بعد القرون الأولى للفتح الإسلامي للمنطقة ، ويظهر أن قرب المدينة من المراسي الأخرى حال دون ورودها في المصادر الجغرافية خاصة، ومهما يكن فالمدينة ستعرف ازدهارا في العهد الحمادي[2]، حيث تنتعش التجارة البحرية ، التي تشمل أغلب موانئ المنطقة .

6- مرسى استورة :

يقع هذا المرسى إلى الغرب من مدينة سكيكدة الحالية ، على بعد 4 كلم[3]، يذكر البكري هذا المرسى على أنه مرسى تابع لمدينة تاسقدة (سكيكدة) ويقول «... ومنه تسير إلى مرسى أستورة ، وهو مرسى مدينة تاسقدة...»[4]. ولذلك فنحن نتساءل إن كان الميناء مستقلا عن مدينة سكيكدة أم أنه تابع لها ؟ لكن الراجح أن المدينة كان لها مرسى، فميناء ستورة قديم ومدينة سكيكدة تبعد عنه بالمسافة المذكورة . الإدريسي يحدد أبعاد ومسافات هذا المرسى يبعد عن« القل إلى مرسى استورة عشرون ميلا . ومن استورة إلى مرسى الروم ثلاثون ميلا...»[5].

وتشير الدراسات[6] إلى أن هذا المرسى لم يكن له أي دور يذكر ، كما و لم يرد في المصادر التاريخية والجغرافية بصورة تجعل منه على قدر من الأهمية ، واستمر على هذا الأمر إلى غاية العهد الزيري وسيزدهر أكثر في العهد الحمادي كمرسى مهم لمدينة قسنطينة بالإضافة إلى مراسي القل وسكيكدة .

7- مرسى القل :

مرسى لم يكن له دور كبير يستحق الذكر لدى كل من ابن حوقل والبكري . غير أن صاحب كتاب الاستبصار يقول إنه مرسى لمدينة قسنطينة ، وأنها :« مدينة قديمة فيها آثار كثيرة للأول من الروم ؛ وهي على ضفة البحر ، وهي مرسى مدينة القسطنطينة[كذا][7]...»[8] ، أما الإدريسي فيقول أنه : « قرية

---

[1] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 3 ، ص 230 .

[2] Cambusat,Op,Cit, Tome 2, p. 197. موسى لقبال : دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، ص 141 .

[3] Ibid, p. 198 .

[4] البكري : المصدر نفسه ، ص 269 .

[5] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 274 275 .

[6] Cambusat,Ibid, p. 198 .

[7] الصحيح و المقصود هو مدينة قسنطينة .

[8] مجهول : الاستبصار ، ص 127 .

عامرة وكانت في سالف الدهر مدينة صغيرة عامرة...»[1]، وربما يكون هذا سببا في سكوت المصادر عن ذكره طيلة هذه الفترة . يلي مدينة سكيكدة ، ويبعد عن مدينة قسنطينة « بيومان، ومن جيجل إلى مدينة القل سبعون ميلا[2]...ومن القل إلى مرسى استورة عشرون ميلا»[3]. و مثل بقية مراسي المنطقة سيعرف القل انتعاشا في العهد الحمادي « الذين فتحوا دولتهم على البحر، واتخذوا من القل كمرسى لقسنطينة »[4].

هذه المدينة التي كان أقرب حدودها بالبحر هو مرسى القل ، والذي كانت جبايته كبيرة وعظيمة[5]، والإقليم كان منطقة نشاط قبيلة كتامة[6]، ويكون مرسى القل أحد المدن التي كانت مستقرا لهذه القبيلة . وقد لا تكون تحصينات هذا المرسى من المناعة التي تجعله في منأى عن التهديدات الخارجية ؛ فإن سكان هذا المرسى يرحلون عنه و يحتمون بالجبال المجاورة له ، في أوقات الحروب وهجمات أساطيل النصارى عليه .

8- مرسى الزيتونة :

يقع مباشرة بعد مرسى القل ، يذكره البكري في « الطريق من القيروان إلى مرسى الزيتونة »[7]، هذا الأخير الذي يكون كأحد مراسي ميلة التي تبعد عنه بمسافة يوم[8]، كما يحدد الإدريسي بعده عن وادي الكبير على مسافة ثلاثين ميل[9]، ويقع في أسفل جبل الرحمان[10]، حيث « تسير من مدينة ميلة إلى مرسى الزيتونة ، وهو جبل جيجل »[11]. وبجوار هذا المرسى[1] مرسى الخراطين ومرسى الشجرة ثم يأتي مرسى القل الذي سبقت الإشارة إليه .

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1، ص 269 .

[2] الإدريسي : المصدرنفسه ، ج 1 ، ص 267 269 . cambusat,Ibid, p.135

[3] الإدريسي : المصدر نفسه ، ص 274.

[4] Cambusat, Ibid, p.135

[5] حسب الكاتب المجهول : كتاب الاستبصار . فإن المدينة (القل) كثيرة الفواكه والخيرات والعنب فيها كثير ، وفيها تفاح جليل ، ولها نظر وجباية عظيمة . أنظر : الاستبصار في عجائب الأمصار ، ص 127 .

[6] ابن حوقل : المصدر السابق . ص 93 . الإدريسي : المصدر نفسه ، ج1، ص 269 .

[7] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 244 .

[8] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 107 . Cambusat, Ibid, p.157

[9] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 274 .

[10] Cambusat, Ibid, p.157

[11] البكري . المصدر نفسه ، ص 245 .

9- مرسى جيجل :

شكل هذا المرسى أحد أهم مراسي مدينة ميلة ، بل لكل المناطق المجاورة[2]، والمرسى يكون أحد مكونات المدينة ، فهي «مدينة على ضفة البحر والبحر يحيط بها ولها ربض ...»[3]، ويضيف الكاتب المجهول أنها : «مدينة قديمة على البحر وكان لها سور قديم يضرب البحر فيه ، وهي على نظر كبير. وهي كثيرة العنب والتفاح والفواكه...»[4] .

- أدوار المرسى :

بالنسبة لأوضاع هذا المرسى فإننا نرجح بحكم تبعيته لميلة ؛ أنه كان بعيدا عن السلطة الأغلبية . وسيكون له شأن في أثناء السيطرة الكتامية على المنطقة أثناء الحكم الفاطمي ، حيث كان من أبرز المراسي التي كانت تمتد من بونة إلى جزائر بني مزغناي[5] ، خاصة وأن موقعه أهله لأن يكون له مرسيين حسب أوصاف الشريف الإدريسي :

المرسى الأول بالجنوب : وهو مرسى منيع وصعب ولا يدخل إليه بسهولة ، ولا يدخل إلا بدليل حاذق .

المرسى الثاني : يسمى مرسى الشعراء ، وهو عكس المرسى الجنوبي إذ يمتاز بكونه «ساكن الحركة كالحوض حسن الإرساء به لكنه لا يحتمل الكثير من المراكب لصغره وهو رمل »[6] .

بعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، أصبحت المدينة تابعة لقسنطينة الحمادية[7] ، وتكون المدينة قد زادت من تحصيناتها الدفاعية في أوقات الأزمات ، وكان بجوار المدينة قلعة يلجأ إليها السكان ، بنيت بعد أن تعرضت لغزو روجار ملك صقلية ، فكان السكان يلتجأون لهذه القلعة عند قدوم الأسطول النورماني، ولا يبقى إلا الرجال المعافون وبعض الباعة. وأصبحت جيجل التي كانت عامرة في الشتاء فحسب ، مدينة خاوية وخربة .

أما عن أبعاد هذا المرسى ، فهو على مسافة أربعة أيام من قسنطينة .

---

[1] يذكر البكري أن جبل الرحمان يقابل جزيرة سردانية ، وهو كثير الثمار والأنهار ، يقطنه قبائل بربرية من كتامة وغيرها وتكثر به المراسي والأسواق لأن المنطقة تنتج عود الخرط الذي يسوق إلى إفريقية وبلاد أخرى . أنظر البكري : المصدر نفسه ، ج 2، ص 269 .

[2] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 190 .

[3] الإدريسي : المصدر نفسه ، ص 268 .

[4] = كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 128 .

[5] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 76 .

[6] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 269 .

[7] Cambusat, Ibid, p. 92

وتبعد عن بجاية على مسافة خمسون ميلا.

وعن مدينة القل تبعد بسبعون ميلا[1].

10- مرسى دلس :

أول مدينة على ساحل البحر غربي بجاية[2]، ومثل باقي المراسي الثانوية ، لم يرد ذكره في المصادر الجغرافية العربية خاصة اليعقوبي والمقدسي ،كما لم يتطرق لها ابن حوقل ، وقد يكون مرد ذلك إلى محدودية دور هذا المرسى أو أنه محاط بمراسي أكثر منه أهمية وأدوار ، لكننا نجد أن مصادر أخرى تجعل من هذه المدينة حدا لبلاد افريقية « وحدها من الغرب آخر حدود بدليس المجاورة لجزائر بني مزغناي ...»[3]يقع هذا المرسى بين بجاية في الشرق ومرسى الدجاج غربا . يبعد عن مرسى الدجاج بأربعة وعشرون ميلا[4]، وبينها وبين بجاية في البر تسعون ميلا[5] .

11- مرسى الدجاج :

لم يرد ذكر هذا المرسى عند اليعقوبي ، ويذكره كل من ابن حوقل الذي يقول عن مرسى الدجاج أنه : «...مدينة عليها سور منيع على نحر البحر وفي شفيره وليس لها مرسى مأمون...»[6]. أما البكري فيعتبر أهم جغرافي وصف المدينة والتي يشير إلى حصانتها وعدم صلاحية مرفئها : « قد أحاط بها البحر من ثلاث نواح ، وقد ضرب بسور من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية ، ومن هناك يدخل إليها . وأسواقها ومسجد جامعها داخل ذلك السور، له باب واحد . أما عن المرسى فيضيف أنه : مرفأ غير مأمون لضيقه وقرب قعره »[7]. وسور البحر كما تشير المصادر الجغرافية « يضرب في سورها . وهي قديمة البناء وفيها آثار عجيبة للأول»[8]. يقطن هذه المدينة الساحلية سكان من قبيلة كتامة كما يتواجد بها الأندلسيون[9].فهل لنا أن نتساءل عن تأثيرات محتملة لهؤلاء الأندلسيين بالمنطقة التي يمكن أن يحدثوها خاصة في ظل وجود

---

[1] الإدريسي : المصدر نفسه ، ص 267 268 . الهادي روحي إدريس : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 103 .

[2] روحي إدريس : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 113 .

[3] القلقشندي : صبح الأعشى ، ج 05 ، ص 99 .

[4] الإدريسي : المرجع السابق ، ج 1 ، ص 259 .

[5] الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص 132 .

[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، نفسه ، ص 76 .

[7] البكري : المصدر السابق ، ص 246 .

[8] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 131.

[9] البكري : المصدر نفسه ، ص 246

بساتين وجنات بها. تتسع المدينة وتزدهر في عهد الإدريسي وتصبح "كبيرة القطر"، لكن يصبح «بشرها قليل وربما فر عنها أكثر أهلها في زمن الصيف ومدة السفر خوفا من قصد الأساطيل إليها»[1]، وهي الظروف نفسها التي أشرنا إليها في مرسى القل ، فيكون ذلك عاملا مهما في التأثير على عدد السكان . والنشاط الإقتصادي معا . وتبعد المدينة على تامدفوس عشرون ميلا[2] .

12- تامدفوس:

مرسى يقع شرق جزائر بني مزغنة ، و يبعد عنه بثمانية عشر ميلا[3]. لكن هذا المرسى – المدينة لم يذكر هو الآخر من طرف المؤرخين والجغرافيين كثيرا . إلا أن ابن حوقل يكون قد وجد هذا المرسى – المدينة قد تهدمت في العهد الفاطمي ، ولا نعلم متى تم ذلك ؛ فيقول « وتامدفوس مرسى ومدينة خربت وفيها بقية قوم يسكنونها سكنى الصابين إلى أوطانهم »[4]. وتكون تامدفوس قد جمعت بين خصائص المرفأ والمدينة ، ويضيف ياقوت الحموي أنها « اسم مرسى وجزيرة ومدينة خربة بالمغرب قرب جزائر بني مزغناي»[5].

يستمر وضع هذه المدينة في العهد الحمادي ، وربما تكون قد تعرضت للتهديم حسب شهادة الإدريسي « تامدفوس مرسى حسن عليه مدينة صغيرة خراب و أكثر سورها قد تهدم وقل أهلها وبها بقايا بناء قديم ...»[6].

13- مرسى شرشال :

يعتبر المرسى القريب من جزائر بني مزغنة ، ويبعد عنها مسافة «سبعون ميلا »[7]، لكنه لم يكن على أهمية كبيرة ولا نملك عنه ما يفيد حول أوضاعه بعد مرحلة الفتح ، فإنه يكون قد تراجع في العهد الفاطمي ، وهذا بالنظر لما لاحظه ابن حوقل الذي يصف المدينة والمرسى « اشرشال مدينة قديمة أزلية قد

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 259 .
[2] الإدريسي : المصدر نفسه ، ص 273 .
[3] الإدريسي : المصدر نفسه ، ص 258 .
[4] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 76 77 .
[5] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 07 .
[6] الإدريسي : المصدر نفسه ، ص 258 .
[7] الادريسي : المصدر نفسه ، ص 258 .

خربت وفيها مرسى وبها آثار قديمة...»[1]. و لم يزد البكري الشيئ الكثير عن ابن حوقل ، إلا أنه أشار إلى أن مرسى شرشال « يقابل من بر الأندلس مرسى مريرة بينهما في خمس مجار ونصف...»[2]. أما صاحب كتاب الاستبصار فيؤكد أنها « مدينة غير مسكونة وفيها بنيان عجيب... ويقابله من الأندلس مرسى ألاقنت »[3]. تبقى المدينة والمرسى على هذه الحالة طيلة القرن الخامس الهجري حيث يقول الإدريسي أن : « مدينة شرشال صغيرة القدر لكنها متحضرة ...»[4]. ويلي هذا المرسى من الغرب برشك التي تبعد عنه « عشرون ميلا على البحر يتصل بينهما جبل كبير منيع ...»[5] .

14- برشك :

مثل باقي المدن التي كان لها مراسي و لم يكن لها دورا كبيرا أو مهما في الفترة التي أعقبت الفتح إلى غاية القرن الثالث والمدينة : «كان عليها سور فتهدم...»[6]. لقد مرت المنطقة باضطرابات عديدة ، كما أن طبيعة المنطقة التي كانت تتكون من قبائل تعتمد الرعي والزراعة قد يكون له تأثير على المدينة ، وإذا كان ابن حوقل يذكر أن للمدينة « بادية يشتارون العسل من الشجر... وأكثر أموالهم الماشية ولهم من الزرع والحنطة والشعير ما يزيد عن حاجتهم»[7]، فإن المقدسي يزيد عنه أن المدينة لها : « اثنا عشر رستاقا اسم مدينتها مترل باشو بلا سور بناؤهم مدر...»[8]. فهل طغت البداوة وتغلبت القبائل على هذه المدينة الساحلية في هذا الظرف القصير ، أم تعرضت المدينة لحادث أدى إلى اندثار سورها تماما ؟ لعل المدينة تستعيد عافيتها وتصبح « مدينة صغيرة على تل وعليها سور تراب...»[9]. لكنها ستكون عرضة لهجمات ملك صقلية في القرون التالية .

---

[1] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 77 .
[2] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 268 .
[3] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 132 .
[4] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 258 .
[5] الإدريسي : نفسه ، ج 1 ، ص 272 273 .
[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 77.
[7] ابن حوقل : المصدر نفسه ، ص 77 .
[8] المقدسي : المصدر السابق ، ص 184 .
[9] الإدريسي : المصدر السابق ، ص 157 .

15- مدينة تنس :

عكس المراسي السابقة ستكون تنس ذات أهمية كبيرة في هذه المنطقة من المغرب الأوسط، وهذا لما لها من أهمية عسكرية واقتصادية تجارية، وحتى اجتماعية أيضا . فلذلك نجد أن المدينة وردت في المصادر الجغرافية تبعا للأدوار المختلفة التي لعبتها . حيث ستصبح من أهم موانئ بلاد المغرب ، كما تتفق هذه المصادر على أن المدينة تأسست عام 262هـ من طرف البحارة الأندلسيين ، لكن هناك غموض في هذا التأسيس .

أ – تاسيس المدينة :

يقول البكري : « تنس الحديثة أسسها وبناها البحريون الأندلسيون من أهل الأندلس منهم الكركدن وابن عائشة والصقر وصهيب وغيرهم وذلك سنة اثنين وستين ومائتين »[1]، فالأندلسيون حسب البكري يكونون قد أسسوا مدينة بجوار المدينة القديمة بتنس ، والتي ستشهد بعد مدة وجيزة وفود عناصر من السكان جديدة من سوق إبراهيم .

أما ابن عذارى فيذكر أنه في عام 262 هـ« أسست قلعة مدينة تنس ، أسسها البحريون من أهل الأندلس »[2]. فهل يكون الأندلسيون هؤلاء حسب هذه الرواية قد أسسوا مدينة داخل مدينة ؟ أم أنهم أحاطوا أحياءهم التي بداخل بتنس بسور ثم بنوا قلعة داخل المدينة ؟

بعض الدراسات[3] ترى أن الأندلسيين قاموا ببناء حي خاص بهم وبالقبائل التي استدعتهم بمدينة تنس وذلك لأن المدينة كانت قائمة قبل قدوم الأندلسيون هؤلاء . ومهما كان الغموض حول طبيعة وشكل المدينة المؤسسة فإن تنس مدينتين :

1 – المدينة القديمة :

يشير إليها البكري رواية عن أهل تنس أنفسهم ويذكر: « وعلى البحر حصن يذكر أهل تنس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة »[4]. ويوضح الشريف الإدريسي أن تنس مدينة جزء منها يقع على جبل وجزء على سهل وهي المدينة القديمة «...وبعضها في سهل الأرض وهي مدينة قديمة أزلية عليها سور حصين وحظيرة مانعة دائرة بها...»[5] .

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 241 242 .

[2] ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 117.

[3] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط ، ص 360 .

[4] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 242 . كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 133.

[5] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 251 .

2 – المدينة الحديثة :

قد تكون المدينة التي وصفها الجغرافيون، والتي « بينها وبين البحر ميلان ، وهي مسورة حصينة داخلهاقلعة صغيرة صعبة المرتقى...وتنس هذه التي تسمى تنس الحديثة »[1] .

ونظرا لما كانت تتمتع به تنس من موارد هامة في مختلف المجالات حتى لفتت انتباه الرحالة فابن حوقل يقول عنها أنها :« من الخصب في جميع الوجوه الرفهة بأمر مستفاض... ولها بادية من البربر كثيرة وقبائل فيها أموالهم جسيمة غزيرة وبها من الفواكه والسفرجل المعنق ما لا أزال أحكيه لحسنه ونعمته وحلاوته وطيب رائحته »[2]. إنه وصف دقيق يعبرعن الخيرات التي كانت تنعم بها المدينة والتي كانت من العوامل التي جعلت الأندلسيين يتوافدون عليها ويجعلون منها سوقا لبضائعهم ، ثم في فترة لاحقة مستقرا لهم ولأسرهم .

أما مسألة استقرار الأندلسيين بالمدينة فقد حدثت بعد أن :«كان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس في مرسى على ساحل البحر، فتجمع إليهم بربر من هذا القطر، ورغبوا في الانتقال إلى قلعة تنس وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها سكنى ، ووعدوهم بالعون والرفق وحسن المجاورة والعشرة ، فأجابوهم إلى ذلك ، وانتقلوا إلى القلعة وخيموا بها ، وانتقل إليهم من جاورهم من أهل الأندلس وغيرهم »[3].

ومن خلال الوصف الذي ورد في المصادر الجغرافية خاصة تكون تنس بعد أن استقطبت السكان قد لعبت دورا مزدوجا :

– فهي سوق كبيرة للسكان والقبائل المجاورة لها و« شكلت مركزا تجاريا تجتمع فيه القبائل للتبادل التجاري إذ لم يقتصر الفائض على منطقة تنس بل إن المناطق المجاورة لها لا تختلف عنها في خصبها وزيادة إنتاجها »[4].

– ومن جهة ثانية فإن تنس كانت معبرا تجاريا بين بلاد المغرب الأوسط والأندلس سواء تعلق الأمر بانتقال السلع أو الأشخاص . وخاصة في العهد الرستمي[5] .

---

6 البكري : المصدر نفسه ، ج2 ، ص 241 242 .

1 ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 77 .

[3] البكري : المصدر نفسه ، ج2 ، ص 242 .

[4] جودت عبد الكريم يوسف : الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الاوسط ، ص 359 .

[5] سليمان الباروني : الإزهار الرياضية ، ص 55 56 61 62 .

ب- سكان المدينة :

التركيبة الاجتماعية لسكان المدينة تشكلت من القبائل المحلية البربرية التي كانت مستقرة بالمنطقة ، ومن العلويين أبناء إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن حسين بن علي بن أبي طالب ، أما القبائل التي استوطنت بالمدينة القادمين من الأندلس فهم من أهل البيرة وأهل تدمير ، ثم رحل للمدينة بعض من سكان المدن المجاورة لها بعدما ازدهرت ، واستوعبت مدينة تنس أعداد إضافية من السكان الذين رحلوا إليها بعائلاتهم . خاصة وأن طابعها في البداية كانت سوقا بالدرجة الأولى ؛ « وكيلهم يسمى الصحفة، وهي ثمانية وأربعون قادوسا... ورطل اللحم بها سبع وستون أوقية ، ورطل سائر الأشياء : اثنتان وعشرون أوقية ، ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة... ودرهمهم : اثنتا عشرة صقلية عددا »[1] .

ج- مكانة تنس ودورها :

كانت تنس في عهد اليعقوبي معبرا يربط القيروان وتونس «حتى يحاذي جزيرة الأندلس من موضع يقال له تنس بينه وبين تاهرت مسيرة أربعة أيام »[2] .

أما في العهد الفاطمي فإن المدينة أصبحت « فوق الصغيرة وليس على البحر فيما قاربها على شكلها بنواحيها في الكبر... وهي أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم وينهضون منها إلى ما سواها...»[3].

أما مساهمتها في الأحداث السياسية، فإن تنس قد لجأ إليها أبو عبد الله الشيعي عام 297 هـ، وفيها «جمع وجوه كتامة ، وتكلم معهم في أمر عبيد الله وعمل معهم على خلعه »[4]. ولذلك فقد تكون المدينة مستقلة عن النفوذ الفاطمي و لم تكن العلاقة معهم إلا ما تعلق بالتجارة .

المقدسي لم يزد عن سابقيه من الجغرافيين فوصف « تنس مسورة على البحر شربهم من نهر »[5] . وقد تكون المدينة زادت اتساعا بعد ذلك وأصبح لها « أقاليم وأعمال ومزارع...»[6]. وهذا رغم ما ورد في المصادر حول مدى ملائمة المدينة للإقامة والسكن فيها نتيجة اشتهارها بالوباء . وإذا كان الشاعر التيهرتي

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج2 ، ص 242 243 .

[2] اليعقوبي : المصدر السابق ، ص 192 193 .

[3] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 77 .

[4] ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 161 .

[5] المقدسي : المصدر السابق ، ص 185 .

[6] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1، ص 252 .

عذره في ذمه لهذه المدينة لأنه مرض فيها . فإن تنس « وبية من يدخلها لا يسلم من المرض ، وكثيرا ما يموت بها الغرباء »[1]، ويورد البكري أبياتا لشاعر يقول في آخرها :

فمتى تلعن بلادا مرة فاجعل اللعنة دأبا لتنس[2]

16- مدينة وهران :

أ- تأسيس المدينة :

أصل كلمة وهران يمكن أن نجد لها ثلاثة إحتمالات :

1 – وهران بفتح الواو، جمع لكلمة مفردها أهرى ahri وتعني المستودع والمخزن ، ويعتمد هذا التفسير على خاصة على ما جاء في كتاب "دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران"[3]

2 – وهران بكسر الواو ، وهي كلمة بربرية تتكون من مقاطع هي :

Wi : أداة تصدير لمفرد و (wa) معناها : الذي هو : celui de أو مكان في l endroit a أو إلى . aux

Hr مرادف لأهر جمعه : إهران ihran – ahr معناها الأسد ، بالبربرية .

آن an : علامة جمع البربرية أي en .

وبالتالي فإن جمع مشتقات كلمة وهران تكون هي : "مكان الأسد ".

3 – أما الاحتمال الثالث حول أصل كلمة المدينة ؛ فهو أن الكلمة تنطق بفتح الواو وسكون الهاء وفتح الراء بعدها ألف ساكنة ثم نون في الأخير . ومعناها في لغة قبائل زناتة "الثعلب"[4] .

ونرجح الاحتمال الثالث لأصل الكلمة ، وهو ما يذهب إليه بشير مقيبس ، الذي يقول ان المدينة تقرب جبل"آغار" الذي يعني الأسد في بعض اللهجات البربرية "المزابية" ، فيكون اسم المدينة يعني الأسد في جميع الحالات .

[1] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 133 .

[2] البكري : المصدر السابق ،ج 2 ، ص 244 .

[3] بشير مقيبس : مدينة وهران ، دراسة في جغرافية العمران . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص 80 .

[4] بشير مقيبس : نفسه ، ص 81 .

تتفق المصادر الجغرافية والتاريخية العربية على أن تأسيس المدينة كان في عام 290 هـ/ 902م. وتذكر أن مؤسس المدينة هو :«محمد بن أبي عون بن عبدون وجماعة من الأندلسيين البحريين الذين ينتجعون مرسى وهران »[1].

طريقة تأسيس المدينة تشبه إلى حد بعيد تأسيس مدينة تنس ، وهذا في علاقة التأسيس بالأندلسيين[2]، فقد حدث اتفاق بين القبائل التي تقطن المنطقة المكونة خاصة من نفزة وبني مسقن[3]، مع البحريين الأندلسيين. إلا أن الظروف التاريخية جعلت المدينة المحدثة تخرب وتحرق على يد نفس القبائل التي أنشأتها بعد سبعة أعوام فقط ؛ أي عام 297 هـ/ 910 م . فبعد أن طالبت القبائل بخروج بنومسقن من وهران ، قام هؤلاء « واستجاروا بأزداجة[4] وأجاروهم وتغلبوا على أهل مدينة وهران ، وخرجوا عنها مسلمين في أنفسهم ، وأسلموا ذخائرهم وأموالهم ، وخربت وهران وأضرمت نارا وذلك في ذي الحجة من هذه السنة [297 هـ]»[5] .

ب- دورها :

أن أغلب المصادر الجغرافية تشير إلى ارتباط هذه المدينة ببلاد الأندلس ، فالمقدسي يذكر أن « وهران بحرية مسورة يقلعون منها إلى الأندلس في يوم وليلة »[6]. كما اعتبرت الواجهة البحرية لمدينة تيهرت[7] ، و لها طريقين آخرين نحو القيروان[8]، طريق بحري ساحلية يمر عبر تنس التي تبعد عن وهران

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ص 252 . ابن عذارى : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 136 .

[2] يذكر يذكر الحافظ أبو راس في عجائب الأسفار أن الذي شيد وهران وخططها هو: خزر بن حفص بن صولات بأمر من الخليفة الأموي بالأندلس . أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (275هـ - 300هـ) . بشير مقيس : المرجع السابق ، ص 79 80 .

[3] قبيلة بنو مسقن (بنومسكين عند الاستبصار) تعتبر أحد بطون قبيلة أزداجة ، يقطنون بجوار مدينة وهران ، و يذكر ابن خلدون أن مجاورتهم لوهران جعل رجال الدولة الأموية محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون يتحالفون مع بني مسقن وملكوا مدينة وهران سبع سنين مقيمين فيها الدعوة الأموية ، إلى ان ظهرت الدعوة الشيعية . كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 133 134 . ابن خلدون : العبر ، ج 06 ، ص 191 .

[4] أزداجة . قبيلة برنسية ، و يرى ابن خلدون أنهم يعرفون أيضا باسم : وزداجة ، ويقول ان نسابة البربر يعدونهم قبيلة زناتية ، لكنه في نفس الوقت يقول أنهما بطنان : أزداجة من زناتة ووزداجة من هوارة ، يقطنون المغرب الاوسط نواحي وهران . و قد أتت الحروب والكروب المختلفة على أبطال هذه القبيلة التي استطاعت أن تشيد دولة على أنقاض دولة بني صالح ، هي دولة بكور التي اسقطها اللمتونيون . ابن حزم : المصدر السابق ، ص 495 .ابن خلدون : العبر ، ج 6 ص 117 190 191 . بوزياني الدراجي :القبائل الأمازيغية ، ص 09 .

[5] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 252 . كاتب مجهول : الاستبصار ن ص 133 134 .

[6] المقدسي : المصدر السابق ، ص 185 .

[7] البكري : المصدر نفسه ، ص 251 252 .

[8] البكري : نفسه ، ص 253 .

مسافة مجريان مثلما يحددها الإدريسي[1]، وأخرى عبر منطقة التل الداخلية ، على بلد قسطيلية ويحدد أبو عبيد البكري أهم مدن هذا المسلك ؛ مرورا بمدن قصر ابن سنان[2] ، العلويين ، ازمرين بنطيوس قودة وبادس[3]، أما مع بلاد الأندلس فإن وهران « تقابل مدينة المرية من ساحل بحر الأندلس وسعة البحر بينهما مجريان »[4].

ومرسى وهران في عهد ابن حوقل كان « في غاية السلامة والصون من كل ريح »[5]، ويحدده الإدريسي على بعد ميلين يقع « المرسى الكبير وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية »[6].
وبالنسبة لتحصينات المدينة فهي«حصينة ذات مياه سائحة»[7]، أما سور المدينة فهو: «من تراميتقن»[8].
وستعرف المدينة في القرون التالية تحصينات أكثر[9]، وهذا ناتج عن توالي التهديدات عليها .

17- أرزاو :

مدينة ساحلية تقع بين مستغانم في الشرق ومدينة وهران غربا ، ومثل بقية المراسي الثانوية الأخرى التي أهملتها المصادر الجغرافية ، التي تحتمل محدودية أدوارها فإن عوامل أخرى لا يمكن إغفالها لتبرير سكوت المصادر عنها .

يصف البكري المدينة أنها قديمة « مدينة رومية خالية فيها آثار عظيمة للأول باقية...»[10]. وإذا كانت هذه المدينة خالية زمن البكري ، فإنها ستتحول إلى « قرية كبيرة تجلب إليها الحنطة فيسير بها التجار ويحملونها إلى كثير من البلاد »[11]. وهذا ما يوحي بالتحول الذي طرأ على ارزاو التي لم تنتعش كثيرا ، ولعل ذلك لقربها للمرسى الكبير قرب وهران من جهة ، ومن جهة ثانية قربه من « جبل كبير فيه قلاع ثلاث مسورة ، ورباط يقصد إليه »[12] .

---

[1] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 257 .
[2] قصر ابن سنان هي مدينة عين تموشنت الحالية .
[3] Rachid bourouiba : *architectur Militaire de l' Algérie médiévale*, p. 95 .
[4] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 252 .
[5] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 77 .
[6] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 252 .
[7] البكري : المصدر السابق ، ص 252 .
[8] الإدريسي : نفسه ، ص 252 .
[9] Rachid bourouiba, *L architecture militaire de l' Algérie médiévale*, p. 118
[10] البكري : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 252 .
[11] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 271 .
[12] البكري : المصدر نفسه ، نفسه ، ص 252 .

18- مرسى هنين :

يذكر البكري هذه المدينة التي كان لها مرسى محصن ، ولذلك كانت ربما تجمع بين مهامها الدفاعية وفي نفس الوقت كانت مرسى ، وإذا لم يرد لها ذكر لدى المصادر الأخرى فإن ذلك ما يدل على أن هذا المرسى لم يكن له دور يستحق أن يذكر من أجله . لكنه سيكون مرسى مهما في عهد البكري الذي يقول عنه أنه : «على مرسى جيد مقصود، وهو أكثر الحصون المتقدمة الذكر بساتين وضروب ثمر، يسكنها قبيلة تسمى كومية وبين هذا الحصن ومدينة ندرومة الجبل المعروف بتاجرة...»[1].

ستأخذ هذه المدينة في النمو والتطور لتصبح في القرن السادس الهجري « مدينة حسنة صغيرة في نحو البحر وهي عامرة عليها سور متقن وأسواق وبيع وشراء وخارجها زراعات كثيرة و عمارات متصلة ...»[2]، فيكون ريفها بذلك قد ساعدها على التطور وازدهار التجارة فيها .

19- أسلن[3] :

مدينة لها مرسى وكانت « قديمة عليها سور من صخر، وكانت حصينة »[4]. وهي المرسى الموالي لمدينة وهران غربا، يذكرها ابن حوقل أنها « مدينة خصبة لها سور عظيم حصين وماؤها فيها ولها بساتين كثيرة ...ولها مرسى وهي خصبة كثيرة الأهل...»[5]. أما البكري فيذكر أن المدينة : « شرقي أرشقول :حصينة، وهي مدينة قديمة عليها سور وبها جامع وسوق، يسكنها مغيلة[6]...وكان عبد الرحمن افتتحها، وبعث إليها محمد بن أبي عامر حميد بن يزد فبناها وجددها »[7]. وحسب تقديرات البكري فإن أبعاد هذا المرسى تبعد عن قصر ابن سنان مسافة مرحلة لطيفة وعن مدينة تيهرت بأربع مراحل .

---

[1] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 263 .

[2] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 534 .

[3] يذكرها ابن حوقل باسم : واسلن . صورة الأرض ، ص 78 . أما البكري فيذكرها باسم : أسلن . البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 267 .

[4] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 134 .

[5] ابن حوقل .: المصدر نفسه ، ص 78 .

[6] مغيلة : قبيلة بربرية بترية ، هم إخوة مطماطة ولماية ، ينتشرون بالمغرب الأوسط عند مصب نهر الشلف من ضواحي مازونة ، و هو المكان الذي اجاز منه عبد الرحمن الداخل الى بلاد الاندلس ، ومن أهم زعمائهم أبو قرة المغيلي الصفري من الخوارج ، و يقول ابن خلدون أن أبو قرة يمكن أن يكون من مطماطة ، وهو لا ينفي ذلك . العبر ، ج 6 ، ص 164 .

[7] البكري : المصدر نفسه ، ص 262 .

20- أرشقول[1]:

مدينة لها مرسى ، واعتبر هذا المرسى ساحل لتلمسان[2]، ويسمى « فحص زيدور لحرث القمح وهو مبارك مشهور البركة »[3] ويرتبط بالمرسى السابق (أسلن)، والمدينة تكون قد اتخذها العلويون مستقرا لهم، إذ أنهم تمركزوا بكثرة بمنطقة شمال غرب المغرب الأوسط ، ويذكر ابن عذارى أن أحد هؤلاء دفن بداره بآرشقول ، وهو « ابراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ودفن في داره بآرشقول »[4]

في القرن الرابع الهجري أصبحت « مدينة لطيفة لها مرسى وبادية وخصب وسعة في الماشية والأموال السائمة ومرساها في جزيرة لها فيها مياه ومواجن كثيرة للمراكب... وهي جزيرة معمورة بالناس" ويضيف ابن حوقل أن موقعها "على واد يعرف بتافنا[5]وبينها وبين البحر نحو ميلين »[6]. أما البكري فيوضح أن المدينة لها « مسجد فيه سبعة بلاطات ، وفي صحنه جب كبير و صومعة متقنة البناء » ويذكر أبواب أبواب المدينة وهي :

باب الفتوح غربا .

باب الأمير قبلي .

باب مرنسية شرقا[7].

سكان هذه المدينة أغلبهم تجار، ولعل هذا ما أدى إلى ازدهار المدينة التي تكون من السعة ما يستوعب هؤلاء التجار وتوفير الأسواق لسلعهم .

لقد كانت أغلب هذه المدن الساحلية ، مكونة من مرافق تتطلبها طبيعتها الساحلية وتتمثل في المراسي والموانئ ، وكانت أغلبها في حالة نشاط دائم مع الشمال والشرق على الخصوص . وهذا ما يدعو

---

[1] يذكره ابن حوقل باسم ارحكوك . صورة الأرض ، ص 78 . بينما البكري فيذكرها باسم : أرشقول : المصدر السابق ، ج 2 ص 262 . و يروي الشريف الإدريسي هذا الاختلاف البسيط في الاسم في قوله : "جزيرة ارشقول و يروى ارحكون " الإدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ج 2 ، ص 534 .

[2] البكري : المصدر نفسه . ج 2 ص 260 . السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ص 53 .

[3] كاتب مجهول : الاستبصار ، ص 134 .

[4] البيان المغرب ، ج 01 ، ص 153 .

[5] واد تافنا ، يذكره البكري : واد تاق البكري المسالك ، ج 2 ، ص 260 .

[6] ابن حوقل : المصدر السابق ، ص 78 .

[7] البكري : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 260 .

إلى بطلان الطرح الذي جاء به هنري بيران والمتمثل في مسألة النتائج التي خلفها الفتح الإسلامي في منطقة غرب البحر المتوسط الذي أدى حسبه إلى تراجع المبادلات الاقتصادية وحركة التجارية بالمنطقة ، ويقترح علاوة عمارة[1] لأجل ذلك ثلاثة أحداث مهمة ليبرز خطأ هذا الطرح :

1 – يتعلق الحدث الأول بتراجع العمران الناتج عن أعمال الكاهنة ، التي قامت بأعمال تكون قد أضرت بها المدن والقرى بالمغرب الأوسط ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا في فصل سابق .

2 – الحدث الثاني يتمثل في حالة القحط التي أصابت المغرب والتي تزامنت مع قدوم موسى بن نصير لاستكمال فتح البلاد . لذلك فالقحط بالضرورة لا يؤدي إلى انتعاش التجارة .

3 – أما الحدث الأخر فيتعلق بمسألة الوضع القانوني لأرض بلاد المغرب الأوسط ، والتي جاءت بنوع من التفصيل في نوازل عبد الرحمن الوغليسي (ت 786هـ/1384م) "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" ، هذه الأوضاع هي التي سيكون لها الدور الأكبر في التأثير في حركة التجارة .

ولقد أشار الزهري إلى أن البحر الرومي كان كثير السكان على ضفتيه ، إذ يقول:« وليس في معمور الأرض أكثر عمارة من هذا البحر، وذلك أنه معمر الجانبين. لا تنقطع العمارة منه، يكاد الناس يتعاطون السراج عليه من الضفتين لكثرة المسكن ، وذلك انه يسكن عليه أمم كثيرة من الجانبين »[2].

وقد مر البحر المتوسط بعد عهد الأغالبة بمرحلة من السيادة العربية عليه ، فالمغاربة كانوا يريدون التخلص من السيادة العربية عليهم ، ثم استطاعوا بعد ذلك بسط نفوذهم على البحر المتوسط عندما تخلصوا من سيادة المشرق نهائيا في عهد بني زيري[3]، وفي هذه المرحلة انتقلت العلاقات من الحروب والعداوة إلى التبادلات التجارية .وإذا كان عدد المدن الساحلية متقاربا بالشكل الذي رأيناه ، فإن بعض هذه المدن لم تكن لديها مراسي ، كما أن مراسي أخرى لم تكن ترقى لأن تكون مدنا .

ولعل شهادة الزهري المتوفي في أواسط القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر ميلادي . تدل على أن المنطقة قد سبق لها وأن كانت نشيطة التعامل والحركة في الفترة التي سبقتها وهي القرن الخامس الهجري لتصل في عصره إلى المستوى الذي أشار إليه، من كثرة السكان على جانبي البحر المتوسط .

---

[1] Allaoua Amara, *L' Animation De La Maritime Du Maghreb Central*,P 07 – 08 .

[2] الزهري : كتاب الجغرافية ، ص 127 128 .

[3] حسين مؤنس : تاريخ المسلمين في البحر المتوسط ، ص 69 70 .

كما عثر على وثائق متفرقة بوثائق الجنيزة حول انتشار حركة التبادل التجاري بين سواحل المتوسط من الجنوب إلى الشمال ، ويشير جواتياين إلى أن بعض اليهود الذين يجيدون الحديث بالعربية يسافرون بانتظام على سفن جنوية أو بيزية وعلى سفن الروم المسافرة من شمال إفريقيا إلى صقلية أو على طول الساحل الصقلي[1]. فهذا دلالة على الحركة النشيطة التي كانت عليها منطقة البحر المتوسط ، لذلك نجد أنفسنا أمام سلسلة متقاربة جدا من الموانئ والمراسي ببلاد المغرب الأوسط في إلى غاية القرن الخامس الهجري .

كما أن جواتياين المهتم بجمع المادة التي توفرها وثائق الجنيزة أن النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م ، شهد كثرة الوثائق التي تشير إلى شحن التجار لبضائعهم بحرا[2] وذاك خوفا من أي أذى يمكن أن يسببه لهم الوجود العربي هناك بعد اجتياح القبائل العربية حيث أضحى الطريق البري غير آمن مما دفع المسافرين و التجار على استعمال البحر في التنقل بدل الطرق البرية .

[1] جواتياين : دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية ، ص 199 .

[2] الطاهر قدوري : المسالك البحرية في المغرب الوسيط خلال القرنين 5و6هـ/11و12م . مجلة التسامح ، العدد 11 ، السنة الثالثة ، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية ، سلطنة عمان ، مسقط ، ص 291 .

ثانيا : مدن الصحراء القصور والواحات :

- ورقلة نموذج :

يمكن أن نجد الكثير من المدن التي ظهرت ببلاد المغرب الأوسط في هذه الفترة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الخامس الهجري ، والتي تشكل أنماطا حية للطابع الصحراوي الذي نجد عنده خاصية يتميز بها دون غيرها من المناطق الأخرى .

فللصحراء شخصيتها في تشكيل الحياة الاجتماعية والذهنية والنفسية، فالصحراء تعارض الاستقرار وتكرس التجوال الذي يعني بدوره تفتيت حتى القبيلة الواحدة إلى عدة بطون وأفخاذ[1]، وقد استطاع إنسان المغرب الأوسط أن يكيف جغرافية المنطقة الصحراوية ، بما تحمله من مكونات تتمثل في طابع القصور، والأربطة، والواحات ، والتي انتشرت كثيرا في مناطق المزاب ، وورقلة وواحات وقصور أريغ ، وسوف . ونقتصر الدراسة على مدينة ورقلة كنموذج لمدن الصحراء .

المدينة التي ترد بتسميات مختلفة عند الجغرافيين والمؤرخين العرب عل حد سواء[2]؛ واركلا كما يسميها ابن خلدون نسبة إلى قبيلة "بنو واركلا" اسم قبيلة بربرية يقول عنها ابن خلدون أنها بطن من زناتة، وهم «من ولد فرني بن جانا »[3]،هذه القبيلة التي تكون قد أسست أحد أهم المدن الصحراوية ببلاد المغرب الأوسط في منطقة كانت تشكل نقطة اتصال بين منطقة الصحراء والساحل، كما يذكر ابن خلدون أن قبيلة زناتة هي من أسست وبنت القصور التي ستستولي عليها القبائل العربية الأخرى في أثناء الزحف الهلالي فيما بعد في القرن الخامس ، في حديثه عن قبيلة المعقل يقول أنهم :«...ملكوا قصور الصحراء التي اختطها زناتة بالقفر مثل قصور السوس غربا ثم توات ثم جودة ثم تامنطيت. ثم واركلان ثم تاسبيبت ثم تيكورارين شرقا. وكل واحد من هذه وطن منفرد يشتمل على قصور عديدة ذات نخيل وأنهار وأكثر سكانها من زناتة...»[4]

المعلومات التي ترد في المصادر التاريخية لهذه المدينة خاصة فيما يخص المرحلة التي تلت الفتح مباشرةفهي شحيحة لدرجة يصعب علينا فهم الوضع الذي كانت عليه هذه المدينة وبالتالي صعوبة معرفة

---

[1] محمد أبو القاسم حاج محمد : العالمية الإسلامية الثانية – جدلية الغيب والإنسان والطبيعة ، دار ابن حزم ، بيروت ، 1996، مج 02 ، ص 114 115 .

[2] ترد المدينة بأسماء مختلفة عند الجغرافيين ؛ فنجدها باسم : واركلان ، وارجلان ، وارجلن ، ورجلن ، ورجلان ، وارقلان . أنظر : أبو زكريا : سير الأئمة و أخبارهم ، هامش 02 ، ص 115 .

[3] ابن خلدون : العبر ، ج 07 ، ص 69 .

[4] ابن خلدون : نفسه ، ج 06 ، ص 77 78 .

الدور الذي كانت تقوم به قبل الفتح الإسلامي للمنطقة .

وتشير بعض الدراسات مثل دراسة المستشرق البولندي تاديوز ليفيتسكي الأخصائي في تاريخ المغرب والسودان في العصر الوسيط إلى أن منشأ ورقلة غير معروف تماما قبل الفتح الإسلامي، وهذا بسبب انعدام المعلومات عن هذه الواحة قبل الفتح العربي. لكن ليفيتسكي لا يستبعد أن تكون ورقلة قد وجدت في نفس المكان في العهد المتأخر للإمبراطورية البيزنطية في شكل ضيعة شكلت محطة على طريق القوافل يربط بين إقليم الهقار، ومنعطف نهر النيجر، وهو طريق كان يستخدم في التجارة[1] .

في أثناء فترة الفتح الإسلامي وحسب رواية الزهري فإن مدينة ورقلة تكون قد أسلمت في فترة حكم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105هـ 125هـ/ 724م 743 م) إذ يشير إلى أن المرابطين الذين كانوا يقطنون بين مدينة زافون وسجلماسة « أسلموا حين أسلم أهل وارقلان في زمن مدة هشام بن عبد الملك »[2] .

وقد سبقت الإشارة إلى أن النصوص التاريخية تقول أن في نهاية القرن الأول الهجري صلح إسلام البربر ، وأن مدن الصحراء كانت معنية بعمليات الفتح قبل مدن الساحل زمنيا ، فهذا يدل على أن الفاتحين كانوا يعرفون على الأقل دور تلك الواحات كعمق استراتيجي يطوق البلاد التي يخطط لفتحها ، وكذلك دورها في المسالك التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء[3]، ثم لا ننسى أن الكثير من قادة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الإسلامي كانت لهم تجارب سابقة لفتح بلاد صحراوية قبل وصولهم للمنطقة أواخر القرن الأول الهجري .

وإذا كنا نجهل السنة التي فتحت فيها المدينة بالتحديد ، عدا ما أشار إليه الزهري من إسلام ورقلة زمن هشام بن عبد الملك دون الحديث عن طبيعة هذا الحدث التاريخي: هل هو إسلام و انخراط في المجال الجغرافي للدولة الإسلامية ؟ أم هو مجرد فتح للمنطقة فقط ؟ فإن هناك غموض أيضا فيما يتعلق بمفهوم المدينة في حد ذاتها .

---

[1] تاديوز ليفيتسكي : دور الصحراء الكبرى و أهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب .(تاريخ إفريقيا العام من القرن السابع إلى القرن العاشر) إشراف ن م . الفاسي و إ . هربك ، الجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام ، اليونسكو ، باريس 1994 . ج 03 ، ص 331 .

[2] الزهري : كتاب الجغرافية ، ص 126 .

[3] عمر السعيدي : الواجهة العسكرية للحضارة العربية الإسلامية ، فتح افريقية .(مجلة دراسات تاريخية) العدد 05 ، يوليو ، 1981 ، ص 52 .

1- ورقلة : القصر والبلد :

الكثير من الجغرافيين يتحدثون عن مدينة ورقلة بصيغ ومفاهيم مختلفة فمنهم من يعتبر ورقلة مدينة ، ومنهم من ترد عنده بصيغة البلد ،أو بلدة ، أو كورة ، ولذلك فإن مدينة ورقلة لم تكن موضع اتفاق في المصادر المختلفة، وتكون بصورة أكثر حدة في المصادر المشرقية، عكس المصادر المحلية وخاصة الإباضية منها . وقد انعكس هذا الالتباس وطغى على بعض الدراسات الحديثة، التي تخلط بين هذه المدينة، وبين امتدادها الجغرافي كبلد، والتي يقع عندها إشكال في تحديد وضبط دلالات المصطلح ووظيفته، فلذلك نؤكد على الاختلاف الموجود بين البلد والمدينة عند حديثنا على مدينة بعينها .

يذكر البكري أن وارجلان تتكون من «سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى أغرم أن يكامن، أي حصن العهود...»[1] . أما صاحب كتاب الاستبصار ، فينقل ما قاله البكري لكن نجده يستبدل لفظ الحصون بالمدن، ويقول أن وارجلان « بلد خصيب كثير النخل والبساتين ، وفيه سبع مدن مسورة حصينة تقرب بعضها من بعض ، أكبرها تسمى أغرم أن يكامن معناه بلاد الشهود . وفيه حصن العهود. وهي بلاد كثيرة الزرع والضرع والبساتين، كثيرة المياه...»[2] .

وقد يكون الاختلاف في تحديد مفهوم الحصن والمدينة ناتج عن تطور هذه الحصون التي ذكرها البكري إلى نمط آخر أرقى وهو المدن . ولعل النمط العمراني الذي قصده البكري يكون على علاقة بنمط عمراني بربري قديم حيث أن موقع المدينة يكون بعيدا عن خط الليمس ، وهو ما يرشحها لأن تستقطب السكان ليعيشوا بعيدا عن الاستعمار البيزنطي ، وتكون بالتالي ورقلة هي إتحاد مجموع هذه الحصون لتكون مدينة بربرية محصنة ستكون في المستقبل معبرا لتجارة القوافل .

تفق مقولة البكري حول المدينة مع ما يورده ابن خلدون الذي يقول أن بنو واركلا : « احتطوا المصر المعروف بهم لهذا العهد على ثمان مراحل من بسكرة في القبلة عنها ميامنة إلى المغرب ، بنوها قصورا متقابلة متقاربة الخطة. ثم استبحر عمرانها فأتلفت وصارت مصرا واحدا...»[3]. وتعرف القصور كنمط عمراني في أغلب منطقة الصحراء ليس فقط بوارجلان ، وهي التي ذكرها ابن خلدون آنفا[4] .

كما نجد مفهوما جغرافيا وعمرانيا آخر للمدينة عند باقي الجغرافيين ، فمثلا الإدريسي يعطي مفهوما للمدينة يتعلق بطبيعتها التجارية وعلاقاتها المتشابكة مع أغلب مراكز الصحراء التجارية فهو يحدد

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 371 .

[2] مجهول : الاستبصار في عجائب الأمصار ، ص 224 .

[3] ابن خلدون : ديوان العبر ، ج 07 ، ص 69 .

[4] حول مفهوم القصر ودوره بمنطقة الصحراء أنظر : محمد حسن : الجغرافيا التاريخية لإفريقية ، ص 28 29.

ورقلة بالمدينة عند حديثه عن المدينة في حد ذاتها فيما نجد عنده مفهوم البلد إذا تعلق الأمر بعلاقات ورقلة مع باقي الأمصار والمراكز التجارية الأخرى .

فأما المدينة فهو لا يحدد تكوينها أو مرافقها ويقول عنها : « هي مدينة فيها قبائل مياسير و تجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم » أما عن مذهب سكان المدينة فيقول : هم وهبية إباضية نكار خوارج في دين الإسلام »[1].

ياقوت الحموي فهو الآخر لا يعطينا تفصيلا لمكونات المدينة ، ويحدد جغرافية المنطقة فيجعل ورقلة «كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر ومجانة »[2] .

إن تجارة سكان المدينة لمادة الذهب كانت لها دلالاتها السياسية التي تتعلق بمدى استقلالية هذه المدينة عن مراكز السلطة السياسية للدول، إذ أن وجود دار السكة بورقلة في ظل وجود المادة الأولية لسك النقود الذهبية والمتمثلة في التبر . وكانت العملة التي تسك في ورقلة منتشرة بكثرة ما جعل صاحب كتاب الاستبصار يقول « تضرب ببلد وارجلان دنانير على نوع المرابطية ، لكنها نازاة فيها تحميل كثير ، والدنانير الورجلانية مشهورة »[3] وهذا ما يعطيها استقلالا سياسيا ولو نسبيا إذ المعروف أن سك النقود الذهبية ينحصر فقط على الخليفة وحده ، فيما يكون سك الفلوس النحاسية من عمل الولاة[4] . وهذا ما يجعل المدينة في رأينا ترد في المصادر التاريخية والجغرافية بصيغ مختلفة بين أن تكون مدينة أو بلد أو كورة وغيرها .

وقد ساعد الموقع الجغرافي لمدينة ورقلة أن تكون محطة تجارية هامة بفضل شبكة الطرق التي تربطها مع باقي المدن ، حيث نجد أن هذه الطرق أغلبها مخصصة لتجارة القوافل ، وهذا يعود لموقعها الجغرافي الهام بين مختلف المناطق التي تشتهر بالتجارة .

2- أبعاد المدينة ودورها :

يشير ابن خلدون إلى أن واركلا « باب لولوج المسافرين من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان يسكنها التجار الداخلون لها بالبضائع وسكانه لهذا العهد بني واركلا وأعقاب إخوانهم من بني يفرن ومغراوة...»[5].

---

[1] الإدريسي : نزهة المشتاق ، ج 02 ، ص 296 .

[2] ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج 5 ، ص 371 . صفي الدين البغدادي : مراصد الإطلاع ، ج 3 ، ص 1432.

[3] مجهول : كتاب الاستبصار ، ص 224 .

[4] صاخ بن قربة : المسكوكات المغربية ، ص 95 .

[5] ابن خلدون : العبر ، ج 7 ، ص 70

لقد اشتهرت المدينة في فترة النفوذ الرستمي في المنطقة كونها مركزا لعبور التجار ببلاد المغرب ، وهذا ماتخبرنا به المصادر الإباضية ، على أن مدينة ورقلة كانت أهم المراكز التجارية ببلاد المغرب ، حيث كانت محطة رئيسية لتجارة القوافل قبل التوسع الفاطمي الذي يكون قد عجز عن السيطرة عن المدينة وتركها تؤدي دورها التجاري .

فقد كانت الطرق التي تخرج من تيهرت نحو الصحراء تمر عبر ورجلان ، وفي منتصف القرن الثالث الهجري تقريبا ، كان يوجد طريق مباشر يمر ببلدة لغوات و يربط ورقلة بتيهرت ، بينما كان يوجد طريق تجاري آخر بين ورقلة ومدينة سجلماسة التي تمثل المحطة النهائية الشمالية الأكثر أهمية لطرق القوافل بين إفريقيا الشمالية والسودان الغربي[1] .

أما في فترة السيطرة الفاطمية على بلاد المغرب الأوسط ، فإن ابن حوقل مصدر تلك الفترة لا يخبرنا على هذه المدينة شيئا ، غير أن هذا لا يؤدي بنا لاستبعاد انتهاء دور هذه المحطة التجارية الهامة . فالمرحلة التالية للوجود الفاطمي ببلاد المغرب الأوسط تميزت بحركة بناء للمدن ، كما عرفت أيضا ازدهارا كبيرا يقوم على تجارة العبور (الترانزيت) بين الأطراف الغربية والشرق الإسلامي ، وبين اسبانيا وصقلية والممالك البربرية[2].

وحسب الرواية التي جاءت في المصادر الإباضية والتي لم نجدها في المصادر الشيعية الأخرى خاصة عند القاضي النعمان في مؤلفه "رسالة افتتاح الدعوة " فإن ورقلة تكون محطة لمرور عبيد الله الشيعي ذهابا متخفيا وإيابا محررا من سجن سجلماسة ، وكانت ذات مرافق أهمها المسجد الذي سيهدمه عبيد الله المهدي ، كما يرد في هذه الرواية ذكر لقصر بمدينة ورقلة .

يقول أبي زكريا أن عبيد الله المهدي لما خرج من توزر« جاز بطريقه إلى ورجلان ، فلما رآه سفهاؤهم هزؤوا منه. وقالوا ، هذا الذي جاء من المشرق يطلب الملك ؟ فرموا في وجهه وضربوا له القرون، وكان أشد الناس عليه في ذلك ، أهل قصر بكر، فلذلك خرق المسجد الكبير في رجوعه..." وفي

[1] تاديوز ليفيتسكي : دور الصحراء الكبرى و أهل الصحراء في العلاقات بين الشمال والجنوب .(تاريخ إفريقيا العام من القرن السابع إلى القرن العاشر) إشراف ن م . الفاسي و إ . هربك. اللجنة العلمية الدولية لتحرير تاريخ إفريقيا العام . اليونسكو ، باريس 1994 ، ج 03 ، ص 334 .

[2] موريس لومبار : الإسلام في مجده الأول ، ص 207 .

نفس الوقت سأل عبيد الله عن منزل شيخ أهل ورجلان ،"فقيل له غيار. فقال ، أين منزلـه ؟ فقـالوا ، تاغيارت . فقال ، شيخهم غيار وبلدهم تاغيارت »[1] .

في هذه الفترة كانت مدينة ورقلة مقصدا لتجار المنطقة وطريقا يربط بين القيروان وسجلماسة وهو الطريق الذي يكون عبيد الله المهدي قد سلكه ليبتعد أكثر عن عيون الأغالبة التي كانـت ربمـا تترصـده للقبض عليه ، فيكون طريق ورقلة الأنسب له .

المدينة يحدد معالمها أبي زكريا في روايته عن إرسال عبيد الله المهدي فرقة من الجند للمدينة بعد أن افتك من الأسر بسجلماسة عام297هـ ، إذ يقول أن المدينة كان لها كدية تسمى كريمـة، وأن سـكان المدينة لما سمعوا بإقبال الجند « توجهوا إلى كريمة ، وهي كدية عظيمة لا ترام، فطلعوها، فحفـروا فيهـا مواجل للماء، فملؤوها... فلما وصل إليهم حاصرهم اشد الحصار. وذكر أصحابنا انه طوق عليهم سبعة أطواق من خيل، فأراد الإقامة عليهم حتى يموتوا عطشا...»[2]، وقد تكون مدينة ورقلة قد تأثرت من هذا الحصار حيث أن المحاصرين أحرقوا المسجد الكبير لجنون بن يمريان ، هذا الأخير الذي استقبل آخر الأئمة الرستميين يعقوب بن أفلح حيث « تلقاه أبو صالح في جموع أهل ورجلان، فأدخلوه و أكرموه وأحسنوا القيام به...»[3]

وقد عرفت المدينة تراجعا في القرن الخامس بفعل هذه السياسة الفاطمية ، إذ نفهم من وصف أبي زكريا يحي بن أبي بكر لوارجلان لما سأله سكانها أن « أقم عندنا فنأنس بك ، قال لهم : قولوا قم يمـت قلبك ، وذلك لما اطلع عليه من رداءة أحوالهم »[4]. على أن هذه الحال ستتغير بفضل ما كانت تتمتع بـه المدينة من وقوعها على خط للتجارة التي تربط الكثير من الأسواق الهامة في بلاد الأندلس وفي الشرق .

بالنسبة لأبعاد المدينة وعلاقاتها مع باقي المدن فالمصادر تخبرنا أن لها شبكة طرق تربطهـا بمراكـز الدول التي ظهرت في أعقاب رحيل الفواطم ، فقد استطاعت الدولة الحمادية أن تبسط نفذها على المدينة في منتصف القرن الخامس الهجري ، بعدما كلف الناصر بن علناس ابنه المنصور « وبعث سراياه وجيوشه إلى بلد واركلا وولى عليها ، وقفل بالغنائم والسبي »[5]، ويمكن أن نميز اتجاه ثلاثة معابر تمر عبر المدينـة ؛

---

[1] أبي زكريا : كتاب سير الأئمة وأخبارهم . ص 109 . أبي الربيع الوسياني : سير مشائخ المغرب .تح إسماعيل العربي ، د ط ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1985، ص 109

[2] أبي زكريا .: المصدر نفسه ، ص 113 . لا يذكر القاضي النعمان هذه الرواية . ويقول أن المهدي عبيد الله لما خرج من سجنه بسجلماسة توجه إلى بلد كتامة و بوصوله إيكجان أمر بإحضار الأموال التي جمعها الدعاة وشيوخ كتامة . رسالة افتتاح الدعوة ، ص 245 246 .

[3] أبو الربيع الوسياني : سير مشائخ المغرب ،ص 124 .

[4] الشماخي : كتاب السير ، ج 02 ،ص 92 .

[5] ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، ص 231 .

طريق نحو الشمال يعبر إلى بلاد الأندلس وصقلية ، وطريق ثان يعبر إلى الشرق ، وأما الثالث فيتوغل في البلاد الصحراوية نحو السودان .

3- المسالك التجارية لورقلة :

أ – طريق الشرق :

يمتد هذا الطريق نحو الشرق إلى بلاد مصر ، و يمر عبر شبكة من المدن المنتشرة على طول منخفضات الحضنة ويشمل تيهرت وورجلة وسدراتة وبني مزاب[1]، و يتجه هذا الطريق من ورقلة نحو نفوسة التي تبعد عنها «اثنتا عشر مرحلة »[2]، و من ورقلة إلى بلاد الجريد نحو «14 يوما،... ومن بلاد وارجلان إلى غدامس نحو 20 يوما في صحراء قليلة الماء »[3]. هذه الطريق يقول عنها موريس لومبار[4] أنها كانت محل صراع بين مختلف القوى السياسية التي ظهرت بمنطقة شمال إفريقيا، منذ الأدارسة والرستميين و الأغالبة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، والصراع بين الأدارسة و الفاطميين في القرن الرابع الهجري / العاشرالميلادي ، ثم بين الفاطميين والأمويين وبين صنهاجة و زناتة في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي، ثم سيطرة المرابطين في الغرب بعد ذلك . وهذا الطريق هو الذي سيشكل السبب المباشر للثراء الفاطمي بمصر بذهب السودان. كما يمتد شرقا إلى مدينة سجلماسة ، ويكون هذا الطريق هو الذي سلكه عبيد الله المهدي بعد تحريره من الأسر .

ب – طريق الشمال :

يعبر هذا المسلك الهام إلى الشمال حيث أهم مدن المغرب الأوسط التي شكلت سواحلها شبكة من الموانئ التجارية نحو بلاد الأندلس وصقلية ، وكانت ورقلة تشكل أحد حلقات هذه السلسلة في طريق تجارية تمتد من السودان الغربي إلى الأندلس الذي كانت بيوت السك فيه والقصور والمساجد في أمس الحاجة لمادة الذهب .

كانت تيهرت أهم محطة تلي ورقلة في العهد الرستمي ، ولعبت دورا لا يستهان به في التعامل مع ورقلة التي شكلت لها فيما بعد ملاذا أمام الزحف الفاطمي بالإضافة إلى مدينة سدراتة . ويخرج من ورقلة العديد من المسالك والطرق نحو الشمال فالبكري مثلا يشير إلى أن المدينة كانت لها طريق تربطها بقلعة بني

---

[1] موريس لومبار : المرجع السابق ، ص 88 .

[2] الإدريسي : المصدر السابق ، مج 2 ، ص 279 .

[3] مجهول : الاستبصار ، ص 224 .

[4] موريس لومبار : المرجع السابق ، ص 89 93 .

حماد « وبين وارجلان وقلعة أبي طويل مسيرة ثلاثة عشر يوما »[1]. ويمتد هذا الطريق إلى مدينة المسيلة القريبة من القلعة والتي يحدد بعدها الإدريسي ب « اثنا عشر مرحلة كبار» لكن الإدريسي في نفس الوقت يحدد المسافة بين وارقلان وقفصة ب« ثلاث عشر مرحلة »[2]، ونحن نعلم أن البعد بين المسيلة ومدينة قفصة يتجاوز هذه المسافة بكثير ، لذلك فالمسافة التي يحددها الإدريسي تكون مجانبة للصواب .

وقد تكون هذه الطريق في الكثير من الفترات قد تأثرت بالصراعات السياسية ، كما أن أعمال النهب التي قامت بها قبائل بنو هلال يمكن أن يكون لها تأثير مزدوج؛ فقد تسمح لانتعاش المدينة التجاري بلجوء التجار والحرفيين إليها ، كما يمكن أن يكون لها تأثير سلبي آخر في قطع الطرق و المسالك التي تؤثر في تراجع التجارة نحو الشمال و انكماشها .

3 – طريق الجنوب:

بالنسبة لبلاد السودان وعلاقاتها مع ورقلة يقدم لنا الإدريسي مجموعة من الطرق أهما :

طريق من ورقلة إلى غانة[3] وتبعد هذه المدينة مسافة ثلاثون مرحلة .

طريق ورقلة – كوغة[4] وتكون المسافة بينهما نحو من شهر ونصف [5].

طريق أخرى من ورقلة إلى اودغست[6]، تمتد على مسافة إحدى وثلاثين مرحلة[7] .

إن كثرة هذه المسالك والطرق التي تخرج من مدينة ورقلة ونحو مختلف الاتجاهات لتدل دلالة قاطعة على الدور الهام الذي شكلته هذه المدينة ليس فقط في الجانب التجاري المتعلق بتجارة العبيد أو الذهب ، بل أيضا في نشر الإسلام في مناطق إفريقيا جنوب الصحراء . خاصة وأن المدينة اعتبرت أحد المراكز الرئيسية

---

[1] البكري : المصدر السابق ، ج 02 ، ص 371 .

[2] الإدريسي : المصدر السابق ، ج 2 ، ص 296 .

[3] غانة : مدينة تقع جنوب شرق موريطانيا وتسمى مملكة غانا ، وهي أكبر بلاد السودان قطرا في القرن السادس الهجري ، فإليها مقصد التجار والتجارات والسكان خاصة من المغرب الأقصى ، غانة تتصل ببلاد ونقارة الغنية بمناجم الذهب وتفصلها عنها مسافة ثمانية أيام . الادريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 23 24 .

[4] كوغة : مدينة تقع في ناحية ونقارة و يقول الإدريسي أن هناك من يجعلها ظمن بلاد السودان ، ومنهم من يجعلها ببلاد كانم . لها سور وهي عامرة بها تجارات وحرف مختلفة . تبعد عن غانة مسافة شهر ونصف ، ومن كوغة إلى دمقلة مسافة شهر ، ومنها إلى مدينة كوكو عشرون مرحلة عن طريق الجمال . الإدريسي : المصدر السابق ، ج 01 ، ص 27 .

[5] الإدريسي : المصدر نفسه ، ج 2 ، ص 296 .

[6] أودغست : مدينة كبيرة صحراوية يقول عنها البكري أنه رغم أن مبانيها حسنة إلا أنها وبية ، سكانها من إفريقية وبرقجانة ونفوسة ولواتة زناتة ونفزاوة ، بينها وبين القيروان مائة وعشر مراحل وبينها وبين سجلماسة وأودغست إحدى وخمسون مرحلة . ومنها إلى إلى زويلة عشر مراحل ، البكري ، المصدر السابق ،ج 02 ، ص 245 246 . الإدريسي : المصدر السابق ، مج 01، ص 197 .

[7] الإدريسي : نفسه . مج 2 ص 108 .

للمذهب الإباضي أيام ازدهار الدولة الرستمية. وهي المدينة التي زارها أبو زكريا يحي بن أبي بكر مؤلف كتاب السيرة وأخبار الأئمة والذي عاش في القسم الثاني من القرن الخامس /الحادي عشر ميلادي، وعاش فيها خاله أبو حمزة إسحاق ابن إبراهيم بن إسماعيل، وهو راو وعلامة وكاتب سير[1].

كما عرفت ورقلة نوع من الصراع المذهبي بين الوهبية والأشاعرة. وبين الوهبية والمالكية أيضا حسبما يفهم من المصادر، حيث يذكر الشماخي في ترجمة ليعقوب بن أبي القاسم يونس بن وزجين الويليلي في حدود(469 هـ-470هـ) أن المدينة كانت تعيش اضطرابا وأن يعقوب بن أبو القاسم طلب من أحد رفاقه أن يحتذر لسبب« أن الفتنة تحركت بين الوهبية والمالكية »[2]، على أن هذه الاختلافات المذهبية لم تكن لترقى لمستوى يؤثر في نشاط تجار المدينة الذين يكونوا قد فرضوا حدا من الأمن والاستقرار الذي يحتاجه نشاطهم.

في الأخير يمكن أن نشير إلى أن المدينة التي تكون قد اشتهرت بمكانتها ودورها التجاري ، تكون قد تأثرت هي الأخرى ومثل باقي مدن المغرب الأوسط ، بالفوضى السائدة عهدئذ والتي بلغت أشدها في الجنوب والغرب ، بسبب التحالفات المحلية المبرمة بين البطون الزناتية والهلالية[3]، هذه المتغيرات الجديدة التي طرأت على المنطقة ستكون سببا في رأينا في إعادة توجيه ورسم خطوط جديدة لتجارة العبور في منطقة المغرب الأوسط ، وستؤدي إلى انتعاش المناطق الشمالية أكثر خاصة تلك التي توفر فيها عنصرا المناعة والحصانة الطبيعية .

[1] تاديوس ليفيتسكي : المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية . ترجمة ، ماهر حرار و ريما حرار ، ط 01 ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، 2000 ، ص 77 78 .

[2] الشماخي : السير ، ج 2 ص 125 .

[3] روحي إدريس : المرجع السابق ، ج 01 ص 324 .

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمة :

من خلال ما أشرنا إليه في هذه الدراسة يتبين أن المدينة بالمغرب الأوسط لم تكن في منأى عن التطـــورات السياسية والاجتماعية والثقافية التي مرت بها المنطقة ، فتأثرت بها إلى درجة أننا نستطيع بعد القرن الثالـــث الهجري أن نتبين أنماطا متنوعة ومختلفة من المدن ، وإذا كانت المصادر التي تطرقت للموضوع نادرة جدا ما يجعلنا نقتصر على الروايات التاريخية التي تذكر بعض هذه المدن في سياقات مختلفة ، فإن عوامل أخرى غير سياسية تكون وراء تطور هذه المدن ، ولعل الجانب الاقتصادي المتمثل في المسالك وطرق القوافل التجارية كان لها الأثر الكبير في انتعاش أو تراجع الكثير من مدن المغرب الأوسط .

و الثابت أن خريطة عمران المغرب الأوسط كانت تتغير باستمرار من مرحلـــة إلى أخـــرى ، و لم تعرف الاستقرار إلا نادرا ، والمشكلة التي تصادف الدارسين في هذا المجال تتعلق بسكوت المصادر علـــى العوامل التي تكون وراء هذا التغير ، فلا يمكن أن نستبعد العوامل غير السياسية من أن تكون مراء الكـــثير من الأحداث الهامة التي لها علاقة بالحياة بالمدن مثل الجوائح والمجاعات و الأوبئة التي يكون لها تأثير مماثل أو يفوق الحروب، غير أن طغيان مصادر التاريخ السياسي يجعل الأمر صعبا للوصول إلى تحديد دقيق و نهجي لتطور عمراني متسلسل تبعا لتغيرات الزمن .

كما أن المتغيرات الاجتماعية والمتمثلة في حركة سكان المدن خاصة قبائل البربر الرحل الذين قلما نجدهم يستقرون في مكان خاص بهم ، كان لهم أيضا الدور الهام في تغيير مكونات المدينة من خلال التأثير في زيادة أو نقصان سكانها .

ما نستنتجه من مختلف الروايات التاريخية أن مدن المغرب الأوسط لم يحدث فيهـــا قطيعـــة بـــين موروثها القديم سواء في تركيبتها أو في شكلها العام ، بعد نهاية مرحلة الفتوحات الإسلامية للمنطقة ، هذه الفتوحات التي حافظت على نمط العمران الموجود و لم تدمره ، إلا ما ناقض القيم الجديدة للدين الإسلامي ومقتضياته ، لذلك كانت مرحلة التحول من نمط العمران الروماني إلى نمط العمران الإسلامي قد حـــدث دون اضطراب في هذه المدن وهذا عكس ما توحي إليه بعض الدراسات الاستـــشراقية مـــن أن الفـــتح الإسلامي لبلاد المغرب أدى إلى حدوث قطيعة وتراجع في اقتصاد المنطقة .

مرحلة مابعد الفتح الإسلامي تميز ببداية استقرار الفاتحين العرب والمسلمين بمدن المغرب الأوسط ، وكانت القاعدة في ذلك هي الحفاظ على مدن البلاد وتعميرها أو إعادة بنائها بعدما شهدت تراجعا ناتجا عن الحقبة البيزنطية وظروف البلاد الاقتصادية التي صاحبها الجفاف والمجاعات في نهاية القرن الأول الهجري حـــسبما تذكر المصادر التاريخية .

مع نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري تظهر ببلاد المغرب الأوسط حركة بناء نشيطة للكثير من المدن كان العديد منها قد تحول إلى عواصم لكيانات سياسية استقطبت العلماء والتجار والدعاة و غيرهم من شرائح المجتمع الأخرى . فنتج عن ذلك مشاركة الكثير من مدن المغرب الأوسط في الأحداث السياسية الكبرى التي طبعت تلك الفترة خاصة في ظل حكم الأغالبة ؛ حيث يبرز دور إقليم الزاب بمدنه التي ستقرر مصير الحكم الأغلبي .

وفي الوقت الذي نجحت فيه الكثير من الحركات الخارجية في السيطرة على العديد من المدن ببلاد المغرب الإسلامي، كان المغرب الأوسط يشهد نشاطا للمذاهب العقدية التي كان لها هي الأخرى دورها فيما يحدث بالمدن ، والتي استهوت هؤلاء الدعاة ، وكانت تمثل لهم العامل الرئيس في نجاح أو فشل حركاتهم ، وهذا ما نجده حركات العلويين الطالبيين الذين عملوا على تحويل الكثير من مدن المغرب الأوسط إلى إمارات صغيرة عرفت بهم ، وفي هذه الظروف كانت المدن قد تأثرت ببروز الكثير من المرافق التي لها علاقة بالتحصينات وبناء الأسوار خاصة في المراحل الأولى من عمر الدولة المنشأة .

غير أن الملاحظ في هذا الجانب هو فشل الفاطميين في إنجاح دعوتهم ، والسبب يعود إلى نفور سكان المغرب الأوسط من المذهب الإسماعيلي وتجذر المذهب المالكي بين السكان ما جعل المدن توصد أبوابها أمام هؤلاء الدعاة الذين اكتفوا بتأسيس مدن أدت مهاما مرحلية و لم تتطور أو يزيد حجمها ، فقد انتهى دورها بمجرد انتقال الفواطم إلى المهدية ، ولا نجد ذكر لهذه المدن التي أسسها الفاطميون في المصادر التاريخية بعد ذلك ، وهذا عكس ما كان يجري في مدن أخرى حيث نجح الإباضيون في تأسيس مدن تحولت في ظروف وجيزة لعواصم كبيرة .

بالنسبة للدور الذي لعبته القبيلة في هذا المجال فقد نجحت صنهاجة في تمصير البلاد وبناء شبكة من المدن ، وأعادت بناء البعض منها ، فامتدت المدن الصنهاجية على طول المناطق التلية والساحلية للمغرب الأوسط ، مستغلة حيوية جغرافية الموقع ، والظروف السياسية التي كان يعيش في ظلها المغرب الأوسط ، خاصة الصراع بين مختلف الكيانات السياسية حول المسالك التجارية ، فنعتبر أن أكبر مرحلة بناء عرفها المغرب الأوسط هي تلك التي حدثت على يد قبيلة صنهاجة . التي لم تثنها ظروفها عن بناء المدن التي شكلت أحد مقومات سياسة أمرائها .

لطالما سعيت أن أتقيد و أعمل بما نصحني به أساتذي الأفاضل بضرورة التقليل من حجم المذكرة ، وهو ما كنت أعمل من أجله ، غير أنني في الأخير وجدت نفسي أمام الكثير من النقاط التي أرى و أنها لا زالت تحتاج إلى الكثير من العمل و الدراسة ، و لم يكن بمقدورنا الإلمام بها جميعا ، خاصة ما يتعلق بالجانب الداخلي للمدن و مختلف التغيرات و التحولات التي كانت تعيشها ، وهذا ما يشكل ميدانا آخر للبحث ، وليعذرني القارئ الكريم ، فلو أتيح لنا الوقت الكافي لكان بالإمكان التقليل من حجم هذه الدراسة .

الملاحق

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم : 01

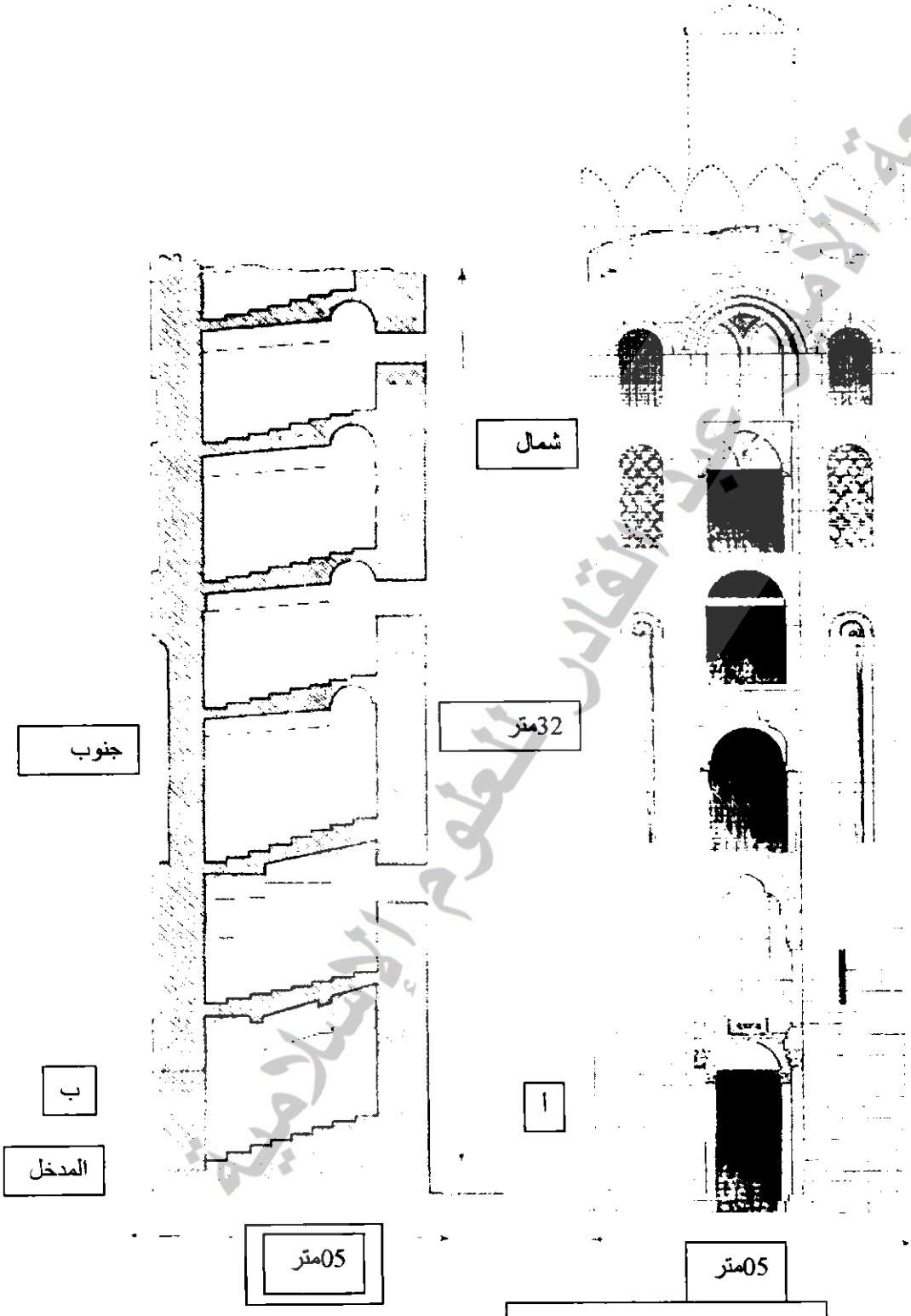

مخطط لمنارة جامع القلعة

المصدر : Luciene-Golvin : Magrib Central A L'epoque Des Zirides

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

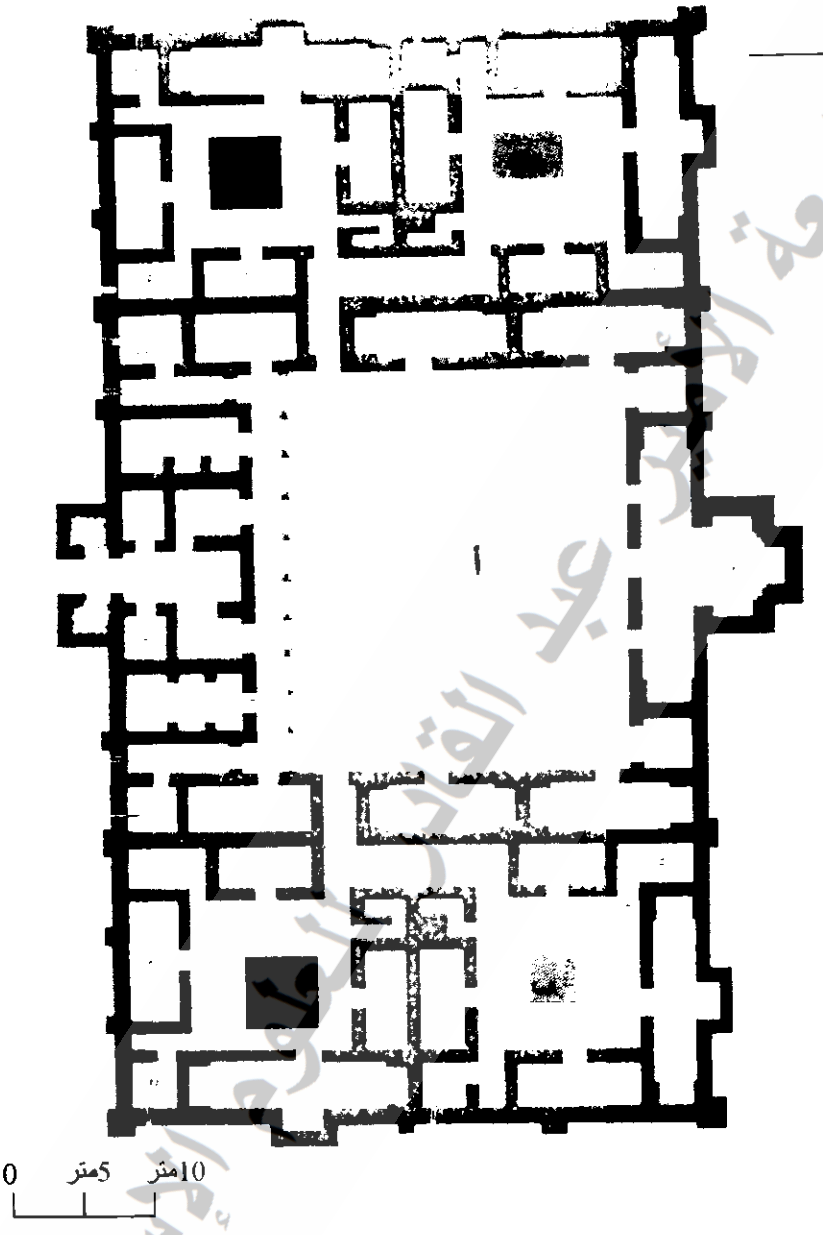

المصدر : Lucien-Golvin : *Le Magrib Central A L' epoque Des Zirides,P 181*

مخطط لقصر زيري بمدينة أشير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملحق رقم :03

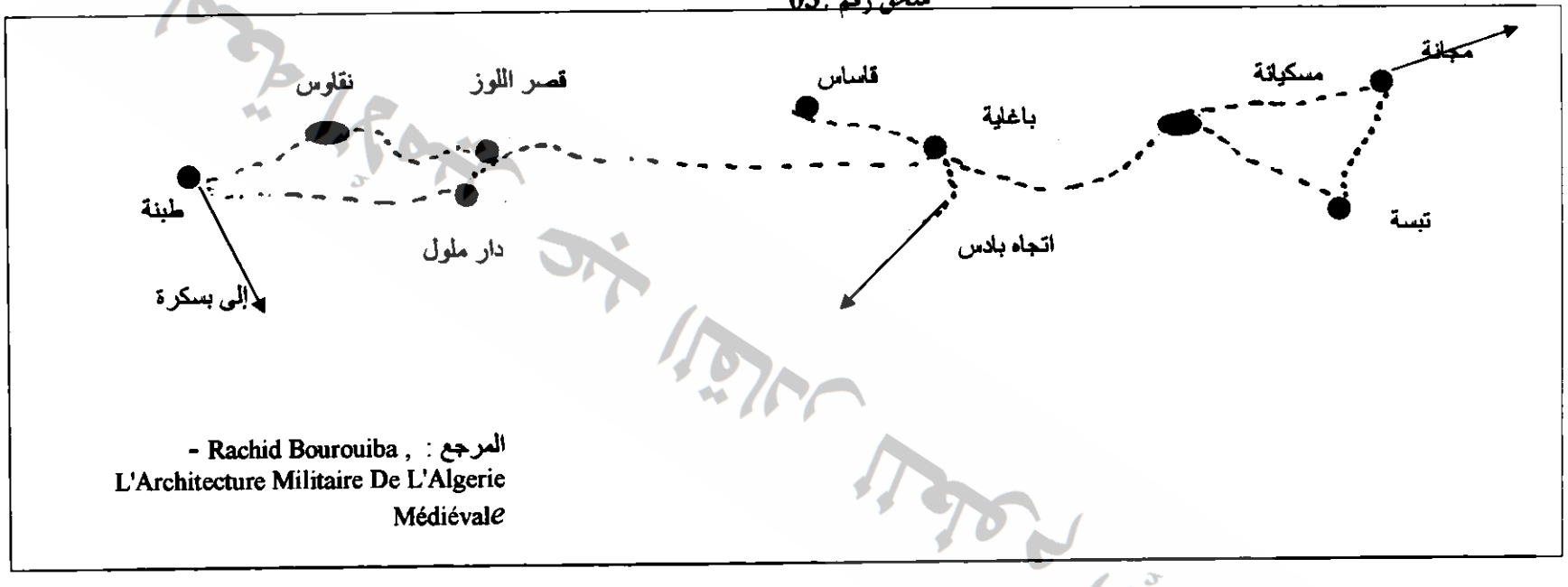

مدن اتخذت حصون شمال الأوراس

ملحق رقم : 04

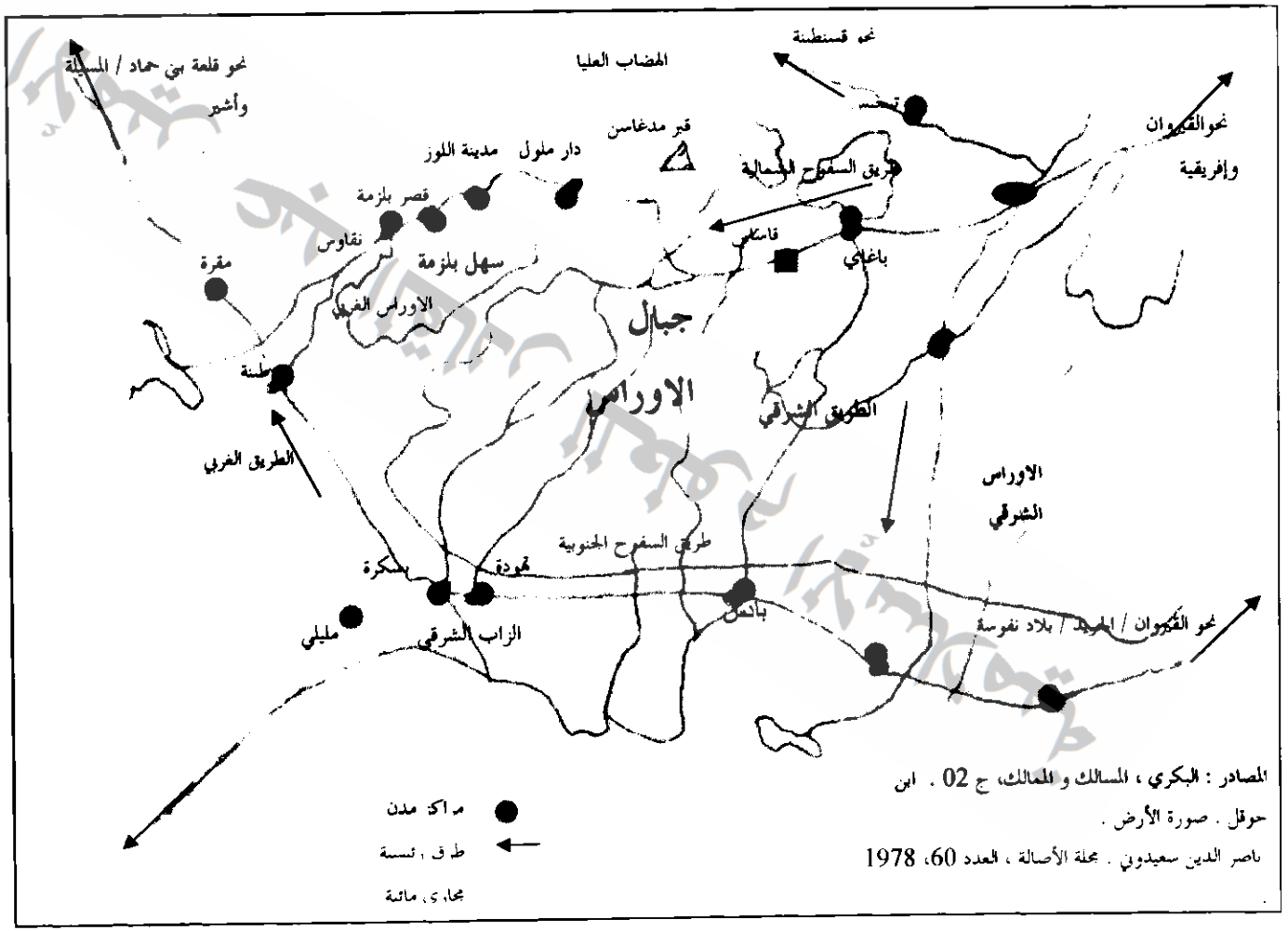

المصادر : البكري ، المسالك و الممالك، ج 02 . ابن حوقل . صورة الأرض .
ناصر الدين سعيدوني . مجلة الأصالة ، العدد 60، 1978

خريطة تبين أهم مدن الزاب والأوراس والطرق الرابطة

ملحق رقم : 05

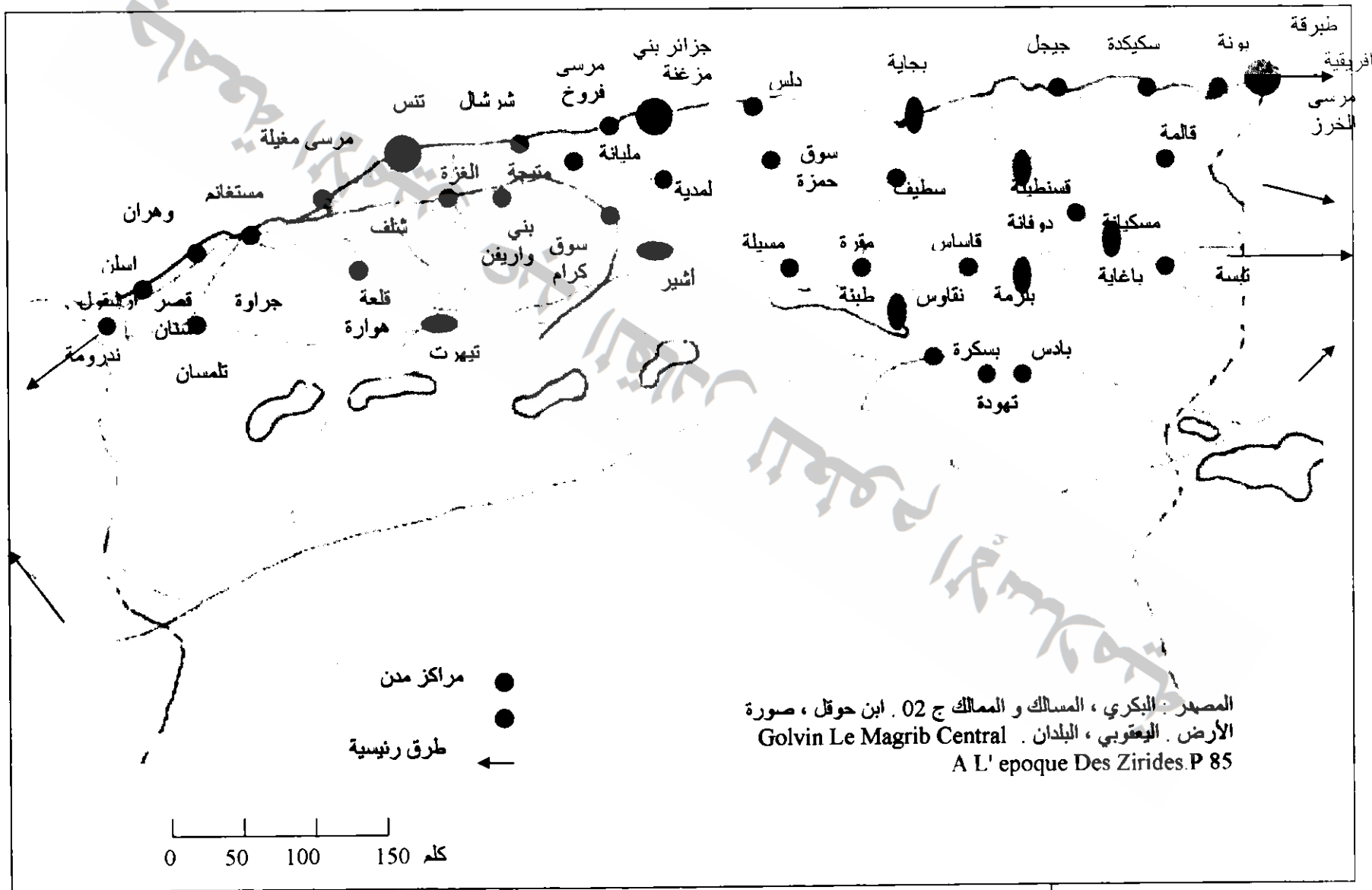

المصدر : البكري ، المسالك و الممالك ج 02 . ابن حوقل ، صورة الأرض . اليعقوبي ، البلدان . Golvin Le Magrib Central A L' epoque Des Zirides.P 85

مدن المغرب الأوسط قبل القرن الخامس الهجري

ملحق رقم : 06

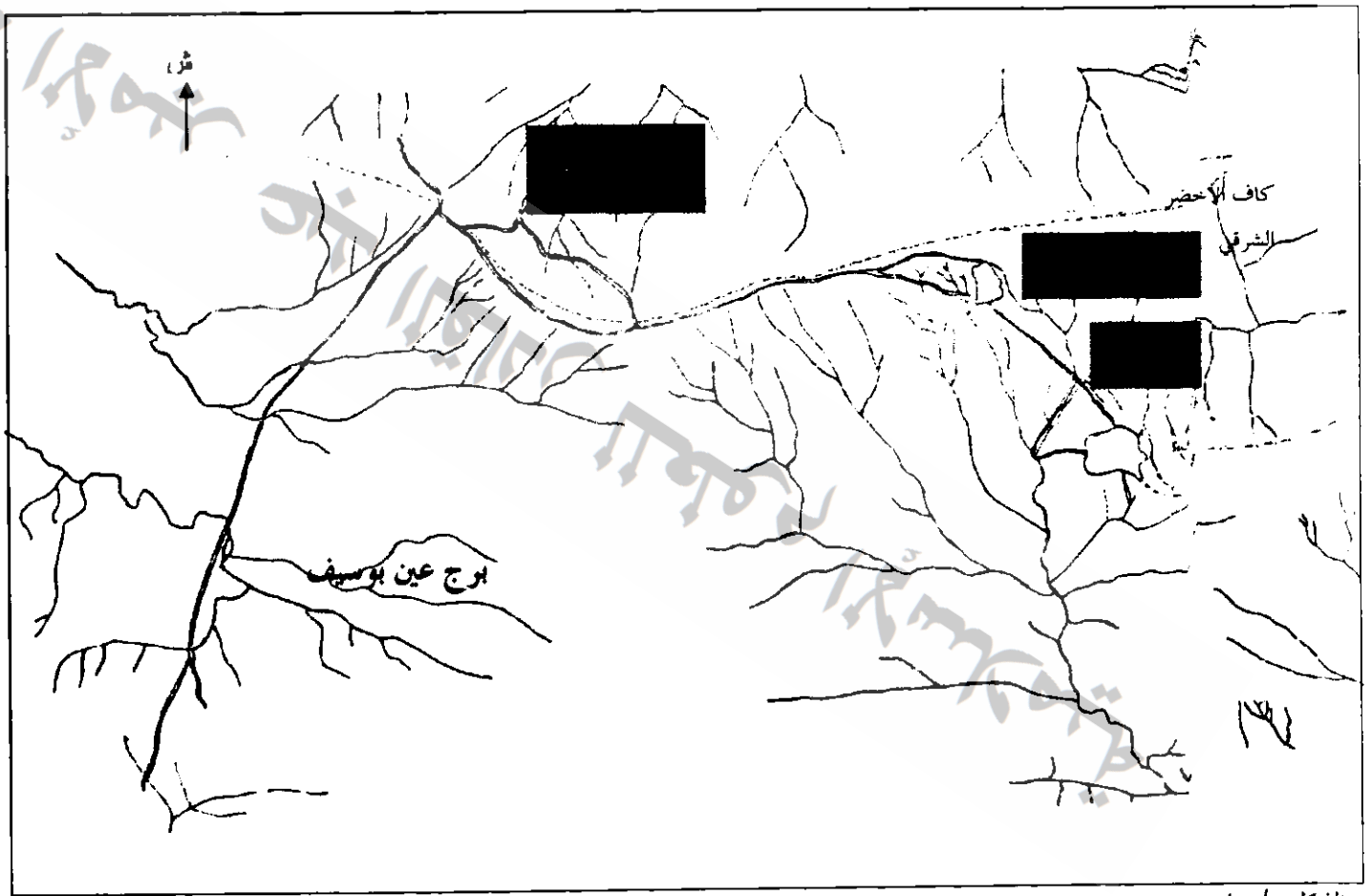

مخطط بقايا مدينة أشير الذي وضعه روديت (Rodet)

الشكل مأخوذ من :
Rachid bourouiba, L'Architecture Militaire De L'Algerie Medievale , p.60

ملحق رقم : 07

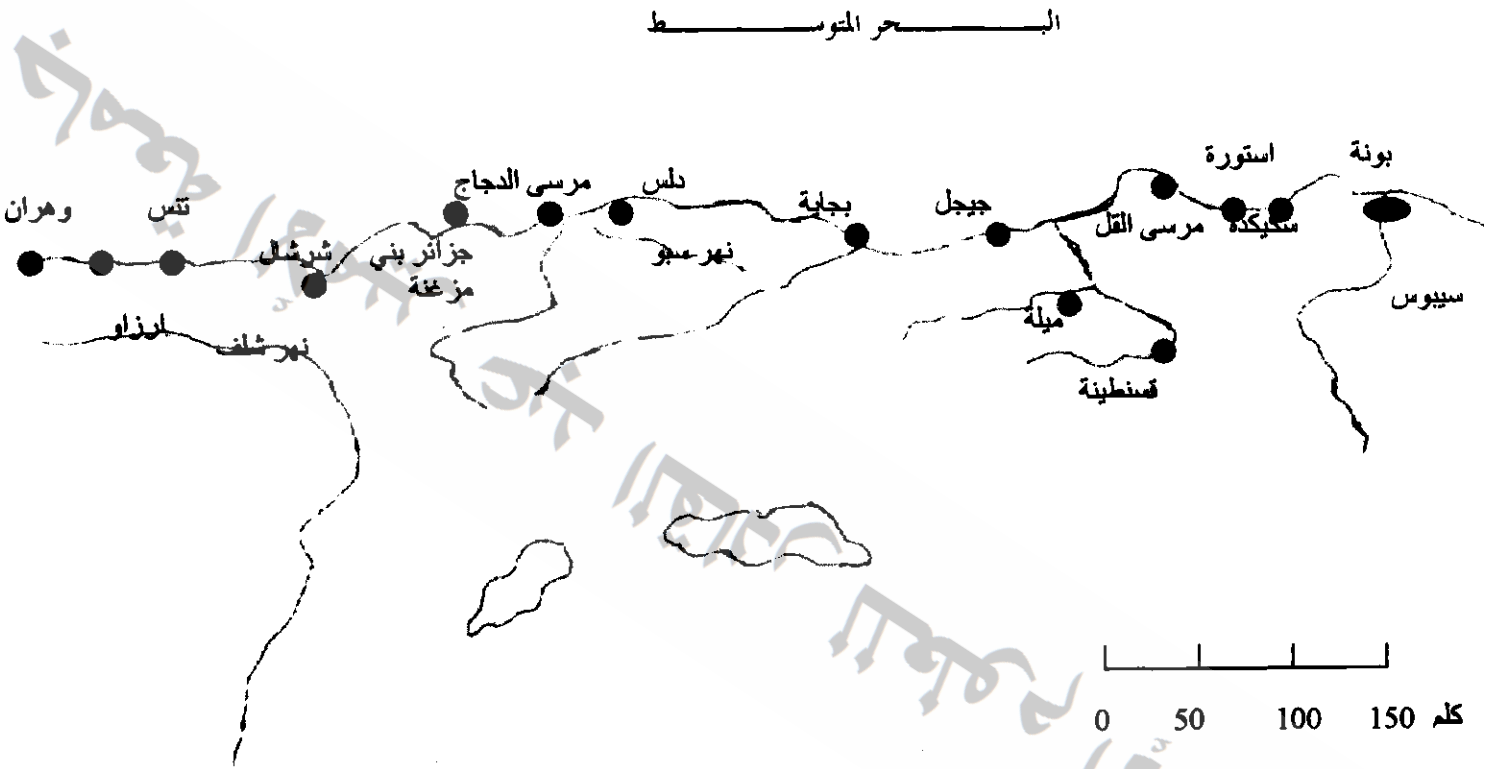

المصدر : اليعقوبي : البلدان ، ابن حوقل : صورة الأرض ، البكري : المسالك ، ج 02 ، الزهري : كتاب الجغرافيا .

خريطة لأهم المراسي والمدن الساحلية بين بونة و تنس

ملحق رقم : 08

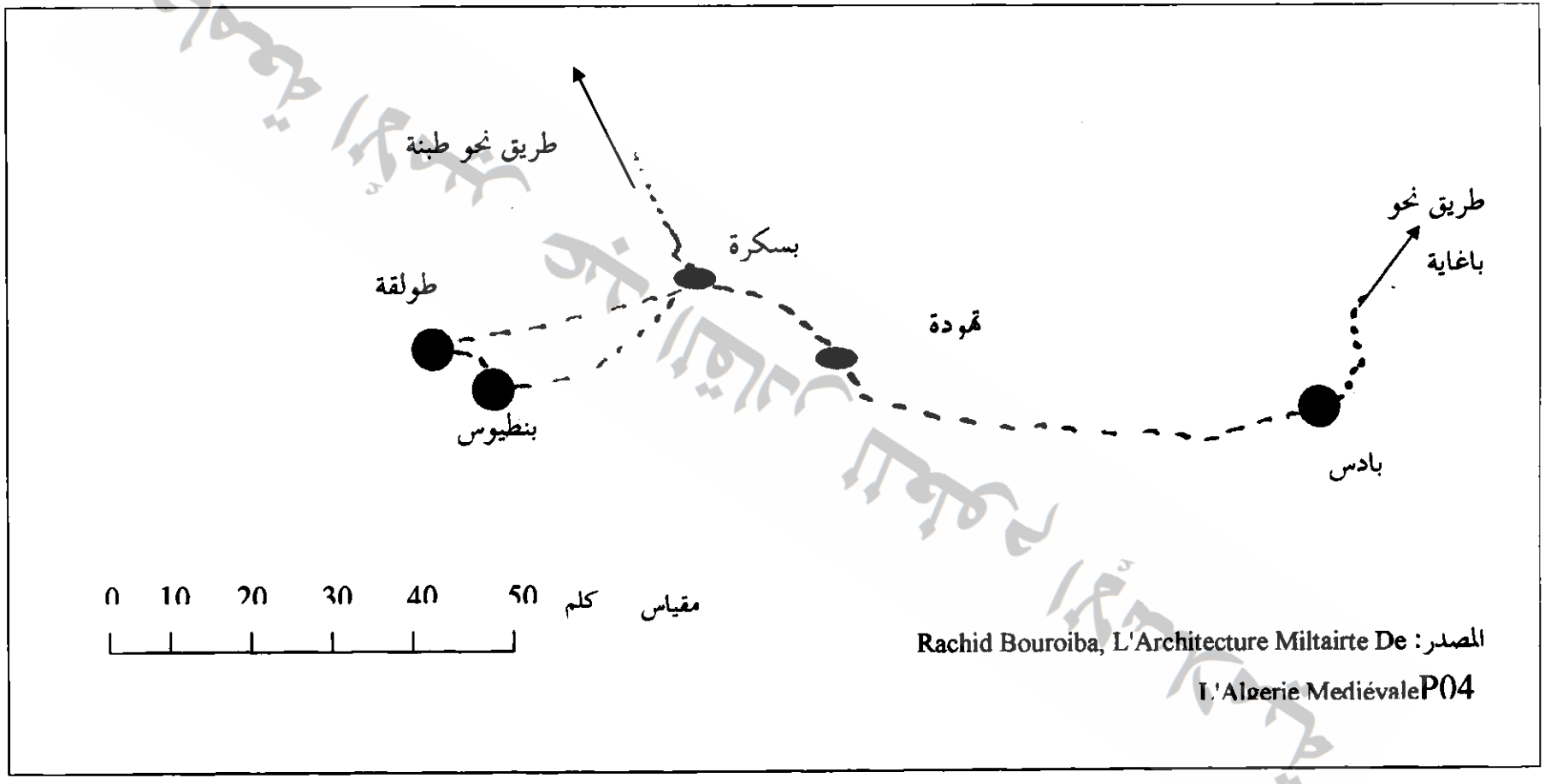

خريطة لمدن كانت حصون رومانية وتحولت إلى مدن إسلامية

فهارس الأعلام و الأماكن و الشعوب و القلائل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أبو محمد دبار 45 46 47 48 102 144 154
أبو إبراهيم احمد بن أبي العباس 68
أبو جعفر عمر بن حفص 70
أبو جعفر المنصور 02 71
أبو عبد الله الشيعي/ الداعي 76 78 79 80 83 84 87 113 145 146 147 148 149 150 151 152 153 154 155 156 157 165 167 223
الأغلب بن سالم 71
ابان 125

ب

بسر بن أبي أرطأة 43 44 45
بلكين 174 176 179 180 181 182 211
ابراهيم بن الاغلب 149 156
ابراهيم بن عيسى بن سليمان 227
ابي بكر بن افلح 135 140
بلباز 168

ت

تميم بن المعز 190

ج

جنون بن يمريان 235
جستنيان 54
جعفر بن علي بن حمدون 164 165
جوهر الصقلي 142

ح

حسان بن النعمان 51 61 201
ابي حاتم يوسف بن محمد 135 137 140
الحسين بن علي بن أبي طالب 92 93 96
الحلواني 145 151
حي بن ملكن 80 152
حميد بن بكين 182 197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

حماد بن الحسن بن مسلمان 93 96
حميد بن يصليين 96
أبا حميد دواس 142
حمامة بن زيري بن عطية 97
الحسن بن هارون 153
الحسن بن ابي العيش 101
ابن الخبحاب 102
ابن حبشي 167
حبيب بن عبيدة بن عقبة 102
بن نافع
حريث 148
حمويه 125
ابن حوشب 145
أبي حوال بن عبد الله 156
أبو حنبفة 30

خ

أبا خفاجة محمد بن إسماعيل 80
أبي الخطاب عبد الأعلى 114 126
أبو الخير توزين الزواغي 211

د

إدريس بن عبد الله 06 103 104 159

ر

روحار 217
روح بن حاتم 69

ز

زاوي بن زيري 211
زهير بن قيس البلوي 48 61
زيري بن مناد 94 96 142 160 169 170 174 176 177 179

س

اسماعيل بن كثير المقصور 176 182 184
ابو سفيان 145
أبي سهل الفارسي 136
ابن سحنون 23
سولومون 54

ط

طارق بن زياد 102

ع

عبد الله بن سعد بن أبي سرح 42
عقبة بن نافع 43 44 46 48 51 53 55 59 60 61 102 116
أبو العباس أخ أبو عبد الله 145 148
العباس بن بختي 105
علي بن حمدون 56 158 159 160 164 165
عبد الله بن عبد الحكم 22
عمر بن عبد العزيز 67
عمر بن حفص 70 71 72 74 103
علي بن حامد 107
أبو العيش عيسى بن محمد 99 100
ابن أبي العافية 101
عبد الرحمن الناصر 101
عبد الرحمن أودموت بن سان 111
عبد الرحمن بن حبيب 02 103 114
عبد الوهاب بن عبد الرحمن 109 110 114 122 129 132 133 134 135 137 139 141
عبد الرحمن بن رستم 114 115 116 117 118 119 120 121 122 131 133 134 136
عمي بن عسلوجة 152 157
عبد المؤمن بن علي 198
ابن عبدوس 23

غ

ابن غانية 198
غدوية 84

ف

أبو حنيفة 30
افلح بن عبد الوهاب 124 129 132 135 136 141
افلاطون 13

ق

القائم بأمر الله 170 172 176
أبي القاسم الورفجومي 148
أبو القاسم إسماعيل بن عبيد الله 101 158 159 161
أبي قرة المغيلي 103 104

ك

الكاهنة 51 52 55 228
كسيلة 46 70 201
كلثوم بن عياض 102

م

محكم الهواري 141
محمد بن أبي ابراهيم 68
محمد بن أبي عامر 227
محمد بن الأشعث 71 103
محمد بن سليمان 92 97 98 99 100 103 107
محمد بن خزر المغراوي 104
محمد بن تينعمر المسوفي 105
محمد بن صالح 107
محمد بن أي عون 224
مزدلي 105
معاوية بن حديج 43
المعز بن باديس 86 211 212
المعز لدين الله 165
المنصور بن أبي عامر 108
منصور بن [illegible] 73

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

موسى بن عباس 152
موسى بن نصير 44 45 61 62 63 67 70 102 229
المنصور أبا يكني 168
المنصور بن الناصر بن علناس 190
مصادف بن حرتيل 95 111
مصالة بن حبوس 142
عبيد الله المهدي 144 145 146 151 153 155 158 161 223 234 235 236

ن

الناصر بن علناس 86 168 185 190 192 193 197 235

هـ

هادريانوس 51
هارون الرشيد 69
هشام بن عبد الملك 231

و

الوليد بن عبد الملك 67 121
ويغلان 97

ي

يحي بن يوسف 151
يعلى بن باديس 107
يعلى بن محمد اليفرني 105 107 108
يزيد بن أبي مسلم 67
أبي يزيد مخلد بن كيداد 159 162 163 165 170 173 182 184
يعقوب بن أفلح 235 238
يوسف بن تاشفين 105 181
يوسف بن مناد بن زيري 174
يوليان 102
أبي اليقضان 132 141
يقضان بن أبي اليقضان 142

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأماكن

أ

اشير	94 95 96 146 162 146 162 169 170 171 172 173 174 175 176 177 179 181 201
اغادير	105
اغرم ان يكامن / قصر	232
الاربس	65 210
اذنة / اربة / ازبة	03 48 53 55 56 57 70 72 76
ارشقول	227
اريغ / قصور	230
ازمرين	225
اسلن	227
اسلان / نهر	130
الإسكندرية	06 07 40 61 62 68 195
ارزاو	129 205 226
اورلال	58
اولاد جلال	58
اكوسيوم	180
اوماش	57
اوشيلاس / جبل	108
الأندلس	04 05 06 07 31 34 67 89 100 102 105 106 108 109 119 126 129 137 138 139 140 119 126 129 137 140 180 181 185 193 200 202 204 206 208 219 220 221 222 225 235 236
الاوراس / جبال	34 49 50 51 54 55 57 59 60 118 141 144 163
اودغست	237
اوزكى	111 112
ايطاليا	54
ايران	188
ايزرج	110 111
ايكجان	146 147 148 149 150 151 152 153 156 157 161 167 168 195

ب

البصرة	28 117 122 132 133 134 148
بلزمة	03 47 50 65 70 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 144 145 152 157
برشك	219
برقة	04 05 06
باجة	201
بادس	57 59 60 62 225
بطليوس	48 [illegible] 225
بجاية	69 [illegible] 167 163 86 85 84 81 79 78 77 72 69 65 53 52 51 50
بحانة	69 [illegible] 186 184 181 180 178 169 168 158 157 147
	87 [illegible] 217 201 200 198 197 196 195 194 193 192 191 188
بقنكزة	33 91 92 113 149 164 167 168 202 [illegible] 232 186 169 85 72 60 59 58

بنية	175 176
بوشقرون	57
بونة	52 145 168 201 207 209 210 211 212 216
بورة	94
بيزة / ايبيزا	196 200 211 212 229

ت

تازروت	79 146 152 153 154 155 156 161 168
تامدفوس	181 218 219
تامنطيت	230
تاسبيت	230
تاسقدالت	110
تافرجنيت	100
تاقرارت	105 106
تاقربوست	182 183
تامسنا	70 89
تامزغان	129
تامزكيدا	173
تاورغا	114
تبسة	44 45 50 52 186 196
تانش / نهر	119 130
تنس	98 104 105 164 173 177 181 207 220 221 222 223 224
تلمسان	03 05 06 08 46 62 70 72 89 92 99 101 102 103 104 105 106 107 108 113 174 181 201 227
تمقاد	48
تطاوين	137
تكرور	112
تهودة	59 60 62 79 225
تيجيس	44 52 186 196
تيفاش	186 196
توات / بلد	230
تونس	54 156 192 193 222
توزر	234
تيكورارين	230
تيهرت / تاهرت	04 05 07 29 70 72 89 98 99 103 106 108 109 110 111 113 114 116 117 118 119 120 121 122 124 125 126 127 128 129 130 131 132 133 134 136 137 138 139 140 141 142 144 157 161 163 169 176 177 201 222 225 227 234 236

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج

اجانة	154
جبل أمسيون	194
جبال البابور	154 147
جبل زكار	178 177
جبل كيانة	163
جبل وانشريس	177
الجعفرية	91
جراوة ابي العيش	101 100 99
جرتيل	111 99 95 94
اجريد / بلاد	236 233 07
جزائر بني مزغنة / الجزائر	216 198 194 183 182 181 180 179 178 176 173 196 136 95 54 219 218 217
جزر البليار	200
الجزيرة الخضراء	207
جزيرة عمر	212
جمونة	58
جنوة	196
جودة / اقليم	230
جيملة	154 152
جيجل	217 216 215 193
جيحون / نهر	05

ح

الحجاز	185
الحضنة	236 184 183 54
حمزة	96 92
الحيرة	36

خ

خراسان	05 04
الخضراء	177 98 97 92 03

د

دار ملول	84 83 72 50
دمشق	202 123 114 67 33 32 28
دكمة / قرية	186
دوفانة	84 50
الدوسن	58

ر

رقادة	153 147 142 91 82 81
روسيكاد	213
الروم	05

ز

الزاب	74 71 70 69 68 59 58 57 56 55 54 53 52 50 49 48 28 07 03 163 160 159 158 146 118 93 87 86 85 84 82 81 80 79 77 76 233 166
زافون / مدينة	231
زاوي / مدينة	210 209
زريبة الواد	57
الزيبان	58
زويلة	89 04

س

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

سامراء	91
اسبانيا	234 120
سبتة	207 200
سبيبة	45
سجلماسة	236 235 234 231 201 166 153 112 111 106 89 72 70 29 05
سدراتة	236 162 121
سردينيا	208 200
سريانة	57
سلا	112 07
سكيكدة	215 214 213
سطيف	168 162 158 157 152 147 145 144 96 81 78 69 47
سطفسيف / نهر	104
السوس	62 40 08 06 05 04
سوريا	120 35
سوف	230
سوفجج / جبل	126 119 114
سوق ابراهيم	98 03
سوق حمزة	184 171 96 03
سوق اهراس	145
سيدي عقبة	61 60 57
السودان	237 236 234 233 231 112 05
سيرتا	47

ش

الشام	195 185 121
اشبيلية	29
شرشال	205 181
شلف	176 128
شيراز	28

ص

صقلية	236 234 229 222 220 217 205 203 200 196 195 185 120 05
صلداي	193 192
الصين	195

ط

طبرقة	207
طبنة	50 55 56 59 62 65 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 83 84 85 86 87 117 144 160 162 163 167 169 171 186 196 201
طنجة	04 05 06 07 40
طرابلس	69 89 114
طولقة	58

ع

غانة	112 233 237
غدامس	89 236
الغدير	183 186

ف

فاس	05 06 97 100 111 158
فج الاخيار	148
افكان	105 107 108
فخ	92
افريقية	02 04 05 06 07 40 42 43 46 48 51 54 61 64 65 67 68 69 70 71 72 75 78 79 82 119 125 126 129 138 140 146 147 148 151 153 158 166 169 172 176 177 178 180 181 184 185 192 196 201 202 210 214 217 233
الفسطاط	28 36
فرجيوة	154
فزان	89
فرفارة	57

ق

قصر ابن سنان	225 227
قالمة	168 196
قصر القلوس	205
قاسي	48 50 65 186
قصر الافريقي	168
القاهرة	91 166 167 168 212
القيروان	95 179
القلعة	168 200 214 215 216 217 218
قرطاجنة	201
قسطيلية	33 47 50 52 54 144 146 147 158 167 168 214 215
قرطبة	34 123 138 217
قسطيلية	50 225
قلعة مغيلة	129
القسطنطينية	151
قلعة بني حماد/القلعة	86 96 97 100 164 169 174 182 184 185 186 187 188 189 190

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قلعة أبي طويل	191 192 194 196 197 182 183 184 185 186 187 189 193 201 236
قمجلة	100
قفصة	237
قصر اللوز	86
القيروان	06 08 28 29 36 43 44 50 52 55 59 60 62 64 65 69 70 72 73 77 78 79 80 82 87 91 97 100 114 116 118 137 144 148 157 159 160 161 162 164 165 167 184 186 187 196 235

ك

كاغلياري	212
ابن كرام	94 95
كزول / جبل	116 123
كوغة	237
الكوفة	09 28

ل

لاماسبا	77
لبنان	35
لطاية	154
لغوات / بلد	234
لمباز / لميس	48 51 53 55
ليشانة	57
مالطا	200
منيجة	03 92 94 95 180 181
مرسى تكوش	212 213
مرسى استورة	212 213 214 215
مرسى الروم	212 213 214
مرسى راس الحمراء	212
مرسى ابن الالبيري	212
مرسى الخروبة	212
مرسى القل	215 216 218
مرسى الزيتونة	216
مرسى الخراطين	216
مرسى الشجرة	216
مرسى دلس	217
مرسى مريرة	219

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مرسى [illegible]	211 208 207
مرسى الدجاج	218 217 136
مرسى الإفانت	219 205 219 216
مرسى معيلة	205
مرسى هنين	226
مصر	236 195 185 167 120 118 47 43 42 08 05
المغرب الاقصى	201 142 119 102 89 68 60 59 46 06
المغرب الأوسط	80 76 75 70 69 68 67 66 65 64 63 62 61 60 56 54 48 46 44 43 41 40 116 114 113 112 109 105 104 103 101 100 93 92 90 89 84 82 81 160 159 158 157 153 152 148 146 145 144 136 133 131 119 117 182 178 177 176 174 173 171 170 169 168 167 166 165 164 161 227 222 220 208 206 204 202 200 198 197 195 194 192 184 183 238 236 234 230 229 228
مسيلة / أحمدية	159 158 146 101 94 91 87 86 85 76 72 69 56 52 50 05 169 166 161 160 159 168 166 165 164 163 162 161 160 237 186 184 183 173 171
المدية	181 179 178 176 173 169
المدينة المنورة	16 12
مسكيانة	50 44
المدائن	47
مدراسن / مدغاسن	50
مرسى الدجاج	173
مليانة	180 179 178 177 176 173 169 97 95 92 06
مليلي	58
مقرة	87 86 81 72 70 56 50
مكة المكرمة	202 92 33 12
المنصورية	166 91
المهدية	166 162 91 06
مجانة / قلعة بسر	233 168 122 81 56 45 44 43
ميناس / نهر	116
مزاق / بلاد	52
ميلة	216 214 168 167 157 156 152 149 147 144 81 78 69 47 46
مينة / نهر	130 119
المعسكر	107
مستغانم	226 128
منزه بنت السلطان	176 175

نكور	161 105 89 70
ميلورقة	200
النهرين / قرية	186
ميورقة	200
نهر النيجر	231
الغربية	225
نهر تلف	178 177
المرتاب	230
[illegible]	07
نفوسة	226 205
نفوسة / جبل	134 89
نفطة	81
نقاوس	167 86 85 84 81 78 69 50

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هـ

هاز	111 96 94 93
الهند	202 195
الهقار / اقليم	231
هيبون	211 209
هيطل	05 04

و

وانشريس	105
وادي الأبيض	57
واد تافنا	228
وادي انجاس	154
وادي سهر	164 159
وادي شلف	128 118 116
وادي الرمال	154
وادي سيبوس	211 209
وادي المالح	162
ورقلة / ورجلان	238 237 236 235 234 233 232 231 230 186 131
وليلي	104
ونقارة	233
وهران	227 226 225 224 223 105

ي

يثرب	13
اليمن	195
يلل	110

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس القبائل و الأمم و المذاهب

أ

آل البيت 103 113 149 151 154
بني أمية 89 114 115 236
الاباضية 71 114 116 118 119 121 134 135 136 138 139 140 162 232 233234
بني أسد بن خزيمة 157
الأندلسيون 211 218 220 221 223 224
ازداجة 224

ب

البرانس 93 169
البربر 40 48 51 60 63 65 66 67 68 73 80 85 86 89 91 93 97 102 104 105 116 120 128 129 131 136 138 145 146 147 151 157 169 170 176 178 180
برغواطة 201 221 231 232 233
بني برزال 70 89
البيزنطيين 161
البصريين 40 45 48 55 56 193 200 201 203 123

ت

بنو تميم 77 78 82

ج

جراوة 182 183 184

ح

بني حماد / الحماديين 174 178 182 183 184 185 187 188 189 190 193 194 195 208
بنو حمدون 159 162 173

خ

الخوارج 71 72 74 102 103 114 123 136 233

د

الأدارسة 69 103 236

ر

الرستميين 72 110 118 142 156 235 236

الروم 40 48 51 54 55 59 65 73 121 177 192 195 201 209 212 215 229

ز

زناتة 61 93 100 104 105 106 107 108 109 111 122 142 161 162 166 169 172
زنداج 174 180 230 236
الزيريين 162
زواغة 53 176 178
زواوة 100
193 93

س

سارسة 86
الاسماعيليين 93
بني سكتان 147 148 152

ش

الأشاعرة 138
الشيعة 53 84 87 92 105 109 144 145 150 153 157 160 167
شراة 94 111

ص

الصفرية 71 103 114
صنهاجة 61 62 93 96 97 105 106 108 109 119 169 170 171 172 173 174 176 177
بني صالح 179 180 182 185 188 197 236
89 70

ض

بني ضبة 86

ع

قوم عاد 187
العباسيين 70 74 89 92 114
العجم 125 127 138
عجيسة 160 162 182 192
العرب 40 41 45 46 47 50 51 52 55 57 61 73 74 77 82 84 85 85

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

العلويين 92 93 103 107 222 225 227

غ

الأغالبة 52 55 65 68 69 74 79 80 81 82 84 85 91 144 157 161 167 201 210 211 229 235 236
الغشمانيون 154

ف

الفاطميين 53 56 90 99 105 108 109 120 141 142 145 146 147 152 157 162 164 165 166 167 168 169 170 171 172 173 175 176 180 202 208
الفرنجة
الفندال 40 47
الفنيقيين 55
الأفارق 201
الفرس 65 73 123

ق

قريش 73 83
قيس 82

ك

كتامة 73 78 79 80 82 83 144 145 146 147 148 150 151 156 157 193 215 218 223
كدالة 169
بنو كملان 159 161 162
الكوفيين 123
كومية 226

ل

لماية 116 117 133
لمتونة 106 169
لواتة 116 117 127
لهيصة 154

م

المالكية 238
المدراريين 70 89
المرابطين 105 181 231 236
مزاتة 77 78 82 180 194 198
بني مزغنة 109 110

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بني مسالة 89 227
مغيلة 85
بني مسرة 111
مداسة 119
مدغرة 97 100
مسوفة 169
مكناسة 117 122
مديونة 97
مغراوة 176 234
بني مزاب 236
مطماطة 110
بني مسقن 224
ملوسة 154

ن

النصارى 40 60 200 211 212 215
نفزاوة 116 224
نفوسة 125 127 134 135 140
نكار 233

هـ

بني هلال 184 190 192 237
هوارة 109 110 117 122 127 129 159 162

و

الواصلية 134
وهبية 233 238
الأوس 109
بني واسول 89
ورفجومة بني 74
واركلا 232 230
بنو واريفن 98

ي

بنو يفرن 70 74 89 100 103 105 107 234
بنويزناتن 93 100

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر والمراجع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثبت المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم .

2 – شرح صحيح مسلم . للنووي ، محي الدين أبي زكريا بن شرف . تقريظ و تعريف وهبة الزحيلي ، ط 01 ، ج 09 و 10 ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2001 .

3 – ابن أبي دينار ، محمد بن أبي القاسم : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس . ط 03 ، دار المسيرة ، لبنان : 1993 .

4 – ابن أبي الربيع ، شهاب الدين أحمد . سلوك المالك في تدبير الممالك . تح عارف أحمد عبد الغني ، دار كنان دمشق ، 1996 .

5 – ابن الأحمر . تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان ، تح هاني سلامة ، مكتبة الثقافة الدينية ، بورسعيد مصر ، 2001 .

6 – ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد أبي عبد الكرم بن عبد الواحد الشيباني . الكامل في التاريخ . تح عمر عبد السلام تدمري ، ط 04 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2004 .

- اللباب في تهذيب الأنساب ، ج 01 ، د ط ، دار صادر بيروت ، 1980.

7 – ابن الأزرق الأندلسي ، أبو عبد الله محمد . بدائع السلك في طبائع الملك . تح محمد بن عبد الكريم ، ج 1 و 2 ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا / تونس .

8 – ابن أبي زرع ، علي بن عبد الله الفاسي . الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . ط 02 ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1990 .

9 – الأزدي ، جمال الدين أبو الحسن علي بن منصور ظافر بن حسين . أخبار الدول المنقطعة . تح عصام هزايمة و آخرون ، ط 01 ، دار الكندي للنشر والتوزيع ، الأردن ، 1999 .

10 – أبي الفدا . التبر المسبوك في تواريخ الملوك . تح محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 1995 .

11 – أبي الفضل الدمشقي ، جعفر بن علي. الإشارة إلى محاسن التجارة . تح البشرى الشوربجي ، ط 01 ، مطبعة الغد ، الإسكندرية ، 1977 .

12 – أحمد بن قاسم البوني . التعريف ببونة افريقية بلد سيدي أبي مروان الشريف ، تقديم وتعليق سعيد دحماني ، دار الهدى عين مليلة ، 2001 .

13 – إخوان الصفا وخلان الوفاء . رسائل . مج 01 ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983.

14 – البتي . أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البلانسي : تذكرة الألباب في أصول الأنساب . تح محمد مهدي الموسمي الخراساني ، مؤسسة المواهب ، بيروت ، 2001 .

15 – البلاذري ، أحمد بن يحي بن جابر. البلدان و فتوحها وأحكامها . تح سهيل زكار ، ط 01 ، دار الفكر ، بيروت ، 1992 .

16 – البرادي ، أبو القاسم بن إبراهيم . الجواهر المنتقاة . مكتبة مصطفى بن الناصر غرداية ، الجزائر .

17 – البرزلي . أبو القاسم بن أحمد البلوي . جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين و الحكام ، ج 02 ، تح محمد الحبيب الهيلة ، ط01 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2002 .

18 – التنسي ، أبو عبد الله . تاريخ دولة الأدارسة ، من كتاب نظم الدر والعقيان . تح عبد الحميد حاجيات ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 .

19 – الجزنائي . تاريخ مدينة فاس المعروف بزهرة الآس في بناء مدينة فاس : تح مديحة الشرقاوي ، ط 01 ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 2001 .

20 – الجهشياري ، أبو عبد الله محمد بن عبدوس . كُتاب الوُزراء والكُتاب . تح مصطفى السقا ، إبراهيم الأبياري ، عبد الحفيظ شلبي، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة :2004 .

21 – الجوذري ، أبوعلي منصور: سيرة الأستاذ جوذر. تح محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، دار الفكر العربي ، مصر.

22 – الجويني ، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله . غياث الأمم في التيّاث الظُلم (الغياثي). تح عبد العظيم الديب ، ط 02 ، مكتبة إمام الحرمين ، 1981 .

23 – الحازمي ، أبو بكر محمد بن أبي عثمان الهمذاني : عجالة المبتدئ و فضالة المنتهي في النسب ، عبد الله كنون ، دار الأفاق العربية ، القاهرة .

24 – الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . لكاتب مجهول ، صححه إبراهيم الفورني ، ط01 ، مطبعة التقدم التونسية ، تونس .

25 – ابن حماد ، أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجي . أخبار ملوك بني عبيد و سيرتهم . تح جلول أحمد البدوي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 .

26 – ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السلماني . تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط – القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام . تح أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني ، دار الكتب ، الدار البيضاء ، 1964 .

27 – خليفة بن خياط العصفري . تاريخ خليفة بن خياط . تح سهيل زكار، دار الفكر ، بيروت ، 1993 .

28 – الداودي ، أبو جعفر أحمد بن نصر : الأموال . تح محمد أحمد سراج ، علي جمعة محمد ، ط 01 ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، القاهرة ، 2001 .

29 – ابن الرامي ، محمد بن إبراهيم اللخمي : الإعلان بأحكام البنيان . تح عبد الرحمن بن صالح الأطرم ، ط 01 ، مركز الدراسات والإعلام ، دار اشبيليا ، الرياض ، 1995 .

30 – الراغب الأصفهاني ، أبو القاسم الحسين بن محمد . المفردات في غريب القرآن . تح محمد خليل عيتاني ، ط 01 ، دار المعرفة ، بيروت ، 1998 .

31- ابن الرقيق ، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم . تاريخ إفريقية والمغرب . تح عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى ، ط 01 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1990 .

32- السقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد الملقي الأندلسي . في آداب الحسبة ، تح ، ج س كولان وليفي بروفنصال .

33 - ابن الصغير المالكي . أخبار الأئمة الرستميين . تح محمد ناصر و إبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، 1986 .

34 - الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك . مج 02 ، ط 02 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 .

35 - عبد الرحمن بن خلدون . - كتاب العبر و ديوان المبتأو الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الفكر ، بيروت ، 2000 .

- المقدمة . دار الجيل ، بيروت .

36 - ابن عبد الحكم ، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشي المصري . فتوح مصر وأخبارها. تح محمد الحجيري، ط 01 ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، 1996.

37 - ابن عبد الرؤوف ، احمد بن عبد الله القرطبي . آداب الحسبة والمحتسب ، تح فاطمة الإدريسي ، ط01 ، دار ابن حزم بيروت ، 2005.

38 - عبد الواحد المراكشي . المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تح خليل عمران المنصور ، ط 01 ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1998 .

39 - ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . تح ج س كولان وإ ليفي بروفنصال ، ط 02 ، ج 1 ، 2 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1980 .

40 - أبو عبيد قاسم بن سلام : كتاب النسب ، تح مريم محمد خير الدرع ، دار الفكر ، 1989 .

41- الفارابي أبو نصر. المدينة الفاضلة. المؤسسة الوطكنية للفنون المطبعية ، الجزائر،1987 .

42 - أبي الفدا : التبر المسبوك في تواريخ الملوك . تح محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، 1995 .

43 - الفرسطائي ، أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر . القسمة وأصول الأراضين . تح محمد صالح ناصر وبكير بن محمد الشيخ بلحاج ، ط 01 ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، 1994 .

44 - القاضي النهمان ، أبو حنيفة بن محمد بن حيون التميمي (ت363هـ/974م) . رسالة افتتاح الدعوة . تح وداد القاضي ، ط 01 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1970 .

- المجالس والمسايرات . تح الحبيب الفقي ، إبراهيم شبوح ، محمد اليعلاوي ، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 1978 .

45- القلقشندي ، أبو العباس أحمد . صبح الأعشى في صناعة الإنشا. ج 05 ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، 1915 .

46 – ابن قتيبة الدينوري ، أبو محمد عبد الله بن مسلم . الإمامة والسياسة . تح طه محمد الزيني ، ج 02 ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

47 القرشي ، إدريس عماد الدين . تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب . تح محمد اليعلاوي ، ط 01 ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان : 1985 .

48 – الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي . تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق المَلِك و سياسة المُلك. تح محي هلال السرحان ، دار النهظة العربية ، بيروت ، 1981 .

– الأحكام السلطانية والولايات الدينية . تح سمير مصطفى رباب ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2001 .

49 – المرجي الثقفي . كتاب الحيطان أحكام الطرق و السطوح و الأبواب و مسيل المياه و الحيطان في الفقه الإسلامي . تح محمد خير رمضان يوسف ، ط 01 ، دار الفكر المعاصر، بيروت ، 1994 .

50 – مفاخر البربر. لكاتب مجهول ، تح محمد يعلى ، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، مدريد ، 1996 .

51 – المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي . إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا . تح جمال الدين الشيال ، ط 02 ، لجنة إحياء التراث الإسلامي ، القاهرة ، 1996 .

52 – الناصري ، السلاوي أبو العباس أحمد بن خالد . الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى . تح جعفر الناصر و محمد الناصري ، ج 01 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ن 1954 .

53 – النويري ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب : نهاية الأرب في فنون الأدب . ج 24 تح حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ن 1983 .

– ج 28 ، تح محمد محمد أمين ، طبعة ، 1992 .

54 – يحي بن آدم . كتاب الخراج ، مستخرج من كتاب . في التراث الاقتصادي الإسلامي . تقديم الفضل شلق ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، 1990.

المصنفات الجغرافية :

55 – الأصطخري ، بن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي . المسالك والممالك . تح محمد جابر عبد العال الحسيني ، دار القلم ، القاهرة ، 1961 .

56 – الإدريسي ، أبو عبيد الله محمد بن محمد بن عبد الله الحسني . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . ط 01 ، عالم الكتب ، بيروت ، 1989 .

57 – البكري ، أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد : المسالك والممالك . ط 1 ، تح جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 .

58 – الحميري ، محمد بن عبد المنعم . الروض المعطار في خبر الأقطار. تح إحسان عباس ، ط 02 ، مكتبة لبنان ، بيروت ، 1984 .

59 – ابن حوقل ، أبو القاسم النصيبي . صورة الأرض . ط 02 دار صادر ، بيروت ، 1938 .
60 – ابن عبد الحق البغدادي ، صفي الدين عبد المؤمن . مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع . ط 01 ، تح علي محمد البجاوي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، 1955 .
61 – ابن خرداذبة ، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله . المسالك والممالك . مكتبة المثنى ، بغداد .
62– الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر . كتاب الجعرافية وما ذكرته الحكماء فيها من العمارة وما في كل جزء من الغرائب والعجائب. تح محمد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
63 – ابن سعيد المغربي ، أبو الحسن علي بن موسى . كتاب الجغرافيا . ط 02 ، تح إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982 .
64 – عماد الدين صاحب حماة ، إسماعيل بن الملك الفضل نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب . تقويم البلدان ، تح رينود والبارون ماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ، 1840 .
65 – ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أحمد بن يحي . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، السفر الرابع ، اصدار فؤاد سيزكين ، معهد تاريخ العلوم العربية و الإسلامية ، استانبول ، 1988.
66 – القزويني ، زكرياء بن محمد بن محمود . آثار البلاد وأخبار العباد . دار بيروت للطباعة و النشر ، بيروت ، 1979 .
67 – كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب . لمجهول ، تح سعد زغلول عبد الحميد ، دار الشؤون الثقافية العامة الأعظمية ، بغداد .
68 – ليون الإفريقي ، الحسن بن محمد الوزان الفاسي. وصف إفريقيا. ط 02 ، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي ، لبنان ، 1983 .
69 – المقدسي ، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ط 01 ، تح محمد أمين الضاوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2003 .
70 – ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبي عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي . معجم البلدان . ط 02 ، دار الفكر ، بيروت ، 1995 .
– المشترك وضعا والمفترق صقعا . مكتب المثنى ، بغداد / دار الكتاب اللبناني .
71– اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح . البلدان . ط 01 ، تح محمد أمين ضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2002 .

كتب الطبقات و التراجم :

72 – أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني . طبقات علماء افريقية وتونس . تح علي الشابي و نعيم حسن اليافي ، ط 02 ، الدار التونسية للنشر ، تونس / المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 .

73 – ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي . جمهرة أنساب العرب . دار الكتب العلمية ، بيروت، 2001 .

74 – الدباغ ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري . معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان . تح عبد المجيد خيالي ، ط 01 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2005 .

75 – أبو زكرياء يحي بن أبي بكر. سير الأئمة وأخبارهم . تح اسماعيل العربي ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ، 1979 .

76 – الشماخي ، أحمد بن سعيد بن عبد الواحد . السير. تح أحمد بن سعود السيابي ، ط 02 ، وزارة التراث القومي والثقافي ، سلطنة عمان ،1992 .

77 – الشهرستاني ، أبي الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر. الملل والنحل ، ط 02 ، دار الفكر، بيروت ، 2002 .

78 – الضبي ، أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة . بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . تح روحية عبد الرحمن السويفي ، ط 01 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1997 .

79 – ابن عبد الحليم أبو علي صالح . كتاب الأنساب . تح محمد يعلى ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، مدريد ، 1996 .

80 – ابن فرحون ، إبراهيم بن نورالدين . الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب . تح مأمون بن محيي الدين الجنان ، ط01 ، دارالكتب العلمية ، بيروت ، 1996 .

81 – المالكي، أبو بكر عبد الله بن محمد . رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم . تح بشير البكوش ومحمد العروسي المطوي ، ج01 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983 .

82 – محمد بن محمد مخلوف . شجرة النور الزكية في طبقات المالكية .دار الفكر .

83 – ابن مريم ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد المليتي المديوني التلمساني . البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .

84 – أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي البغدادي . الملل والنحل ، تح ، ألبير نصري نادر، ط 03 ، دار المشرق ، بيروت ، 1992 .

85 – الوسياني أبي الربيع . سير مشائخ المغرب . تح إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1985 .

86– نجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي . القاموس المحيط . ضبط وتوثيق محمد البقاعي ، دار الفكر، بيروت ، 2005 .

87– ابن منظور. لسان العرب المحيط . دار الجيل ، بيروت ، 1988

المراجع :

88 - آزاد أحمد علي وآخرون : الفكر الاجتماعي الخلدوني المنهج والمفاهيم والأزمة المعرفية . ط 01 ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، 2004 .

89 - ميتز آدم . الحضارة الإسلامية في القرن 04هـ .ج 02 ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ، الدار التونسية للنشر ، تونس / المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 .

90 - احمد صفر. مدنية المغرب العربي في التاريخ . ج 01 ، دار النشر ، بوسلامة ، تونس ، 1959.

91 - احنانة يوسف . تطور المذهب الأشعري في المغرب الإسلامي . مطبعة اليديني ، الرباط ، 2003 .

92- إسماعيل العربي . - المدن المغربية . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر : 1984 .

- عواصم بني زيري ملوك أشير القلعة بجاية غرناطة المهدية . ط 01 ، دار الرائد العربي ، بيروت ، 1984 .

93 - إسماعيل محمود . فرق الشيعة بين التفكير والسياسي والنفي الديني. ط01 ، سينا للنشر ، القاهرة ، 1995 .

94- اغناطيوس يوليانوفتش كراتشوفسكي . تاريخ الأدب الجغرافي العربي . ج 01 ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية ، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، 1957 .

95 - ألفرد بل . الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . ترجمة عبد الرحمن بدوي ، ط 03 ، دار الغرب الإسلامي . 1987 .

96 - بحاز ابراهيم . الدولة الرستمية 160-196هـ/777 909م دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية . ط 01 ، 1985 .

97 - بشير مقيبس . مدينة وهران دراسة في جغرافية العمران . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر : 1983 .

98 - بن حمادي عمر وآخرون . الديموغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي . دار سراس للنشر تونس ، 1993 .

99 - بن عميرة محمد . دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، 1984 .

100 - بن قربة صالح . - المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 .

- المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1986 .

101 - بن وزو الهادي وآخرون . نظام المياه والتهيئة المائية بجنوب إفريقية في العصر الوسيط . مركز النشر الجامعي ، تونس ، 1999 .

102 - بن يوسف إبراهيم . إشكالية العمران والمشروع الإسلامي مطبعة أبو داود ، الجزائر ، 1992 .

103 - بوبة مجاني. دراسات إسماعيلية. مطبوعات جامعة منتوري قسنطينة ، الجزائر ، 2003 .

- أثر العربية اليمنية في تاريخ بلاد المغرب في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . منشورات جامعة منتوري ، 2003 .

104 - بوزياني الدراجي . القبائل الأمازيغية ، أدوارها - مواطنها - أعيانها . درا الكتاب العربي ، الجزائر، 2000 .

105 - بوطالب نجيب . سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي . ط01 ، مركز دراسات الوحدة المغربية ، بيروت ، 2002 .

106 - بولشاكوف، أو،غ وآخرون . المثاقفة بين العروبة والإسلام . ترجمة حسان إسحاق ، ط01 ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، 2000 .

107 - الجابري محمد عابد .- فكر ابن خلدون العصبية والدولة ، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي. ط 05 ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت : د ت .

- التراث والحداثة دراسات ومناقشات . ط 01 ، المركز الثقافي العربي بيروت ، 1991 .

- العقل الأخلاقي العربي . ط 01 ، دار النشر المغربية ، الدار البيضاء ،2001 .

108 - الجنحاني الحبيب . دراسات في التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للمغرب الإسلامي . ط 02 ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، 1986 .

109 - جميل عبد القادر أكبر. عمارة الأرض في الإسلام مقارنة الشريعة بأنظمة العمران الوضعية . ط 03 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 1998 .

110 - جواتيان . دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الإسلامية . ط 01 ، ترجمة عطية القوصي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، 1980 .

111 - جودت عبد الكريم يوسف . - الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10م) ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر : 1992 .

- العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984 .

112 - جورج مارسي . تلمسان . ترجمة سعيد دحماني ، دار النشر التل ، الجزائر ، 2004 .

106 -جوزيف نسيم يوسف . تاريخ الدولة البيزنطية 284 - 1453 . دار المعرفة الجامعية ، مصر : 1998 .

113 - جوليان شارل اندري . تاريخ إفريقيا الشمالية . ج 02 ، ترجمة محمد مزالي و البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر تونس ، 1983 .

114 - حسين مؤنس . فتح العرب للمغرب . د ط ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د س ط .

- تاريخ المسلمين في البحر المتوسط الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، 1993 .

115 - الدوري عبد العزيز . - مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي. ط 01 ، دار الطليعة بيروت ، 1982.

- التكوين التاريخي للأمة العربية دراسة في الهوية والوعي . ط 01 ، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ، 1984 .

- العصر العباسي الأول دراسة في التاريخ السياسي والإداري والمالي . ط02 ، دار الطليعة ، بيروت ، 1997 .

116 - رابح بونار . المغرب العربي تاريخه و ثقافته . ط 03 ، دار الهدى الجزائر ، 2000 .

117 - رشيد بورويبة. الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1977.

118 - رعد سعيد محمد : العمران في مقدمة ابن خلدون . ط 01 ، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر دمشق ، 1985 .

119 - الزواوي ، ابن محمد الريف ابو يعلى . تاريخ زواوة ، د ط ، مطبعة الفيحاء ، دمشق ، د س ط .

120 - ساطع الحصري . دراسات عن مقدمة ابن خلدون . دار المعارف مصر ، 1953 .

115 - سرجنت. ر. ب . المدينة الإسلامية . مقالات مختارة ، ترجمة ، أحمد محمد تعلب ، اليونسكو ، 1983 .

121- سعيد ناصف . المدينة الإسلامية دراسة في نشأة التحضر، مكتبة زهراء الشرق القاهرة ، 1999 .

122 - سليمان باشا الباروني . - الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية . ط 01 ، دار الحكمة ، لندن ، 2005 .

- مختصر تاريخ الإباضية . ط 03 ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع ، سلطنة عمان ، 2003 .

123 - السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي . تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس . ط ؟ دارالنهضة العربية ، بيروت ، 1969 .

124 - سهيل طقوش . تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية و مصر و بلاد الشام . ط 01 ، دار النفائس بيروت ،2001 .

125 - شاكر مصطفى . المدن في الإسلام حتى العصر العثماني. ط 02 ، مكتبة الأسد ، دمشق ، 1997.

126 - الطمار محمد عمرو . تلمسان عبر العصور دورها في سياسة وحضارة الجزائر . المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 .

127- عبد الله العروي . مجمل تاريخ المغرب . ط 02 ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، 2000 .

128- عبد الستار عثمان محمد . المدينة الإسلامية . سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، 1988 .

129- عبد القادر جغلول . الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي عند ابن خلدون . ترجمة فيصل عباس ، ط 03 ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت : 1982 .

130 - عبد العزيز فيلالي . المظاهر الكبرى في عصر الولاة ببلاد المغرب و الأندلس . د ط ، دار المعارف للطباعة و النشر سوسة ، تونس .

- تلمسان في العهد الزياني . ج 01 ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، 2002 .

131 - عبد العزيز فيلالي وإبراهيم بحاز . مدينة ميلة في العصر الوسيط دراسة سياسية ثقافية إدارية عمرانية . دار البلاد للاتصال والخدمات قسنطينة ، الجزائر .

133 - عبد العزيز فيلالي ولعروق محمد الهادي . مدينة قسنطينة دراسة التطور التاريخي و البيئة الطبيعية . دار البعث قسنطينة الجزائر ، 1984 .

134 - عبد الحليم عويس . دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري . ط 02 ، دار الصحوة للنشر والتوزيع القاهرة ، 1991 .

135 - عبد الجبار ناجي. دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية . ط 01 ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ،2001 .

136 - عبد الواحد ذنون طه وآخرون . تاريخ المغرب العربي . ط 01 ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2004 .

137 - عبد الواحد ذنون طه وآخرون . تاريخ المغرب العربي . ط 01 ، دار المدار الإسلامي ، بيروت ، 2004 .

138- علي يحي معمر . الإباضية دراسة مركزة في أصولهم و تاريخهم . المطبعة العربية ، غرداية، الجزائر .

139 - فتيحة النبراوي . الإستشراق . ط 01 ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، 2005 .

140 - فرحات الدشراوي . الخلافة الفاطمية بالمغرب 296-365هـ/ 909-975 م التاريخ السياسي و المؤسسات . ترجمة حمادي الساحلي ، ط 01 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1994 .

141- فرهاد دفتري . الإسماعيليون في العصر الوسيط تاريخهم وفكرهم . ترجمة سيف الدين القصير ، ط 01 ، دار المدى للثقافة و النشر ، دمشق ، 1999 .

142 - الفضل شلق . الأمة والدولة جدليات الجماعة و السلطة في المجال العربي الإسلامي . ط 01، دار المنتخب العربي للدراسات و النشر و التوزيع ، لبنان ، 1993 .

143 - قالتر هنتس . المكاييل و الأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة ، كامل العسلي ، ط 02، مكتبة الأسد ، دمشق . دت .

144 - لومبار موريس . الإسلام في مجده الأول من القرن 02 إلى القرن 05هـ (8-11م) .ترجمة إسماعيل العربي ، ط 03 ، منشورات دار الآفاق الجديدة المغرب ، 1990 .

145 - لويس ممفورد . المدينة على مر العصور أصلها و تطورها و مستقبلها . ج 01 ، مراجعة إبراهيم نصحي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1964 .

146 - ليفيتسكي تاديوس . المؤرخون الإباضيون في أفريقيا الشمالية . ط01 ، ترجمة ماهر جرار وريما جرا ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2000 .

147 - ليوبولد تورس بالباس . المدن الإسبانية الإسلامية . ترجمة ، إليو دورو دي لابنيا ، ط 01 ، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية ، الرياض ، 2003 .

148 - محمد الطالبي . الدولة الأغلبية التاريخ السياسي 184 296 هـ/ 800 909 م . ترجمة المنجي الصيادي ، ط 01 ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، 1985 .

149 - محمد المنوني : المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث . ج 01 ، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الدار البيضاء ، 1983 .

150- محمد ابراهيم الفيومي : الخوارج و المرجئة ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 2003 .

151 - محمد حسن : المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي . ج 01 و 02 ، جامعة تونس الأولى، تونس : 1999 .

- الجغرافيا التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجري (07- 15 م) . ط 01 ، دار الكتب الوطنية بنغازي ، ليبيا ، 2004 .

152 - محمد الصالح مرمول . السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي . ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1983 .

153 - محمد الصغير غانم : مقالات حول تراث منطقة بسكرة والنخوم الاوراسية . منشورات جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس ، مطبعة قرفي باتنة ، الجزائر :

154 - محمد شوقي إبراهيم مكي . المدخل إلى تخطيط المدن . دار المريخ للنشر ، الرياض ، 1986 .

155 - موسى لقبال .- دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى نتصف ق 5هـ.11م . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979 .

- عقبة بن نافع أساس نظام الفهريين وتأصيل مجتمع إسلامي جديد في المغرب العربي . دار هومة الجزائر ، 2002 .

- الحسبة المذهبية في بلاد المغرب الإسلامي نشأتها وتطورها . ط 01 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1971 .

156 - مبارك بن محمد الميلي . تاريخ الجزائر في القديم والحديث . ج 02 ، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ، 1963 .

157 - ناتاليا يفريموفا وتوفيق سلوم . معجم العلوم الاجتماعية مصطلحات وأعلام . ط 01 ، الشركة العالمية للتجارة والتسويق ، بيروت ، 1992 .

158 – هاشم العلوي القاسمي . مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري منتصف القرن العاشر الميلادي . ج 01 ، مطبعة فضالة المغرب ، 1995 .

159 – هشام جعيط . تأسيس الغرب الإسلامي ، القرن الأول والثاني الهجري السابع والثامن الميلادي . ط01 ، دار الطليعة بيروت ، 2004 .

– نشأة المدينة العربية الإسلامية الكوفة . ط 03 مزيدة ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ، 2005 .

160 – الهادي روجي إدريس . الدولة الصنهاجية تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م. ط 01 ، ترجمة حمادي الساحلي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1992.

161 – يحي مراد . معجم أسماء المستشرقين ، ط 01 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2004 .

المراجع الأجنبية :

162- Roger Le Tourneou , *Les Villes Musulman De L'Afrique Du Nord* ; La Maison Des Livres ; Alger , 1975.

163 - Christine mazzoli-guintard .*villes d al-andalus léspagne et le Portugal à l époque musulmane (8 em – 15 em siècle)* . Presses universitaires de rennes. 1996.

164 - Paul – louis cambuzat . *l évolution des cites du telle en efrikia du 7 em au 11 em siècle* , office des publcation universitaires . Alger , 1986 .

165 - Rachid Bourouiba . *L'Architecture Militaire De L'Algerie Médiévale*.office des publication universitaires l'Algerie , 1983 .

166 - Rachid Bourouiba , *L'Art Religieux Musulman En Algerie*.société nationalz D'Edition et de diffusion , Alger , 1983 .

167 - Brahim zerouki : *l'imamat de tahart premier état musulman du Maghreb 144 296 de lhegire . tom1. : Histoire Politico- Socio-religieuse*.C.N.R.S, Paris.

168 Charles Féraud , *La Calle , histoire des villes de la province de constantine* , Alger , 1877

169 - Lucien-Golvin : *Le Magrib Central A L' epoque Des Zirides / Recherche D'Archéologie Et D'histoire*. Arts Et Metiers Graphiques. Paris. 1957.

170 - Général L. De Beylié : *La Kalaa Des Beni-Hammad , une capitale berbère de L'Afrique Du Nord Au 10e siècle* , paris , 1909.

الدوريات :

- بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول . المجلد 05 ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، المملكة العربية السعودية ، 1984 .
- مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية. العدد الثامن ، 1997 .
- حوليات جامعة الجزائر ، 1991 1992 ،
- بحوث الأول المؤتمر الجغرافي الإسلامي.
- مجلة الأصالة العدد60 . 61 . أوت سبتمبر 1978
- مجلة الأصالة . العدد 26 ، السنة الرابعة 1975
- مجلة التاريخ . المركز الوطني للدراسات التاريخية ، النصف الثاني من سنة 1982 ، الجزائر ، 1982 .
- مجلة الأصالة . العدد 45 ، ماي 1975
- مجلة الأصالة ، العدد 46 - 47 السنة الخامسة جوان جويلية 1977 .
- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية ، العدد السابع . شوال 1427/نوفمبر2006 .
- مجلة الأصالة . عدد 19 ، السنة 04 . 1974 أفريل .
- مجلة الأصالة ، العدد 34- 35 . يونيو يوليو 1976
- مجلة التسامح . العدد 11 ، السنة الثالثة . وزارة الأوقاف و الشؤون الدينية . سلطنة عمان . مسقط .
- مجلة التسامح ، العدد الثامن ، السنة الثانية ، خريف 2004 .
- مجلة التسامح ، العدد الرابع ، السنة 2004 .
- مجلة دراسات تاريخية ، العدد 05 . يوليو ، 1981 ،
- مجلة التاريخ العربي . الرباط ،العدد 25
- مجلة آفاق الثقافة و التراث ، الإمارات العربية المتحدة ، العدد 56 ، 2007 .

- Bullutin détudes orientales tome x4v anneé 1992 damas.
- Recueil Des Notices et mémoires de la société archéologique historique & géographique du département de Constantine. 1e volume de la troisième série année 1926 .Constantine . 1927
- Société Archéologique Du Département De Constantine . 4e Volume De La 3e Série , 1888
- société Archiologique De Departement De Constantine , 2e Volume De La 4e Série , 1899
- Reveu Africaine . 1946
- Societe et archeologique Du Département De Constantine , 5e volume de la 2e serie, 1871- 1872
- revue d'alger numéro 10 . tome 2 .alger 1945
- Encyclopédie de l'islam nouvelle édition tome 01 a-b
- ruvue des lettres et sciences humaine.

الرسائل الجامعية :

-بن النية رضا : صنهاجة المغرب الأوسط من الفتح الإسلامي حتى عودة الفاطميين إلى مصر (80هـ-699م / 362 هـ- 973 م) دراسة اجتماعية ، رسالة ماجستير بكلية العلوم الاجتماعية قسم التاريخ بجامعة قسنطينة ، السنة 2005 / 2006 . لم تطبع .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المحتويات

مقدمة

الفصل الأول : 02

أولا :

المغرب الأوسط : المجال والمفهوم : 02

تحديد الجغرافيين لبلاد المغرب الأوسط : 04

تحديد ابن خلدون 08

ثانيا : المدينة بالمغرب الأوسط :

المفاهيم والنشأة :

المفاهيم العربية للمدينة 10

التعريف اللغوي 10

مفهوم ابن خلدون للمدينة 17

شروط اختطاط المدن : 20

ابن الرامي وأحكام صنعته 23

الفرسطائي وفقه العمارة الإسلامية 26

مفهوم الجغرافيين للمدينة : 29

الحسبة وأبعادها بالمدن : 31

المستشرقون والمدينة الإسلامية 33

الفصل الثاني أولا : – المدن بالمغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي:

المدينة – الحصن: 42

1 – مجانة (قلعة – بسر) 46

2 – ميلة 49

3 – باغاي 50

4 – تيجيس 54

5 – أذنة : قاعدة الزاب 55

6 – بادس – تمودة واستشهاد عقبة بن نافع 60

ثانيا : المدينة والحكم :

مدن المغرب الأوسط بعد القرن الأول : 66

1 – مدينة طبنة 72

أ – المدينة بعد الفتح الإسلامي 72
ب – أبعاد المدينة 74
ج – أبواب المدينة وتحصيناتها 75
د – الوضع الاقتصادي لمدينة لطبنة 77
ه – تراجع دور المدينة 78
2 – بلزمة : 79
أ – بلزمة بعد الفتح الإسلامي : 80
ب – علاقة المدينة بالقيروان : 82
ج – دور الأغالبة والفاطميين في إضعاف المدينة 86
3 – دار ملول: 87
4 – نقاوس : 88
– دورها الاقتصادي : 89
5 – مقرة
الفصل الثالث : مدن الإمارات العلوية والإباضية
أولا : المدينة الإمارة : 92
أ : مدن الإمارات العلوية : 95
1 – مدينة – إمارة هاز : 96
2 – مدينة – إمارة ابن كرام : 97
3 – إمارة متيجة والمدينة : 98
4 – مدينة – إمارة سوق حمزة : 99
5 – مدينة – إمارة الخضراء : 100
6 – مدينة – إمارة سوق إبراهيم : 101
7 – مدينة – إمارة ابن ماما : 102
8 – مدينة – إمارة جراوة أبي العيش : 102
9 مدينة – إمارة تلمسان :
أ– إسم المدينة : 104
ب – المدينة بعد الفتح : 104
ج – الخوارج والأدارسة بتلمسان وبداية التأسيس : 105
د – تاقرارت 108
ه – سور المدينة : 109

10 – مدينة – إمارة العلويين: 109
11 – مدينة – إمارة افكان : 110
ب : مدن الإمارات الإباضية :
1 – قلعة هوارة (تاسقدالت): 112
2 – مدينة – إمارة أيزرج : 113
3 – مدينة – إمارة بني دمر : 114
4 – مدينة – إمارة أوزكى : مقر إمارة بني مسرة 114
ثانيا : المدينة الحاضرة :
مدينة تيهرت الرستمية نموذج : 117
أ – ظروف تأسيس المدينة : 117
ب – منشآت تيهرت ومرافقها : 123
ج – التحصينات 129
– قلعة مغيلة دلول : 131
– مستغانم 131
– تامزغان 132
– مدينة العباسية : 132
د – مصادر مياه مدينة تيهرت : 133
هـ – الوضع الاجتماعي والثقافي : 134
و – الحياة العلمية بتيهرت : 136
ز– مسجد المدينة ودوره العلمي : 139
ح – أسواق تيهرت : 140
ط – الحسبة بتيهرت : 143
ي – نكبة المدينة : 144
الفصل الرابع : دور الدعوة و القبيلة في تمدين المغرب الأوسط
أولا : المدينة الدعوة:
المذهب الاسماعيلي ببلاد المغرب : 147
إيكجان وتازروت بين مدينة الدعوة ودار الهجرة : حتى عام 296 هـ 149
1 – المدينة الدعوة بإيكجان : 149
2 – تازروت دار الهجرة : 156
3 – سطيف : 160
4 – المسيلة:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ - التأسيس: 161
ب – الدور العسكري للمسيلة : 164
ج – الدور التجاري للمدينة : 167
5 - قسنطينة : 170
ثانيا :
قبيلة صنهاجة وتمدين المغرب الأوسط
1 - أصول صنهاجة : 172
المدن الصنهاجية : 173
1 – مدينة أشير
أ – التأسيس : 173
ب- تعمير المدينة : 174
ج - أهميته موقع أشير وأبعادها : 176
د - بقايا أشير : 178
1 – مترة بنت السلطان :
2 – يشير :
3 – بنية :
2 - دور بلكين بن زيري في تعمير وبناء المغرب الأوسط : 179
أ – مليانة : 180
ب – المدية : 181
ج – جزائر بني مزغنة : 182
3 – القلعة (قلعة بني حماد) :
ا- التأسيس : 185
ب - اختيار موقع البناء : 186
ج- تعمير المدينة : 187
د - أبعاد المدينة : 189
هـ – مسجد المدينة : 190
و - قصور القلعة : 191
1 - قصر دار البحر :
2 - قصر المنار:
3 - قصر السلام :
4 – قصر الكوكب :

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ي- نظام المياه بالقلعة : 194
4 - بجاية : 195
أ - أهمية الموقع : 197
ب - أبعاد المدينة : 198
ج- العمران والسكان . 199
الفصل الخامس
مدن المغرب الأوسط الساحلية والصحراوية .
أولا : مدن الساحل : 203
ساحل المغرب الأوسط بعد الفتح الإسلامي 203
أولا : الأربطة : 206
ثانيا : المدن والمراسي :
1 - مرسى الخرز : 209
نشاط المدينة : 210
2 - بونة :
- موقع المدينة: 212
- المدينة عند الجغرافيين العرب : 212
- اقتصاد المدينة : 214
3 - مرسى تكوش : 215
4 - مرسى الروم : 216
5 - سكيكدة 216
6 - مرسى استورة : 217
7 - مرسى القل : 217
8 - مرسى الزيتونة : 218
9 - مرسى جيجل : 219
أدوار المرسى :
10- مرسى دلس : 220
11- مرسى الدجاج : 220
12 - تامدفوس 221
13 - مرسى شرشال : 221
14 - برشك 222
15 - تنس

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أ – تاسيس المدينة : 223
ب – سكان المدينة مكانتها ودورها : 225
ج – مكانة تنس ودورها : 225
16 – وهران
أ – تأسيس المدينة : 226
ب – دورها 227
17 – أرزاو 228
18 – مرسى هنين : 229
19 – أسلن 229
20 – أرشقول 230
ثانيا :
مدن الصحراء : القصور والواحات :
ورقلة نموذج : 233
1 – ورقلة : القصر والبلد : 235
2 – أبعاد المدينة ودورها : 236
3 – المسالك التجارية لورقلة :
أ – طريق الشرق : 239
ب– طريق الشمال : 239
ج – طريق الجنوب: 240
الخاتمة 243
الملاحق 246
فهارس الأعلام والأماكن والشعوب والقبائل 255
ثبت المصادر والمراجع 274
فهرس الموضوعات 288 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية